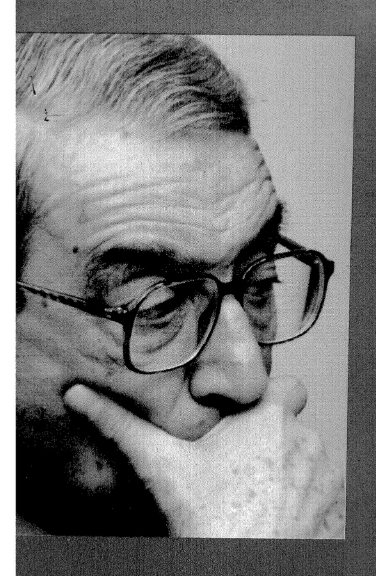
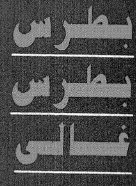




طريق مصر إلى القدس

قصة الصراع من أجل السلام فى الشرق الأوسط

بطرس
بطرس
غالى

طريق مصر إلى القدس

- قصة الصراع
من أجل السلام
فى الشرق الأوسط

EGYPT'S ROAD TO JERUSALEM : A Diplomat's Story of the Struggle for Peace in the Middle East

This translation published by arrangement with Random House, Inc.

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ ـ فاكس : ٥٧٨٦٨٣٣

إلى ذكرى جدى

بطرس غالى باشا

الذى ألهمنى إخلاصه لمصر أن
اتبع الطريق دون الالتفات للوراء

تنويه وتقدير

تم إيداع النسخة الأصلية من منكراتى اليومية التى تزيد على ألف صفحة مكتوبة بخط اليد باللغة العربية ، والتى استمد منها هذا الكتاب ، لدى مؤسسة هوفر بجامعة ستانفورد ، حيث يمكن لأى شخص أن يفحصها بعد عشر سنوات .

وأود أن أتقدم بالشكر إلى جون ريزيان مدير مؤسسة هوفر ، وإلى تشارلز بام نائب المدير ، لما قدماه لى من مساعدة قيمة . كما أتقدم بالشكر إلى إدوارد جايكو نائب رئيس أمناء المجموعة المتعلقة بإفريقيا والشرق الأوسط ، وإلى أمل دلاتى إخصائية المكتبات للترجمة الدقيقة التى قاما بها ، وإلى روماين بونلثنر محررة النص على ما قامت به من جهد بارز .

المحتويات

مقـــدمـة

دأبت منذ الصبا على تسجيل أحداث حياتى اليومية بانتظام وعلى نحو أصبح يتم عفويا فى واقع الأمر . ومن الغريب أنى عندما تحولت حياتى الهادئة ، كأستاذ جامعى ، فجأة إلى حياة وزير للدولة ، بكل ما يتطلبه ذلك من اجتماعات مسائية ومناسبات اجتماعية ترتبط بالحياة الرسمية ، استمررت فى تدوين أحداث اليوم والتفكير فيها . فقد وجدت أن تلك وسيلة تمكننى من أن أفرز وأرتب وأفهم ما مرّ بى ، استعدادا لليوم التالى . وبذلك أصبحت هذه العملية فى ذاتها عملا لابد منه لإراحة بالى وللاسترخاء .

وهذا الكتاب مبنى مباشرة على تلك التسجيلات اليومية ، يصف الأحداث منذ أواخر سنة ١٩٧٨ إلى أواخر ١٩٨١ ، وهى السنوات الحافلة التى شهدت المفاوضات الرامية إلى إقرار حقوق الفلسطينيين وإرساء السلام فى الشرق الأوسط .

وكل من حاول أن يكتب عن الماضى يعرف أنه لابد من اتخاذ قرارات جوهرية بشأن أسلوب ما يكتبه وهيكله وفلسفته . فالأحداث المهمة نادرا ما تقع كما لو كانت قصة مترابطة

متتابعة المشاهد ، فهى تقع فى لحظات مبعثرة عبر الزمن ، ولا يدرك المرء أهميتها ومغزاها إلا بعد أن تكون قد مضت . ومن ناحية أخرى ، فعندما تتجمع الجوانب المختلفة لمسألة معينة ، يظهر قدر من الترابط أكبر بكثير مما كان موجودا فى الواقع . فالأفكار والأفعال التى وقعت بطريقة عشوائية ومتباعدة تظهر فى تتابع زمنى مترابط ومتدفق . وهكذا نجد أن الواقع كما حدث فى الحقيقة يتعذر فهمه ، لأنه عند إعادة روايته كثيرا ما تتغير صورته ويتعرض للتشويه . وعلى الكاتب أن يجد نقطة للتوازن فى مكان ما بين الواقع وصورته .

ويقوم المؤرخون ، بعد سنوات من حدوث الواقعة ، برصد ما قام به كل من المشاركين فيها ، ويصدرون أحكاما على الحدث فى صورته الكاملة المركبة . والسجل الذى دونته فى هذا الكتاب يروى حكاية هى أضيق نطاقا وأكثر أمانة فى نفس الوقت . فالحياة ، كما نحياها فى الواقع ، لابد أن تجرى على أساس معلومات جزئية . وقد حرصت على أن أحافظ فى هذه الصفحات على ذلك الواقع . وبالتالى فهذا الكتاب لا يروى القصة كاملة ، ولكنه يعرض بغير شك صورة الدبلوماسى المصرى فى ذلك الوقت واضطرارى لأن أتصرف معتمدا على ما كنت أعرفه فى وقت اتخاذ القرار .

وتسليما بذلك ، فإن هذا الكتاب مأخوذ مما سجلته فى وقت وقوع الأحداث التى يتناولها . ولذا فالقصة الواردة هنا لا تمضى إلى أبعد مما عرفته أو اعتقدته فى ذلك الوقت . وعندما تكشف هذه الصفحات أنى كنت مخطئا بصدد إحدى الحقائق فى ذلك الحين ، فقد آثرت أن يبقى ذلك الخطأ أو نقص المعرفة ، كما هو فى النص . وقد اتبعت هذه القاعدة حتى عندما يتعلق الأمر بأحداث أو أفكار أعرف الآن ، بعد مرور الزمن ، أن قرارى أو انفعالى بشأنها فى وقتها كان بغير مبرر أو أساس . غير أنى ، للمزيد من تعريف القارىء بالوقائع وزيادة اهتمامه بها ، أضفت بعض التعليقات عن مصائر شخصيات ومشاريع معينة فى السنوات التى تلت الإطار الزمنى المحدد لهذا الكتاب وهو ١٩٧٩ – ١٩٨١ . ولن يجد القارىء صعوبة فى معرفة المواضع التى تظهر فيها تلك الأفكار والتعليقات التالية للأحداث .

وغرضى من هذا الكتاب هو عرض سجل أشبه بيوميات للدبلوماسية المصرية ، فى صورة حكاية دبلوماسى مصرى ، وتصوير لمبادرة مصرية كانت بداية لعملية بالغة الأهمية للسلام والأمن الدوليين .

بطرس بطرس غالى

الفصل الأول

الطريق إلى القدس

السادات يختارنى

يوم الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ١٩٧٧ ، بدأ كأى يوم عادى فى حياتى الجامعية . فى الصباح الباكر ذهبت إلى مقر كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، وهى الكلية التى شاركت فى تأسيسها فى سنة ١٩٦٠ . وكنت فخورا بالكلية ومزهوا بعملى فيها .

بعد فترة قصيرة توجهت إلى مبنى « الأهرام » فى شارع الجلاء ، إلى مكتبى فى « مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية » الذى كنت أتولى إدارته . وشرعت فى وضع اللمسات الأخيرة على عدد يناير ١٩٧٨ من المجلة الفصلية « *السياسة الدولية* » الذى كان قد تأخر بالفعل عن موعد إرساله للمطبعة .

فى عصر ذلك اليوم زرت معرضا للوحات الزيتية أقامته فنانة أمريكية فى المكتبة الأمريكية بجاردن سيتى . وكان ابن شقيقى قد ألح علىّ بقوة فى أن أفعل ذلك ، إذ أن الفنانة هى زوجة الأستاذ المشرف على رسالته للدكتوراه فى الاقتصاد بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا . وبعد ذلك توجهت إلى مطار القاهرة الدولى لمقابلة زوجتى التى كانت عائدة من إيطاليا .

عندما دخلت مبنى المطار لمحتنى من بعيد هدايت عبد النبى الصحفية بالأهرام ، فركضت نحوى منفعلة وهى تقول :

– إن رئاسة الجمهورية كانت تبحث عنك فى كل مكان . أين كنت ؟ ألف مبروك يا دكتور على الوزارة !

وبمجرد أن وصلت زوجتى ، ليا ، ورأت التعبير الذى علا وجهى ، سألتنى ماذا حدث لى . أجبتها أنى مهدد بمصيبة يمكن أن تقلب حياتها وحياتى رأسا على عقب .

وفى طريقنا للعودة إلى منزلنا فى الجيزة أخبرت زوجتى بأنى سأعتذر عن قبول منصب الوزارة . ولم أشعر بأى تردد فى اتخاذ قرارى ، فقد كانت حياتى مرتبة بشكل يرضينى للغاية ، إذ أقوم بعمل أكاديمى جاد ، وأسافر كثيرا لحضور اجتماعات الجمعيات الدولية المهنية فى أماكن مريحة . وكنت عضوا فى المكتب السياسى للاتحاد الاشتراكى العربى الذى له فروع فى كل أنحاء البلد . وكان الاستقرار والاحترام والتنوع ، متوافرة كلها بشكل متوازن فى حياتى . وقررت أن أتوجه على الفور إلى رئاسة مجلس الوزراء لإنهاء الموضوع وشرح أسبابى فى الرفض لرئيس الوزراء .

دخلت المبنى القائم فى قصر الدوبارة ، الذى كان من قبل قصر الأميرة شويكار أولى زوجات الملك فؤاد والمسئولة عن التنظيم البديع لحفلات الملك فاروق . وكانت الأميرة صديقة حميمة لأمى التى كانت مخلصة فى ولائها للأسرة المالكة . وقد سبق لى فى صباى أن سعدت بحضور حفلات فى ذلك القصر على شرف الملك فاروق . كان المصورون والصحفيون يحيطون بى ويهنئوننى ويوجهون لى أسئلة لا أعرف الإجابة عنها .

كانت الساعة الحادية عشرة مساء عندما استقبلنى ممدوح سالم رئيس الوزراء . لم نكن قد التقينا من قبل . وممدوح سالم رجل طويل القامة ذو شخصية مؤثرة ، معروف بالأمانة وضبط النفس وقلة الكلام واختيار الكلمات بعناية – وهى مجموعة صفات يندر اجتماعها فى العالم العربى . وقبل كل شىء فهو رجل أمن ، رجل شرطة .

تكلم ممدوح سالم فقال :

– قرر رئيس الجمهورية تعيينك فى الوزارة الجديدة التى طلب منى تشكيلها .

وظهرت مشاعرى الحقيقية عندما أبديت له العقبات العديدة التى تحول دون هذا التعيين . قلت :

– كيف يمكن أن أقبل مثل هذا المنصب ؟ إن جميع القوانين الاشتراكية قد طبقت

علىّ ، من قانون الإصلاح الزراعى الأول فى ١٩٥٢ حتى قانون الإصلاح الزراعى الثالث .

وأجابنى ممدوح سالم :

- نحن نعرف ذلك .

وقلت :

- إن ثروة زوجتى وضعت تحت الحراسة ، والحارس الحكومى يدفع لها مرتبا شهريا ضئيلا . وقد تعرض أفراد عائلتى لمعاملة مماثلة . وعلى ذلك نحن لا نتمتع بسمعة سياسية طيبة لدى من قاموا بالثورة .

وأجاب ممدوح سالم :

- نحن نعرف ذلك .

وكانت ثورة ١٩٥٢ قد طبقت الاشتراكية . وكانت ممتلكات أسرتى ، وهى ممتلكات كبيرة ، تعنى أننا نعتبر « إقطاعيين » . وفرض علينا جميعا التأميم ، الذى كان نوعا من المصادرة . وكنت قد فقدت ٩٠ فى المائة مما ورثته من أبى ، كما فقدت حقوقى السياسية فى البداية ، لكنى أعفيت من ذلك فيما بعد بوصفى أستاذا فى جامعة القاهرة ، إذ كان لا يزال هناك قدر من الاحترام للإنجاز الفكرى ، وكانوا ينظرون إلىّ على أنى يمكن أن أكون عونا للنظام . وبسبب هذا الإعفاء بقيت فى مصر ، ولكن أخوىّ اضطرا إلى مغادرة البلد حتى يكون لهما أمل فى مستقبل عملى ناجح .

كان الوقت قد اقترب من منتصف الليل . ولم أكن أعرف أن ممدوح سالم ظل يعمل منذ اثنتى عشرة ساعة . وقلت له :

- إن قوانينكم جعلتنى عدوا للشعب . وليس من مصلحة مصر أن تعرض علىّ هذا المنصب .

فقال :

- نحن نعرف ذلك .

وأكدت قولى :

- إنى عضو فى لجنة الخبراء فى منظمة العمل الدولية ، وهى أشبه بمحكمة دولية ،

فهى مسئولة عن تقييم مدى التزام مختلف الدول باتفاقات العمل الدولية . كما إنى عضو فى لجنة الحقوقيين الدوليين التى ترصد ممارسات الدول فى مجال حقوق الإنسان . وإذا قبلت منصبا وزاريا فسيكون علىّ أن أستقيل من هاتين الهيئتين الدوليتين ، لأنه لا يجوز أن أكون خصما وحكما فى نفس الوقت ، ورغم أنى شخصيا معتز بعضويتى فى هاتين المنظمتين ، فالمهم أن مصر ممثلة فيهما وألا يفقد بلدنا عضويته فيهما . ثم إن ذلك ليس كل شيء .

ومضيت فشرحت بإفاضة مدى اهتمامى بعملى الأكاديمى .

كان ممدوح سالم يستمع فى صبر على الرغم من تأخر الوقت . وقال :

– تستطيع أن تحتفظ بتلك المناصب إلى جانب منصبك الجديد .

وفجأة انتبهت إلى أنى لا أعرف المنصب الوزارى المعروض علىّ . ولذا سألت بشيء من الارتباك :

– ما هى الوزارة التى تفكر فى إسنادها إلىّ ؟

انزعج ممدوح سالم وسألنى :

– ألا تعرف ؟

قلت : إن الجميع لم يقولوا غير عبارة « مبروك ، لقد أصبحت وزيرا » .

ضحك ممدوح سالم وقال :

– عينت وزيرا للدولة . ستعمل معى هنا فى رئاسة مجلس الوزراء .

لم أفهم ماذا يعنى ذلك ، فشرح بقوله :

– بوجه عام ستساعدنى فى إعداد اجتماعات مجلس الوزراء . وخلال الأيام القليلة المقبلة نستطيع أن نناقش الواجبات الأخرى التى سيعهد بها إليك .

شعرت بأن الخيّة تضيق . فرئيس مجلس الوزراء ، بكرمه واستجابته لكل ما أثرته من عقبات ، كان يغلق باب الإفلات . وأبديت اعتذارى مرة أخرى ، وقلت إنى أود أن أبلغ الرئيس السادات كل شكرى وتقديرى للشرف العظيم والبادرة الكريمة ، ولكنى أستطيع أن أخدم مصر خارج المجلس بأفضل مما أخدمها داخله .

كان صبر ممدوح سالم قد بدأ ينفد ، ولكنه قال بهدوئه المعهود :

– دكتور بطرس ، أنت تضيع الوقت ، والساعة قد تأخرت . ورئيس الجمهورية قد أصدر مرسوم تشكيل الوزارة بالفعل .

ووجدتني أقاطعه :

– ألا تستطيع أن تحدث الرئيس وتشرح له الظروف الخاصة التي تلزمني بالاعتذار ؟ ألا تستطيع أن تبلغه أني على أتم استعداد لخدمة الوطن والحكومة والحزب بدون حاجة إلى منصب وزاري ؟

أجابني ممدوح سالم :

– الوقت قد تأخر يا دكتور . ويجب أن تستعد فكريا للمنصب الجديد . والمرسوم الجمهوري بتشكيل الوزارة ، وأنت عضو فيها ، أذيع بالفعل من الإذاعة والتليفزيون ، وسينشر في صحف صباح الغد . وليس أمامك اختيار .

وأنهى المناقشة بقوله : أريد أن أراك مبكرا صباح غد في قصر عابدين حيث تدلي باليمين الدستورية . لقد مارست العمل الأكاديمي ثلاثين سنة قضيتها مع النظريات وبعيدا عن الواقع . وآن الأوان لتدخل المجال العملي وتشرع في حياة عامة في خدمة مصر . وخلال أجيال متعاقبة كان لأسرتك تراث غني في خدمة الوطن ، وعليك الآن أن تؤدي نصيبك في الخدمة الوطنية .

والواقع أن جدي كان رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية عندما كانت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وكان عمي وزيرا للخارجية في الفترة بين الحربين العالميتين . وشغل أحد أعمامي الآخرين منصبا مماثلا من سنة ١٩١٤ إلى ١٩٢٢ في وقت الحماية البريطانية . وكان بعض أبناء عمومتي وزراء وأعضاء في البرلمان وفي السلك السياسي ، لكن ذلك كله كان قبل الثورة ، حين كانت تلك المناصب يغلب أن يكون شاغلوها من أفراد « المائتي عائلة » .

وكان أبي يدفعني دائما للدخول إلى مجال العمل الدبلوماسي . وعندما عدت من فرنسا بعد حصولي على الدكتوراه سخر من عزمي على التفرغ للبحث والتدريس . ثم جاءت الثورة فغيرت المسرح الاجتماعي ، ولم تعد الأسر الشبيهة بأسرتي تتعلق بمثل هذه الطموحات .

لماذا اختارنى الرئيس السادات ؟ لم أكن أعرف . كنت قد التقيت به فى بداية الثورة ، عندما كان واحدا من أعضاء المجموعة الداخلية لمجلس الثورة . وجمعتنا المنصة معا فى برنامج للاحتفال بيوم الأمم المتحدة فى أكتوبر ١٩٥٤ . قال لى السادات : « أنا لا أعرف شيئا عن الأمم المتحدة » . وقرأ الأسئلة التى كان المتوقع منا أن نناقشها وألقى بها جانبا وهو يقول إنه لن يجلس للامتحان كتلاميذ المدارس . لكن عندما بدأ البرنامج أجاب السادات عن الأسئلة باطلاع واسع وبعمق . كان الرئيس السادات شديد الذكاء ، ولكنه غالبا يريد أن يخفى دهاءه وحدة ذهنه . كان يقرأ كثيرا على الرغم من شهرته بأنه لا يجد أبدا وقتا للقراءة . وكنت على امتداد السنوات قد نشرت فى الصحف اليومية والمجلات المتخصصة كثيرا من المقالات عن القضايا الكبرى فى السياسة الخارجية المصرية . ولم يكن لى غير اتصال محدود بالرئيس السادات ، ولكنى كنت أعرف أنه قد قرأ مقالاتى . وتساءلت عما إذا كان الرئيس قد اختارنى لهذا المنصب تمهيدا لتعيينى وزير دولة للشئون الخارجية ؟ وكانت رغبة والدى وإلحاحه ، وكذلك معرفتى بالتراث الطويل لأسرتى ، قد أعدانى ذهنيا لذلك ، على الرغم من المسار المختلف الذى اتخذه عملى .

عدت إلى بيتى حانقا على نفسى . وزاد سخطى عندما وجدت أصدقاء فى انتظارى ويسألوننى عما إذا كنت قد استجبت لإغراءات السلطة . وأجبت بأنى حاولت الاعتذار ولكنى لم أنجح . وكان ردهم : « هذا ما يقولونه جميعا » .

وأزعجنى أن يوجه إلىّ اللوم بسبب التخلى عن العمل الفكرى والشئون الدولية ، والبحث ، والدراسات والمؤتمرات ، وعن طلبتى وزملائى ، وكل ذلك من أجل منصب لا أعرف الغرض منه .

وعرفت من الصحف أن الوزارة الجديدة ستضم ما يقرب من ثلاثين وزيرا لكل منهم وزارة محددة ، وثلاثة وزراء دولة بلا حقيبة ، وهم أنا واثنان آخران .

فى يوم الأربعاء ٢٦ أكتوبر ١٩٧٧ توجهت إلى قصر عابدين لأداء اليمين . كان قصر عابدين هو المقر الملكى للملك فؤاد والملك فاروق . وكانت قاعاته الواسعة تلمع بالديكورات المذهبة . ووجدتنى أصافح عددا كبيرا من الأشخاص الذين لا أعرفهم واحتميت بزميلىّ الجديدين ، الدكتور نعيم أبو طالب الأستاذ بكلية الهندسة جامعة الاسكندرية ، والدكتور على السلمى الأستاذ المساعد بكلية التجارة جامعة القاهرة .

قال الدكتور السلمى إنه سيكون مسئولا عن إعادة هيكلة الإدارة المصرية ، وقال

الدكتور نعيم إنه مسئول عن معالجة الجانب الفنى لشتى المشاكل . كان هناك شيء واحد واضح : إن اختصاصاتنا كوزراء بلا حقيبة غير واضحة .

ووجدت بين أعضاء الوزارة عددا من الأصدقاء والزملاء الآخرين : حامد السايح وهو رجل اقتصاد لامع ، وإبراهيم بدران أشهر جراحى مصر ، وعبد المنعم الصاوى الصحفى والكاتب واسع النفوذ . وساعدنى وجودهم على التغلب على الشعور بالعزلة الذى داهمنى عندما دخلت القاعة الفسيحة .

وزعت علينا بطاقات صغيرة طبع عليها اليمين الدستورية التى علينا أن نتلوها : « أقسم بالله العظيم أن أحافظ مخلصا على النظام الجمهورى ، وأن أحترم الدستور والقانون ، وأن أرعى مصالح الشعب رعاية كاملة ، وأن أحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه » .

وانتابنى الانفعال والخوف من ألا أتمكن من ترديد القسم بلا خطأ ، ولذا أخذت أقرأ النص مرة بعد مرة . وعندما نظرت حولى وجدت زملائى الوزراء الجدد أيضا غارقين فى حفظ تلك السطور القليلة .

كانت هناك مشكلة بسيطة بدا لى أنها بالغة الأهمية : هل أظل مرتديا نظارتى وأنا أتلو القسم أم أخلعها ؟ بينما كنت أفكر فى هذه المعضلة وجدت نفسى واقفا أمام رئيس الجمهورية ونظارتى فى مكانها . إلى يمين الرئيس السادات كان يقف نائب الرئيس حسنى مبارك ، وإلى يساره ممدوح سالم رئيس مجلس الوزراء . خلعت نظارتى ، وتلوت اليمين متمهلا ، وعدت إلى مكانى .

وفجأة انتشر شعور بالمرح وشرع زملائى الوزراء فى تهنئة بعضهم بعضا وقد بدا عليهم الارتياح . واجتمعنا فوق درجات السلم العريض لالتقاط الصورة التقليدية . كان الزملاء الجدد يقومون بمناورات استراتيجية مدروسة لشغل موقع ظاهر فى الصورة . وبسبب عدم انتباهى وجدت نفسى فى بقعة متواضعة فى الصف الأخير ، إلى جوار فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى وهو داعية مرموق ومفسر للقرآن . وكانت العلاقة بيننا ودية . وقد أصبح فيما بعد واحدا من أكثر الشخصيات شعبية فى مصر .

عندما عدت إلى البيت وجدت باقات عديدة من الزهور ومئات من برقيات التهنئة . كان التليفون يدق بلا توقف . فى مصر من العصور الفرعونية حتى اليوم ما زالت التقاليد تمجد الحاكم . فالمرء إما أن يكون من الحكام أو لا يكون شيئا . ولذا فإن أعلى منصب

يطمح فيه المرء هو خدمة الحاكم . وأن يصل المرء إلى منصب عضوية مجلس الوزراء معناه أن تكون له مكانة أكبر من مكانة الفنان أو الباحث أو صاحب الثروة . ففى الدول النامية ليس هناك غير نوعين من السلطة الحقيقية : السلطة السياسية والسلطة الدينية .

فى اليوم التالى ذهبت إلى مجلس الوزراء ، متوقعا أن أبدأ عملى لليوم الأول كوزير دولة . لم يكن لى مكتب . لكنهم قابلونى بترحاب وأكدوا لى أنه خلال أقل من أسبوع سيعد لى مكتب مناسب وملحق به مكتب آخر للسكرتير . وقيل لى إن التليفونات والمعدات سوف تركب . وعدت إلى بيتى أشد غضبا من أى يوم سابق لعجزى عن الإفلات من هذا المنصب الوزارى .

فى الصباح التالى قمت بزيارة رسمية للبطريرك قداسة الأنبا شنودة رئيس الكنيسة المسيحية القبطية . وكانت الكاتدرائية القبطية الجديدة قد بنيت ملاصقة للكنيسة البطرسية التى أقيمت إحياء لذكرى جدى بطرس غالى رئيس الوزراء ، وسميت على اسمه . وهذه الكنيسة هى مدفن أسرتى ، وقبر والدى موجود بها . ويعتبر المجمع الذى تقوم فيه الكاتدرائية « فاتيكان » العقيدة القبطية ، ولكنه متواضع من حيث المساحة والفخامة . وقد كانت الكنيسة القبطية فى وقت من الأوقات من كبار ملاك الأراضى فى مصر وتتمتع بثراء كبير . ولكن بعد الثورة تضاءلت ممتلكاتها بسبب قوانين الإصلاح الزراعى المتعاقبة . وكان المعتاد فى مصر ، التى أغلبية سكانها الساحقة من المسلمين ، أن يكون هناك عضو قبطى فى مجلس الوزراء لرعاية المصالح القبطية والدفاع عنها إذا تطلب الأمر ومسها إجراء حكومى .

وسألنى البابا ، بطريقة ملفوفة وغير مباشرة ، عما إذا كنت سأتحمل تلك المسئولية ، لأن الوزير القبطى السابق قد خرج من المجلس مؤخرا . وشعرت بأن البابا ليس واثقا من أنى سأقوم بهذا الدور ، لأنى وإن كنت أنتمى إلى أسرة قبطية معروفة ومرتبطة بشئون الكنيسة ، فإنى شخصيا لم يكن لى مثل ذلك الارتباط . وقلت إن مسئولياتى لم تتحدد بعد . وعندما شعرت بقلق البابا شنودة وعدت بأن أذهب إلى رئيس مجلس الوزراء لأبلغه آراء البطريرك .

انعقدت الجلسة الأولى لمجلس الوزراء الجديد يوم الأحد ٣٠ أكتوبر ١٩٧٧ . وسرنى أن سادها جو عائلى . تابعت المناقشات باهتمام ولكنى اكتفيت بالاستماع . كانت فى ذهنى العادة الأكاديمية التى تقتضى بألا يتكلم العضو الجديد فى جلسته الأولى .

وقضيت الأيام التالية فى زيارة زملائى للاستفسار عن واجباتى . وقام أحد الموظفين

بتوجيهى إلى الغرفة المخصصة لى ، وهمس بأنى تأخرت فى اختيار أحسن غرفة لنفسى . وقال إن وزير الدولة الآخر ، الدكتور نعيم أبو طالب ، حضر مبكرا ذلك الصباح واختار أوسع الغرف وأجملها ، وحاولت إقناعه بأنى مهتم بالعمل الذى سأوديه ولست مهتما بنوع الغرفة التى أشغلها . ولم يأخذ كلامى على محمل الجد .

بنهاية ذلك اليوم بات واضحا لى أن وزير الدولة هو وزير بلا وزارة ، وأن عليه أن يكافح حتى يجد ما يعمله . وبناء على طلب ممدوح سالم رئيس المجلس ، كتبت ، بشىء من التردد ، اقتراحاتى بشأن المسئوليات التى أقوم بها وهى :

١ – استمرار العمل لتعميق فهم الديمقراطية الاشتراكية .
٢ – الاتصال بالأحزاب والمنظمات السياسية الخارجية .
٣ – العلاقات المصرية السودانية .
٤ – الاتصال بالمنظمات الدولية غير الحكومية .
٥ – الاتصال بالجمعيات العلمية الدولية .
٦ – المعلومات الخارجية .

والواقع أنى كنت مسئولا بالفعل عن عدد من هذه الأعمال باعتبارى عضوا فى المكتب السياسى للاتحاد الاشتراكى العربى ، إذ إن السادات فى سعيه لتوثيق العلاقات مع الغرب لم يكن لديه اعتراض على استخدام شخصيات ينظر إليها على أنها موالية للغرب ، حتى إذا كانت تنتمى إلى « النظام القديم » .

وقد ذهلت عندما نشرت الصحف يوم ٢ نوفمبر ١٩٧٧ نص المذكرة التى كتبتها بنفس صياغتها بدون تغيير فيما عدا حذف النقطة المتعلقة بالمعلومات الخارجية . وذكرت الصحف أيضا أن أحد زميليّ سيكلف بمتابعة تنفيذ خطة السنوات الخمس ، وأن زميلنا الآخر سيكلف بتحديد المشاكل الأساسية التى تقلل من الكفاءة الإدارية . وبذلك تأكدت مخاوفى . نحن وزراء الدولة الثلاثة ليست لنا مهام محددة . ولم يكن هناك ما يبرر تعييننا فى تلك المناصب .

كان اهتمامى الأول أن أذهب صباح كل يوم لمتابعة تجهيز مكتبى . وكان وكيل الوزارة لشئون المشتريات يستقبلنى كل يوم قائلا :

« *ألف مبروك* ، تم طلاء الجدران » .
« *ألف مبروك* ، تم تركيب الستائر » .

« *ألف مبروك* ، تم تركيب التليفون » .

« *ألف مبروك* ... » .

وفى عصر يوم الأربعاء ٩ نوفمبر ذهبت إلى قاعة مجلس الشعب وجلست مع زملائى ننتظر حضور الرئيس السادات الذى كان متوقعا أن يلقى خطابا بالغ الأهمية . وكان ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية حاضرا ويجلس فى مقدمة القاعة باعتباره ضيف الشرف . وكان يوجه سلامه وتحياته للجميع ، ضاما راحتى يديه معا ويرفعهما فوق رأسه .

وأثناء إلقاء الرئيس السادات خطابه قال : « إنى على استعداد حتى للذهاب إلى آخر نقطة فى العالم سعيا إلى السلام العادل ، ومن أجل ألا يقتل أو يجرح أى من أبنائى الضباط والجنود .. بل إننى على استعداد حتى للذهاب إلى الكنيست الإسرائيلى لأننا لا نخشى السلام ، ولأننا أيضا لا نخشى المجابهة مع إسرائيل ، ولأن عناصر القوة فى الموقف العربى تزيد كثيرا عن عناصر القوة فى الموقف الإسرائيلى ، ولأننا على دراية كاملة بأساليب خصمنا فى المناورات ، ولأننا أولا وأخيرا نستند إلى موقف صلب من التضامن العربى » .

وكان الرئيس عرفات أول من انفجر بالتصفيق لهذه الكلمات . ولم يكن عرفات ولا زملائى ولا أنا قد فهمنا تداعيات ما قاله الرئيس . وفهم معظمنا كلماته على أنها مجرد تعبير عن استعداده لبذل أقصى جهد ممكن لتحقيق السلام .

بمجرد الانتهاء من الكلمة اشتركت مع عدد من الوزراء وأعضاء مجلس الشعب فى مناقشة ما قاله الرئيس . وبدأ ينتشر الشعور بأن ما اعتبرناه مجرد عبارات خطابية إنما يعنى فى الواقع أن الرئيس السادات ربما يعتزم بالفعل أن يذهب إلى إسرائيل . ولم أوافق على ذلك التفسير . كان اعتقادى أن الرئيس أحرز كسبا دعائيا ، ولكن الحديث عن عزمه على الذهاب إلى إسرائيل لا أساس له من الواقع .

عرفت بعد ذلك أن الرئيس السادات قبل أن يلقى كلمته كان قد كشف لبعض مساعديه المقربين أنه يفكر فى إعلان عزمه على الذهاب إلى القدس كوسيلة للتغلب على المأزق الدبلوماسى . لكن مساعديه عارضوا هذه الفكرة بشدة ، وأعد السادات كلمة لم تتضمن أية إشارة إلى القدس . كان قد أعطاهم الانطباع بأنه قبل وجهة نظرهم ، لكنه عندما بدأ يلقى الكلمة خرج فجأة عن النص المكتوب وتكلم ارتجالا ، وأعرب عن استعداده للذهاب إلى الكنيست . وأصيب مساعدوه بالدهشة والفزع .

ظللت معظم تلك الليلة مستيقظا أقرأ مرة أخرى رسالة الدكتوراه التى أعدتها السيدة نازلى معوض . فرغم منصبى الحكومى الجديد كنت لا أزال مشرفا على رسائل الدكتوراه لعدد من الطلاب ، وهى مسئولية لم يكن فى الوسع أن أتخلى عنها بدون الإضرار بمستقبل بعض الباحثين من الشباب . وفى الصباح عدت إلى مبنى الجامعة لحضور مناقشة الرسالة . وشعرت بمدى عمق ارتباطى بالجامعة وبالعمل الأكاديمى ، وكم سأتعذب من الناحية العاطفية إذا انفصلت عنها بسبب منصبى الوزارى الجديد ، حيث ليس لعملى به من جدوى غير أن أبقى مشغولا طوال الوقت .

فى يوم الأربعاء ١٦ نوفمبر ١٩٧٧ أصبح مكتبى الجديد جاهزا لشغله أخيرا . وتلقيت مكالمة تليفونية تطلب منى التوجه لمقابلة رئيس الوزراء . وبطريقة غريبة وبها شيء من التباهى ، طلب منى ممدوح سالم أن أذهب على الفور إلى قصر العروبة ، مقر نائب الرئيس حسنى مبارك فى مصر الجديدة . كان مبارك من قبل قائدا لسلاح الطيران ، وأحد أبطال الحرب . فهو الذى قاد الضربة الجوية الأولى التى مكنت الجيش المصرى من عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف فى سنة ١٩٧٣ . وكان مبارك يرأس لجنة من الباحثين وكبار الضباط الذين وقع عليهم الاختيار لكتابة تاريخ الثورة . لكن ذلك التاريخ لم يكتب فى أى وقت ، ودخل المشروع فى طوايا النسيان ، مثل الكثير من الأعمال الحكومية . وقد كنت عضوا فى اللجنة ، وأدهشنى مع ذلك دأبه بصبر على جمع مجموعة من الأفراد – يحاول كل منهم أن يُغلِّب وجهة نظره – وأن يصنع منهم كيانا موحدا ومنتجا .

فى قصر العروبة دخلت أحد الصالونات إلى يمين المدخل . وبعد دقائق قليلة دخل مبارك مبتسما وودودا ، وقال : « الرئيس السادات معجب بكتاباتك الفكرية والسياسية ، ويعرف اتصالاتك بالدوائر الدولية ، ولذا قرر أن يكلفك بعمل هام وسرى . فهو يطلب منك إعداد الخطوط العامة لكلمة يلقيها يوم الأحد المقبل – فى إسرائيل ! كلمة يلقيها رئيس مصر أمام الكنيست الإسرائيلى ! » . وكانت دهشتى مزدوجة . فلأول مرة أعرف أن الرئيس السادات يعتزم فعلا الذهاب إلى إسرائيل .

قبل ذلك بأيام قليلة ، عندما كنت أحاول أن أعثر على مكتبى الوزارى وأنظمه ، كان واحد من الأمريكيين اليهود الذين يمثلون حركة « السلام الآن » قد جاء يسألنى ما إذا كنت أستطيع أن أقنع السادات بأن يبعث برسالة تحية إلى مؤتمر « السلام الآن » الذى سيعقد فى القدس برئاسة بيير منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا الأسبق . وقلت لمحدثى « لابد أنك لست فى وعيك . لا يمكن أن يوافق السادات على شيء كهذا » . ومع ذلك بعثت بتلكس إلى الرئاسة بشأن هذا الطلب . وبعد ثلاث ساعات تلقيت برقية من السادات نصها :

« أوافق . قم بإعداد نص الكلمة » . وقد فعلت ، ولكن كان السؤال هو كيفية توصيل مثل هذه الرسالة إلى بلد عدو ، ليست بيننا وبينه وسائل اتصال . وعند ذلك رأيت أننا يمكن أن نبعث بها عن طريق الفرنسيين ، أو عن طريق الرومانيين ، أو عن طريق سفيرنا فى قبرص . ووقع اختيارى على الحل الأخير بموافقة الرئيس . وعلى الرغم من هذه البادرة من جانب السادات ، لم أدرك ما كان يفكر فيه . أما الإسرائيليون فقد رأوا فى تلك البرقية « أول طيور الربيع » . وقد اكتشفت فيما بعد أن يدا قد أزالت تلك الكلمة من الأرشيف ، والأرجح أن ذلك بسبب قيمتها التاريخية .

ولكنى الآن أصبحت فى قلب هذا الحدث التاريخى ، مكلفا بإعداد الخطبة ! وكان مبارك قد أوضح لى أن بادرة السلام هذه من جانب الرئيس لا تعنى التخلى عن أية حقوق تتعلق سواء بقضية الفلسطينيين أو بالأراضى العربية التى تحتلها إسرائيل منذ ١٩٦٧ ، وأن الكلمة يجب أن تعبر عن ذلك بوضوح .

كتبت بعض الملاحظات على قطعة ورق صغيرة . ومرت بذهنى أسئلة عديدة . ولكنى فضلت الاكتفاء بالاستماع . وقال نائب الرئيس إن المسودة يجب أن تعد باللغة الإنجليزية . قلت إن الإنجليزية هى لغتى الثالثة بعد العربية والفرنسية ، ولذا فإنى أطلب مساعدة أحد زملائى للتأكد من سلامة اللغة . ووافق نائب الرئيس ، ولكنه كرر التشديد على ضرورة السرية .

كانت اللغة الفرنسية هى اللغة الدولية للصفوة المصرية منذ غزو نابليون لبلادنا فى أواخر القرن الثامن عشر . وزاد من تمسك المصريين باللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية الوجود الاستعمارى البريطانى فى مصر ، إذ كانت تلك وسيلة للاحتجاج على ذلك الوجود . وكانت مصر تستفيد بالتضارب بين فرنسا وإنجلترا ، كما فعلت فى وقت لاحق ، فى أيام الحرب الباردة ، عندما استفادت بالتضارب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . غير أنه كان علىّ فى تلك اللحظة أن أعمل باللغة الإنجليزية ، وكنت فى حاجة إلى من يساعدنى فى ذلك .

عدت إلى منزلى وجلست إلى مكتبى لأرتب أفكارى . هذا الخطاب ليس له سابقة فى التاريخ . كيف يمكن لرئيس بلد أن يخاطب البرلمان فى بلد آخر فى حين أن حالة الحرب قائمة بينهما ؟ ماذا يقول عن الماضى ، وماذا يقول عن المستقبل ؟ كيف أوضح أن زيارته للقدس ليست استسلاما ولا ضعفا بل تصدر عن قوة ويقين ؟

بحثت فى مكتبتى عن المطبوعات القانونية والفلسفية المتعلقة بالسلام . وقرأت

الخطب التى ألقاها القادة أثناء الحرب العالمية الثانية . ونظرت فى الوثائق التحضيرية لمؤتمر سان فرانسيسكو الذى نشأت منه الأمم المتحدة . ودرست ديباجة ميثاق الأمم المتحدة التى تتناول قضية الحرب والسلام ، ودرست الميثاق التأسيسى لمنظمة اليونسكو الذى يتضمن فقرات عن مصادر الحرب وأسبابها . واستخرجت من مكتبتى القرارات المهمة المتعلقة بقضية فلسطين . ثم رجعت إلى رف الكتب التى ألفها القادة الصهيونيون والإسرائيليون مثل هرتزل ووايزمان وبن جوريون وديان وبيجن . وكنت قد جمعتها لاستخدامها فى إعداد الحجج المناهضة لإسرائيل . والآن أحاول أن أستخرج من صفحاتها شيئا إيجابيا .

جلست أمام الورقة البيضاء ، وأكداس من المراجع مكومة فوق مكتبى ، والقلم فى يدى ، وألف فكرة وفكرة تتزاحم فى خاطرى . ثم أدركت أنه ليست ثمة سوابق فى المراجع ، ولذا نحيتها جانبا ، واستعددت ذهنيا لمواجهة موقف فريد .

ظللت أفكر عدة ساعات إلى أن قام أحدهم بتنبيهى إلى أن هناك اجتماعا لمجلس الوزراء فى الساعة السادسة مساء . وقد اتخذت مكانى بين الوزراء ولكنى عجزت عن متابعة المناقشات . كان ذهنى مشغولا تماما بمسألة إعداد الكلمة . وأخرجت من جيبى قطعة الورق التى كتبت عليها تعليمات مبارك نائب الرئيس ، وقرأتها للمرة العاشرة .

وصلت الساعة إلى التاسعة وما زال المجلس منعقدا . ذهبت إلى رئيس الوزراء وهمست فى أذنه بأنى لابد أن أعتذر وأعود إلى البيت لأواصل العمل فى المهمة التى كلفت بها . وبدت الدهشة على وجه ممدوح سالم ، وقال :

– كان يجب ألا تحضر هذا الاجتماع . إنك يجب أن تكرس كل وقتك لمهمتك الجديدة .

عدت إلى البيت وإلى الورقة البيضاء فوق مكتبى . كتبت ثلاث صفحات ، ولكنى لم أرض عنها عندما قرأتها . كنت مرهقا وقررت تأجيل الكتابة إلى الصباح .

استيقظت مبكرا وسارعت إلى غرفة المكتب وفى هدأة الصباح وسكينته بدأ القلم يجرى على الورق . كتبت عشر صفحات . ثم بدأت فى إعادة صياغة فقرات بكاملها ، أحذف وأضيف وأعيد تنظيم الأفكار .

وفى العصر دعوت صديقى وزميلى الدكتور مجدى وهبة أستاذ الأدب الإنجليزى بكلية الآداب فى جامعة القاهرة . ومجدى ينحدر من تراث عريق ومبجل . كان جده رئيسا

للوزراء ، وكان والده وزيرا . فهم ينتمون إلى « المائتى عائلة » . وقد قضينا معا فترة الطفولة والتلمذة والدراسة الجامعية . وهو باعتباره باحثا وعضوا فى المجمع اللغوى يحظى بالإعجاب لدراساته المقارنة بين الآداب العربية والإنجليزية والفرنسية . قلت له إنى فى أمس الحاجة إلى مساعدته ، ورجوته أن يخصص لى كل وقته فى اليوم التالى ، وأن يحضر إلى منزلى .

فى يوم الجمعة ١٨ نوفمبر ١٩٧٧ جاء مجدى إلى منزلى فى الساعة العاشرة ومعه آلة كاتبة . ظللنا نعمل معا حتى الرابعة بعد الظهر ، عندما دق جرس التليفون . كان المتحدث مكتب مبارك يبلغنى أن نص الخطاب مطلوب على الفور . اعتذرت بأنى لم استكمل الكتابة بعد ، ووعدت بأن يكون الخطاب جاهزا فى الساعة السابعة .

قبل أن يمر نصف ساعة ، دق جرس التليفون ثانية . كان مكتب مبارك أيضا . بدأت أعتذر عن التأخير ولكنه قاطعنى قائلا :

– إنى لم أطلبك بشأن الخطاب . هناك مسألة أخرى مهمة . فقد صدر قرار جمهورى بتعيينك فى منصب وزير دولة للشئون الخارجية وقائما بأعمال وزير الخارجية . وبهذه الصفة ستنضم إلى الوفد المصاحب للرئيس فى زيارته لإسرائيل غدا ، السبت .

قلت إنى على استعداد لخدمة الوطن فى أى موقع يطلب منى . وقال مبارك : « خذ الأمور ببساطة » .

لكن مفاجأة تعيينى على رأس وزارة الخارجية فى السلك الدبلوماسى المصرى لم تجعل من السهل علىّ أن أنهى الخطبة . فى السابعة تماما دق جرس الباب . ودخل ممثل لمكتب الرئاسة وسلمته الخطبة بعد قراءتها مرة ومرة . وجلست بعد ذلك أفكر فى واجباتى كعضو فى الوفد المرافق لرئيس الدولة فى مهمة تتجاوز فى دقتها وصعوبتها وأهميتها أية مهمة أعرفها .

وكان من المعروف أن إسماعيل فهمى ومحمد رياض ، اللذين كان أولهما وزيرا للخارجية وثانيهما وزيرا للدولة للشئون الخارجية ، قد آثرا الاستقالة على مرافقة الرئيس السادات إلى القدس . فقد كانا يعارضان مبادرة الرئيس من ناحية المبدأ ، ويبدو أنهما كانا يخشيان عواقبها . وكان الخوف منتشرا فى الجو . وعاد تليفونى يدق بلا توقف . « لا تذهب . لن تصل الطائرة إلى القدس أبدا . سوف تقتل كما قتل جدك » . هكذا كان الأصدقاء يحذروننى . وكان آخرون يأملون أن أقبل هذه المهمة التاريخية . وكانت الصحف العربية تكتب عبارات مسمومة . كانت تقول ليس هناك مسلم يقبل مصاحبة الرئيس ، ولذا

اختار المسيحى بطرس غالى المتزوج من يهودية . وجاءت مكالمات هاتفية ، معظمها موجه إلى زوجتى ، يحثها على أن تسعى لتغيير موقفى . وكانت ليا تقول إنها ستؤيد القرار الذى أتخذه أيا كان . ولم أتأثر بشىء من ذلك . لم أتردد لحظة فى قبول هذه المهمة . شعرت بأنها واجبى الوطنى ، واجتذبنى إليها أيضا ما فيها من تحد غير مألوف .

فى صباح السبت ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ اتصل بى السفير سعد حمزة رئيس البروتوكول يهنئنى ويبلغنى أنهم فى انتظار تعليماتى . وطلب منى أن أتوجه إلى الوزارة . كنت آمل أن أكرس الساعات القليلة الباقية قبل إقلاع الطائرة فى التفكير والقراءة . كنت قد جمعت كتابات موشى ديان وزير خارجية إسرائيل معتزما إعادة قراءة أجزاء منها . ولكنى كنت مشدود الأعصاب بحيث لم أتمكن من التركيز ولا حتى تذكر ما سبق أن قرأته .

ولكن بناء على إلحاح سعد حمزة سارعت إلى المبنى القديم لوزارة الخارجية فى ميدان التحرير الذى كان فى وقت من الأوقات قصرا لأحد الباشوات . وقادنى رئيس البروتوكول إلى الداخل ، وقال : « هنا غرفة وزير الخارجية إلى اليسار ، وهنا غرفة وزير الدولة للشئون الخارجية إلى اليمين . وعليك أن تختار إحدى الغرفتين ، لأنك القائم بأعمال وزير الخارجية وفى الوقت نفسه وزير الدولة للشئون الخارجية » . كانت الصفة الأولى أعلى مكانة من الثانية . فوزير الخارجية يتعامل فى كافة شئون إدارة السياسة الخارجية ، أما وزير الدولة للشئون الخارجية فيتعامل مع مشاكل محددة ، ويقوم بتكليفات خاصة يطلبها منه رئيس الجمهورية . وكلاهما عضو فى مجلس الوزراء . وكان من المحتم تقريبا أن يقوم بينهما نوع من المنافسة . لم أتردد على الإطلاق ودخلت إلى اليمين ، إلى غرفة وزير الدولة . لم أكن أعرف غير أفراد قليلين فى وزارة الخارجية ، بالرغم من أن أكثر من ٥٠ فى المائة من موظفيها كانوا من تلاميذى فى العلوم السياسية بجامعة القاهرة . وكانت معرفتى محدودة بأساليب العمل فى وزارة الخارجية .

بعد أن قضيت ساعات قليلة فى غرفتى الجديدة توجهت إلى المطار ، وركبت طائرة الرئيس التى هبطت بعد دقائق قليلة فى الإسماعيلية حيث استقلها الرئيس السادات . كان هادئا ومرتاحا ، كما لو كانت هذه رحلة عادية . كان يتحادث فى غير كلفة مع صديقه عثمان أحمد عثمان ، المليونير صاحب شركة المقاولات ، يتبادلان النكات ويضحكان فى سعادة . وخطر لى أن هدوء السادات هو مشهد متعمد . فكيف لا يمتلىء أى شخص بالانفعال وهو فى بداية هذه الرحلة التى لا يصدقها العقل ؟

بعد أقل من ساعة ظهرت فجأة أضواء تل أبيب من خلال نافذة الطائرة عندما بدأنا

الهبوط فى مطار بن جوريون . ولم أكن أدرك أن المسافة قصيرة إلى هذا الحد ! فتحت الأبواب . وغمرت الأضواء سلم الطائرة المصرية التى كانت قد هبطت فى المطار الإسرائيلى . وشعرت بأنى أنظر إلى صفحة من صفحات التاريخ تكتب بحروف من نار . وبدت لى إسرائيل غريبة ، كما لو كانت قطعة من الفضاء الخارجى . فخلال عشرات السنين كانت هى العدو ، وهى السرطان فى جسم العالم العربى الذى ينبغى أن نفعل كل ما فى وسعنا للقضاء عليه .

ومرة أخرى لفت نظرى الهدوء الذى يحيط بالرئيس السادات . لم تكن ملامحه تدل بأى شكل على أن هذه اللحظة غير عادية ، أو أنها تسبب له أى قدر من الإثارة أو العصبية .

وقف السادات يغمره الضوء الباهر مما بدا لى وكأنه ألف مصباح كبير . كان وجوده أشبه برؤية توراتية . وكانت الأضواء المبهرة تجعل من المتعذر رؤية الجموع المحيطة بالطائرة ومكانها فوق المدرج ، ولكنى كنت أستطيع أن أسمع اللغط الكثيف المنفعل الصادر من أصوات عديدة ، وأصوات الكاميرات التى لا تتوقف والتى كانت أشبه بسحابة من الحشرات غير المرئية .

انتهت مراسم الاستقبال الرسمى على عجل . وفى سيارة تنطلق إلى القدس جلس إلى يسارى موشى ديان وزير خارجية إسرائيل . وجلس إلى جوار السائق مدير مكتبه إيلى روبنشتين الذى يتحدث العربية بطلاقة ويضع على رأسه الطاقية اليهودية (اليارمولكه) . لم تكن الظروف تسمح بإجراء حوار سهل . وبدأت أتكلم عن الآثار لأنى كنت أعرف أن ديان مغرم بها . قلت إن زوجتى الأولى كانت قد جذبت انتباهى إلى الآثار . وهى كانت فى جامعة باريس تعد رسالتها للدكتوراه عن الصور المختلفة لهيلانة الطروادية على آنية الفخار الحمراء والسوداء ، فى نفس الوقت الذى كنت أعد فيه رسالتى للدكتوراه فى القانون الدولى . وإننا معا تتبعنا عن كثب الحفريات التى تجرى فى جزيرة ثاوسوس فى بحر إيجه ، فى مكان غير بعيد عن مدينة « قولة » ، وهو الموقع الذى أعرف أنه مسقط رأس محمد على باشا حاكم مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ومؤسس الأسرة المالكة المصرية . وقلت لديان إن ذلك الزواج انتهى بعد سنوات قليلة ومعه انتهى اهتمامى بالآثار . وضحك ديان وقال إن اهتمامه بالآثار استمر بعد انفصاله عن زوجته الأولى .

بينما كانت السيارة تصعد التل إلى القدس كانت هناك جموع تصطف على جانبى الطريق ، تلوح بالأعلام المصرية والإسرائيلية . وكانت الأمهات تحملن أطفالهن الصغار

ليروا موكب سياراتنا . وأخبرت ديان بارتباطاتى العاطفية والشخصية والوطنية والتاريخية بالقضية الفلسطينية . أوضحت له أنه بينما يعرف هو القضية من جانبها العملى فإن لى خبرة طويلة بها فى العالم الأكاديمى ، فقد سبق أن خصصت العام الدراسى ١٩٥٤ - ١٩٥٥ بجامعة كولومبيا بنيويورك للمسألة الفلسطينية . وأنى قمت بالتدريس وإلقاء المحاضرات عن المسائل العربية لفترة تقرب من ثلاثين عاما فى مختلف أنحاء العالم العربى ، من المغرب على شاطىء الأطلنطى إلى الكويت وأبو ظبى على الخليج .

وتبين لى من خلال المحادثة أن ديان لا يهتم كثيرا بدور مصر فى القضية الفلسطينية . فالفلسطينيون فى نظره هم فقط الموجودون فى الضفة الغربية وغزة ومنظمة التحرير الفلسطينية . وبدا أنه لا يلقى بالا للأبعاد العميقة العربية والإسلامية للقضية . وقلت لديان إننا عندما نرى صديقا فلسطينيا يعيش تحت عبء الاحتلال ، ويلقى به فى السجن ، نحس بمشاعر الفلسطينيين الذين انتهكت حقوقهم ، ونشعر بألم ومرارة فقد الوطن . وإن العالم العربى بأسره كيان واحد . وإن العرب ما زالوا يشعرون بخسارة الأندلس . وإن فقد فلسطين قد فرضه الاستعمار على العالم العربى على يد الدول الخارجية الكبرى .

كان ديان منغلقا إزاء كلماتى . وقال إنه يريد منى أن أنقل رسالة إلى الرئيس السادات . إذا تضمنت كلمته فى الكنيست أية إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية « فذلك لن يجعل من السهل سيادة الجو الجديد من المصالحة الذى نريد تشجيعه » . وقال إنه إذا حدثت إشارة كهذه فسيكون مناحم بيجن مضطرا إلى مهاجمة منظمة التحرير . ولم أخبر ديان بأن الكلمة التى أعددت مسودتها تتضمن إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية .

وصلنا إلى القدس . وكان من الصعب أن نصدق ما رأيناه - علم مصرى يرفرف على سيارة إسرائيلية تشق طريقها بصعوبة بين الجموع الحاشدة التى تهتف مرحبة بالرئيس السادات . والأعلام المصرية منتشرة فى كل مكان . لم يسبق أن شهدت مثل هذه المظاهرة للانفعال الشعبى !

كان فندق الملك داود حاشدا برجال الأمن ومراسلى وسائل الإعلام العالمية . اقترب منى آرنو دى بورشجراف مراسل « *النيوزويك* » ، غاضبا لأن ويلتون واين مراسل « *التايم* » سمح له بالطيران مع الرئيس السادات إلى القدس . وطلب أن أحصل له على الموافقة على ركوب الطائرة فى العودة . وقد اقترحت ذلك . لكن الرئيس رفض الفكرة رفضا باتا . فهو لا يطيق بورشجراف ولا يتحدث معه ، ولم أعرف أبدا السبب فى ذلك . وقد حاولت مرارا التقريب بين الرجلين ، ولكن السادات لم يقبل . وحتى يومنا هذا ، عندما ألتقى مع بورشجراف فى نيويورك ، نتكلم عن كراهية السادات له على أنها لغز بلا حل .

صحبني موشى ديان حتى باب غرفة نومي في الطابق الأعلى في فندق الملك داود . وكان أول ما فعلته عندما وجدت نفسي وحيدا في الغرفة هو التوجه إلى النافذة والتحديق في أنوار القدس . وتساءلت لماذا كانت هذه المدينة ، التي تعتبر رمزا للسلام ، دائما موقعا للمواجهات الدامية . ورأيت الحجم الهائل للإنشاءات الإسرائيلية وشعرت بالخوف ، وارتجفت هناك في الليل ، إشفاقا من أن لا يتمكن العالم العربي أبدا من استعادة القدس . وعاد إلى ذاكرتي موقفي وأنا صبي صغير ، أراقب أمي « صوفي » وهي تعد حقيبتها للحج من القاهرة إلى القدس ، وهي رحلة تعتبر بالنسبة للقبطي في أهمية الحج إلى مكة بالنسبة للمسلم . وشعرت بانفعال أسرتي عندما استقلت أمي القطار المتجه إلى يافا في فلسطين ، ومن المحطة هناك تصعد إلى المدينة المقدسة . واستعدت ذكريات عودتها وشعورها بأنها قد بوركت بالحج الذي قامت به .

تطلعت طويلا إلى القدس العربية وشعرت برهبة اللحظة . لكنني شعرت أيضا بالخوف بسبب الخطوة الجسورة التي قمنا بها لتونا . كانت خطوة بالغة الأهمية ولكنها أيضا محفوفة بالمخاطر على طريق طويل ومجهول . كنت على أبواب أهم فصل من فصول حياتي . فكيف أحقق فيه أقصى ما أستطيع ؟ كيف أستطيع أن استدعي كل طاقتي ؟ مرت في خاطري هذه الأفكار وأنا أنظر من نافذة فندق الملك داود إلى القدس – القدس – القدس العربية – القدس المحتلة – القدس المغتصبة .

استيقظنا في الفجر . ذهبنا إلى المسجد الأقصى ، حيث صلى الرئيس ومرافقوه . وقفت على مقربة منهم بينما كان المصلون ينحنون ويركعون ، أمام عظمة العلي القدير . ولا أستطيع أن أصف الانفعال الذي غلبني في هذه المناسبة في هذا المكان المقدس . كنت على وشك البكاء . وللتغلب على ذلك ، أرغمت نفسي على التفكير في الحذاء الذي تركته خارج المسجد وما يمكن أن يحدث إذا لم أجده في الكومة الكبيرة الموجودة هناك ؟ كما لم أستطع أن أبعد التفكير في الملك عبد الله بن حسين ملك الأردن ، الذي قتله أحد الفلسطينيين في عام ١٩٥١ أثناء دخوله إلى المسجد الأقصى للصلاة . وكانت تهمته هي التعاون مع إسرائيل . والرئيس السادات يغامر بالتعرض لنفس المصير . كان رجال الأمن الإسرائيليون في كل مكان ، يتطلعون إلى كل ركن من أركان المسجد والحرم الشريف . وكان من الجلي أنهم أيضا يفكرون في الملك عبد الله . غادرنا المسجد ودخلنا الساحة المكشوفة وسط مظاهرة من الفلسطينيين المعترضين .

ذهبنا بعد ذلك إلى كنيسة القيامة حيث رحب الأنبا باسيليوس المطران القبطي

المصرى للقدس والشرق الأدنى ترحيبا حارا بالسادات . وكان دير السلطان ، الأثر القبطى المصرى فى القدس ، قد احتله الأقباط الإثيوبيون . وكانت إسرائيل ترفض إعادته إلى الأقباط المصريين لأن إسرائيل تحتاج إلى تعاون إثيوبيا للسماح بهجرة الفلاشة ، يهود إثيوبيا . وألقى المطران خطبة نارية هاجم فيها الاحتلال والممارسات الإسرائيلية بشدة . اكتسى وجهه باللون الأحمر ، وارتعشت يداه بالانفعال ، وكانت لحيته البيضاء تتحرك وهو يتكلم بصوت جهورى كما لو كان يوقظ جمهورا واسعا بخطابته . واستمع الرئيس السادت إلى المطران بلا انفعال .

من الكنيسة ذهبنا إلى « ياد فاشم » النصب التذكارى لضحايا الاضطهاد النازى من اليهود . وكنت قد سبق أن زرت معتقل أوشفيتز وشعرت بقوة بمأساة المحرقة . وعند « ياد فاشم » لم يظهر شىء على وجه الرئيس السادات . وقد رفض أن يرتدى الطاقية اليهودية التى عرضت علينا لتغطية رؤسنا فى ذلك المكان . وحاكيته أنا أيضا فى رفض ارتداء تلك الطاقية .

عدنا بعد ذلك إلى فندق الملك داود . وانضم إلينا : الرئيس السادات والدكتور مصطفى خليل وأنا ، على مائدة الغداء ثلاثة من الإسرائيليين : بيجن رئيس الوزراء ، وييجال يادين نائب رئيس الوزراء ، وموشى ديان وزير الخارجية . وأثناء الغداء اقترح بيجن إقامة خط ساخن مباشر بين القاهرة وتل أبيب لمواصلة الحوار ولإيجاد وسيلة اتصال سريعة ومأمونة ، واستمع الرئيس السادات للاقتراح ولم يقل شيئا .

لاحظ بيجن أن السادات يدعونى أحيانا بطرس وأحيانا أخرى بيتر . أخذنى بيجن جانبا وسألنى « لماذا لك اسمان ؟ » . أجبت بأن السادات يدعونى بيتر – وبطرس هى الصيغة العربية لاسم الحوارى بيتر – عندما يكون راضيا عنى . وعندما لا يكون راضيا تماما عن سلوكى يدعونى بطرس . وأعجب بيجن بذلك وبدأ يطبق نفس الشىء بطريقته الخاصة . وهو كان يعرف أن الكلمة اللاتينية « بيتروس » تعنى الحجر أو الصخرة . ولذا فعندما كان بيجن يضيق بمقاومتي لدبلوماسيته ، يدعونى بيتر ، وعندما يرضى عنى يدعونى بطرس . ولم يلبث السادات أن أدرك أن بيجن قلب معنى التسمية التى يتبعها هو رأسا على عقب ، وأخذ يستمتع بمداعبة بيجن بشأنها كأنها نكتة مستمرة .

تحدث ديان عن ضرورة الاتفاق على إطار وجدول زمنى للمفاوضات فى الفترة المقبلة . ورد الرئيس السادات بغير ارتياح وقال : « ينبغى أن نركز على جوهر القضية ، لا على الجوانب الفنية والشكلية . المهم هو قضية المحتوى ، وليست التفاصيل والإطار » . وكان من الواضح منذ البداية أن الرئيس لا يرتاح إلى ديان وشخصيته المتجهمة الشائكة .

قبل حضور السادات إلى القدس ، كان رأيه أن ديان « معقول » ، وأن عزرا وايزمان – الذى كان وقتها وزير الدفاع الإسرائيلى – « داعية حرب » . وكان وايزمان ، على الرغم من إصابة فى ساقه ، موجودا ضمن فريق الاستقبال ، وحيا السادات مداعبا بالعكاز الذى فى يده . وقد ارتاح السادات لأسلوبه . بينما اعتبر أنه كان خطأ كبيرا من جانب ديان أن يلح علىّ أثناء ركوبنا السيارة متجهين إلى القدس فى ضرورة عقد صلح منفرد بين مصر وإسرائيل .

وتدخل الدكتور مصطفى خليل فى الحديث ، وكذلك فعل ييجال يادين نائب رئيس الوزراء . وعملنا كلنا على تخفيف الجو عن طريق إثارة القضايا التى لا خلاف بشأنها . وكان من الواضح طوال حفل الغداء أن الجميع ينتظرون الكلمة التى سيلقيها الرئيس السادات عصر ذلك اليوم فى الكنيست .

فى الكنيست ، ألقى رئيس المجلس إسحاق شامير كلمة ترحيب وتقديم موجزة للرئيس المصرى . ثم بدأ الرئيس السادات خطابه التاريخى . كنت حتى تلك اللحظة أتصور أنه سيلقى الخطاب الذى قمت بإعداد مسودته . لكن الخطاب البديع الذى ألقاه كان مختلفا تماما . تكلم بالعربية ، بينما كنت قد أعددت الخطاب بالإنجليزية . وهو لم ينطق بكلمة واحدة أو عبارة أو فكرة مما ورد فى خطابى . وعلمت أنى كنت واحدا من ثلاثة طلب منهم إعداد الخطاب . وأدى الخطاب الذى ألقاه السادات إلى خيبة أمل المستمعين ، ولكن ذلك لم يكن مدعاة لتعزيتى .

عندما انتهى الرئيس السادات من كلمته ، وقف بيجن رئيس الوزراء وألقى كلمة مرتجلة جافية . كان من الواضح أنه لم يتمكن من الارتفاع إلى مستوى المناسبة التاريخية . لقد تحدث السادات بلهجة من يلقى محاضرة ، أما بيجن فتكلم بلهجة المهاترة . وبدا أن كلا منهما يتخذ موقفا يؤثّر به على جانبه بدلا من التواصل مع الآخر .

بعد الجلسة عدنا إلى فندق الملك داود لحضور حفل عشاء يحضره خمسة عشر من المصريين وخمسة عشر من الإسرائيليين . وجلس الرئيس السادات بين مناحم بيجن وموشى ديان . وجلست أنا إلى جوار ديان . كان الجو متوترا ، ورغم تشغيل التدفئة فى قاعة الفندق الكبير ، شعرت ببرودة شديدة فى الجو . كان من الواضح أن الإسرائيليين شعروا بخيبة أمل فى كلمة الرئيس السادات وأن المصريين صدمهم رد بيجن .

أصبح من الجلي الآن مدى اتساع الفجوة التى تفصل بين موقف المصريين والإسرائيليين . وكان الأمل يتضاءل فى القضاء على الحواجز النفسية والسياسية من خلال

هذه الزيارة . فقد كانت هناك لحظة تصور فيها الوفد المصرى أن زيارة الرئيس السادات ستؤدى ، كالسحر ، إلى تسوية كل شىء . وأثناء العشاء الرسمى أبدى عثمان أحمد عثمان ، وهو بعيد عن الدبلوماسية ، استياءه الشديد من أقوال بيجن .

وبرزت شخصية عزرا وايزمان أثناء العشاء . فوايزمان الذى كان مصابا فى حادثة سيارة ، غادر سرير المستشفى لحضور العشاء . وبذل أقصى ما يستطيع لتخفيف الجو بما يرويه من حكايات وذكريات ونكات . واشتركت معه فى محاولة تخفيف الموقف بالحديث فى الشئون العابرة . وحاول أن يخفف الجو أيضا مصطفى كامل مراد ، وهو ضابط أصبح فيما بعد مؤسساً لحزب سياسى ثان فى مصر بتشجيع من السادات . أما بقية أعضاء الوفد المصرى فقد لزموا الصمت .

عندما انتهى العشاء اقترح الدكتور خليل على وايزمان أن نجتمع معه ، واقترحت أنا على ييجال يادين أن يشترك معنا . ولم نطلب من ديان أن يحضر هذا الاجتماع ، على الرغم من أنه صحبنى فى السيارة وكان جالسا إلى جوارى أثناء العشاء ودار بيننا حوار طويل . وكان انطباعى عن ديان أنه شخصية معقدة وانطوائية ، ووجدت صعوبة فى تبادل الآراء معه . وكان الحال مختلفا تماما مع وايزمان ويادين . إن شخصيات القادة والكيمياء بينهم تؤثر فى مجرى المفاوضات وفى الأحداث الكبيرة . والفكرة الماركسية القائلة بأن التاريخ يسير بحتمية علمية تخطىء عندما تتجاهل هذا الواقع .

فى غرفة الدكتور مصطفى خليل فى الفندق جلس يادين ووايزمان وخليل وأنا حول مائدة مستديرة عليها زجاجة ويسكى ، ودار الحديث بيننا حتى وقت متأخر من الليل . وهكذا كانت زجاجة من الويسكى الاسكتلندى هى بمثابة « الخط الساخن » الأول للاتصال بين مصر وإسرائيل ؛ إذ كانت هذه الجلسة هى بداية المفاوضات المصرية الإسرائيلية . بدأ وايزمان الحديث ، فتكلم عن ذكرياته عن القاهرة التى عرفها عندما كان طيارا فى سلاح الطيران الملكى البريطانى فى الحرب العالمية الثانية . وأجبته بأن قاهرة الأربعينيات ليست هى قاهرة السبعينات ، وأن القاهرة التى عرفها وايزمان كانت مدينة أوروبية أنيقة ، أما الآن فقد أصبحت عاصمة آسيوية مزدحمة .

وشرحت تأثير الانفجار السكانى على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر . وقلت إن مصر تحتاج إلى السلام حتى تستطيع مواجهة قضاياها الاقتصادية والاجتماعية الملحة . كنت أريد أن أقنع الوزيرين الإسرائيليين بجدية وإخلاص سعى مصر إلى السلام . وكنت أريد أن يفهما أن مبادرة الرئيس السادات ليست خطوة تكتيكية يستخدمها لكسب أرضنا

من أجل الإعداد للحرب التالية . كنت أريد أن أطمئنهما إلى أن مصر تسعى حقا لإقرار السلام والأمن والعدل والاستقرار فى كافة أنحاء المنطقة ولكافة الدول والشعوب . وأدركت مدى عمق الشكوك لدى المسئولين الإسرائيليين ، وهى شكوك مغروسة فى الشخصية اليهودية بسبب ما عاناه الشعب اليهودى من مآس واضطهاد طوال التاريخ .

وانتقل الحديث الدائر فى غرفة فندق الملك داود إلى الشئون العسكرية . كان يادين ووايزمان من العسكريين . وشعرت بالملل لأحاديث الجنرالين فى الشئون الفنية ، ولكنى اندهشت لمعرفة الدكتور خليل بالمسائل العسكرية وقد توجه فجأة إلى وايزمان بسؤال : « هل تملك إسرائيل القنبلة الذرية ؟ » . ولم يجب وزير الدفاع الإسرائيلى . قام من مقعده وفى يده كوبه الفارغ ، ومشى ببطء شديد إلى المائدة القريبة ليملأه بالويسكى ، وبدأ يشرب . وبعد ذلك تحدث فى موضوع آخر ، كما لو كان لم يسمع السؤال .

انتهت جلستنا الرباعية حوالى الساعة الثانية صباحا . وشعرت بأن المفاوضات بدأت بالفعل . لقد تغلبنا على العقبة الأولى وهى الافتقار إلى الثقة ، فهاهما اثنان من المسئولين المصريين يجتمعان باثنين من المسئولين الإسرائيليين لأول مرة .

فى اليوم التالى نظم مصطفى خليل ، بإذن من السادات ، اجتماعا للرئيس مع وايزمان . وحدث التوافق بينهما على الفور ، ونشأ بينهما نوع من التقارب . وجعلتنا طبيعة وايزمان المرحة والمتحمسة نشعر بأنه أقرب إلى الشخصية المصرية من كل من يادين الأكاديمى أو ديان البارد والمنطوى على نفسه . ولكنى كنت أعرف أننا لا يجوز أن نتجاهل ديان بنفوذه الواسع .

ركبت مرة أخرى سيارة موشى ديان فى طريقنا إلى المطار فى بداية رحلة العودة . وحاولت أن أقنعه بأن الدبلوماسية المصرية تهدف إلى إبرام سلام شامل ، وأننا لا نفكر على الإطلاق فى تسوية ثنائية تقتصر على مصر وإسرائيل .

أجاب ديان ساخرا : « كيف تتمكنون من التفاوض باسم الفلسطينيين والسوريين والأردنيين إذا كانوا يرفضون مبدأ التفاوض ؟ » . أجبت بأن مهمة مصر هى إقناع الأطراف العربية بضرورة التفاوض ، وبأن التفاوض يمكن أن يفضى إلى نتائج إيجابية . وقلت إن إسرائيل إذا كانت تريد حقا أن تعيش فى أمن وسلام فهى تستطيع أن تشارك فى تلك العملية عن طريق اتخاذ مواقف تبين أن المفاوضات يمكن أن تنجح .

وقلت إن الدبلوماسية المصرية تستطيع أن تعمل أيضا على إيجاد إطار يساعد الدول العربية على اتخاذ القرار بالتفاوض مع إسرائيل . وقلت : ولا تنس أن مصر لها بعدها

العربى الذى يفرضه التاريخ والجغرافيا والروابط الوطنية القائمة على الثقافة والاشتراك فى اللغة والدين .

لم يقتنع ديان . وعند ذلك استخدمت حجة أخرى طرأت لى فى تلك اللحظة . قلت إنه قد يكون فى الوسع إتمام الانسحاب الإسرائيلى من غزة قبل بقية الأراضى الفلسطينية المحتلة . وأن لمصر مسئولية خاصة إزاء قطاع غزة الذى تولت إدارته من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٧ . فإذا استعادت مصر إدارة غزة فإنها يمكن أن تساعد الفلسطينيين هناك على إنشاء دولة مستقلة يمكن أن تصبح نواة للدولة الأكبر التى يرغب فيها الفلسطينيون . وقلت إن خطوة كهذه يمكن أن توحى بالثقة فى صدق نوايا إسرائيل ، وتشجع الأطراف العربية على التفاوض معها . ورفض ديان الفكرة قائلا إن قطاع غزة لا تتوافر له الموارد الاقتصادية والمالية الكافية للوجود كدولة مستقلة ، والدليل على ذلك أن أربعين ألفا من الغزاويين يعملون داخل إسرائيل . وتحدثنا أيضا عن القدس ، ورأيت مرة أخرى الهوة الواسعة التى تفصل بين موقفينا .

وأيا كانت مشاعرى نحو شخصية ديان فقد كان حديثه صريحا وحاسما وواضحا . وكان أسلوبه يتناقض تماما مع أسلوب وايزمان الذى يحاول أن يتغلب على العقبات عن طريق الحرارة الشخصية والتفاؤل الفياض . وكنت قد اتفقت مع وايزمان على وسيلة للاتصال التليفونى فى باريس ، يمكن من خلالها لمصر وإسرائيل أن تتبادلا الرسائل بدون المرور بحكومة ثالثة . وكان هذا هو الاتفاق الوحيد الذى توصلنا إليه فى القدس .

فى مطار بن جوريون تمت إجراءات الوداع بسرعة ، ووجدت نفسى جالسا فى الطائرة مع الرئيس السادات ، الذى طلب منى أن أدعو كل السفراء المعتمدين لدى القاهرة لأشرح لهم أغراض رحلته والهدف السياسى من المهمة التى بدأها .

عندما كانت الطائرة تصعد لتصل إلى الارتفاع الذى ستطير عليه وأصبحنا على وشك الخروج من المجال الجوى الإسرائيلى ، شاهدنا النفاثات المقاتلة من طراز فانتوم « اف - ٤ » التابعة لسلاح الطيران الإسرائيلى على جانبى طائرة السادات . وعلق الرئيس على ذلك بقوله « بالأمس كانوا يقاتلوننا ، واليوم يخرجون لتوديعنا » .

كان هناك حشد هائل ينتظرنا عند العودة . بدا كأن سكان القاهرة جميعا قد خرجوا لاستقبالنا . كانوا يهتفون أنه بمجىء السلام ستحل جميع مشاكل مصر .

نظر إلىّ مصطفى خليل ، وهو رجل واقعى ، وسألنى :

- هل تعتقد أنهم سيعيدون إلينا القدس ؟ بعد كل تلك الإنشاءات ! أخشى أن تكون القدس قد ضاعت من العرب !

قلت : حتى إذا صح ذلك ، يجب أن نؤمن بالعكس . وإلا ضاع كل شيء . وقلت إنه يمكن التوصل إلى حل وسط شبيه بالصيغة المعتمدة للفاتيكان والأماكن المسيحية المقدسة في روما . وقلت : « في نهاية الطريق الذى يتجاوز القدس ، سوف نجد القدس » .

أمل ضاع فى الإسماعيلية

كان الخميس ٢٢ نوفمبر ١٩٧٧ يوما حافلا ومضطربا . طلبوا منى أن أتوجه إلى مبنى التليفزيون لإجراء حديث عن مبادرة السلام مع التليفزيون الفرنسى . وكان ذلك أول ظهور لى على شاشة التليفزيون بوصفى وزيرا للخارجية المصرية . وبعد ذلك أجرت الحديث معى صحفية فرنسية حسناء هى جوزيت آليا ، وكنت قد عرفتها قبل ذلك بسنوات طويلة باعتبارها محررة للمجلة الفرنسية « *نوفيل أوبزرفاتور* » .

تحدثتُ عن الصدمة النفسية لدى الرأى العام الإسرائيلى بسبب مبادرة السلام من جانب الرئيس السادات . وقلت إنه لم يكن فى وسع مصر أن تقدم دليلا على صدق رغبتها فى السلام أقوى من زيارة السادات للقدس . وأرادت الصحفية أن تعرف كيف كانت العلاقة بينى وبين موشى ديان . قلت إنى حاولت أن أشرح لديان معنى التضامن العربى وعمق الشعور بالمصير المشترك الذى يوحّد بين شعوب الدول العربية . وأنى حاولت أن أقنع ديان بأن الخلافات بين العرب ، مهما طال عليها الأمد ، ومهما بلغت من العمق ، ومهما تعددت أشكالها فإنها ستسوى فى نهاية الأمر بروح ودية داخل الأسرة العربية . وعلى ذلك قلت للمراسلة الفرنسية إنى حاولت أن أوضح لديان أن السلام فى المنطقة لابد أن يكون شاملا ، وإلّا فلن يكون هناك سلام على الإطلاق .

كنت مقتنعا منذ أمد طويل بالحاجة إلى تزويد الحكومات الأجنبية والصحافة العالمية بمزيد من المعلومات عن السياسات الخارجية لمصر . والآن ، بعد زيارة الرئيس السادات المذهلة ، كان لابد أن تصبح سياستنا الخارجية واضحة للصديق والعدو على السواء . وبات علّى أن أقضى مزيدا من الوقت وأبذل مزيدا من الجهد لإتمام هذه المهمة الإعلامية .

فى اليوم التالى بدأت اجتماعاتى مع رجال السلك الدبلوماسى بالسفراء الأفارقة ، لأن الأفارقة كانوا أكبر مجموعة من السفراء فى مصر ، يمثلون ٥٠ دولة ، ولأنى كنت أريد أن أؤكد الارتباط المصرى بافريقيا . كنت أشعر بأن معظم الدبلوماسيين المصريين لا يولون

علاقاتنا بالدول الإفريقية الأهمية الكافية . كانت أنظارهم دائما متجهة إلى أوروبا ويحبون الأوروبيين وينظرون إلى إفريقيا كمنطقة هامشية نائية . وكانوا يعتبرون أن تقلد وظيفة فى إفريقيا أمر لا يقارن بتكليف أحدهم بالعمل فى عواصم أوروبا الحافلة بالأضواء .

شرحت موقفنا للسفراء الأفارقة – قائلا كل شيء مرتين ، مرة باللغة الفرنسية ومرة أخرى باللغة الإنجليزية – قلت إن زيارة الرئيس السادات للقدس محاولة غير مسبوقة للخروج من الجمود ، ومن أجل تحقيق تقدم فى استعادة حقوق الشعب الفلسطينى .

وكان السفراء الأفارقة قلقين بشأن علاقة إسرائيل بجنوب إفريقيا . فهل سيعنى التعامل مع إسرائيل أن مصر ستتعامل مع جنوب إفريقيا ؟ ذكرت أنها لن تفعل ذلك أبدا . وكررت موقف مصر فى معارضة جنوب إفريقيا لممارساتها البغيضة فى التمييز العنصرى .

وجاء السفراء العرب بعد الظهر . كنت قلقا ، أخشى أن يكون هذا الاجتماع حافلا بالتوتر . ولكنه جاء وديا ، وكانت المناقشة هادئة ومثمرة .

وفى اليوم التالى ، الخميس ٢٤ نوفمبر ، استقبلت سفراء آسيا ، وتلا عليهم سفير تايلاند رسالة من ملك بلاده يشيد فيها بالرئيس السادات لمبادرته الشجاعة ويعلن تأييد تايلاند لزيارة القدس .

وفى المساء استقبلت أولا سفراء أوروبا الغربية وبعدهم سفراء أوروبا الشرقية . وبدأ المساء باعتراض من جانب سفير ألبانيا الذى دعى لحضور الاجتماع باعتباره منتميا إلى مجموعة أوروبا الشرقية . لكنه رفض ، قائلا إن ألبانيا لا تريد أن يرتبط اسمها بالكتلة الاشتراكية فى أوروبا الشرقية بأى شكل ، لأن تلك الدول ليست شيوعية « حقيقية » . واضطرب لذلك الموظفون الذين ينظمون تلك الاجتماعات ، إلى أن اقترح بعضهم على السفير الألبانى أن ينضم إلى مجموعة دول أوروبا الغربية . ووافق السفير على الفور على الجلوس مع الدول الرأسمالية ، وشارك فى الاجتماع بارتياح . وبعد انتهاء الجلسة همس فى أذنى بأنه يفضل ألف مرة أن يشارك مع من يعارضون الماركسية واللينينية صراحة وبوضوح ، على أن يشارك مع أولئك الذين خانوا تلك المبادىء ويتآمرون عليها .

بعد ذلك جاءت مفاجأة أخرى من جانب الرئيس السادات . فقد أعلن فى مجلس الشعب أنه يدعو إلى عقد اجتماع غير رسمى فى القاهرة تمهيدا للعودة إلى مؤتمر جنيف . وقال إنه يريد أن يدعو إلى القاهرة : إسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وسوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . وعلى أساس هذا الاجتماع يسعى السادات لتحديد

هيكل المفاوضات وسرعتها عن طريق إعادة عقد المؤتمر الدولي الكبير في جنيف ، الذي يضم كافة الأطراف ويهدف للتوصل إلى حل شامل .

وكان مؤتمر جنيف المعني بالشرق الأوسط قد عقد في ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ تحت رعاية الأمين العام للأمم المتحدة ، وبرئاسة مشتركة للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وبحضور وزراء خارجية مصر والأردن وإسرائيل . وظل مقعد سوريا خاليا . وجاء في خطاب الدعوة للمؤتمر أن غرضه هو بدء المفاوضات التي دعا إليها قرار مجلس الأمن ٣٣٨ الصادر في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ « بغرض إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط » . وبعد ذلك انفض المؤتمر ولم يعد مرة أخرى إلى عقد جلسات عامة . ورغم حالة السكون التي دخل إليها المؤتمر فقد استمر رمزا على الحاجة إلى حل شامل .

لم يكن الرئيس السادات معارضا لمؤتمر جنيف المنعقد برئاسة مشتركة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، لكنه كان مدركا مدى الصعوبة الشديدة في استئناف المفاوضات . وعندما طلب مني أن أعد لمؤتمر غير رسمي تمهيدا لجنيف ، هل كان في الواقع يخفي عزمه على التفاوض الثنائي مع إسرائيل وتجاهل العرب ؟ لا شك في أنه كان هناك ما يغريه بذلك . ومن المعروف أن مصر سبق أن وافقت على عقد هدنة ثنائية مع إسرائيل في مفاوضات رودس في ١٩٤٨ . وقد أبرمت مصر وسوريا اتفاقا ثنائيا مع إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ . كان السادات يعرف تماما هاتين السابقتين ، ولكني شعرت بأنه لم يتخذ قراره بعد .

وبمجرد انتهاء جلسة مجلس الشعب ، استدعاني الرئيس لغرفته الخاصة في مبنى المجلس ، وطلب مني الشروع في التحضير للمؤتمر على الفور . وقال إنه يجب أن يجتمع يوم ٣ ديسمبر – بعد ثمانية أيام ! وقال الرئيس إن الدعوات يجب أن ترسل فورا بلا إبطاء . واقترحت ضم لبنان إلى الاجتماع ، فوافق على ذلك . ووافق على إرسال دعوة إلى الأمم المتحدة . كان إشراك الأمم المتحدة في رأيي أمرا حتميا . فالأمم المتحدة قد قبلت إسرائيل كعضو شرعي ، وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ هو أساس عملية السلام بين العرب وإسرائيل .

وسألني الرئيس : ماذا جرى لك يا بطرس ؟ لماذا تخاف ؟

قلت إن عقد مؤتمر دولي ، وخاصة في ظل هذه الظروف السياسية الدقيقة ، لا يمكن أن يتم خلال أيام معدودات . ولم يقبل السادات ذلك وقال : « ما الذي تخاف منه يا بطرس ؟

المؤتمر يجب أن ينعقد فى الثالث من ديسمبر ، وسوف ينعقد فى هذا التاريخ . وعليك أن تتصرف ، وأن تجهز كل شيء فى الموعد » .

جلست ساعات طويلة فى الليل أفكر فى آلاف المشاكل التى يجب أن أحلها فى سبيل عقد المؤتمر . وكنت مبتدئا فى هذا المجال . فماذا يكون مستوى التمثيل ؟ وأين تعقد الاجتماعات ؟ وما هى بنود جدول الأعمال ؟ وباسم من يجب أن ترسل الدعوات ؟ وكيف يتم إبلاغ إسرائيل بالدعوة مع عدم وجود علاقات دبلوماسية معها ؟ وديسمبر هو ذروة موسم السياحة فى مصر . كيف نعثر على غرف للوفود فى الفنادق المزدحمة بالسواح ؟ وهل سنجد ما يلزم من مترجمين وإخصائيين فى الاختزال وسكرتيرين ؟ كيف نتعامل مع مئات من ممثلى أجهزة الإعلام العالمية ؟ ومشاكل الأمن ... كل ذلك فى ثمانية أيام ؟

دعوت فريق عمل فى وزارة الخارجية . وتحدثت مع السادات بالتليفون عدة مرات . واتفقنا على أن يعقد المؤتمر على المستوى الفنى وليس على المستوى الوزارى . واختلف الرأى بشأن الموقع . رأى بعضهم أن يكون مبنى الاتحاد الاشتراكى على كورنيش النيل ، حتى يمكن أن تقيم الوفود فى فندق هيلتون المجاور . وفضل آخرون مقر الحكومة الاتحادية فى مصر الجديدة . واقترحت أنا « مينا هاوس » .

لقد كان هذا الفندق العريق الذى يقع عند سفح الأهرام مسرحا لاجتماعات مهمة أثناء الحرب العالمية الثانية ، من بينها الاجتماع الذى ضم شيانج كاى شيك وونستون تشرشل وفرانكلين ديلانو روزفلت ، وهو الاجتماع الذى أكد مركز الصين باعتبارها واحدة من الحلفاء الأربع الكبار ، وقرر أن تايوان ، وكانت مستعمرة يابانية ، هى جزء لا يتجزأ من الصين .

وكان هناك اعتبار آخر تأثرت به . فقد كنت أعرف أن التاريخ والثقافة العبرية لهما دور أساسى فى الصورة التى تحرص إسرائيل على أن تبدو بها . وعقد مثل هذا الاجتماع إلى جانب الأهرامات سيؤكد غنى التاريخ المصرى الذى لا مثيل له والذى لا يستطيع الإسرائيليون أن يتجاهلوه . وتذكرت جملة كتبها أرنولد توينبى : « يبدو كأن الأهرامات تقول : لقد كنا هنا قبل مجيء النبى إبراهيم » ، وهى رسالة أردت أن أبلغها للإسرائيليين فى مينا هاوس . ولكن هذه الاعتبارات التاريخية كانت بعيدة عن تفكير رجال الأمن ، الذين اعترضوا بشدة على اختيار مينا هاوس . وتحدثوا معى طويلا وبالتفصيل عن المخاطر ، مشيرين إلى المداخل الخمسة للفندق والحدائق . ولكنى تمسكت برأيى ، وقررت عقد المؤتمر فى مينا هاوس .

وبعد مناقشات طويلة مع فريق العمل بشأن جدول أعمال المؤتمر ، عرفت أن بعض موظفى وزارة الخارجية بحوزتهم وثائق بالغة الأهمية ، وأنهم يخفونها عنى . وأغضبنى ذلك . فقد أحسست أن أولئك الموظفين ينظرون إلىّ على أنى دخيل قد لا يبقى طويلا فى الوزارة ، وأن من حقهم أن « يبقونى على عماى » .

بعد ذلك واجهت مشكلة اختيار الوفد المصرى . وقد استعرضت أسماء كثيرة من الدبلوماسيين المصريين وترددت بينهم . وفى النهاية استقر رأيى على الدكتور عصمت عبد المجيد مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة فى نيويورك . فقد عرفته منذ الأربعينات عندما كان يعد رسالته للدكتوراه فى باريس . وكنت على ثقة تامة بكفاءته وقدرته على إدارة المؤتمر . وطلبت الرئيس السادات فوافق على اختيارى بلا اهتمام .

والتقيت بالدكتور أسامة الباز ، وهو من الشبان الذين احتضنهم السادات . وكنت قد عينته عضوا فى مجلس مركز البحوث الاستراتيجية والسياسية الذى انشأته فى « الأهرام » قبل بضع سنوات . وكنت أريده أن يكون مستشارا لى فى رحلة القدس ، ولكنى وجدت أنه قد عين بالفعل عضوا فى الوفد . وهو شاب قصير القامة ضئيل الحجم خشن الصوت وذكاؤه خارق . وكان قد أتم دراسته فى جامعة هارفارد وأصبح فى مصر من خيرة المشتغلين بالسياسة والمطلعين على مختلف مجالات المعرفة ويفيد فى كل الأغراض . وقام أسامة الباز بوضع مسودة الدعوة إلى مؤتمر القاهرة باللغتين الإنجليزية والعربية . واتخذت الدعوة شكل رسالة موجهة منى إلى وزراء خارجية الدول المدعوة وإلى الأمين العام للأمم المتحدة .

تم إعداد الخطابات ، وفى العصر استدعيت السفير الأمريكى هيرمان أيلتس ، وهو دبلوماسى محترف يملك قدرا كبيرا من الثقة بالنفس التى تخففها روح الفكاهة ، وسلمته الرسالة الموجهة إلى وزير الخارجية سيروس فانس ، وتتضمن دعوة الولايات المتحدة لإرسال وفد لحضور اجتماع غير رسمى يعقد فى القاهرة يوم ٣ ديسمبر ١٩٧٧ تحضيرا لمؤتمر جنيف .

وجاء بعده دور السفير السوفيتى ، فلاديمير بولياكوف . سلمته خطابا مماثلا . وكانت لبولياكوف شخصية مزدوجة . فهو عندما يتكلم بصفته الشخصية يستخدم اللغة العربية ويكون لطيفا ، وعندما يتكلم بصفة رسمية يستخدم اللغة الروسية ويميل إلى التفاخر . وكان يصحب مترجمه معه دائما . شرحت لبولياكوف – عن طريق المترجم – أهمية قبول الاتحاد السوفيتى للدعوة . وقلت إن الاتحاد السوفيتى هو الرئيس المشارك لمؤتمر جنيف ،

وأن مصر تعتبر الوجود السوفيتى فى الشرق الأوسط أمرا ضروريا للحفاظ على التوازن بين الدولتين العظميين ، ولتأكيد التزامنا بعدم الانحياز وهو حجر الزاوية فى سياسة مصر الخارجية .

ثم التقيت بالدكتور أحمد صدقى الدجانى من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وسلمته الدعوة الموجهة إلى المنظمة للاشتراك فى مؤتمر القاهرة التمهيدى . لم يكن أحمد صدقى الدجانى غريبا عنى ، إذ كنا قد تعارفنا فى معهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية . وكباحث له كتابات عديدة شعرت بعمق ثقافته وكذلك وضوح تفكيره الذى يعبر عنه بصوت أجش ، وينطق كلماته على مهل مستخدما لغة عربية فصيحة للغاية .

اتخذت هذه الدعوة شكل خطاب مكتوب باللغة العربية ومؤرخ فى ٢٦ نوفمبر ١٩٧٧ وموجه منى إلى السيد ياسر عرفات :

السيد ياسر عرفات

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

تحية حارة

أود أن أبلغكم بالمبادرة التى اتخذتها جمهورية مصر العربية لعقد اجتماع غير رسمى فى القاهرة تشارك فيه كافة أطراف النزاع فى الشرق الأوسط ورئيس مؤتمر جنيف والأمين العام للأمم المتحدة ، بقصد الإعداد لاستمرار واستكمال عمل المؤتمر من أجل الوصول إلى حل كامل للنزاع فى الشرق الأوسط ولتحقيق سلام عادل ودائم فى المنطقة .

وعلى ذلك فإنى أدعوكم لتعين من يمثلكم للمشاركة فى هذا الاجتماع غير الرسمى الذى يعقد فى القاهرة ابتداء من يوم ٣ ديسمبر ١٩٧٧ .

أرجو قبول احترامى

الدكتور بطرس غالى
القائم بأعمال وزير خارجية
جمهورية مصر العربية

تحدثت طويلا مع صدقى الدجانى عن الغرض من الاجتماع . وأوضحت أن مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية ستكون لها أهمية قصوى . وأن حضور الوفد الفلسطينى على

مائدة المفاوضات مع الوفد الإسرائيلى سيكون نوعا من الاعتراف المتبادل غير الرسمى . وأشرت إلى ضرورة عدم تضييع هذه الفرصة وضرورة الاستفادة بقوة الدفع الناشئة عن زيارة الرئيس السادات للقدس .

وناقشت معه أكثر من حل يمكن عن طريقة التغلب على مسألة تمثيل المنظمة - بسبب رفض إسرائيل التعامل مع أعضائها . قلت مثلاً إن المنظمة تستطيع أن تكلف إحدى الشخصيات العربية ، أو أحد المسئولين المهمين فى الجامعة العربية ، بتمثيل المنظمة فى أعمال المؤتمر . وكنت أيضا على استعداد للأخذ بالصيغة التى استخدمت فى « دومبارتن أوكس » حيث وضعت - بسبب رفض السوفيت الجلوس مع جمهورية الصين - مائدتان ، إحداهما مع الاتحاد السوفيتى والثانية مع الصين . عند ذلك تستطيع الأطراف الأخرى أن تنتقل من مائدة إلى مائدة حسب الحاجة .

وقلت إن ما يهمنى قبل كل شىء هو أن تكون منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة فى الاجتماع ، وأن يرتفع علم فلسطين إلى جانب الأعلام الأخرى فوق مكان المؤتمر . وقد استمع إلىّ الدجانى ووعد بأن ينقل ما أبديته من حجج وآراء . ولم تلبث الصحف العربية خارج مصر أن بدأت تردد أن مصر لم توجه الدعوة إلى منظمة التحرير الفلسطينية . وقد استخدمت هذه الرسالة منذ ذلك الحين كثيرا لأثبت للفلسطينيين أنهم ضيعوا فرصة للحديث المباشر مع إسرائيل . وبعد أن انقضى ستة عشر عاما ، عندما جلست فى حديقة البيت الأبيض استمع إلى رابين وعرفات وهما يتحدثان عن اتفاقهما ، شعرت بالارتياح لأنى كنت على صواب . ولكنى عندما أراجع الأحداث الآن أجد أنه لابد أن أعترف أيضا بأن السنوات الست عشرة التى انقضت معناها أن المحادثات التى اقترحناها فى مينا هاوس كانت سابقة لأوانها .

وبالمثل بعثت بخطاب دعوة إلى السفير أحمد الأسعد رئيس مكتب العلاقات السورية فى القاهرة - وهو اللقب الذى أطلق على رئيس البعثتين الدبلوماسيتين لسوريا وليبيا بعد إنشاء الجمهورية العربية المتحدة وقيام اتحاد كونفيدرالى بين مصر وسوريا وليبيا . كما سلمت دعوتين إلى سفيرى الأردن ولبنان .

وأعطيت تعليماتى للسفير عصمت عبد المجيد فى نيويورك بأن يدعو الأمين العام للأمم المتحدة ، كما كلفته بتوجيه دعوة لإسرائيل عن طريق وفدها الدائم فى المنظمة العالمية ، وطبعا لم تكن هناك علاقة رسمية أو غير رسمية بين الوفد المصرى والوفد الإسرائيلى ، فلم يكن الوقت قد حان بعد لإقامة اتصال مباشر بين الجانبين . ولذا اتفقت

مع عصمت عبد المجيد على خطة يقوم بمقتضاها سفير هولندا فى الأمم المتحدة بدعوة كل من عبد المجيد والسفير حاييم هرتزوج مندوب إسرائيل إلى مقر بعثته فى وقت واحد . وخلال هذا الاجتماع قدم عصمت « بالمناسبة » خطاب الدعوة .

وفى يوم الاثنين ٢٨ نوفمبر ١٩٧٧ جاء القائم بالأعمال التركى لمناقشة الترتيبات المتعلقة بزيارة وزير خارجيته الذى كان مقررا أن يصل إلى القاهرة يوم ٣٠ نوفمبر . وكنت قد ورثت هذه الزيارة من وزير سابق للخارجية ، كان قد وجه الدعوة لنظيره التركى . ووجدت أنه من المحرج أن أطلب تأجيل الزيارة أو العدول عنها بسبب ضيق الوقت .

إن الاهتمام الأول لكل قائم بالأعمال هو أن يرقى إلى درجة سفير ، وكان هذا الدبلوماسى التركى شديد العناية بالإعداد لزيارة وزير خارجيته ، وربما كان فى ذهنه الأمل فى الترقية . وقد قدم لى مسودة بلاغ مشترك عن المناقشات التى لم تكن قد جرت بعد . ولم أستطع مواجهة هذا النشاط المفرط فأحلته إلى وكيل الوزارة المختص بأوروبا الغربية .

وكنت قد ورثت أيضا زيارة أخرى - من وزير خارجية شيلى . وشعرت بأنه ليس هناك من بديل عن تأجيل هذه الزيارة بسبب اقتراب موعد مؤتمر مينا هاوس .

وعندما أبلغت سفير شيلى بذلك بدا كأنه فقد صوابه تماما . وأسود وجهه . وبدأت تصدر عنه عبارات غير مفهومة ، بالإنجليزية أولا ، ثم بالأسبانية . وحاولت تهدئته ، وطلبت له كوب ماء . وعندما أصبح قادرا على الكلام بوضوح مرة أخرى قال إن مستقبله الدبلوماسى يتوقف على زيارة الوزير . بل إن حياته نفسها تتوقف عليها لأن التأجيل سيعتبر كارثة شخصية وفشلا لمهمته ، وأنه لذلك لن يتردد فى الانتحار !

تراجعت فى وجه هذا التهديد ، وتخليت عن فكرة تأجيل الزيارة . ولكن السفير لم يطمئن حتى طلبت السفير سعد حمزة مدير البروتوكول وأمرته فى وجود سفير شيلى بأن تستمر الزيارة بدون تغيير أو تأجيل .

بعد ذلك تغير اتجاه الأحداث .

جاء السفير الهنداوى سفير الأردن لمقابلتى ، وأبلغنى رسميا أن حكومته تأسف لأنها لا تستطيع المشاركة فى مؤتمر القاهرة .

وفى عصر نفس اليوم طلب السفير بولياكوف عقد لقاء عاجل . وجاء حاملا رسالة من حكومته . اعتذرت موسكو عن حضور اجتماع القاهرة . وقد لمت السفير وأوضحت له استيائى . وحاول بولياكوف أن يعتذر عن قرار حكومته بقوله إن موسكو تعتبر مؤتمر

القاهرة غير قانونى . وقال إنه ليس من حق مصر أن توجه دعوات لمثل هذا المؤتمر . وادعى أن هذا الحق مكفول فقط للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، الدولتين المشاركتين فى رئاسة مؤتمر جنيف فى سنة ١٩٧٣ واللتين مازالتا تمارسان هذا الدور ولو من الناحية الشكلية .

ورأيت أن تلك ذريعة تتخذ لتبرير موقف سياسى . فصحيح أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يشتركان فى رئاسة المؤتمر ، ولكن الأمين العام للأمم المتحدة هو الذى أصدر الدعوات لمؤتمر جنيف . وقد صمم السادات على هذا الإجراء ، على الرغم من أن كلا من السوفيت والإسرائيليين لم يرحبا بإعطاء الأمم المتحدة هذا الدور البارز . وقلت إن المؤتمر الذى تدعو إليه القاهرة مؤتمر غير رسمى ، وهو مجرد وسيلة لتمهيد الطريق لإحياء مؤتمر جنيف المتعثر والمساهمة فى نجاحه فى خاتمة المطاف . وقلت إن هذا الموقف السلبى من جانب موسكو ربما يكلفها فقد فرصة المشاركة فى هذا الجهد الجديد والذى لم يسبق له مثيل من أجل السلام .

ثم جاء دور القائم بالأعمال اللبنانى ، زيدان زيدان . اعتذرت حكومته عن حضور مؤتمر القاهرة بدعوى أنها لم تدع للمشاركة فى مؤتمر جنيف الأصلى فى ١٩٧٣ . وأوضحت لزيدان زيدان أن مؤتمر القاهرة سيكون اجتماعا غير رسمى . وأنه ليس ثمة ما يحول دون مشاركة لبنان إذا كانت حكومته راغبة فى التوصل إلى تسوية سلمية فى الشرق الأوسط . وقلت إن للبنان مصلحة حيوية وملحة فى إقرار السلم فى المنطقة . ووجدت أنى أكرر نفس الحجج لكل من جاءوا يعتذرون عن حضور المؤتمر .

وعندما وصل وزير الخارجية التركية إحسان صبرى كان من دواعى ارتياحى أن ألاحظ أنه رجل له شخصية لطيفة ، وثقافة واسعة ، وذهن يقظ ، ويجيد الحديث بالفرنسية والإنجليزية . ورغم تقدمه فى السن كان خفيف الحركة سريع البديهة وممتع الصحبة . وكان الأهم من ذلك أنه مؤيد لمبادرة السلام المصرية . فقد كانت تركيا من القوة والاستقلال بدرجة تسمح لها بأن تقف ضد التيار الدولى الذى بدأ فى التحرك ضد المؤتمر .

وفى يوم الجمعة ٢ ديسمبر ١٩٧٧ خضت تجربة جديدة : أول مؤتمر صحفى أعقده . كان هناك حشد كبير من ممثلى الصحافة الدولية ومحطات الإذاعة والتليفزيون . وكنت قد تعودت منذ أمد طويل على مواجهة جموع كثيرة فى قاعات المحاضرة ، ولكن العدسات القاسية والأضواء المبهرة كانت شيئا مختلفا تماما . شعرت كأن عيون العالم مركزة علىّ ، وأن كل كلمة أدلى بها ستتعرض للفحص والتدقيق .

وانهالت علىّ عشرات الأسئلة بالعربية والفرنسية والإنجليزية ، وأجبت عن كل منها بلغة السائل . وتركز اهتمام الجميع على رفض الاتحاد السوفيتى المشاركة فى المؤتمر التحضيرى فى القاهرة . وكررت ما سبق أن قلته لبولياكوف : إن مؤتمر القاهرة مؤتمر غير رسمى ، وبالتالى فليس هناك التزام باتباع قواعد وإجراءات مؤتمر جنيف . وغادرت المؤتمر الصحفى غارقا فى العرق بالرغم من أن الطقس كان باردا ، ولكنى كنت راضيا عن نفسى ، فقد تمكنت من السيطرة على الموقف والإجابة عن جميع الأسئلة بوضوح وبدون أن أفقد هدوئى أو أعصابى .

وبينما كان مؤتمر القاهرة معرضا لهذا الهجوم ، كان البيروقراطيون فى الحكومة المصرية ـ ومن بينهم بعض الوزراء الذين لا ترتبط مسئولياتهم بأى شكل بالموضوع ـ يحاولون إقحام أنفسهم فى كل التفاصيل المتعلقة بالمؤتمر . وبينما كان الاستنكار يتصاعد فى الخارج ، كان سوء التنظيم يتصاعد فى الداخل .

وفى يوم ٣ ديسمبر التقيت مرة أخرى بالسفير الأمريكى هيرمان أيلتس لمناقشة ترتيبات مؤتمر القاهرة ، فعلى الرغم من معارضة السوفيت والأردن كنا لا نزال نواصل استعداداتنا . وقال لى أيلتس وهو يغادر مكتبى :

ـ عندما عهد إليك بهذا المنصب المهم كانت لك سمعة دولية طيبة واحترام كبير فى الدوائر الفكرية والأكاديمية ، لأنك يا بطرس تتمتع بالمصداقية . وقد باتت هذه المصداقية محل تحد عندما تحملت الآن المسئولية السياسية . وبعبارة بسيطة فإن التحدى هو : هل ستتمكن من الحفاظ على هذه المصداقية وذلك الاحترام ؟

لم أعلق . لكنى بعد مغادرة السفير فكرت طويلا فيما قال . إن ماضىّ الأكاديمى والفكرى يضاعف من مسئوليتى . ولا يجوز للوزير أن يتخلى عن الباحث !

لم ينقض وقت طويل على مغادرة وزير الخارجية التركية لمصر حتى وصل وزير خارجية شيلى إلى مطار القاهرة الدولى . وقد أهدانى وسام الاستحقاق من شيلى ، من الدرجة الأولى . وعندما قابلت بعد ذلك صديقا عزيزا معروفا باتجاهاته اليسارية ، ساءه ذلك الوسام من شيلى . فكيف أقبل تكريما من حكومة بينوشيه الرجعية التى أسقطت سلفادور اللندى وتجربته الاشتراكية ، وهى الحكومة التى تتحمل مسئولية المذابح وقضت على الحرية فى شيلى ! والحقيقة أن الوسام ـ وكان أول وسام أحصل عليه فى حياتى ـ كان ينبغى أن يقدم لسلفى فى المنصب ، وهو الذى سبق أن وجه الدعوة لوزير شيلى . أما أنا فقد حصلت على الوسام بمجرد المصادفة ، ولم أفعل على الإطلاق شيئا يستحق هذا التكريم .

لم أقل شيئا من ذلك لصديقى ، واكتفيت بأن ابتسم ابتسامة أردت أن تكون دبلوماسية ، وهى ابتسامة احتجت إلى استخدامها فى المستقبل كثيرا .

فى عصر يوم ٦ ديسمبر عقدت ثانى مؤتمراتى الصحفية . وكان الغرض منه أن أشرح أسباب اتخاذ مصر لقرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع الجزائر وسوريا وليبيا واليمن الجنوبى . كان الرئيس السادات ، دون التشاور مع أحد ، قد قرر قطع علاقاتنا مع كل من عارضوا مبادرته . وكان علىّ أن أقنع الصحفيين بأن قطع العلاقات الدبلوماسية لا يعنى توقف كل العلاقات القنصلية والتجارية والاقتصادية ، وأن العلاقات بين الشعوب لن تتأثر .

ولكن أسئلة الصحفيين دارت حول مؤتمر القاهرة التحضيرى . وكنا قد اضطررنا ، بسبب موجة المعارضة الدولية ، إلى تخفيض مستوى المؤتمر وتأجيل موعده . وذكرت أن الموعد المقرر للمؤتمر الآن هو ٣ ديسمبر فى مينا هاوس ، وأن الأطراف التى قبلت الحضور هى الولايات المتحدة والأمم المتحدة وإسرائيل ومصر . وأبديت الأمل فى أن أطرافا عربية أخرى ستدرك أهمية المؤتمر وتوافق على الحضور فى اللحظة الأخيرة .

وسألنى أحد الصحفيين عما إذا كان موقف الرئيس السادات من إسرائيل سيؤدى إلى خروج الجامعة العربية من القاهرة وانتقالها إلى عاصمة عربية أخرى . وأجبت عن ذلك بالرجوع إلى ميثاق الجامعة العربية الموقَّع فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ الذى تنص مادته العاشرة على أن القاهرة هى مقر الجامعة . وقلت إنه على ذلك لن يكون انتقال المقر قانونيا إلا إذا عدل الميثاق ، وبمقتضى الإجراءات المنصوص عليها فى المادة ١٩ ، وهى تتطلب موافقة أغلبية الثلثين . وكانت إجابتى الجافة والفنية تتناقض بوضوح مع التلميحات السائدة فى الصحافة العربية ، التى كانت مملوءة بالفحيح بأن السادات خان القضية العربية ، وأننى صبى الخائن وتلميذه .

فى اليوم التالى اتصل بى رئيس الوزراء ممدوح سالم ليبلغنى أنه قرر إغلاق قنصليات الاتحاد السوفيتى فى بورسعيد وأسوان والاسكندرية ، وكذلك قنصليات بولندا وتشيكوسلوفاكيا . وطلب منى إبلاغ تلك الحكومات بالقرار حتى تمتثل له بلا إبطاء .

وبدأت أناقش مدى حكمة هذا القرار وما يترتب عليه من نتائج سياسية . لكن ممدوح سالم قاطعنى : « هذا القرار اتخذ ، وهذه تعليمات الرئيس » . وقال إن الرئيس السادات عقد العزم على الرد بشدة على كل من أدانوا مبادرته . وكانت تلك فى رأيى ذريعة ، إذ أن السادات كان يكره السوفيت والدول الدائرة فى فلكهم ويريد إخراجهم من مصر .

في يوم السبت ١٠ ديسمبر توجهت في الصباح الباكر إلى فندق هيلتون النيل لأصحب سيروس فانس ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، إلى القناطر الخيرية للقاء الرئيس . ركبنا سيارة مصفحة . وكان معنا هيرمان أيلتس الذى أطلع فانس أثناء الطريق على حجم المعارضة العربية للسادات ، ولاسيما بين الشيوعيين والأصوليين الإسلاميين .

في القناطر الخيرية هناك فيلا مقامة وسط الحدائق التى أنشئت بالقرب من أقدم القناطر على النيل شمال القاهرة ، وهناك اجتمع الرئيس السادات مع الوزير فانس وحدهما أولا ، ثم دعينا إلى الاشتراك معهما . من الجانب المصرى كان هناك حسنى مبارك وممدوح سالم والفريق عبد الغنى الجمسى ، وحسن كامل كبير الياوران وأنا . ومن الجانب الأمريكى كان هناك هيرمان أيلتس وروى آثرتون وهارولد سوندرز وفيليب حبيب . وبدا لى أن هذه الجلسة لا تعدو أن تكون استعراضا دبلوماسيا ، أى « مناسبة لالتقاط الصور » . وفيها أكد فانس تأييد حكومته لمبادرة السادات ، وأن حكومته ستشارك فى مؤتمر القاهرة . وقال السادات إنه يؤكد أهمية الدور الأمريكى فى جهود السلام فى الشرق الأوسط وفى أية جهود تبذل للتوصل إلى حل . أما القضايا الحقيقية فكانت تناقش بين الرجلين وحدهما وجها لوجه . وأبلغ فانس بعد ذلك زملاءه بما قيل وراء الأبواب المغلقة . أما نحن فكنا كلما سألنا السادات يقول إنه لا يتذكر . ولم أعرف إلاّ فيما بعد أن الأمريكيين اعتبروا ذلك الاجتماع من الاجتماعات المهمة لأن السادات أقنعهم بأنه على استعداد للسير فى طريقه ولو منفردا .

وفى يوم الأحد ١١ ديسمبر اجتمعت بلجان الشئون العربية وشئون الخارجية والدفاع فى مجلس الشعب . ورأس الاجتماع الدكتور جمال العطيفى ، وهو محام من أعضاء الحزب ذوى الطموح السياسى . وكنا قد مررنا معا بأوقات صعبة فى ظل نظام عبد الناصر ، ثم توثقت العلاقات بيننا عندما جمعنا العمل لمدة عشرين سنة فى « الأهرام » الذى لم يكن مجرد جريدة بل أيضا مركز كبير للدراسات والنشر فى الشئون العامة .

كان الحديث فى المجلس تجربة جديدة بالنسبة لى . وقررت أن أتحدث عفو الخاطر لأنى اعتقدت أن ذلك يسمح لى بتدفق للأفكار والحجج أكثر حرية . وربما كان هناك اعتبار آخر : إن أخطاء النحو يمكن التسامح فيها فى حديث مرتجل وليس فى نص رسمى مكتوب .

تحدثت إلى الأعضاء عن مبادرة الرئيس السادات ، وأبلغتهم عن مقابلاتى خلال الأسبوع السابق مع رؤساء البعثات الدبلوماسية فى القاهرة . ثم شرحت أغراض مؤتمر القاهرة التحضيرى ، وتطرقت إلى المؤتمر الذى قررت جبهة الرفض العربية لتوها عقده

لمعارضة السادات . كانت جبهة الرفض تتألف من الدول العربية التى تتمسك بجمود بـ « اللاءات الثلاثة » التى صدرت عن مؤتمر الخرطوم فى ١٩٦٧ : لا اعتراف ، لا مفاوضة ، لا سلام مع إسرائيل . وقلت إن هذا الاجتماع لن يكون له أثر سياسى ، لأن الاستمرار فى الرفض لا يمكن أن يكون بديلا عن سياسة استراتيجية مدروسة . وأنهيت حديثى بإعلان القرار الذى اتخذته مصر بإغلاق القنصليات والمراكز الثقافية لعدد من بلدان الكتلة الشيوعية . وذكرت أن تلك الهيئات كانت تقوم بأنشطة ضارة أثارت شكوك الأمن الوطنى المصرى .

وسأل ألبرت برسوم سلامة ، وهو وزير سابق ومحام من الإسكندرية ، عن اتصالاتنا مع الدول العربية غير الرافضة ـ هل ستشارك فى مؤتمر القاهرة ؟ قلت إننا نجرى معها اتصالات على نطاق واسع ، وأننا لم نتلق بعد ردا من سوريا أو منظمة التحرير الفلسطينية أو غيرهما من الأطراف العربية . وأننا مازلنا نأمل فى أن تشارك .

سألنى ممتاز نصار ، من أعضاء المجلس البارزين وذو عقل قانونى يقظ ، عما إذا كانت مصر لا تزال تعترف بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . أجبت وأنا أنتقى كلماتى بعناية ، إن أول دعوة وجهت لحضور مؤتمر القاهرة التحضيرى أرسلت إلى السيد ياسر عرفات . وأكدت اعتراف مصر بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعى للشعب الفلسطينى . ولكنى تحسبا للمستقبل تجنبت استخدام تعبير « الممثل الوحيد » . فإذا استمرت مبادرة الرئيس السادات قد تجد مصر عند نقطة معينة أن عليها أن تتفاوض باسم الفلسطينيين بموافقة الفلسطينيين من خارج المنظمة .

وما أبعد الفارق بين إعطاء محاضرة أكاديمية ـ ينبغى أن تتناول جميع جوانب المسألة بصراحة وبالتفصيل ـ وهذه المناقشات البرلمانية والسياسية التى يضطر المتحدث فيها أن يلتزم بموقف الحكومة الرسمى ، وأن يعرض جانبا واحدا من جوانب القضية ، ويتجاهل كل الجوانب الأخرى .

بينما كنا نواصل الإعداد لمؤتمر القاهرة ، سعيا إلى إعادة الأطراف مرة أخرى إلى مؤتمر جنيف وإلى المفاوضات الشاملة ، اضطرتنا الأعمال التحضيرية إلى تأجيل موعد المؤتمر من ٣ ديسمبر إلى ١٤ ديسمبر . واجتمع مؤتمر القاهرة بالفعل من الرابع عشر إلى السابع عشر من ديسمبر فى مينا هاوس بالقرب من الأهرامات . ولم تشارك فيه غير أطراف أربعة : مصر وإسرائيل والولايات المتحدة والأمم المتحدة . وكان اجتماعا « للخبراء » وليس للوزراء ، ولذا لم أحضره .

كانت مصر التى قادت حركة توحيد العالم العربى تواجه الآن العزلة بين أشقائها العرب . وكان النحاس باشا ، رئيس وزراء مصر ، هو الذى رأس مؤتمر ١٩٤٤ الذى وضع بروتوكول الاسكندرية ، وهو المسودة الأولى لميثاق الجامعة العربية الذى وقع فى القاهرة فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ . وبعد ذلك أصبحت القاهرة مقر الجامعة العربية . وأكثر من ٥٠ فى المائة من المنتمين للجامعة هم من المصريين . وأكبر مساهمة بالأموال تأتى من مصر . وكان الأمين العام مصريا دائما . ومصر هى التى وضعت – على غرار حلف شمال الأطلنطى – ميثاق الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى فى ١٧ يونيو ١٩٥٠ . ومصر هى التى دعت إلى القمة العربية الأولى برئاسة الملك فاروق . ومصر هى التى نجحت فى مواجهة حلف بغداد الذى دبرته الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى فى فترة الحرب الباردة . وبدا أن قيادة مصر للعالم العربى قد انتهت الآن عندما وقف العالم العربى ضد السادات . هل كان السادات يعرف أن ذلك سيحدث عندما ذهب إلى القدس ؟

يوم السبت ٢٤ ديسمبر ١٩٧٧ طلب منى الرئيس السادات أن أقابله فى الإسماعيلية وهى فى منتصف قناة السويس حيث كان سيقابل رئيس الوزراء مناحم بيجن الذى كان سيأتى إلى مصر ردا على زيارة السادات لإسرائيل . توجهت إلى مطار ألماظة حيث وجدت طائرة هليكوبتر فى انتظارى . وحلقت الطائرة تقل الدكتور مصطفى خليل السكرتير العام للحزب ، والنبوى إسماعيل وزير الداخلية المسئول عن الأمن ، وأنا . وحلقت بنا الطائرة فوق موقع اجتماع القمة الذى عقده فاروق فى قصر صغير فى أنشاص على الطريق إلى الإسماعيلية . كانت كل الأرض المحيطة بالقصر فى وقت من الأوقات ملكا لأسرتى ، ولكن عندما أبدى الخديوى اهتمامه بالمنطقة باع جدى الأرض له . هبطت الطائرة الهليكوبتر فى الإسماعيلية وحملتنا سيارات إلى الفيلا الأنيقة التى تستخدم استراحة فى مكان غير بعيد عن المطار . ووجدنا هناك رئيس الوزراء ممدوح سالم ، وجلسنا معه فى انتظار وصول الرئيس .

سألنى ممدوح سالم عن تعيين سفير جديد لمصر فى يوغوسلافيا ، إذ كان السفير السابق مراد غالب ـ وهو وزير سابق للخارجية وطبيب قوى الشخصية ـ قد استقال احتجاجا على سياسة السادات الجديدة . قلت إنى اتصلت بجمال منصور سفيرنا فى سوريا الذى عاد لتوه إلى القاهرة بسبب قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وسوريا . وكان من قبل ضابطا فى الجيش ، وهو من تلاميذى فى جامعة القاهرة فى أواخر الأربعينات وأصبح بعد ذلك لواء فى الجيش . وقد اتفقت معه على أن يسافر بعد موافقة الرئيس السادات إلى بلغراد دون إبطاء . وسألنى ممدوح سالم :

– ألم يكن من الأفضل الانتظار لمعرفة رأى وزير الخارجية ؟

لم أفهم فى البداية ما يعنيه ممدوح سالم . ثم أدركت مصدوما ما يريد رئيس الوزراء أن يبلغنى إياه بطريق غير مباشر . وأزعجنى هذا النبأ . وأزعجتنى أكثر الطريقة التى بلغت بها . لماذا لم أبلغ من قبل بطريقة صريحة ومباشرة ؟ بعد دقائق من الصمت سألت ممدوح سالم عن شخص وزير الخارجية الجديد . فهمس باسم – سمعته على أنه حسن كامل . وتصورت أن كبير الياوران عين فى منصب وزير الخارجية . وتذكرت ما بذله حسن كامل فى الأسابيع الماضية لتركيز الانتباه على جهوده الاحتفالية فى مؤتمر مينا هاوس . لكن الرئيس السادات دخل إلى القاعة قبل أن أتأكد من هوية الوزير الجديد .

جلسنا حول مائدة مستطيلة . وضم الاجتماع نائب الرئيس حسنى مبارك ، ورئيس مجلس الشعب سيد مرعى ، ورئيس الوزراء ممدوح سالم ، ومصطفى خليل السكرتير العام للحزب ، ووزير الدفاع الفريق عبد الغنى الجمسى ، وحسن التهامى المستشار الخاص للرئيس ، ووزير الداخلية النبوى إسماعيل . تكلم الرئيس عن أهمية الاجتماع المقبل مع بيجن ، ثم طلب منى أن أقدم تقريرا للمجتمعين عن الاستعدادات لعقد مؤتمر القاهرة . فعلت ذلك ، ثم تلوت مشروع إعلان مشترك يصدر بعد اجتماع الرئيس مع بيجن . وبعد ذلك قدم الفريق الجمسى عرضا سريعا لمناقشاته مع وايزمان . وعندما انتهى من عرضه علق الرئيس السادات بقوله « عزرا وايزمان هو الشخصية الإسرائيلية الوحيدة التى أستطيع أن أتعامل معها » . ثم نظر الرئيس نحوى وقال « بطرس ، أنت ستشارك ابتداء من اليوم فى كل اجتماعات مجلس الأمن القومى » . وفكرت فيما إذا كانت تلك وسيلة أخرى لإبلاغى بأنى لم أعد وزير الخارجية . فوزير الخارجية يحضر بطبيعة الحال اجتماعات مجلس الأمن القومى بحكم وظيفته .

عندما انتهى الاجتماع سألت ممدوح سالم عمن يكون وزير الخارجية الجديد . فابتسم رئيس الوزراء وعلى وجهه دهشة ساخرة وقال : « ألا تعرف محمد إبراهيم كامل سفير مصر فى بون ؟ إنه شخصية لطيفة . ولا شك فى أنك سترتاح فى التعامل معه وأنكما ستعملان معا بروح أخوية وبتعاون مثمر » . وكان ذلك أمرا مفهوما ، إذ كان السادات ومحمد إبراهيم كامل صديقين منذ أمد طويل ، وقد تعرضا للسجن معا لنشاطهما السياسى قبل الثورة . والأرجح أن السادات كان طوال الوقت يعتزم تعيين محمد إبراهيم كامل ، ولم يحزننى ذلك . فأنا أعرف أن السادات يعتبر أن دورى كوزير دولة للشئون الخارجية مكافىء من الناحية الوظيفية لعمل وزير الخارجية ، وقد أثبتت المهام التى عهد لى بها أن السادات يثق بى ثقة كبيرة . وأصبح من الواضح لى الآن أنى عندما اخترت غرفة وزير

الدولة للشئون الخارجية ، وليس الغرفة المجاورة المخصصة لوزير الخارجية ، كنت دون قصد قد تنبأت بمستقبلى .

عدت إلى القاهرة وإلى بيتى حيث وجدت صديقا انتقدنى بقسوة وسألنى « كيف يمكن أن تقبل العمل تحت رئاسة محمد إبراهيم كامل ؟ » . ولكنى لم أكن أعمل تحت رئاسة محمد إبراهيم كامل ، وكنت أعرف أن صديقى إنما يحاول استفزازى . وقال : « كيف تقبل هذا العار ؟ كيف تسكت على هذا الإذلال ؟ محمد كامل أصغر منك فى السن ، وفى المكانة ، وأقل فى الثقافة . وهو دبلوماسى من الدرجة الثانية . ولا تنس أنك أنت الذى ذهبت مع السادات إلى القدس وتحملت عبء المخاطرة ، من الناحيتين الشخصية والسياسية » .

ابتسمت بهدوء وقلت لصديقى إن الحياة قد أعدتنى لذلك ، فالأساتذة والأساتذة المساعدون الذين عملوا تحت إشرافى ، والذين قمت أنا بترقيتهم ، أصبحوا عمداء كليات وشغلوا مناصب قيادية أخرى فى الجامعة . وهكذا أصبح تلاميذى رؤسائى . وقلت إنى أقبل هذا الوضع ولا أجد فيه شيئا يمس كرامتى أو إهانة لشخصى . المسألة ليست السن أو المعرفة أو الخبرة . فشاغلو المناصب السياسية ستكون لهم دائما قيادة العاملين فى الوظائف العامة .

فى عصر ذلك اليوم بعد عودتى إلى القاهرة حضرت اجتماع مجلس الوزراء . وأعلن رئيس الوزراء أن مؤتمر الإسماعيلية الذى سيعقد فى اليوم التالى بين الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن سيؤدى إلى اتفاق على أهم أسس معاهدة السلام . ووجدت من واجبى ، من باب الأمانة الفكرية والسياسية ، أن أعلق على ذلك ، فطلبت الكلمة وقلت إن مفاوضات السلام تستغرق وقتا طويلا ، وأن الجهد المبذول لتحقيق السلام سيكون جهدا طويلا وشاقا ويمكن أن يستمر عدة شهور أو حتى سنوات . وضربت مثالا على ذلك محادثات السلام لإنهاء حرب كوريا وحرب فيتنام . وكانت تلك المحادثات مبنية على مبادىء مصالح الأطراف المختلفة ووضعت فى خدمتها . وأن محادثات الإسماعيلية ستقوض مبدأ الوحدة العربية وتضحى بمصالح الفلسطينيين .

لم يلق ما قلته قبولا لدى رئيس الوزراء ممدوح سالم . وظهر استياؤه على وجهه . وقال إن هناك فارقا كبيرا بين محادثات الإسماعيلية ومحادثات كوريا وفيتنام . وكنت على وشك طلب الكلمة مرة أخرى عندما شعرت بمن يزغدنى ويهمس لى بأنه لا داعى لإثارة غضب رئيس الوزراء . والتفت لأجد أنه النبوى إسماعيل يقدم لى هذه النصيحة الأخوية . لم أقل شيئا وانفض الاجتماع .

فى السيارة فى طريق العودة إلى بيتى استعرضت فى ذهنى ما حدث . لقد حاولت أن أعطى مجلس الوزراء درسا فى العلاقات الدولية والمفاوضات الدولية كما لو كنت قد عدت إلى قاعة المحاضرات . فى حين أنى كنت أتلقى دروسا فى كيمياء الحياة فى دوائر الحكم العليا .

ومن ذلك الوقت بدا أن الأحداث تتدافع حولى بلا توقف .

ولنأخذ لقطة فى الإسماعيلية : الاجتماع الثانى مع مناحم بيجن وموشى ديان وعزرا وايزمان والجنرال ابراهام (ابراشا) تامير . كانت شخصية بيجن الصخرية بادية فى كل كلمة ينطق بها وكل حركة يقدم عليها . هذا الرجل ، وهو رجل دولة ويقوم بعمل دبلوماسى ، شخص عدوانى ، وبدا لى أنه خطر على السلام وعلى عملية السلام . ومن ناحية أخرى كان هناك وايزمان وهو رجل عسكرى عظيم ، أسعدنا بأسلوبه المرح ، وكان وجوده يخفف الجو . أما ديان فلم يكن فى الوسع التنبؤ بموقفه . فى لحظة يتغطرس ويتكلم بمرارة وفى اللحظة التالية يقترح حلولا مبتكرة ويدفع العملية إلى الأمام .

لقطة أخرى : الاجتماع الأول بينى وبين وزير الخارجية الجديد ، محمد إبراهيم كامل . وجدت من البداية أن التعامل معه لن يكون صعبا . شخصيته لطيفة ومتسامحة . وهو يتكلم بإخلاص ووضوح فى عبارات تكشف عن قلب كبير . وكان الكثيرون قد حذرونى مرارا من أن العلاقات بين وزير الخارجية ووزير الدولة للشئون الخارجية تكون عادة علاقات سيئة . وسمعت حكايات عن صداقات تحولت إلى عداوات ، وعن وزراء للخارجية ركنوا وزراء للدولة ، وعن وزراء دولة يتآمرون للتخلص من وزراء الخارجية . ولكن اجتماعى مع محمد إبراهيم كامل جعلنى أشعر بأننا نستطيع أن نعمل معا بأمانة ، وبإخلاص لبلدنا .

لقطة ثالثة : مأدبة الغداء التى أقيمت فى الفيلا الأنيقة بالإسماعيلية . جلست إلى جوارى زوجة وزير خارجية إسرائيل السابق آبا إيبان . كانت قد ولدت فى الإسماعيلية وتربت فيها . وعندما عرفت أن بيجن سيقابل السادات هناك طلبت أن تصحب الوفد الإسرائيلى ، ووافق بيجن على ذلك . وظلت السيدة آبا إيبان تمطرنى بالأسئلة طوال المأدبة . أسئلة سياسية وغير سياسية ، شخصية وغير شخصية . وكان معظم تلك الأسئلة بعيدا عن الدبلوماسية . ما حقيقة العلاقات بين السادات ومبارك ؟ - حتى وهما يجلسان معنا على نفس المائدة ! وما دور رئيس الوزراء فى المفاوضات مع إسرائيل ؟ - مع وجود رئيس الوزراء جالسا بالقرب منا ! ولماذا لم يعينونى وزيرا للخارجية ؟ لماذا لا يأكل السادات نفس الطعام الذى يأكله ضيوفه ؟ وهل يعدّ له طعام خاص ؟ ألا يتناول طعام

الغداء ؟ هل هو صائم ؟ قلت للسيدة الإسرائيلية إنى لا أزال فى مرحلة ألف باء فى الدبلوماسية ولذا لا أستطيع أن أجيب عن أسئلتها المحددة ، ولكنى أستطيع أن أتكلم عن جميع جوانب القضية الفلسطينية وأن أشرح أبعادها التاريخية والقانونية والسياسية من وجهة نظر أكاديمية . ضحكت وقالت إن زوجها أيضا أكاديمى وأن حديثه أيضا من هذا النوع ، أيا كان الموضوع .

لقطة أخرى : ذكر الرئيس السادات أن اليوم هو عيد ميلاده التاسع والخمسون . ومن الغريب أن أحدا لم يكن يعرف ذلك . وأحدث النبأ جوا من البهجة ، فهنأه الجمسى ، ووقف بيجن وألقى كلمة أشاد فيها بطريقة السادات فى التعامل وبشخصيته وإنجازاته . ولكن بيجن بالغ فى الثناء إلى درجة جعلته يبدو كما لو كان يسخر ويهزأ . ومع ذلك فقد ختم بيجن كلمته بلهجة مخالفة . قال إن من تقاليد اليهود أن يتمنوا للصديق فى عيد ميلاده أن يعيش مائة وعشرين سنة . وقال « أعرف أن ذلك يكون صعب التصديق ، ولكنى أتمنى من أعماق قلبى أن يعيش أنور السادات مائة وعشرين سنة وأكثر » . وابتسم الرئيس السادات ابتسامة واسعة ، وشكر بيجن ، وساد بيننا جو من السرور .

دارت محادثات مكثفة فى الإسماعيلية لمدة يومين ، بدأت بجلسة مغلقة بين السادات وبيجن . وقضيت وقتى فى محادثة مع وايزمان أولاً فى إحدى القاعات ، ثم مع ديان فى قاعة أخرى . وكان غرضى أن أوجد توازنا فى علاقاتى مع هذين الشخصين اللذين بدا لى أنهما قطبان إسرائيليان متضادان . ولم ألبث أن عرفت أن بينهما تضامنا عميقا .

بعد نصف ساعة خرج بيجن والسادات لكى ينضما إلينا . وبدا رئيس الوزراء الإسرائيلى سعيدا ومستريحا ، وأقلقنى ذلك ، وتساءلت عما يمكن أن يكون مصدرا لسروره . ولم ألبث أن عرفت أن بيجن حصل على موافقة السادات على تشكيل لجنتين على المستوى الثنائى ، إحداهما عسكرية والأخرى سياسية . يشارك فى الأولى وزيرا الدفاع من البلدين ، ويشارك فى الثانية وزيرا الخارجية . وتعقد جلساتهما فى القدس .

وما إن علمت بهذا الاتفاق « عصابة » وزارة الخارجية - كما كان الإسرائيليون يسموننا - حتى سعينا إلى تغيير تشكيل اللجنتين بحيث تصبحان شاملتين بدلا من أن تعقدا على المستوى الثنائى حيث تكون مصر فى وضع أضعف ، لأن إسرائيل مازالت تحتل الأراضى المصرية . وسعينا لأن تكون المحادثات متفقة مع مؤتمر القاهرة المقرر عقده ، والذى لم يكن قد أعلن عن قبول حضوره غير الولايات المتحدة والأمم المتحدة بالإضافة إلى إسرائيل ومصر . وخشيت أن يكون غرض إسرائيل هو إجراء محادثات ثنائية حتى

تعقد صلحا منفردا مع مصر ، فذلك سيحول بيننا وبين الحديث عن حقوق الفلسطينيين ، ويؤدى فى الوقت ذاته إلى تفكك المعسكر العربى الشامل .

نجحنا فى تحويل اللجنة السياسية إلى هيئة رباعية تشمل أيضا الأمم المتحدة والولايات المتحدة ، لكن اللجنة العسكرية ظلت ثنائية . وحصلنا على الموافقة على أن تقدم كل من اللجنتين تقريرها إلى مؤتمر القاهرة التحضيرى ، وأن من سيدعون بعد ذلك إلى مينا هاوس سيكونون على المستوى الوزارى وليس على مستوى الخبراء . وبذلك استطعنا أن نربط كلتا اللجنتين بمؤتمر القاهرة التحضيرى ، باعتبار ذلك وسيلة لإبقاء العملية تحت نهج مؤتمر جنيف ، وهو نهج شامل وليس ثنائيا . ولكن جهودنا تعرضت للفشل مرة بعد أخرى لأن العربُ رفضوا مبادرة السادات ، ولأن الإسرائيليين ظلوا يضغطون من أجل صلح منفرد مع مصر يستبعد منه الفلسطينيون . وهكذا نشأ تحالف موضوعى غريب بين الرافضين العرب والمتشددين الإسرائيليين .

وبعد ذلك تكلم بيجن ساعات وساعات - أو هكذا بدا - يشرح مشروعه لتحقيق « الحكم الذاتى » للفلسطينيين . وبدا لى أن رؤيته تقوم على نوع من الكيان الفلسطينى المبتسر ، كيان تكون له صورة الحكم الذاتى ولكنه يبقى السيطرة العملية فى يد إسرائيل . وكان وهو يتحدث يكرر القول مرة بعد أخرى أن المستوطنات التى بنتها إسرائيل فى سيناء ، بين العريش ورفح ، وفى الطريق من إيلات إلى شرم الشيخ ، يجب أن تبقى وأن تظل تحت الإدارة الإسرائيلية .

ورد عليه الرئيس السادات بقوة قائلا إن القوات الإسرائيلية يجب أن تنسحب من جميع الأراضى التى احتلتها فى يونيو ١٩٦٧ ، وأن تمكن الشعب الفلسطينى من ممارسة حقه فى تقرير المصير .

فى اليوم التالى دخلنا فى مناقشات مستفيضة حول الإعلان المشترك ، ووافق السادات من حيث المبدأ على المشروع الذى عرضه الجانب الإسرائيلى . ولكن « عصابة » وزارة الخارجية اعترضت ، إذ لم تكن هناك حاجة إلى إعلان مشترك لأنه لم يتحقق شىء .

ومع ذلك ففى ختام قمة الإسماعيلية عقد السادات وبيجن مؤتمرا صحفيا مشتركا فى خيمة فسيحة أقيمت خلف الفيلا التى التقيا فيها . وكان هناك حشد كبير من الصحفيين من مختلف أنحاء العالم . وقرأ الرئيس إعلانا أوضح الموقفين المختلفين للجانبين . ووجه أحد الصحفيين المصريين سؤالا إلى رئيس الوزراء بيجن باللغة العبرية . وبدا أن بيجن سر بذلك ، وهنأ صاحب السؤال على إجادته للغة الإسرائيلية .

وعندما انتهى المؤتمر الصحفى رأيت علامات الارتياح على وجه كل من السادات وبيجن . وكانا سعيدين على ما يبدو على الرغم من أن الاجتماع لم يحقق تقدما حقيقيا ، وعلى الرغم من الهوة الواسعة بين الدولتين .

وعندما كنت فى طائرة الهليكوبتر التى حملتنا من الإسماعيلية إلى مطار ألماظة ، بدا لى أنه ليس ثمة شك فى أن اجتماع الإسماعيلية قد فشل . فقد اتسم بالارتجال وبعدم تنظيم المفاوضات . وكنا قد أعددنا دراسات ومذكرات وملخصات وأبحاثا ، لكنها لم تقرأ ولم تستخدم . وأعرب ديان نفسه عن عدم ارتياحه ، وقال لى إن اجتماع الإسماعيلية قد فشل ، وإننا لن نتمكن من تحقيق شىء فى المستقبل إذا استمر العمل بهذا الأسلوب غير المخطط . وكانت « عصابة » وزارة الخارجية من جانبها قد حاولت إقناع السادات بأنه ما دام لم يتم التوصل إلى إعلان مشترك مع الجانب الإسرائيلى فإن الاتفاق على تشكيل اللجنتين يتعذر تنفيذه . ورفض السادات ذلك قائلا : « لقد أعطيت كلمتى لمناحم بيجن ولا يمكن أن أسحبها » . وحاولنا أن نقنعه بأن المفاوضات تحتاج إلى قدر أكبر من التخطيط ، لكنه رفض أى مناقشة فى ذلك .

غلبنى شعور بالفشل والاكتئاب . وكشف لى اجتماع الإسماعيلية جوانب متعددة من شخصية السادات . وكتبت فى مفكرتى النقاط الرئيسية كما رأيتها :

● أولاً : إن السادات ليس له صبر على التفاصيل . وهو يفضل أن يترك القرار فيها لمساعديه ، مما يسمح له بأن يتخطاهم أو يغير ما اتفقوا عليه فى اللحظة الأخيرة .

● ثانياً : بات من الواضح لى أن الهدف الوحيد للسادات هو استعادة الأراضى المصرية ـ عودة سيناء إلى الوطن . أما المسائل الأخرى فكلها ثانوية ويمكن إرجاؤها إلى حين تحقيق الأولوية الرئيسية .

● ثالثاً : إن ما يبدو من عدم اهتمام السادات بالقضية الفلسطينية هو انعكاس لاقتناعه بأنه يتعذر معالجة القضيتين المصرية والفلسطينية فى نفس الوقت ، وأن محاولة معالجتهما معا ستقلل من قدرتنا على تحقيق أى منهما . وبعبارة أخرى إن السادات استخلص أن مصر لا تستطيع أن تبذل جهدا أساسيا لكسب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى مادامت هناك أرض مصرية تحت الاحتلال الإسرائيلى . وعلى النقيض ، كنت على يقين من أنه لا يمكن لأية معاهدة للسلام أن تدوم إلا إذا تضمنت تدابير لحقوق الفلسطينيين ، حدها الأدنى حق تقرير المصير .

● رابعاً : إن السادات لا يتمسك بمؤتمر جنيف ، ومن الواضح أن مؤتمر مينا هاوس ليس فى رأيه تحضيرا للعودة إلى جنيف بل تمهيدا لمفاوضات مباشرة بعيدة عن الهيكل الشامل الذى يضم جميع الأطراف المتمثل فى مؤتمر جنيف .

● خامساً : إن السادات يفاوض ويناور ويقدم الحجج ، ليس فقط مع الجانب الإسرائيلى ، بل أيضا مع موظفيه المصريين . وربما كان يفعل معهم ذلك بدرجة أكبر . وبدا أنه يريد فى وقت واحد أن يشجع وأن يحتوى اختلاف رأينا مع رأيه . فهو يريد أن يبين لبيجن أنه يواجه مقاومة داخلية كما يواجه معارضة من العالم العربى الأوسع .

وأتاح لى اجتماع الإسماعيلية الفرصة لأدرس وأحلل الفكر والسلوك الإسرائيلى . وقد بات واضحا أن هدف إسرائيل هو عقد صلح منفرد مع مصر ، وأن تبعد الولايات المتحدة والأمم المتحدة عن عملية التفاوض بقدر الإمكان . وذلك يفسر ارتياح بيجن لمفاوضات الإسماعيلية رغم أنها لم تحقق شيئا ، لأنه لم يكن مهتما إلا بالمحادثات الثنائية . وذلك يفسر عدم ارتياح بيجن لإصرار « عصابة » وزارة الخارجية على ضرورة المشاركة الأمريكية وحضور الأمم المتحدة .

وبدا لى أن رفض بيجن الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقه فى تقرير المصير ينبع من رفض عنيد لمواجهة الواقع ، وهو رفض لا يختلف عن رفض العرب لمواجهة حقيقة وجود إسرائيل . ونتج عن ذلك أن تجنب الوفد الإسرائيلى معالجة القضية الفلسطينية كمسألة سياسية ، وحاول قصر المناقشات على الجوانب الإنسانية والإدارة المحلية .

وكان من المفهوم أن تحاول إسرائيل تعميق الانقسامات والخلافات داخل العالم العربى . وتركز ذلك فى المقام الأول على غرس بذور الشك بين مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية . وقد وصف بيجن المنظمة بأنها ليست إلا أداة فى يد الشيوعية الدولية ، وحاول التلميح إلى أنها تشكل خطرا على الحكومات العربية المعتدلة وعلى حكم الرئيس السادات . ولم يعترض السادات على هذا الوصف .

ولم يلبث بيجن أيضا أن أدرك أن أسلوب السادات فى التفاوض يتيح لإسرائيل الفرصة لإثارة الخلافات بينه وبين مساعديه . ولذا قال بيجن إن السادات وحده هو الراغب فى السلام ، فى حين أن وزارة الخارجية لا تزال تحت تأثير وزير الخارجية السابق ، إسماعيل فهمى ، الذى فضل الاستقالة على السفر إلى القدس . وقال بيجن إن « العصابة » تعمل لضمان فشل مبادرة السادات .

● وأخيرا كانت إسرائيل عاقدة العزم على التوصل إلى اتفاق حول النتائج العملية لاتفاق للسلام - مثل التجارة والسياحة والعلاقات الدبلوماسية - قبل الموافقة على الانسحاب من سيناء ، إذ كان المفاوضون الإسرائيليون يريدون حرمان المفاوضين المصريين من أهم ورقة في يدهم . بينما كنا نحن نريد أن نناقش الانسحاب الإسرائيلي كشرط يسبق القضايا الأخرى .

مر كل ذلك بخاطرى وأنا فى طائرة الهليكوبتر المتجهة إلى مطار ألماظة . كنا قد قضينا يومين فى مفاوضات مرهقة جعلت من الواضح أن المفاوضات مع إسرائيل ستكون طويلة وشاقة وغير مؤكدة النتائج . وكان موقف المفاوض المصرى ضعيفا ، وأسلوبنا فى التفاوض يزيد من هذا الضعف . وكان موقف إسرائيل فى التفاوض قويا ، والمفاوضون الإسرائيليون يتحركون وفقا لخطة مترابطة ومدروسة من أجل تحقيق أهداف واضحة تتعلق بكل من الأمد الطويل والقصير .

وفى ٢٧ ديسمبر حضرت مأدبة العشاء التى أقامها الرئيس السادات فى قصر عابدين تكريما لهيلموت شميت مستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية . وكان الطعام سيئا ، غير لائق برئيس دولة أو حتى بمطعم من الدرجة الثانية ، وقد تناولنا الطعام على أنغام أوركسترا فى الغرفة المجاورة ، تعزف موسيقى عربية وموسيقى غربية بالتناوب .

وفى اليوم التالى التقيت مع السادات وشميت على مائدة غداء لدى السفير الألمانى فى مقر إقامته المطل على النيل . ومرة أخرى لاحظت أن الرئيس السادات يمتنع تماما عن تناول أى طعام . واكتفى بكوب صغير من الشاى . وكان بالمثل مقتصدا فى كلامه ، ولم يتناول بأى شكل القضايا السياسية أو الدولية .

وفى يوم الجمعة ٣٠ ديسمبر زارنى فى مكتبى إدجار فور رئيس وزراء فرنسا السابق . كان قد أصبح رئيسا للمعهد الدولى لحقوق الإنسان فى ستراسبورج الذى كنت أحد أمنائه . ووصف إدجار فور الدولة الإسرائيلية بأنها «colonie à métropole diffuse» ، بمعنى أنها مستعمرة ليست تابعة لدولة استعمارية واحدة بل تنتمى إلى إمبراطورية منتشرة على نطاق العالم كله . وكان بذلك يشير إلى الشتات اليهودى . وكان حديث إدجار فور حافلا بالنقد لإسرائيل وسياساتها . ولكنه قال : « لا يستطيع أحد أن يتهمنى بالعداء للسامية ، لأنى متزوج من امرأة يهودية » .

إحباط فى القدس

فى أوائل يناير ١٩٧٨ سافرت مع محمد إبراهيم كامل إلى أسوان ، حيث أقمنا فى فندق « أوبروى » على جزيرة فى النيل بين جبال الصحراء الوردية إلى الغرب ومدينة أسوان على الضفة الشرقية . وأدهشنى أن أعرف من وزير الخارجية الجديد أنه خلال عمله الدبلوماسى الطويل لم يقم فى أى وقت بزيارة بلد عربى آخر ، وأن معرفته بالعالم العربى والقضية الفلسطينية لا ترتبط كثيرا بالواقع . وأدت بى محادثاتنا إلى توقع صعوبات جديدة داخل الوفد المصرى فى المفاوضات المقبلة .

وفى وقت مبكر من صباح يوم الأربعاء ٤ يناير كنا فى مطار أسوان ننتظر وصول الرئيس جيمى كارتر ، الذى ستهبط طائرته وتظل على أرض المطار لمدة ساعة للتزود بالوقود . وكان الطقس قارس البرودة ، لكن الرئيس السادات أصر على القيام بإجراءات الاستقبال الرسمى كاملة . ومن ثم تم إطلاق ٢١ طلقة مدفع للتحية ، وعزف السلامين الوطنيين، واستعراض حرس الشرف . واستغرق ذلك كله قرابة خمس وأربعين دقيقة ، وهى مدة كان يمكن أن تكرس بشكل أفضل لشرح الموقف المصرى للرئيس الأمريكى .

وفى الفترة القصيرة الباقية التقى الرئيسان على انفراد فى استراحة كبار الزوار . وجلس الوفدان فى الخارج وناقشا فكرة قيام الرئيس كارتر بزيارة سريعة للسد العالى ، لكن الأمريكيين المسئولين عن الأمن رفضوا الفكرة رفضا قاطعا . وقبل إقلاع الطائرة أصدر الرئيس الأمريكى بيانا يعلن لأول مرة اعتراف الولايات المتحدة « بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى » ، وحقه فى المشاركة فى المفاوضات التى تقرر مصيره .

وكان ذلك إعلانا مهما . ناقشته مع موسى صبرى رئيس تحرير جريدة الأخبار اليومية أوسع الصحف انتشارا فى مصر . وكانت صداقة موسى صبرى بالسادات ترجع إلى أيام وجودهما معا فى السجن فى عهد فاروق . وهو صحفى غزير الإنتاج ، يتصف بالأمانة والشجاعة - وهما أمران نادرا ما يجتمعان فى العالم العربى . وعرفت حينذاك أن موسى صبرى كان واحدا من الشخصين الآخرين اللذين طلب منهما السادات وضع مسودة للخطاب الذى سيلقيه فى القدس ، وأن النص الذى قدمه موسى صبرى كان هو النص الذى اختاره الرئيس ، وليس النص الذى قمت بإعداده . وبشكل ما ، أصبح موسى صبرى هو خط اتصالى بالسادات . واتفقنا أنا وهو على أننا يجب أن نسعى لتوجيه انتباه الصحافة إلى أن الولايات المتحدة تدعو الآن إلى مشاركة الفلسطينيين ، وليس مجرد حديث عن « مستقبلهم » .

وبعد ذلك بأسبوع ، فى يوم الاثنين ٩ يناير ، ذهبت مرة أخرى إلى أسوان ، هذه المرة لأكون بين مستقبلى صاحب الجلالة محمد رضا بهلوى شاه إيران . كان الطقس أحسن كثيرا مما كان فى يوم وصول الرئيس كارتر . كان البرد قد خف والشمس ساطعة ودافئة . هبطت الطائرة الإيرانية ، وأطلقت المدافع الإحدى والعشرين طلقة ، وعزفت الموسيقى السلام الإمبراطورى والسلام الوطنى المصرى . وتفقد الشاه حرس الشرف وذهب مع الرئيس السادات إلى فندق أوبروى .

جلست إلى جانب حمام السباحة فى الفندق ، وتناولت الغداء مع حسنى مبارك وممدوح سالم ومحمد إبراهيم كامل وحسن كامل .

وفى المساء أقام الرئيس السادات حفل عشاء رسمى تكريما للشاه . وبعد العشاء انتقل الوفدان إلى قاعة استقبال فسيحة لمشاهدة عرض قدمته فرقة أسوان للرقص الشعبى . وكان العرض النوبى العربى الفلاحى طويلا ومرهقا .

كان كل من السادات والشاه فى ذروة قوتهما . وبدا واضحا لنا جميعا أنهما إذا أقاما تحالفا فسوف يسيطران على الشرق الأوسط بكامله باعتبارهما الدولتين العظميين فى المنطقة . وكانت الصداقة بينهما قديمة ، ففى حرب ١٩٧٣ كان الشاه وحده هو الذى حافظ على استمرار تدفق النفط إلى مصر . وكانت إسرائيل قد اتبعت منذ فترة طويلة الحكمة القديمة التى تدعو إلى إقامة علاقات حسنة مع جار جارك ، وأنشأت علاقة قوية مع حكومة الشاه باعتبارها ثقلا موازنا للأعداء العرب القريبين منها .

وكان الشاه قد أيد رحلة السادات إلى القدس . وكانت تستحوذ عليه هو والسادات فكرة مسيطرة : هى مكافحة الشيوعية . ومن أدلة ذلك أنهما كانا يتعاونان فى تأييد الصومال فى نزاعه مع إثيوبيا الماركسية اللينينية . وكان السادات يعتقد أن الولايات المتحدة تنظر إلى هذه العلاقة بين مصر وإيران بعين الرضا .

وعندما عدت إلى القاهرة حضرت اجتماعا لمجلس إدارة الجمعية المصرية للقانون الدولى . واتفقت مع الدكتور حافظ غانم على أن أقدم للمجلس اقتراحا بترشيح أنور السادات لجائزة نوبل للسلام . ووافق المجلس على الاقتراح من ناحية المبدأ ، ولكنى شعرت بأن بعض الأعضاء ، مثل مثقفين مصريين آخرين ، لم يكونوا متحمسين للفكرة .

وتقرر أن تجتمع اللجنة السياسية التى اتفق عليها فى الإسماعيلية ، فى القدس خلال ثلاثة أيام . وفى اجتماع فى مكتب محمد إبراهيم كامل مع فريق الخبراء فى الوفد المصرى ، طرحت مشروع الكلمة التى سيلقيها محمد كامل فى الجلسة الافتتاحية ،

واعتمدت فيها إلى حد كبير على مشروع الكلمة الذى كنت قد أعددته ليستخدمه الرئيس السادات فى القدس ، ولكنه لم يأخذ به . وكان ذلك المشروع قد تطلب منى قدرا كبيرا من الجهد والوقت ، فلماذا لا نستفيد به فى الزيارة الثانية للقدس ؟

قرأت النص المقترح بصوت عال واستمع له محمد كامل وعصمت عبد المجيد وبقية الحاضرين . وشعرت بأنهم لم يرتاحوا إليه . فالجوانب الثقافية والأدبية فى مشروعى لم تكن تتفق مع المناخ السياسى أو مع متطلبات اللجنة السياسية . كنت لا أزال أخلط بين العمل الدبلوماسى والعمل الأكاديمى . وربما كان ينبغى لى أن أتبين أن « الاثنين لن يلتقيا أبدا » .

ولكن بناء على إلحاحى ، قبل محمد كامل بعض التعبيرات الواردة فى مشروعى ، ومنها تعبير « *المدينة الفاضلة* » الذى وصفت به القدس ، وقصدت أن يكون إشارة إلى كتاب الفيلسوف الفارابى ، كما قبل التعبير المتعلق « بضرورة إقامة سلام بين بيت إسرائيل وبيت فلسطين » .

وفى يوم السبت ١٤ يناير ، قبل يوم واحد من الموعد المقرر لسفرنا لحضور اجتماع اللجنة السياسية فى القدس ، استقبلت سفير جمهورية افريقيا الوسطى الذى أبلغنى بأن جلالة الإمبراطور بوكاسا أعرب عن تأييده لمبادرة الرئيس السادات . وأثناء إبلاغى بالرسالة ، تلا السفير كل الألقاب الفخمة التى اختارها بوكاسا لنفسه . وقد عُرف الإمبراطور بوكاسا بعد ذلك فى العالم كله بالمذبحة البشعة التى أمر بها ، وبجبال الجماجم التى تفقدها مزهوا . وقيل إن بعض ضحاياه قتلوا إشباعا لنهم الإمبراطور لأكل اللحم البشرى . وعندما سقطت إمبراطورية بوكاسا وجد ملجأ فى فرنسا .

وأمر الرئيس السادات بأن تقوم طائرته الرئاسية بنقل الوفد المصرى إلى تل أبيب . ووصلنا إلى مطار بن جوريون عند غروب الشمس فى اليوم التالى ، الأحد . وبعد وصولنا قرأ محمد إبراهيم كامل كلمة موجزة باللغة الإنجليزية ، تؤكد موقف مصر الأساسى بشأن استحالة تحقيق السلام مادامت الأراضى العربية محتلة ، ومادام هناك إنكار للحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى .

وانتقلنا بالسيارات إلى القدس . كان فى السيارة معى إفرايم إفرون المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية . وركب محمد كامل فى سيارة موشى ديان . ووصلنا إلى فندق هيلتون حيث تعشيت مع محمد إبراهيم كامل وعصمت عبد المجيد فى جناح محمد كامل . ورغم أن خبراء الأمن المصريين فتشوا الجناح وأكدوا لنا أنه ليست به أجهزة تنصت أو تسجيل ، فقد تجنبنا فى حديثنا الموضوعات السياسية .

فى يوم الثلاثاء ١٧ يناير بدأ عمل اللجنة السياسية بمشاركة سيروس فانس . وبالإضافة إلى الوفود المصرية والإسرائيلية والأمريكية كان هناك ممثل للأمم المتحدة ، وقد أصر على أن يكون مقعده على بعد قدم ونصف القدم من مائدة المؤتمر المستديرة الموضوعة فى الدور التحتانى للهيلتون . وكان ذلك بناء على تعليمات من الأمين العام كورت فالدهايم ، حتى يتأكد أن وجوده فى المؤتمر هو بصفة مراقب وليس بصفة عضو كامل العضوية .

وكانت مشاركة الأمم المتحدة قد تطلبت جهدا مكثفا مع كورت فالدهايم من جانب الوفد المصرى الدائم فى نيويورك . إذ كان العرب يريدون ألاّ تضفى الأمم المتحدة أى قدر من الشرعية على مبادرة السادات ، وكان ضغطهم على فالدهايم يثير مخاوفه بشأن مدى مشاركة الأمم المتحدة .

بعد الجلسة الافتتاحية جاء عزرا وايزمان إلى غرفتى . وحرص وزير الدفاع الإسرائيلى على أن يؤكد لى أنه ليس عضوا فى الوفد الإسرائيلى ، وأنه لا يشارك فى أعمال اللجنة السياسية . وفى حديثى معه أبلغته أنى وجدت فى غرفتى مطبوعا يهاجم منظمة التحرير الفلسطينية بشدة ويصفها بأنها مؤامرة شيوعية . قال إن إنشاء دولة فلسطينية تحت قيادة المنظمة سيمثل خطرا شديدا على أمن إسرائيل . وقرأ وايزمان ذلك المطبوع ثم قال ضاحكا « هذا موجه للسواح الأمريكيين وليس للوزراء المصريين » .

وفى عصر ذلك اليوم اتفقت مع محمد كامل على زيارة رئيس الوزراء بيجن على أمل أن تؤدى هذه المجاملة إلى تخفيف الجو . وتوجهنا إلى مكتب بيجن فى مبنى الكنيست الإسرائيلى حيث استقبلنا بحفاوة . وأمسك رئيس الوزراء بكتاب فى القانون الدولى من تأليف بروفيسور ل . ف . ل . أوبنهايم ، وقال وهو يوجه حديثه لى « القانون الدولى يميز بين الحروب الدفاعية والحروب العدوانية . وحرب ١٩٦٧ كانت حربا دفاعية ، وعلى ذلك يحق لإسرائيل أن تحتفظ بجزء من الأراضى التى احتلتها فى تلك الحرب » . وقد تصور بيجن أن إقناع أستاذ القانون الدولى بجامعة القاهرة سيكون أسهل من إقناع وزير الدولة المصرى للشئون الخارجية !

تكلم بيجن بانفعال شديد عن وسائل الإعلام المصرية ، وقال إنها هاجمته بطريقة غير مقبولة . وبعد مناقشة طويلة اتفقنا على أنه ينبغى للجانبين أن يتجنبا الاستفزازات فى الصحافة وفى البيانات الرسمية ، وأن يمارسا الدبلوماسية الهادئة . وقال لى بيجن وهو يبتسم « الآن وقد وصلنا إلى اتفاق ، هل أناديك بيتر أم بطرس ؟ » . أجبت بأن ذلك يتوقف

على درجة صلابة الاتفاق . ضحك ، كإشارة إلى أن علاقتنا طيبة ، وقال : « فى هذه الحالة سوف أدعوك بطرس ! » .

فى المساء أقام مناحم بيجن حفل عشاء فى فندق هيلتون . وبدا أن تلك بادرة استثنائية ، لأنه بحكم البروتوكول كان يستطيع أن يترك تلك المهمة لوزير خارجيته ديان . وبعد العشاء ألقى بيجن كلمة طويلة هاجم فيها الموقف المصرى ، وخاطب وزير الخارجية محمد كامل بلهجة التعالى واصفا إياه بأنه « صديقى الشاب » . ولم تكن كلمة بيجن كلمة ترحيب ، ولم تكن عباراته ودية بل جارحة .

أغضبت الكلمة محمد كامل الذى نهض على الفور ليعلن أن حفل العشاء ليس هو المكان المناسب لإجراء مناقشات سياسية ، فهذه المناقشات يجب أن تبقى فى إطار الجلسات المغلقة للجنة السياسية . ثم جلس محمد ورفض أن يخاطب أيا من الجالسين بجواره . وعندما عرض بيجن نخبا ، رفض المشاركة .

عندما عدنا إلى جناح كامل أجرينا مناقشة طويلة حول دوافع بيجن . ما الذى جعله يهاجم السياسة المصرية علنا ، فى حين أننا عندما كنا منذ ساعات قليلة فى مكتبه اتفقنا على عقد هدنة فى معركة وسائل الإعلام ، وعلى تجنب مثل هذا السلوك بالتحديد ؟ وقد عرفنا فيما بعد أن السادات عندما علم بما قاله بيجن تملكه الغضب ، وقرر إرسال طائرة حربية مصرية فى نفس تلك الليلة لإعادة وفدنا بكامله إلى القاهرة . وتم الحصول على الموافقة على حضور الطائرة من جانب إسرائيل ، ولكن السادات عاد فرجع عن الفكرة .

بسبب كلمة بيجن كان الجو فى اليوم التالى مكفهرا . ولم تحدث غير اتصالات هامشية فى غرف الفندق وقاعاته . وبذل سيروس فانس كل ما فى وسعه لتبديد الغيوم ، ولكنه لم يحقق نجاحا يذكر .

تناولت الغداء فى غرفتى مع ييجال يادين . أشار يادين إلى طبقى وقال : « أنت تأكل سمكا من بحيرتكم البردويل » . وهى إحدى البحيرات المالحة فى شمال سيناء التى تحتلها إسرائيل . وأجبت : « عندما تعود البحيرة إلى أصحابها سأدعوك لتناول نفس السمك فى القاهرة ، بعد طهيه بالطريقة المصرية » . وقلت ليادين إن المفاوضات تحتاج إلى جو من الهدوء والسرية ، وأن التصريحات الاستفزازية والمعارك الصحفية لن تكون لها نتيجة غير الفشل . وقلت إنى أخشى وقوعه حادثة دبلوماسية يمكن أن تؤدى إلى انهيار عملية السلام بكاملها ، وإذا حدث ذلك متى سيظهر زعيم آخر مثل السادات ؟ لقد هيأ السادات فرصة فريدة للسلام ، ولابد من اغتنامها .

قال يادين إنه يشاركنى فيما أشعر به من تشاؤم . وقال إنه رغم كونه نائبا لرئيس الوزراء فقد اُستبعد من المفاوضات ، كما استبعد قبل ذلك من الوفد الإسرائيلى الذى شارك فى اجتماعات الإسماعيلية .

بعد مغادرة يادين جاء العقيد أحمد الحفناوى ضابط الأمن المخصص لى ، ليبلغنى أن التعليمات جاءت من القاهرة بقطع المفاوضات والعودة إلى مصر على الفور . وسرعان ما رأيت جوا من الهستيريا يجتاح الوفد المصرى . الأمتعة تحزم فى الحقائب ، والمساعدون يجمعون الأوراق ، ورجال الأمن يخرجون تليفوناتهم الخاصة . كان يبدو أن الجميع سعداء بمغادرة المكان ، وتلاشت الحماسة للتفاوض مع الإسرائيليين . وذهبت على الفور إلى سيروس فانس لأبلغه أننا تلقينا الأوامر بالعودة إلى القاهرة ، ولأعتذر له . وكان فانس ، الذى له دور أساسى فى هذا الاجتماع ، هو آخر من أبلغ بانهياره . قلت إنى لا أريد أن أحرجه ولكنه قال : « لا عليك يا بطرس ، فمنطق رؤساء الدول يختلف عن منطق أى شخص آخر » .

قلت لفانس إن الرئيس السادات طلب عودتنا بسبب ما بلغه عن طريقة استقبال بيجن لنا . ووافق فانس على أن كلمة بيجن كانت استفزازية ، ولكنه أضاف أن رئيس الوزراء الإسرائيلى استخدم نفس الأسلوب مع أكثر من واحد من رؤساء الدول ، ومع أكثر من ضيف ممن زاروه فى إسرائيل . وقال فانس إن من يشتغلون بالعمل الدبلوماسى يجب أن يتحملوا مثل هذا التهجم .

عدت إلى حجرتى لأجمع أمتعتى . وجاءت أنباء بأن الرئيس كارتر يحاول الاتصال بالرئيس السادات لإقناعه بأن يدع الوفد المصرى يواصل المفاوضات فى القدس . وبينما كنت مترددا فى جمع أمتعتى ، دخل وايزمان . فانفجرت فيه ، وهاجمت الموقف الإسرائيلى بشدة ، وقلت إن إسرائيل تتحمل مسئولية فشل الاجتماعات .

استمع وايزمان بهدوء وقال : « سأحاول أن أنقذ ما أستطيع إنقاذه » . وخرج بصورة مسرحية . غادرنا الفندق حوالى الساعة التاسعة مساء فى طريقنا إلى المطار . ومرة أخرى كان فى صحبتى السفير إفرايم إفرون . وعندما وصلنا إلى المطار اكتشفنا أن السيارة التى تحمل أمتعتنا لم تغادر القدس بعد . وكان علينا أن ننتظر حوالى ساعة حتى تصل .

وحرص ديان على أن يجلس بجوارى خلال تلك الفترة . وفهمت أن ثمة شيئا مهما يريد أن يبلغنى به . حاول أن يشرح أن له « علاقة خاصة » برئيس الوزراء بيجن ، وأنه يختلف معه حول عدد من الأمور المتعلقة بالتفاوض مع مصر . وقال ديان إن اشتراكه

فى حكومة الليكود على الرغم من عضويته لمدة طويلة فى حزب العمل نبع من اقتناعه بأن الوقت قد حان لإبرام معاهدة سلام مع مصر ، وأن وجوده فى الحكومة يمكن أن يساعد على ذلك . وقال إن هذا هو السبب فى قبوله أن يكون وزير خارجية بيجن .

وقال ديان إن المحادثة الطويلة التى دارت بيننا أثناء زيارة السادات للقدس تركت لديه انطباعا قويا وأثرت فى نظرته للموقف . وقال إنه إذا كان الوصول إلى تسوية بشأن الضفة الغربية أمرا صعبا فى الوقت الحالى فلماذا لا نركز اهتمامنا على قطاع غزة ؟ وأضاف إن غزة كانت خلال سنوات طويلة ، حتى ١٩٦٧ ، تخضع للإدارة المصرية . وأنه يأمل أن نتمكن هو وأنا من التعاون فى سبيل إزالة العقبات بما يحقق مصلحة بلدينا ومصلحة قضية السلام . وتغير موقفى من ديان ، وبدأت ارتاح للرجل . إنه لم يكن فى أى وقت شخصية ودودة ، ولكنه يريد السلام . وشعرت بأنه لو كان الأمر مقتصرا علينا فقط ، لكان فى وسعنا أن نحقق شيئا .

وصلنا إلى القاهرة قرب الفجر ، مرهقين ومستائين لفشل المهمة .

الفصل الثانى

مناوشات فى العالم الثالث

أردت أن يعرف الرأى العام العالمى حقيقة ما جرى فى القدس . قلت لمراسل « لوموند » فى القاهرة إن زيارة السادات التاريخية للقدس لم تقابل حتى الآن باستجابة جدية من جانب إسرائيل . وأوضحت أن المفاوضات لم تتوقف نهائيا ولكنها علقت مؤقتا ، وأن التصريحات التى أطلقها بيجن هى السبب .

وفى يوم الجمعة ٢٠ يناير ١٩٧٨ كنت مع الرئيس السادات فى استراحته بالقناطر الخيرية عندما استقبل سيروس فانس ووافق على التوجه إلى الولايات المتحدة لشرح موقف مصر للرئيس كارتر . وطلب منى السادات أن أذهب إلى يوغوسلافيا لمقابلة الرئيس تيتو . كانت يوغوسلافيا تحت قيادة تيتو القوية قد أصبحت من القوى العالمية فى مجال الدبلوماسية . وقد استخدم تيتو الأيديولوجية الشيوعية لتشكيل حركة فوق قومية فى بلد يمكن بغير ذلك أن يتحول إلى مجموعة من الانقسامات والطوائف . وكان تيتو قد استخدم فكرة عدم الانحياز لخلق حركة قوية على نطاق العالم . وكانت يوغوسلافيا واسطة العقد فى الحركة التى انبعثت من بريونى فى ١٩٥٦ فى اجتماع للقمة ضم نهرو رئيس وزراء الهند ، وجمال عبد الناصر رئيس مصر .

غادرت القاهرة فى ٢٨ يناير بعد منتصف الليل متجها إلى بلغراد على متن طائرة

يوغوسلافية . وصحبنى مدير مكتبى السفير علاء خيرت ، وأحمد الحفناوى ضابط الأمن الذى كان يلازمنى كظلى . كان الطقس فى بلغراد قارس البرد ، والثلج يغطى المطار . استقبلى لازار مويسوف نائب وزير الخارجية وصحبنى إلى الفندق . وكان لمويسوف أسلوب دبلوماسى فريد يجمع بين العذوبة واليقظة السياسية . وقد أصبح وزيرا للخارجية بعد ذلك ثم شغل أحد مناصب الرئاسة بالتناوب فى يوغوسلافيا .

كان القائم بالأعمال المصرى فى بلغراد من تلاميذى السابقين ، وهو سعد دريد ، وكان منفعلا لاستقبال أستاذه السابق بعد أن أصبح وزيرا . وأطلعنى على صورة من الخطاب الذى وجهه تيتو إلى السادات بتاريخ ٢٤ يناير والذى كان سببا فى رحلتى إلى بلغراد . وكدت لا أصدق أن يتم إرسالى إلى بلغراد دون أن أطلع فى أى وقت على ذلك الخطاب ! فوزارة الخارجية لم تتلق نسخة منه من رئاسة الجمهورية .

كان خطاب الرئيس تيتو شرحا مطولا لاقتناعه بأن إسرائيل ليست على استعداد لإبرام اتفاق للسلام الشامل مع الدول العربية ، لأنها لا تعترف بالشعب الفلسطينى وبحقه فى تقرير المصير . وكتب تيتو أن مبادرة الرئيس السادات ستؤدى إلى وضع فى غاية الخطورة - وهو التمزق الداخلى للعالم العربى . وقال تيتو إن هذا التمزق سيضعف الجبهة الموحدة لحركة عدم الانحياز . ودعا الرئيس السادات للعودة إلى التضامن العربى . وقال إن زعماء العرب الآخرين يرغبون فى عودة مصر إلى دورها القيادى فى الجبهة العربية المشتركة . ودعا مصر للحضور إلى بلغراد لعقد مؤتمر لوزراء خارجية بلدان عدم الانحياز لتقدير الموقف بالنسبة للأزمة فى الشرق الأوسط .

لم أكن أتصور أن مهمتى مع الرئيس تيتو ستكون سهلة ، ولكنى بعد قراءة الخطاب أدركت أن الفجوة بين الرئيسين واسعة للغاية . وبعد راحة قصيرة أخذونى مرة أخرى إلى مطار بلغراد لأطير إلى ساحل البحر الأدرياتيكى بالقرب من دوبروفنيك لمقابلة تيتو . ولكننا عندما وصلنا إلى المطار لم تستطع الطائرة الإقلاع بسبب حالة الجو . وبدا لنا أننا سنضطر إلى السفر إلى دوبروفنيك بالقطار ، وهى فكرة رحبت بها ، لكن مسئولى البروتوكول اكتشفوا أن مواعيد القطار لا تتيح لى أن أصل فى الوقت المحدد لمقابلتى مع الرئيس تيتو . وعند ذلك قرروا أن أسافر بالسيارة إلى شاطىء الأدرياتيكى . وبعد دقائق قليلة غيروا رأيهم مرة أخرى وأبلغونى بأنى سأسافر بطائرة عسكرية خاصة . وقبيل منتصف الليل وصلنا إلى مطار عسكرى على بعد نحو ثلاثين ميلا من بلغراد . ومن هناك أقلعت الطائرة العسكرية بالرغم من سوء الطقس وشدة الرياح . وبعد أن هبطنا فى حوالى الساعة الثانية صباحا أنزلونى فى فندق ضخم باسم « فندق كرواتيا » حيث غرقت فى النوم على الفور .

تيتو يدين

استيقظت بعد ساعات قليلة شاعرا بأنى استرددت نشاطى بالكامل . وكان الطقس قد تحسن ، ومن خلال نافذة الفندق رأيت البحر كما لو كان لوحة رائعة بيد رسام فنان . وأخذونى إلى قصر الرئيس تيتو ، وهو بناء فخم فوق قمة جبل . دخلت قاعة الاستقبال ، وبعد لحظات دخل كلبان صغيران يتبعهما الرئيس . كان ممتلئا ، بل وبدينا ، ووجهه عريض . وكان من مسافة يبدو قويا ، ولكن عندما اقترب بدا وجهه شاحبا وبه تجاعيد ، وشعره مصبوغا بيد غير خبيرة . وعلى الرغم من ثقته الهائلة بنفسه جعلنى أشعر بالارتياح فى حضرته . لم يكن تيتو بأى شكل متعاليا أو متغطرسا ، كان يتحدث إلىّ كرفيق حقيقى . ولم يكن بالغرفة أحد من الموظفين أو المساعدين فيما عدا المترجم . وطلب منى تيتو أن أتكلم بالعربية ، وقدم المترجم لى نفسه ذاكرا أن اسمه ايزائيفتش ، وعرفت أنه ولد فى مصر حيث كان أبوه يملك محل الفول والطعمية الشهير فى ميدان التحرير بوسط القاهرة ، والذى كنت كثير التردد عليه فى أيام الشباب . رحب بى الرئيس تيتو بابتسامة عريضة ، وطلب منى أن أعرض التطورات منذ زيارة الرئيس السادات للقدس .

عندما فرغت من عرضى بدأ تيتو يتحدث على مهل ، ويتوقف من وقت لآخر لأخذ نفس من سيجاره الطويل البديع . تحدث عن شكه فى أن إسرائيل ستنسحب من شبه جزيرة سيناء بكاملها . وقال إن إسرائيل ستضغط على مصر للحصول على المزيد من التنازلات بشأن حقوق الشعب الفلسطينى ، وأنه يخشى أن ينتهى الأمر بالتوصل إلى تسوية منفردة ، وأن ذلك سيؤدى إلى التمزق فى العالم العربى ، وأن حركة عدم الانحياز ستضعف فى كل مكان . وبعد ذلك دعانى الرئيس اليوغوسلافى لأشرب معه كوبا من البيرة . ولكنى اعتذرت . فطلب كوبا لنفسه ، واستمرت المحادثة أثناء احتسائه له .

قال إنه يأسف لذهاب الرئيس السادات إلى القدس . فإسرائيل تعتمد على تفوقها العسكرى ، وهى تعرف أن الولايات المتحدة تفتقر إلى الإرادة اللازمة لممارسة ضغط فعال عليها . وقطع تيتو حديثه مرة أخرى وأصر على أن أشرب شيئا ، فاقترحت فنجانا من القهوة ، فأمر بفنجانين . وعندما فرغ من كوب البيرة انتقل إلى فنجان القهوة وأشعل سيجارا ضخما آخر .

وأبدى تيتو أسفه لتدهور العلاقات بين القاهرة وموسكو . وقال إنه يشعر بأن مصر تتجه نحو الولايات المتحدة . وذكر أن الخطر الحالى على حركة عدم الانحياز يتمثل فى استقطاب الدول العظمى للبلدان الرئيسية مثل مصر ، وربط مصالح تلك البلدان إلى جانبهم .

وقال إن من حق كل دولة أن ترسم مسار علاقاتها الدولية ، ولكن الانحياز لأحد الجانبين ضد الآخر يؤدى إلى خلل الميزان ، ويضر بحركة عدم الانحياز .

بينما كان تيتو يتكلم عن التوازن بين الدولتين العظميين ، كان أكثر ما لفت نظرى أن حديثه حافل بالتعبيرات الماركسية الأصيلة . وبدا لى أنه حديث قديم ومنفصل عن الواقع . وأكدت له أنى قد اشتركت فى جميع مراحل الاتصالات مع إسرائيل ، وأنى أواصل التفاوض معها منذ زيارة القدس . وقلت إنه لا يمكن أن يكون هناك شك بشأن صلابة موقف مصر فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطينى . وقلت : ما دام الرئيس تيتو غير مرتاح للخطوات الدبلوماسية التى اتخذتها مصر ، فهل لديه اقتراح بديل يفتح الطريق أمام سلام شامل ؟

وأجاب تيتو بأنه من الضرورى ، كشرط لا غنى عنه ، تحقيق الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية . وينبغى إعادة انعقاد مؤتمر جنيف حتى تتمكن كل من الدولتين العظميين من الوفاء بمسئولياتها فى إقرار السلام فى الشرق الأوسط . واستمر النقاش بيننا ساعتين ، ولم أتمكن من إقناعه بقبول موقف السادات .

عدت إلى « فندق كرواتيا » . ومر بخاطرى ، بينما كنت أسجل الحديث الذى دار بيننا أثناء المقابلة ، سؤال سمعته فى القاهرة قبل مغادرتى إلى بلغراد : ترى هل عجل بموقف تيتو الدور الذى لعبه الرئيس الرومانى شاوشيسكو فى مبادرة السادات ؟ فقد شجع شاوشيسكو السادات على اتخاذ قراره قائلا : « أنا أعرف بيجن ، وفى وسعك أن تثق به » . فهل كانت المنافسة التقليدية بين تيتو ، الذى يرأس حركة عدم الانحياز ، وشاوشيسكو ، الذى يسعى لاتباع سياسة مستقلة عن موسكو ، هى التى أدت إلى معارضة تحرك الرئيس السادات ؟ وانتهيت إلى أن هذا سؤال غير مهم ، والسؤال الحقيقى هو : « هل تيتو على صواب أم خطأ ؟ » لقد هزنى ما قاله تيتو . وأثارت معارضته لسياسة مصر الشك فى أننا ربما نرتكب خطأ شنيعا .

فى الصباح طرت عائدا إلى بلغراد التى كان يغطيها الثلج . ومن المطار توجهت إلى مقر رئاسة حزب عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف . كان أمين لجنة العلاقات الخارجية بالحزب فى انتظارى . وتحدثنا عن التعاون بين التنظيم السياسى فى مصر والعصبة اليوغوسلافية .

وأبدى أمين اللجنة قدرا من الاهتمام بما قلت ، وسألنى عن مدى حرية الأحزاب المصرية الجديدة فى الاتصال بالأحزاب الخارجية . وأوضحت أن هذه الاتصالات يجب

أن تتم عن طريق الاتحاد الاشتراكى العربى وتحت رعايته . وكنت آمل أن يكون شرحى أدى إلى اقتناعه ، فقد سعيت إلى إقناعه بمزايا النظام المصرى رغم أنى أنا نفسى لم أكن مقتنعا بها .

وقال لى إنه وجد صعوبة كبيرة فى الاتصال بالاتحاد الاشتراكى العربى . وحقيقة الأمر ، التى لم أكشفها له ، أنى منذ عينت وزيرا للدولة للشئون الخارجية تخليت عن مسئوليتى عن العلاقات الخارجية للحزب ، ولم يُكلف أحد بالحلول محلى . كان من الصعب أن أبلغ المسئول اليوغوسلافى بمدى انعدام النظام فى الاتحاد الاشتراكى العربى .

وخرجت من الاجتماع مدركا أن العلاقات الخارجية لحزبنا لا تزيد على أن تكون شعارا أجوف ليس هناك من هو مسئول عنه ، ولا يتمثل فى الواقع فى أكثر من رحلات يقوم بها بعض أعضاء البرلمان ، يجوبون أنحاء الأرض بدون أهداف محددة بوضوح . وكشفت لى محادثاتى مع اليوغوسلاف أن مصر ، فى نظر المعسكر الاشتراكى ، قد تخلت عن موقفها .

وتذكرت رأى صديق جزائرى كان قد قال لى : « أنا لا أفهم لماذا لا تهتمون أنتم فى مصر بالأيديولوجية . إن السلاح الأيديولوجى أقوى وأكثر فاعلية من المدفع أو القنبلة . والبندقية بغير أيديولوجية هى مجرد قطعة من الحديد الأصم فى يد المقاتل » . وأنا شخصيا تأثرت بأيديولوجية القضية الفلسطينية تأثرا عميقا . غير أن السادات كان رجل سياسة مباشرة . ولم أستطع أن أفهم تلك الواقعية من جانبه أو أقبلها قبولا كاملا .

إن الأيديولوجية بالنسبة للبلدان التى تفتقر إلى القوة الاقتصادية أو التكنولوجية أو العسكرية هى بديل للقوة . فالأيديولوجية تقدم تفسيرا لتخلفها ، وهى أداة فى علاقاتها الدولية ، وعون لها فى السياسة العالمية ، وحلم بالنسبة للمستقبل . وبدون حلم كهذا تكون حياة الفقراء غير محتملة .

فى اليوم التالى ، الأول من فبراير ، قابلت وزير خارجية يوغوسلافيا ميلوس مينيك . قال لى إنه قرأ النص الحرفى للقائى بالرئيس تيتو . وانتقل ذهنى على الفور إلى أن تسجيلات مقابلات الرئيس السادات تصل إلى الوزارة المعنية بعد أسبوع على الأقل أو عشرة أيام ، هذا إذا وصلت أصلا . وأغضبنى أن عدم كفاءة النظام المصرى تجعلنى فى وضع أضعف من نظرائى .

وقال مينيك إنه يريد أن يستكمل المحادثة التى بدأتها مع المارشال تيتو . وأوضح يوغوسلافيا لا توافق إطلاقا على مبادرة الرئيس السادات تجاه إسرائيل . وقال إن إسرائيل

لا تستطيع أن ترتفع إلى مستوى المسئولية اللازم لاتخاذ خطوات ثابتة نحو السلام . وقلت للوزير اليوغوسلافى إنى لا أريد أن أناقش ما إذا كانت إسرائيل سوف تستجيب ، ولكنى أحث على أن تعطى يوغوسلافيا الفرصة لمبادرة الرئيس السادات ، وقلت إن تقديره ربما يكون متعجلا للغاية .

أجابنى وزير الخارجية ، بالغطرسة الماركسية ، بأن موقف يوغوسلافيا مبنى على « التحليل الموضوعى » للوقائع : فإسرائيل متفوقة عسكريا ، وبعض أراضى مصر محتلة ، والعالم العربى منقسم ، وإسرائيل تستطيع الآن أن تعمق الانقسام ، والإسرائيليون يعرفون أن الرئيس كارتر لن يضغط عليهم ولا يستطيع ذلك لو أراد .

غادرت مكتب وزير الخارجية شاعرا بالعجز . وبذل نائب الوزير جهده لتخفيف الجو المتوتر ، ولكنه لم ينجح . على الرغم من الابتسامات الدبلوماسية وتعبيرات المجاملة ، كان الأسلوب الجاف والبارد الذى اتبعه زميلى اليوغوسلافى انعكاسا لإدراكه الواضح ، مثل إدراكى ، باتساع المسافة التى تفصل بين موقفينا .

وكان هناك أيضا سوء فهم آخر . فقد تصور تيتو أن انسحاب مصر من اجتماع اللجنة السياسية فى القدس فى شهر يناير ، هو خطوة أولى نحو سحب مبادرة الرئيس السادات وإنهاء المفاوضات مع إسرائيل وعودة مصر إلى أسرة الدول العربية .

أما الرئيس السادات ، من الجانب الآخر ، فلابد أنه شعر بعد قراءته لخطاب تيتو بأننا ربما نستطيع أن نقنعه بأهمية استمرار المبادرة . وهو قد أرسلنى إلى بلغراد لاستئناف الحوار السياسى بين القاهرة وبلغراد ، وللحصول على مساندة تيتو .

غادرت بلغراد فى المساء ، مدركا أنى أتحدث فى واد بينما يتحدث اليوغوسلاف فى واد آخر .

هبطت إلى مطار القاهرة الدولى قبيل الفجر . وبعد ساعات قليلة عدت إلى المطار للمشاركة فى توديع الرئيس السادات فى بداية رحلته إلى الولايات المتحدة . قدمت إليه تقريرا سريعا عن محادثاتى مع الرئيس تيتو . ولم يعلق السادات بشىء . كان يبدو بعيدا وغير مهتم . وشعرت بأن رحلتى إلى يوغوسلافيا فشلت من ناحيتين : فشلت فى إقناع تيتو ، وفشلت فى إقناع السادات بأهمية موقف تيتو .

مأساة صومالية

عندما كان الرئيس السادات فى أمريكا ، عزمت على أن أقوم بجولة دبلوماسية بين الدول غير المنحازة فى آسيا وافريقيا ، للرد على تفسير تيتو للمبادرة المصرية . ولكن حسنى مبارك نائب الرئيس طلب منى أن أؤجل رحلتى . وكانت المواجهة العسكرية بين الصومال وإثيوبيا تتصاعد ، وطلب مشورتى بشأن الموقف هناك . دعانى مبارك إلى مكتبه فى قصر عابدين حيث أديت اليمين عند تقلدى منصبى الوزارى . وسألنى عن رأيى بشأن الموقف المتدهور فى الصومال وفى تشاد ، حيث كانت تدور حرب أهلية يشجعها معمر القذافى رئيس ليبيا . وأسعدنى أن أرى أن نائب الرئيس مهتم بشئون افريقيا ، ومطلع على آخر التطورات فى القارة ، ومدرك لأهمية دور مصر فى القارة السوداء . وحملت إليه كتابا كنت قد كتبته عن الشئون الافريقية . سألنى : « أتريد منى الآن أن أقرأ كتابا من ثمانمائة صفحة ؟ » وأجبته : « لا ، بل يكفى سيادتك أن تقرأ الصفحات المتعلقة بالصومال » . أشاح مبارك وطلب منى أن أتكلم مع اللواء عبد الغنى الجمسى وزير الدفاع عن الموقف العسكرى فى افريقيا .

كانت السياسة المصرية تميل إلى جانب الصومال ، البلد المسلم الذى كانت مصر قد احتلت موانئه أثناء « الإمبراطورية المصرية » لأسرة محمد على ، والتى كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية . وهناك ارتباطات قوية بالصومال فى أذهان كثيرين من العسكريين المصريين . وكان أهم ما يعنى السادات فى الصومال أنه معاد للشيوعية . وقد رأى أن فى تأييده للصومال وسيلة لاحتواء النفوذ السوفيتى فى إثيوبيا ، وأداة لتحسين علاقاته مع الولايات المتحدة .

وجدت الجمسى فى مقره الرئيسى بثكنات هليوبوليس . كان رجلا نحيلا متوسط القامة مستقيم المظهر . يبدو واثقا تماما من نفسه ، مباشرا فى حديثه ، يتجنب الأساليب الملفوفة التى يتبعها الدبلوماسيون ، ذهنه متفتح ، وهو مشهور بالنزاهة التامة فى جميع الأمور . لم يكن لديه اهتمام كبير بافريقيا . شرحت له معارضتى لوقوف مصر بشكل كامل وعلنى إلى جانب الصومال ضد إثيوبيا . وقلت يجب أن نتجنب تحويل إثيوبيا إلى عدو . وإن على مصر أن تلتزم بنوع من الحياد حتى تستطيع أن تقوم بدور الوسيط فى النزاع . وبدا أنه مقتنع بأنى أميل إلى إثيوبيا لأنها دولة مسيحية . سألنى : « هل تريد أن تدافع عن الكنيسة القبطية فى إثيوبيا ؟ » .

أجبته : « إن الماركسية هى السائدة فى إثيوبيا اليوم . والكنيسة القبطية فى إثيوبيا

مضطهدة وبلا حول فى ظل حكم مانجستو . وعلى أى حال فإن أكثر من نصف سكان إثيوبيا مسلمون » . ولكنى لم أقنع اللواء الجمسى . كان يتصور أن آرائى تلونها اعتبارات دينية وميول شخصية . والواقع أن موقفى كان يقوم على واقع أن أكثر من ٨٥ فى المائة من ماء النيل ينبع من إثيوبيا . وأن أى مشروع يحتاج إلى زيادة من مياه النيل ـ وهذا هو الحال بالنسبة لأى مشروع تقريبا ـ سوف يحتاج إلى موافقة حكومة إثيوبيا .

وجاء طلب عاجل من حكومة تشاد يسأل مصر المساعدة العسكرية لمواجهة عدوان ليبيا على تشاد . وكان هناك طلب مماثل ولا يقل إلحاحا من جانب الصومال للحصول على مساعدة مصرية ضد إثيوبيا . وفى يوم الخميس ٩ فبراير ١٩٧٨ عقد حسنى مبارك نائب الرئيس اجتماعا فى قصر عابدين بشأن الأزمة فى تشاد والقرن الإفريقى . وحضرت الاجتماع إلى جانب ممدوح سالم والفريق عبد الغنى الجمسى والنبوى إسماعيل وزير الداخلية ، وهو ضابط بارز فى الشرطة له سمعة كبيرة لنجاحه فى تدبير العمليات السرية ، واللواء كمال حسن على رئيس المخابرات العامة ، والذى كنت ألتقى به لأول مرة .

لم نصل إلى نتيجة بعد ما يقرب من ثلاث ساعات من المناقشة . وطُلب منى أن أحصل على مزيد من المعلومات من سفيرى إثيوبيا والصومال . وبعد أن استمعت لدفاع كل من السفيرين عن وجهة نظر حكومته واتهامه الحكومة الأخرى بالعدوان ، ظللت مترددا ، وعاجزا عن إبداء النصح بشأن كيفية استجابة مصر لطلبات المساعدة العسكرية ، أو كيفية تنفيذ ذلك .

وجاء لمقابلتى بهرام بهرامى سفير الشاه فى القاهرة ، والذى كان ياورا فى بلاط الشاه . استأنفنا الحديث الذى كنا قد بدأناه فى أسوان عندما توقف الشاه هناك . وفى هذه المرة تكلم بهرامى فى موضوع أكثر تحديدا . قال إن إيران قررت أن تمد الصومال بالأسلحة ، وإنها فوق ذلك تعتزم تقديم المساعدة للسودان عن طريق مصر . وكان معنى ذلك أن التحالف الإيرانى المصرى الذى توقعته فى أسوان قد بدأ يتشكل . وكانت إيران فى الواقع تمول المساعدات التى تقدمها مصر للبلدان الافريقية الرئيسية .

وهكذا كنت أتعرف على قرارات اتخذها الشاه والرئيس السادات ، ليس من حكومتى بل من السفير الإيرانى . وعندما اكتسبت مزيدا من الخبرة فى وضعى الجديد ، عرفت أن الطريق الفعال لاكتساب المعلومات يأتى من خلال المصادر غير الحكومية ، فالسادات لا يحرص على اطلاع مستشاريه على الحقائق ، أما زملائى فيعتبرون المعلومات مصدرا للقوة ، وبالتالى فإنهم يكتنزونها .

وفى يوم الأربعاء ١٥ فبراير جاءت أنباء بأن السلطات الكينية احتجزت طائرة مصرية ، بوينج ٧٠٧ ، كانت فى طريقها إلى الصومال تحمل شحنة من الأسلحة . وكانت كينيا قد طلبت من قائد الطائرة أن يعود إلى القاهرة . ولكنه امتنع عن ذلك بسبب الحاجة إلى الوقود . وطلبت منه كينيا النزول فى نيروبى للتزود بالوقود ، ولكن عندما هبطت الطائرة المصرية أحاطت بها القوات الكينية واقتحمتها وفتشتها . وصادرت كينيا الأسلحة والذخائر ورفضت السماح لطاقم الطائرة بمغادرتها .

طلب منى ممدوح سالم رئيس الوزراء إجراء اتصال عاجل بالحكومة الكينية للإفراج عن الطائرة على الفور . ولجأت بلا تردد إلى ويلى موريس سفير بريطانيا الذى كان صديقا قديما لى . ورغم أن كينيا كانت قد استقلت عن بريطانيا منذ مدة طويلة فإن المسئولين البريطانيين كان لا يزال لهم اتصالاتهم فى نيروبى . طلبت من موريس أن تمارس الحكومة البريطانية مساعيها الحميدة لإنهاء الأمر قبل أن يتصاعد . وقمت باتصال مواز بالقائم بالأعمال الأمريكى - إذ كان السفير فى واشنطن بمناسبة زيارة الرئيس السادات - وأوضحت له أهمية السرعة فى إنهاء الموقف قبل أن يتحول إلى أزمة علنية .

وجاءتنى مكالمة ثانية من ممدوح سالم . فقد قامت السلطات المصرية بعمل أنتقامى . لقد ألزمنا طائرة ركاب كينية بالهبوط ووضعناها تحت الحراسة فى مطار القاهرة الدولى . واشتعلت غضبا . فهذا يعد عملا من أعمال القرصنة ، وقلت لممدوح سالم إن هذا سيؤدى إلى الإضرار بسمعة مصر الدولية . ولكنه أنبنى بهدوء ولطف قائلا : « يجب أن تنسى يا دكتور بطرس أنك كنت أستاذا بالجامعة ، فالمشاكل الدولية لا يحلها القانون الدولى » .

وجاءتنى مكالمة تليفونية ثانية ، هذه المرة من الفريق الجمسى . فقد تم احتجاز طائرة كينية ثانية على أرض مطار القاهرة ، أجبرت بدورها على الهبوط . كانت قادمة من أوروبا متجهة إلى نيروبى . وقال إن الطائرتين ستبقيان إلى أن يتم الإفراج عن الطائرة المصرية المحتجزة فى نيروبى .

وجاءت مكالمة هاتفية ثالثة ، هذه المرة من حسنى مبارك نائب الرئيس : حثنى على استعادة شحنة الأسلحة المصرية من كينيا . كان موقفنا يزداد تشددا . ففى البداية كان علىّ أن أطلب عودة الطائرة والإفراج عن طاقمها ، وعلىّ الآن أن أطلب إعادة الأسلحة أيضا . وكان الذين احتجزوا الطائرتين الكينيتين فى مطار القاهرة الدولى يعرفون بغير شك أنهما تمثلان نصف مجموع الأسطول الجوى لكينيا .

سألت مبارك : « ألا نستطيع أن نتغاضى عن مسألة الأسلحة ؟ ففى هذه الحالة يمكن

تسوية الخلاف بسرعة ، قبل أن يصل إلى أبعاد ليست فى مصلحتنا » . ولكن مبارك رفض هذا الرأى بشدة قائلا : « تريد أن نتغاضى عن شحنة من الأسلحة قيمتها عدة ملايين من الجنيهات ؟ » . ولم أكن أتصور أن قيمة حمولة طائرة واحدة يمكن أن تصل إلى هذا المبلغ الهائل ! وخلال ساعة تلقيت مكالمتين أخريين من رئيس الوزراء وثلاث مكالمات أخرى من الفريق الجمسى ، يلحان فى التوصل إلى نتائج .

وفى حوالى الساعة السادسة اتصل بى ويلى موريس وقال : « ما هو الضمان بأنه إذا أفرج عن الطائرة المصرية وشحنتها فإن مصر ستفرج عن الطائرتين الكينيتين ؟ » . ترددت قليلا ثم قلت : « الضمان هو كلمة شرف من خادمك المطيع الوزير المصرى المسئول عن تسوية الأزمة » .

سكت موريس ، وعند ذلك أضفت : « يا سيدى السفير ، إن الوسيط يجب أن يضمن كل جانب لدى الجانب الآخر . وأنت بدبلوماسيتك المعروفة لن تجد صعوبة فى القيام بذلك » .

بعد ذلك استقبلت سفير كينيا ـ للمرة الرابعة منذ بداية الأزمة . أبلغنى بشىء من الخجل وبعبارات هادئة ، ان كينيا وافقت على إعادة « المعدات » التى سبق أن صادرتها . ولم يستخدم كلمة « أسلحة » . وحرصت على اتباع نفس الأسلوب فى حديثى معه .

أكد السفير أن الطائرة المصرية ستقلع من مطار نيروبى فى نفس الليلة ، حاملة شحنتها الكاملة ، وطاقمها كله . وعند ذلك أصدرت التعليمات بضرورة الإفراج عن الطائرتين الموجودتين فى القاهرة فى نفس الوقت الذى يسمح فيه لطائرتنا الموجودة فى نيروبى بالمغادرة بشحنتها وطاقمها .

وبعد أن قضيت ساعات طويلة فى مكتبى ذهبت لمأدبة عشاء أقامها سفير إيران بمقر إقامته فى مصر الجديدة . وكان ويلى موريس بين المدعوين . ابتسم لى السفير البريطانى بخبث وهمس بأن لديه أنباء طيبة ولكنه لن يذكرها إلا بعد العشاء ، لتكون مصاحبة لتقديم الحلوى فى النهاية .

وبمجرد أن انتهى المدعوون من الطعام والشراب ، جاء إلىّ موريس . نظر إلى ساعته وقال : « إن الطائرة المصرية أقلعت من مطار نيروبى منذ بضع دقائق ، بحمولتها . ومن المنتظر أن تصل إلى مطار القاهرة فى مطلع الفجر » . شكرته شكرا جزيلا على الجهود التى بذلها وعلى الدور الذى قامت به حكومته لإنهاء الأزمة . ونظر إلىّ موريس

نظرة جادة وقال : « أرجو أن تكون الطائرتان الكينيتان قد غادرتا بالفعل مطار القاهرة في نفس الوقت » . أجبته أنه ليس هناك ما يدعو للقلق ، فقد أعطيته كلمة شرف .

ثم تذكرت أن اليوم التالى يوم جمعة . ربما تكون إجازة نهاية الأسبوع قد أدت إلى تأخير فى تنفيذ الاتفاق بالإفراج عن الطائرتين . سارعت إلى مكتبى فى ميدان التحرير . كانت الساعة الواحدة صباحا . طلبت مطار القاهرة . وقيل لى إن إحدى الطائرتين الكينيتين قد أقلعت ولكن الثانية ما زالت على الأرض !

شعرت بانزعاج . فالموقف له تأثيره علىّ شخصيا . وكنت واثقا أن السلطات المصرية لجأت إلى هذا التأجيل للتأكد من أن كل الأسلحة التى كانت كينيا قد حجزتها قد تمت إعادتها . طلبت أن أتكلم مع الضابط المسئول فى المطار . وانفجرت فيه قائلا : « من الذى سمح لك باحتجاز طائرة كينية ؟ كيف لا تنفذ التعليمات الصادرة من وزير ، وتعرقل اتفاقا بين الحكومة المصرية وحكومة كينيا بأن تنطلق الطائرتان فى نفس الوقت ؟ » .

قال : « أرجو يا سيادة الوزير أن تسمح لى بالتوضيح » . وصرخت فيه : « لا أريد شرحا . أريد أن تحلق الطائرة على الفور ! » .

قال : « لابد أن أذكر لك ما حدث ، فهناك أسباب فنية منعت إقلاع الطائرة » . وسألت : « ما هى الأسباب الفنية ؟ » تردد قليلا ، ثم قال بشىء من الارتباك ، إن طاقم الطائرة الكينية أفرط فى الشراب ، ولم تكن حالته تسمح بقيادة الطائرة . ولهذا السبب أجل مغادرتهم إلى الصباح الباكر حتى يكون أثر الشراب قد انتهى .

وسألت عما إذا كانت حكومة كينيا قد أبلغت بسبب التأخير . قال الرجل بهدوء : « لا أستطيع أن أبعث ببرقية إلى مطار نيروبى أبلغهم فيها أن طاقم الطائرة فى حالة سكر بيّن » .

طلبت منه أن يبعث ببرقية عاجلة يؤكد فيها أن أسبابا فنية حالت دون إقلاع الطائرة ، ولكنها ستقلع فى الثامنة فى الصباح التالى ، وأن السلطات المصرية ليست مسئولة عن التأخير . واعتذرت للضابط عن سوء ظنى به وفقدى لأعصابى ، وشكرته على سعة صدره . وكانت الساعة الثالثة صباحا عندما عدت إلى بيتى .

وفى اليوم التالى تبادلت أنا وسفير كينيا التهنئة بحل الأزمة . وقال السفير إن لديه تعليمات بأن يطلب تأكيدا رسميا من الحكومة المصرية بأن طائرات كينيا سيسمح لها بالمرور فى المجال الجوى لمصر بلا اعتراض . وحاولت أن أتصل بوزارة الدفاع أو مطار القاهرة الدولى ولكن بلا جدوى . ثم تذكرت أن اليوم هو يوم جمعة وأن المكاتب الحكومية مغلقة .

واتصل بى سفير كينيا مرة أخرى . وجازفت ووعدته بأن الطائرات الكينية يمكن أن تمر فى المجال الجوى المصرى بدون أى احتمال لاعتراض سبيلها . ولكنى كنت أخشى أن يكون هناك جانب ضعف فى البيروقراطية المصرية يؤدى إلى الإخلال بوعدى .

الإرهاب الفلسطينى فى قبرص

فى يوم السبت ١٨ فبراير تلقيت مكالمة تليفونية من نيقوسيا . كان على الخط خرستوفيدس وزير خارجية قبرص يقدم لى التعزية ، فقد قتل يوسف السباعى فى نيقوسيا على يد إرهابيين فلسطينيين . وكان يوسف السباعى وأنا زميلين لسنوات طويلة ، عندما تولى رئاسة تحرير جريدة الأهرام . وكان ذا شخصية دافئة ودودة متروية فى حديثها . وكنت أعتز بصداقته وأقدر رجولته وأخلاقياته . كان ضابطا سابقا فى الجيش المصرى ، ومن الكتاب غزيرى الإنتاج للروايات الخفيفة التى تحولت إلى أفلام أو مسلسلات تليفزيونية . وكان صديقا مقربا إلى الرئيس السادات ، وربما كان ذلك هو السبب فى اغتياله .

شعرت بحزن عميق لوفاته . وزاد من حزنى أنه قتل بأيدى فلسطينيين ، لأنى كنت أعرف مدى إيمانه بحقوق الشعب الفلسطينى ، وبالجهد والتضحيات التى بذلها لمساعدتهم . وكان رد فعل الرئيس السادات عاطفيا وشديدا عندما علم بنبأ موت صديقه . وعقد العزم على القبض على الفلسطينيين الذين اغتالوا يوسف السباعى ومعاقبتهم .

اتصلت بممدوح سالم رئيس الوزراء الذى طلب منى أن أتوجه على الفور إلى مكتبه . تحدثنا عن الانعكاسات السياسية للجريمة . وكان من رأيه أن اغتيال السباعى ربما يكون جزءا من حملة إرهابية على المسئولين المصريين الذين صحبوا الرئيس السادات فى رحلته إلى القدس . وربما تكون تلك بداية للمواجهة بين مصر والجماعات الفلسطينية المتطرفة . وطلب منى أن أتخذ احتياطات خاصة لسلامتى . وكان قد تم إرسال عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام إلى نيقوسيا بطائرة خاصة لإعادة جثمان السباعى .

حضرت جنازة المرحوم يوسف السباعى ، وشعرت بانفعال شديد فى هذه المناسبة الحزينة . بدأ موكب الجنازة من مسجد عمر مكرم بالقرب من ميدان التحرير ، واستمر فاجتاز وزارة الأوقاف ومبنى الأهرام القديم . وبدأ بضع مئات من المتظاهرين يهتفون : « لا فلسطين بعد اليوم ، لا فلسطين بعد اليوم ! » . لقد ضاقوا ذرعا بالفلسطينيين . وأدى هذا العمل من جانب الإرهاب الفلسطينى إلى الانتكاس بالقضية الفلسطينية . وكنت أسير

إلى جانب الدكتور مصطفى خليل الذى همس لى بأننا يستحسن أن نبتعد عن الجمهور ، لأنه يخشى أن تقع أحداث عنف .

تركنا الطريق الرئيسى وعبرنا شوارع جانبية عديدة حتى وصلنا إلى جامع الكخيا حيث كانت سياراتنا تنتظر . قال لى الدكتور مصطفى خليل : « إذا تكررت هذه الاغتيالات والعمليات الإرهابية فستضيع القضية الفلسطينية تماما » . وعندما فكرت فى الأمر وضعته فى صيغة مختلفة بعض الشىء : إنه إذا كان هناك أى تردد لدى السادات فإن هذا الاغتيال سيضع نهاية له . فالسادات سيضع مصلحة مصر أولا ، وسيدفع بمصالح الفلسطينيين إلى ذيل القائمة .

عدت إلى مكتبى فى وزارة الخارجية . وتكلم ممدوح سالم يطلب منى أن أتوجه سريعا إلى رئاسة الوزراء ، فقد زادت الأمور تعقيدا ، إذ أن الفلسطينيين الذين اغتالوا يوسف السباعى اختطفوا طائرة واحتجزوا اثنتى عشرة رهينة ، من المصريين وغير المصريين . وأمروا قائد الطائرة بالتوجه إلى بنغازى فى ليبيا ، ولكن السلطات الليبية لم تسمح لهم بالهبوط . وعند ذلك اتجهت الطائرة إلى جيبوتى حيث هبطت عصر يوم الأحد ١٩ فبراير . وبدأ الاستعداد لإرسال مجموعة من رجال الصاعقة المصرية إلى جيبوتى للاستيلاء على الطائرة ، لكن بعد تزود الطائرة بالوقود قرر الإرهابيون العودة إلى قبرص . وعند ذلك طُلب من مجموعة الصاعقة أن تتوجه إلى قبرص .

سألت : هل وافقت حكومة قبرص على قيام الصاعقة المصرية بهذه العملية ؟ وأجابنى رئيس الوزراء : « لقد اتصلت بالسلطات القبرصية وشرحت لها كل شىء » .

وسألته مرة أخرى « هل وافقوا ؟ » وقلت إنه بمقتضى القانون الدولى فإن قيامنا بهذه العملية بدون موافقة حكومة قبرص يعتبر ...

ولكن ممدوح سالم قاطعنى قائلا : « لقد قلت لك من قبل يا دكتور إنه ليس للقانون الدولى أدنى صلة بالعلاقات الدولية » . ثم طلب منى أن أبحث انعكاسات قطع العلاقات الدبلوماسية مع قبرص .

تناولت عشائى فى البيت . وحوالى الساعة العاشرة دق جرس التليفون . كانت دعوة عاجلة من ممدوح سالم . ولم أتمكن من العثور على سائق سيارتى ، ولذا قدتها بنفسى إلى مقر مجلس الوزراء فى الساعة ١٠,٣٠ مساء ، ودخلت مكتب ممدوح سالم فى قصر الأميرة شويكار القديم بقصر الدوبارة .

قال رئيس الوزراء : « لقد حدثت كارثة . لقد قتل عدد كبير من رجال فريق الصاعقة المصرى وأصيب غيرهم على يد القوات القبرصية . ويجب أن تذهب إلى قبرص على الفور . وقد أغلق مطار لارناكا بسبب المذبحة ، والمطار الوحيد المتاح الآن هو قاعدة سلاح الطيران الملكى البريطانى فى اكروتيرى . وعليك أن تتصل بصديقك السفير البريطانى حتى يحصل لك على تصريح بالهبوط هناك » .

طلبت ويلى موريس فى مسكنه ، ووافق على أن يقدم المساعدة . ثم طلبت ممثلنا الدائم فى الأمم المتحدة ، وطلبت منه أن يخاطب كورت فالدهايم . وطلبنا منه أن يحث حكومة قبرص على تجنب تصعيد الأزمة .

واتصل بى ويلى موريس قائلا إنه يجد صعوبة فى الاتصال بلندن . فقد كانت شبكة التليفونات فى مصر عديمة الجدوى تقريبا . وعلى الفور اتصل ممدوح سالم بإدارة التليفونات الدولية وأعطى تعليمات بأن تحظى مكالمة السفير البريطانى مع لندن بالأولوية العليا .

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا . وبدأت تظهر على ممدوح سالم علامات الإرهاق بينما نحن فى انتظار رد الطرف البريطانى . واقترحت عليه أن يعود إلى بيته ويأخذ قسطا من الراحة . وقلت إنه بمجرد الحصول على موافقة البريطانيين سأستقل الطائرة إلى قبرص . وأنه لا حاجة به لأن ينتظرنى أكثر من ذلك .. ووافق سالم ومضى .

وجدت نفسى وحيدا فى مكتب رئيس الوزراء . كانت غرفة فسيحة ، واحدة من الغرف التى كانت الأميرة شويكار تستخدمها كقاعة استقبال . وكان الأثاث حكوميا ، بلا أناقة . وهناك أجهزة تليفون عديدة تغطى المكتب . ورفوف الخزانة حافلة بكتب لم تقرأ . ولمحت صورة فوتوغرافية كبيرة للرئيس السادات . جلست منتظرا . وكل نصف ساعة كان أحد الخدم يدخل حاملا أكواباً صغيرة من الشاى والقهوة ، بعضها بسكر وبعضها بدون . وكان يشير صامتا للتمييز بينها . وفى الرابعة صباحا تلقيت المكالمة التى كنت انتظرها من موريس . وافقت السلطات العسكرية البريطانية على هبوط طائرتى فى قاعدة أكروتيرى الجوية .

سارعت إلى بيتى لأغيّر ملابسى وأبلغ زوجتى أنى ذاهب إلى قبرص ، وأنى لا أتوقع أن أغيب أكثر من يوم واحد . وعارضت زوجتى سفرى بشدة وحذرتنى من أنى سألقى حتفى فى قبرص .

توجهت إلى المطار الحربى فى غربى القاهرة . وجدت هناك مجموعة من الضباط الذين دعونى إلى تناول الشاى معهم أثناء إجراء الترتيبات الأخيرة لإقلاع الطائرة . وشعرت بالاعجاب بهؤلاء الرجال الذين فقدوا لتوهم أصدقاء أعزاء عليهم ومع ذلك حافظوا على تماسكهم .

وقرابة السادسة صباحا أبلغنى أحد هؤلاء الضباط أن الاتصال تم مع أكروتيرى ، وقال إن القاعدة البريطانية لم تتلق موافقة من لندن على هبوط طائرة مصرية . حاولت أن أتصل بويلى موريس لإبلاغه بأن موافقة حكومته لم تصل بعد إلى أكروتيرى ، ولكن بلا جدوى ، فخطوط التليفون فى القاعدة العسكرية المصرية كانت معطلة ! واضطررت للعودة إلى مكتبى فى ميدان التحرير ، على بعد ساعة كاملة ، لأتصل بالسفير البريطانى من هناك . أكد لى أنهم حصلوا على الموافقة على هبوطى . وعدت أقطع الطريق إلى مطار القاهرة . وهناك وجدت سفير قبرص لدى مصر ورأيت حمدى فؤاد ، وهو صحفى يغطى أخبار وزارة الخارجية . وأصر حمدى على الذهاب معى ، ووافقت . وقال حمدى فؤاد : « هذه ستكون أكبر خبطة صحفية فى حياتى ! » وقد تابع فيما بعد عملى خطوة بخطوة ، وكان يحادثنى تليفونيا مرة كل أسبوع عندما كان مراسلا للأهرام فى واشنطن أثناء إقامتى فى نيويورك بوصفى الأمين العام للأمم المتحدة . وعندما توفى حمدى فؤاد فى ١٩٩٥ فى واشنطن فقدت مصر صحفيا عظيما وفقدت أنا صديقا عزيزا .

وركبت الطائرة ، وكانت من طراز هيركيوليس « سى - ١٣٠ » ، قادرة على حمل سيارات ومعدات ثقيلة وعدد كبير من الجنود . وكان من دواعى دهشتى أن أجد فى داخل الطائرة مجموعة من الضباط والجنود المسلحين . ترى هل يستعدون لإجراء هجوم آخر تحت ستار مهمتى ؟ وطلبت من قائد المجموعة أن يبلغنى عن الغرض من وجودهم . قال : « ربما يكونون هنا لحمايتك » . قلت لقائدهم إن وجود هؤلاء الرجال بأسلحتهم قد يوحى للسلطات القبرصية بأنهم قادمون لتنفيذ هجوم مسلح آخر ، وإننا يجب أن نتركهم فى القاهرة . ولكن الضابط أجاب « إن لدىّ أوامرى ، ولا أستطيع أن أناقشها » .

وبعد نحو ساعتين هبطنا فى أكروتيرى حيث استقبلنى ضابط بريطانى . أدى التحية العسكرية وأبلغنى أن هناك طائرة هليكوبتر بها ثلاثة مقاعد مستعدة لنقلى إلى لارناكا . لم يغادر الضباط والجنود المصريون الطائرة المصرية هيركيوليس « سى - ١٣٠ » . وحملتنا طائرة الهليكوبتر إلى مقر رئيس جمهورية قبرص . كانت الساعة حوالى ٢,٣٠ بعد الظهر عندما قابلت الرئيس القبرصى سبيروس كبريانو ووزير خارجيته ووزير الداخلية وعددا من كبار الشخصيات .

قبل أن نناقش أى شىء طلب منى الرئيس كبريانو بأدب أن أطلب من السفير حسن شاش سفير مصر فى نيقوسيا أن يخرج من الغرفة . قال إن السفير كذب عليه وأنه لا يستطيع أن يثق به بعد ذلك . كان الجو متوترا وكبريانو يبدو مهتزا . وطلبت من السفير حسن شاش أن ينتظرنى فى الخارج ، مبتلعا هذه الإهانة السافرة حتى أتمكن من أداء مهمتى ، وهو أمر يجب أن يتعلمه كل من يشتغل بالعمل الدبلوماسى .

جلست وأمامى مجموعة من المسئولين القبارصة . وفى هذه اللحظة حل علىّ التعب والإجهاد ، إذ أدركت أنى لم أنم أو أتناول شيئا من الطعام خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية . وكان الغرض من مهمتى واضحا : أن أقنع السلطات القبرصية بالإفراج عن الضباط والجنود المصريين من مجموعة الصاعقة ، وأن أطمئن إلى أن قتلة يوسف السباعى قد تم القبض عليهم . ولكن وسائل تحقيق هاتين الغايتين لم تكن واضحة على الإطلاق .

نظرت إلى رئيس قبرص . كانت تظهر عليه نفس علامات التعب والإرهاق التى أشعر بها . كانت عيناه حمراوين ويداه ترتجفان . فهو أيضا لم ينم منذ ساعات طويلة ، وكان ذهنه مشغولا . وبهذا المعنى ، كان المفاوض المصرى والمفاوض القبرصى على قدم المساواة .

طلبت شايا . وقلت إنى أود أن ينضم إلينا مدير مكتبى السفير علاء خيرت إذا كان القبارصة لا يريدون أن ينضم إلينا السفير حسن شاش . واستجابوا لطلبى .

بدأنا المفاوضات حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر واستمرت حتى غروب الشمس حوالى ٦,٣٠ . بدأ الرئيس كبريانو يسرد الأحداث من وجهة نظره : قال إنه فى الساعة ٥,٣٠ من صباح الأحد ١٩ فبراير هبطت طائرة الإرهابيين الفلسطينيين فى مطار لارناكا ، وركنت على بعد حوالى مائة ياردة من المبنى الرئيسى للمطار . وبعد ١٥ دقيقة هبطت طائرة مصرية .

قال كبريانو إن ممدوح سالم رئيس الوزراء المصرى كان قد أبلغه أن وزير الإعلام المصرى سيصل إلى نيقوسيا على متن طائرة مصرية خاصة لمواصلة التفاوض مع الإرهابيين . وأن ممدوح سالم لم يذكر شيئا عن وجود مجموعة من رجال الصاعقة المصريين على نفس الطائرة .

وعندما وجد المسئولون القبارصة مجموعة من الصاعقة المصريين ومعهم أسلحتهم ومعداتهم وسيارات على ظهر الطائرة بدلا من وزير الإعلام ، بادروا بالاتصال بالسفير

المصرى وأوضحوا له أن رجال الصاعقة المصريين لن يسمح لهم بمغادرة الطائرة أو القيام بأية عملية فوق تراب قبرص . وأبلغوه أنه إذا حاول الصاعقة المصريون الاقتراب من طائرة الإرهابيين الفلسطينيين فإن القوات القبرصية ستطلق عليهم النار .

وأكد السفير المصرى حسن شاش لوزير الخارجية أن مصر لن تقوم بأى عمل عسكرى . وظل على اتصال مستمر بالقاهرة . وكان المصريون يعرفون جيدا أن المفاوضات جارية بين القبارصة والفلسطينيين . وأثناء تلك المفاوضات لم يحاول السفير المصرى ولا الملحق العسكرى أن يشيرا بشىء عن كيفية تسوية الأزمة . وكرر كبريانو القول بأن كلا من السفير المصرى والملحق العسكرى أكدا له أن رجال الصاعقة المصريين لا يعتزمون محاولة القبض على الإرهابيين .

ولكن فى الساعة ٨,٣٠ فتحت أبواب الطائرة المصرية ، وخرجت سيارة جيب مسرعة متجهة إلى طائرة الإرهابيين ، وبدأ هجوم من جانب الصاعقة المصرية . فتحت القوات القبرصية النار ، وقتلت خمسة عشر من أعضاء الصاعقة وجرحت ستة عشر . وأصيب ستة من رجال الحرس الوطنى والشرطة القبرصية . وعند انتهاء القتال ، سلم الإرهابيون الفلسطينيون أنفسهم للسلطات القبرصية وأفرج عن الرهائن الاثنى عشر .

قال كبريانو : هذا بالضبط ما حدث . وإنى على استعداد لأن أقسم على الانجيل أن ما ذكرته هو الحقيقة .

رددت عليه على الفور بأنى على استعداد لأن أقسم على نفس الانجيل بأن ما سأقوله هو الحقيقة ، ثم أوضحت النقاط التالية :

● أولا ، إن ممدوح سالم أبلغ سكرتير كبريانو أن مجموعة من رجال الصاعقة المصريين سيحضرون إلى قبرص ، وأن حكومة قبرص وافقت على ذلك .

● ثانيا ، عندما ظهرت الطائرة العسكرية المصرية فى المجال الجوى القبرصى أعطتها السلطات القبرصية الإذن بالهبوط فى لارناكا . وكان من الواضح أن وزير الإعلام المصرى بمفرده ما كان ليحتاج إلى طائرة عسكرية ضخمة تطير به إلى قبرص . وكانت السلطات القبرصية على بينة من ذلك تماما .

● ثالثا ، كان فى وسع السلطات القبرصية أن تأمر الطائرة المصرية بالإقلاع على الفور عندما « اكتشفوا » أنها تضم مجموعة من رجال الصاعقة . وإن الطائرة المصرية وصلت فى الساعة السادسة إلا ربع . وإن محاولة الصاعقة المصرية لتحرير الرهائن لم تبدأ إلا بعد ذلك بما يقرب من ثلاث ساعات . وطوال تلك المدة لم تبد السلطات القبرصية أى اعتراض على استمرار وجود فريق الصاعقة .

● رابعا ، كان من السهل على القبارصة أن يحولوا دون وصول رجال الصاعقة إلى طائرة الإرهابيين بإغلاق المخرج الخلفى للطائرة بحيث لا يكون فى وسعها إخراج سيارات الجيب والجنود من الطائرة .

● خامسا ، إن العنف الذى أبدته قبرص فى مواجهة رجال الصاعقة المصريين لا يتناسب مع ما أبدته من تراخ فى وقت اغتيال يوسف السباعى واحتجاز الرهائن وخطف الطائرة ومغادرتها لارناكا وعودتها إليها .

وقلت إنى أود أن أكون صريحا مع رئيس قبرص . وإن وجهة نظر حكومتى إلى هذه الأحداث المؤسفة هى أننا نواجه مؤامرة قبرصية تهدف إلى إحراج القوات المسلحة المصرية ، وهى القوات التى جاءت لمساعدة حكومة قبرص وبإذنها . وإن ما حدث ما كان يمكن أن يحدث بدون قصد وتدبير مسبق .

وسرت همهمة بين الفريق القبرصى . وبدا الرئيس كبريانو منزعجا ، وكان وزير الخارجية خرستوفيدس يرتجف غضبا . وتكهرب الجو . وواصلت الكلام ، متعمدا إبداء المرونة والنية الطيبة . قلت إنه مهما يكن من خطورة الأحداث التى نناقشها ، ومهما اختلفنا بشأن الجهة التى يلقى عليها اللوم ، فإننا يجب أن نتفق على ضرورة تسوية الأزمة سلميا وبلا إبطاء . وقلت إن مهمتى ليست الإفراج عن أعضاء القوة المصرية بقدر ما هى المحافظة على العلاقات الطيبة بين مصر وقبرص . وأن الحكومة المصرية أرسلت وزير الدولة وليس وزير الحرب . وأن اختيارى ، وأنا رجل دبلوماسى ، بدلا من اختيار أحد القادة العسكريين ، دليل على أن مصر تريد المحافظة على العلاقات الطيبة مع قبرص . ثم انتقلت إلى المطلبين المصريين : الأول ، أنه يجب تسليم الإرهابيين الفلسطينيين إلينا لمحاكمتهم فى مصر على اغتيال يوسف السباعى ، والثانى ضرورة إعادة رجال الصاعقة مع أسلحتهم ومعداتهم العسكرية فورا .

وتحدث وزير الداخلية القبرصى قائلا : « سيدى الدكتور ، أنت رجل معروف بخبرتك الواسعة بالقانون . ولابد أنك تعرف أن الفلسطينيين لا يمكن تسليمهم للسلطات المصرية . فقد ارتكبت الجريمة على أراضى قبرص وبالتالى يجب محاكمتهم أمام محاكم قبرص » .

قلت إنى لا اعترض على هذا التفسير القانونى ، لكن ما اقترحه باسم الحكومة المصرية هو اتفاق خاص بين مصر وقبرص فى هذه المسألة المحددة ، حتى يمكن أن نحاكم الإرهابيين فى القاهرة .

وبعد ذلك تحدث الرئيس كبريانو طويلا عن موقف حكومته . وبينما كنت استمع إليه كنت استعيد مناقشة دارت مؤخرا مع ممدوح سالم ، ذكرت له فيها أن المطالبة المصرية بتسليم المتهمين لمحاكمتهم أمام المحاكم المصرية أمر مستحيل من وجهة النظر القانونية . وكان رد رئيس الوزراء المصرى هو أن سخر منى ومن القانون الدولى .

قال كبريانو إنه مستعد لبحث إمكانية الوصول إلى اتفاق خاص مع مصر ، ولكن ذلك يحتاج إلى وقت ، كما يتطلب موافقة برلمان قبرص . وإن هناك احتمالا كبيرا بأن يرفض البرلمان الموافقة على اتفاق كهذا لأنه لا يتفق مع الدستور .

قلت : إذن فلندع مؤقتا مسألة الإرهابيين ونناقش عودة رجال الصاعقة بكل معداتهم العسكرية إلى مصر .

تكلم كبريانو بانفعال عن « العدوان المصرى » على سيادة قبرص . وقال إن محاولة القيام بعمل عسكرى على تراب دولة أخرى بدون إذنها أمر غير مقبول . وذكر أنه لا يعارض فى عودة الجنود المصريين لكنهم يجب أن يتركوا أسلحتهم فى قبرص .

كنت أعرف الفرق بين عودة الرجل العسكرى ومعه سلاحه ، وعودته وقد ترك سلاحه وراءه ، مما يعنى الاستسلام والإذلال .

طلبت من الرئيس كبريانو السماح لى بالاتصال بأعضاء الصاعقة المصرية . فأخذونى إلى غرفة مجاورة حيث تمكنت من الحديث مع أحد ضباط الصاعقة بالتليفون . وأبلغته أنى مفوض من الحكومة المصرية لضمان عودتهم إلى الوطن بلا إبطاء ، وأن القبارصة يقترحون أن يعود رجال الصاعقة إلى مصر بدون أسلحتهم وأنى أود أن أعرف رأيه فى هذا الموضوع .

لم يتردد الضابط . وقال إن رجال الصاعقة لن يعودوا إلى وطنهم إلا وأسلحتهم معهم ورافعين رأسهم .

عدت إلى غرفة الاجتماع وقلت : « إن الضابط المصرى رفض اقتراح قبرص رفضا قاطعا . وأكد لى أنه لن يغادر قبرص بدون أسلحته » .

وقلت إنى اتفق تماما مع وجهة نظره . وإذا أردنا أن نصل إلى حل سلمى لهذه الأزمة والحفاظ على العلاقات الدبلوماسية بين بلدينا ، فعلينا أن نأخذ موقف الضباط والجنود المصريين فى الاعتبار وأن نحترم تقاليد الشرف العسكرى . وبغير ذلك فإنى سأعود إلى القاهرة على الفور لأبلغ رؤسائى أنى فشلت فى مهمتى .

عند ذلك أبدى القبارصة عددا من الحجج وقدموا العديد من السوابق العسكرية والقانونية والتاريخية . ورفضت التراجع . وفى مواجهة إصرارى وافقوا من ناحية المبدأ على عودة فريق الصاعقة ومعه كل أسلحته . واتفقنا كحل وسط على ترتيب مؤداه وضع الأسلحة فى صناديق مغلقة بإحكام ، ونقلها فى نفس المركبات التى ستنقل الرجال من نيقوسيا إلى القاعدة الجوية البريطانية فى أكروتيرى . وعند ذلك ظهرت عقبة جديدة . فبعد أن حصلت على موافقة القبارصة على هذا الحل الوسط أشار أحدهم إلى أن القاعدة العسكرية البريطانية لا تقبل دخول أسلحة إليها ، وأن القوات الأجنبية لا يسمح بدخولها محملة بالأسلحة والمعدات .

غادرت غرفة العمليات لأتصل بالقائد البريطانى هاتفيا . فأكد لى أن هناك حظرا قاطعا على دخول أسلحة إلى القاعدة . وشرحت له الموقف وقلت : « نحن نطلب السماح لفريق الصاعقة المصرى بدخول القاعدة بأسلحته فى طريقه إلى القاهرة » . وطلبت منه أن يعطينى رقم تليفون وزير الدفاع البريطانى فى لندن حتى أتمكن من مخاطبته مباشرة .

قال الضابط البريطانى إنه سيقوم بإبلاغ طلبى إلى لندن ويسعى للحصول على رد إيجابى ، وإنه إذا لم ينجح فسيكون فى وسعى الاتصال المباشر بالوزير . شكرته وقلت إن كل المطلوب هو استثناء لمدة نصف ساعة سيصل خلالها رجالنا إلى الطائرة ثم تقلع عائدة إلى مصر .

وفى طريق عودتى إلى غرفة الاجتماع ، طرأ لى أن هناك بلا شك مئات من رجال الصحافة والمصورين ينتظرون نتيجة المفاوضات ، وأن صور الضباط والجنود المصريين وهم فى طريقهم إلى أكروتيرى بدون أسلحتهم يمكن أن تفسد كل جهودى . وقررت أن يكون نقل رجال الصاعقة بعد حلول الظلام وفى وقت غير معلن لتجنب وجود المصورين . ثم ناقشنا المركبات التى سيستقلها أعضاء الصاعقة فى طريقهم إلى أكروتيرى . وبعد كثير من الأخذ والرد اتفقنا على أن يقوم بقيادة المركبات سائقون قبارصة ويجلس إلى جانب كل منهم ضابط مصرى .

ودخل إلى الغرفة موظف مدنى قبرصى . وقال إن قائد القاعدة البريطانية يريد أن يتحدث معى . أبلغنى الضابط البريطانى بموافقة رؤسائه على طلبى بشرط ألا تفتح الصناديق التى تحوى الأسلحة إلا بعد تحميلها فى الطائرة المصرية ، وأن يتولى سائقون بريطانيون قيادة المركبات عند وصولها إلى أرض القاعدة . وافقت ، واتصلت بضابط الصاعقة المصرى لأوضح له ما تم الاتفاق عليه . رحب بالترتيبات ورأى أنها تحافظ على

شرف رجاله . وعدت بعد ذلك إلى الغرفة لنبدأ المناقشات حول التحفظ على الإرهاربيين الفلسطينيين . وتمسك القُبارصة بموقفهم ، وعلى ذلك لم أتمكن من تحقيق أى تقدم .

وأقول الحق ، إنى كنت أخشى أن يكون هناك قرار قد اتخذ فى القاهرة بالفعل بقطع العلاقات الدبلوماسية مع قبرص . وأحسست بدقة موقفى ، إذ أن مناقشاتى مع القبارصة كانت تقوم على أساس ضرورة المحافظة على العلاقات الودية بين البلدين .

أبدى الرئيس كبريانو رغبته فى إبلاغ الصحف بما اتفقنا عليه . قلت له إنى أفضل عدم الإدلاء ببيانات صحفية ، لأنى أشعر بأنى لم أنجح تماما فى إنجاز مهمتى . ولذا اقتصر اللقاء مع مندوبى الصحف على بيان موجز من جانب كبريانو عن الاتفاق على إطلاق سراح رجال الصاعقة المصريين . وقال أيضا إنه تم الاتفاق على ألا تؤثر الأزمة الحالية على العلاقات بين البلدين . والتزمت أنا الصمت .

صافحت الرئيس كبريانو وشكرته وانطلقت بطائرة الهليكوبتر إلى القاعدة البريطانية . وكانت القيادة البريطانية قد أعدت عشاء لى ، وهو أمر رحبت به لأنى لم آكل شيئا منذ فترة طويلة .

ومن أكروتيرى اتصلت بممدوح سالم أبلغه بأن قافلة المركبات التى تنقل رجال الصاعقة والقتلى والجرحى فى طريقها إلى أكروتيرى . ورحب ممدوح سالم بالخبر وقال « إن مجلس الوزراء المصرى بكامل هيئته سيحضر إلى مطار القاهرة للترحيب بعودة القوات المصرية عودة الأبطال » . واندهشت لذلك أشد الدهشة ، ولكنى لم أشأ أن أناقش ممدوح سالم فى ذلك . وأرسل حمدى فؤاد تقريره الصحفى إلى وكالات الأنباء فى أنحاء العالم ، وحصل على « الخبطة » الصحفية التى كان يريدها .

وصلت القافلة التى تحمل القوة المصرية . وفضلت ألا أغادر الغرفة حتى لا أرى حالة الجرحى وجثث الموتى خوفا من أن أفقد سيطرتى على نفسى . لم يمض وقت طويل حتى أبلغونى بأن جميع الرجال قد صعدوا إلى الطائرة . وأن المعدات والسيارات والأسلحة قد تم تحميلها أيضا ، وأن الطائرة على استعداد للإقلاع . وصعدت إلى الطائرة ، وجلست فى كابينة القيادة . وكان معى سفير قبرص فى مصر الذى صحبنى منذ بداية الرحلة من القاهرة .

حلقت الطائرة ، وقدم لى أحد قادتها كوبا من الشاى وهو يقول لى بعطف ويبتسم : « نحن نعتذر يا دكتور عن إزعاجك » . وشعرت بكل المعانى التى قصدها الرجل بعبارته

البسيطة . ولو لم يكن السفير القبرصى موجودا معنا لبكيت . وشعرت كما لو كنت أحد أفراد الصاعقة التى قامت بالمهمة .

وصلنا إلى مطار القاهرة الدولى الساعة ١,٣٠ صباحا ، ووجدنا ممدوح سالم ومجلس الوزراء بكامله هناك لاستقبالنا . وهتف أعضاء الصاعقة بشعارهم « التضحية ، الإخلاص ، النصر ! » وألقى الفريق الجمسى كلمة ، ولكن بين الجمع الكبير والأصوات المختلطة لم أستطع أن أسمع ما قال . وأخذ الجميع يهتفون « تحيا مصر ! تحيا مصر ! » . ثم دخلت استراحة كبار الزوار . وقبل أن يسألنى ممدوح سالم عن تفاصيل مهمتى عاتبنى بقوله : « لماذا تأخرتم إلى هذا الحد ؟ لقد كنا فى انتظاركم منذ ساعات ! » .

وعلمت أن مجلس الوزراء اتخذ قرارا فى اجتماع طارىء استمر حتى منتصف الليل باستدعاء البعثة الدبلوماسية المصرية من قبرص ، ومطالبة حكومة قبرص باستدعاء بعثتها الدبلوماسية من القاهرة .

صدمنى النبأ كما لو كان ضربة صاعقة . وكدت انفجر . ألم يكن فى وسع المجلس أن ينتظر قليلا حتى يعود الوزير المكلف رسميا بمحاولة تسوية الأزمة مع قبرص ؟ ترى هل فكر زملائى الوزراء فى النتائج التى كان يمكن أن تترتب على معرفة رئيس قبرص بهذا القرار قبل مغادرة رجال الصاعقة للأراضى القبرصية ؟ كان من المحتمل أن ترفض السلطات القبرصية إعادتهم . وكان يمكن أن تعتقلهم ، بل وأن تحاكمهم ! ولكنى تمالكت أعصابى ، محاولا أن أتعامل مع أخطاء حكومتى وتناقضاتها بصبر وهدوء .

كانت هناك أسئلة عديدة لا تزال تحتاج إلى إجابة . كيف اتخذ القرار بعملية الصاعقة ؟ كيف تصور المسئول عن العملية أنه يمكن إتمامها بدون موافقة حكومة قبرص ؟ كان من الواضح أن عملية كهذه لا يمكن أن تنجح بدون موافقة ومساعدة السلطات المحلية . وبدون ذلك كان على المكلفين بالعملية أن يواجهوا جبهتين : الإرهابيين من ناحية ، والسلطات المحلية من ناحية أخرى . هل كانت قيادة مجموعة الصاعقة على اتصال بالقاهرة عن طريق السفير المصرى أو عن طريق الملحق العسكرى ؟ هل وافقت القاهرة على الإجراء الذى اتخذ ؟ ألم تدرك قيادة الصاعقة ما كانت القوات القبرصية تعنيه بمحاصرتها للمطار ؟ هل تصورت أن القبارصة يهددون بالكلام فقط وأنهم لن يهاجموا القوة المصرية ؟ وإذا كانت قيادة الصاعقة قد عزمت على الهجوم فلماذا انتظرت ساعتين على الممر . وأضاعت عنصر المفاجأة ؟

قيل لى إن المقدم نبيل شكرى قائد العملية لم يكن إلا منفذا لتعليمات تلقاها من القاهرة . فلماذا لم تغير القاهرة تلك التعليمات والأوامر تبعا لتغير الظروف والتطورات الجديدة ؟

وكان لدىّ أيضا أسئلة عن دور قبرص فى هذه المسألة كلها . فقد قيل لى إن بعض الساسة القبارصة يحتضنون موقف الرفض العربى ، ويريدون أن يعاقبوا السادات بفرض الاذلال على مصر بعد أن قتلوا السباعى صديق السادات . وماذا كان دور ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية الذين سارعوا إلى قبرص ووصلوا إلى مبنى مطار لارناكا أثناء الهجوم على طائرة الإرهابيين ؟ وماذا كان دور أحد الملحقين العسكريين العرب الذى قضى سنوات طويلة فى منصبه فى قبرص وكان موجودا فى مطار لارناكا أثناء المعركة ؟ وماذا عن سفير عربى آخر لدى نيقوسيا قام بأعمال مشبوهة ؟ وهل دبرت هذه الكارثة عناصر قبرصية متحالفة مع الرافضين العرب ؟ هل كان الهجوم على قوات الصاعقة استمرارا للهجوم الذى قتل فيه يوسف السباعى ؟ أم كان ذلك كله نتيجة لأخطاء من جانب مصر وقبرص ؟

فى البداية استخلصت أن هذه لم تكن مؤامرة مدبرة بل نتيجة للغباء والارتجال بلا تدبر . ولكن بمرور الوقت لم أعد واثقا من ذلك . فأعداء السادات كانوا يأملون فى خلق حالة من عدم الاستقرار داخل الجيش المصرى . وكانت الصحف الدولية تقارن بين فشل الصاعقة المصرية ونجاح العملية الإسرائيلية فى إنقاذ الركاب الذين خطفت طائرتهم فى عنتيبى .

وفى يوم الأربعاء ٢٢ فبراير اشتركت فى الجنازة الرسمية لرجال الصاعقة الذين قتلوا فى قبرص . وحضرها السادات وكل أعضاء مجلس الوزراء . وفى وسط الحزن كان هناك جو من العداء تجاه قبرص . وأعلن الرئيس السادات أن مصر سحبت اعترافها بقبرص وبالرئيس كبريانو كرئيس لقبرص . وحاولت أن أقنع ممدوح سالم أن مثل هذا التصريح ليست له سابقة فى العمل الدبلوماسى والحياة الدولية . وقال لى : « إذن فافعل شيئا ، فلمثل هذه الأمور توجد وزارة الخارجية ! » .

وبعد الجنازة جاء إلى مكتبى سفير اليونان . وطلبت منه أن يبلغ حكومة اليونان أننا نأمل أن تستخدم مساعيها الحميدة لتهدئة الأمور ووقف تدهور العلاقات بين مصر وقبرص .

فى ٢٧ فبراير حضرت جلسة مجلس الشعب المخصصة لمناقشة عملية قبرص الفاشلة . واستمرت المناقشة والتنديد سبع ساعات . وشعرت بالإجهاد والإحباط . واليوم

بعد مرور عدة سنوات ، ما زال السر مغلقا لم يحل . وعندما قابلت فاسيليو رئيس قبرص الذى تفاوضت معه حول النزاع بين اليونان وتركيا فى قبرص بوصفى أمينا عاما للأمم المتحدة ، لم يستطع أن يزودني بدليل لفهم ما كان وراء كارثة ١٩٧٨ . وأيا كان الدافع أو السبب ، فقد كان عملا من أعمال الغباء ، لأن الإرهاب غبى دائما .

الفصل الثالث

أصدقاء على الطريق

عندما أدت المعارضة لمبادرة الرئيس السادات إلى زيادة عزلة مصر فى العالم ، شرعت فى سلسلة طويلة من الأسفار إلى جنوب آسيا وإفريقيا ، بغرض السعى إلى تعزيز فهم موقف مصر بين بلدان عدم الانحياز والدول الإفريقية . وكانت رسالة تيتو تذكرنى بأن مصر ستواجه الرافضين داخل هاتين المجموعتين من الدول ، وأن هدفهم هو إما إجبار مصر على تغيير سياستها تجاه إسرائيل ، أو فرض العزلة عليها إذا لم يقبل السادات التراجع .

جنوب آسيا وعلم التنجيم

بدأت رحلتى إلى الهند مصحوبا بعدد كبير من رجال الأمن ، فبعد اغتيال يوسف السباعى زادت ترتيبات الأمن بشكل ملحوظ . وأنا لا أدعى الشجاعة ولكنى أؤمن بالقدر وبالتالى لم أشعر بأى قلق من حدوث اعتداء على حياتى . ولم تشاركنى زوجتى « ليا » هذا الاعتقاد . وما كنت اعتبره رباطة جأش وثقة بأن مجرى الأحداث لا يمكن أن يتغير ، كانت هى تعتبره تسليما واستسلاما . ولذا فعندما بدأت رحلتى زاد التوتر فى بيتى مع محاولات زوجتى إقناعى بأهمية الالتزام الدقيق بتعليمات رجال الأمن .

كان الوقت قد اقترب من الفجر عندما وصلت إلى نيودلهى يوم السبت ١٨ مارس ١٩٧٨ . وكان وزير خارجية الهند فى انتظارى فى المطار على الرغم من تلك الساعة المبكرة . وركبت معه سيارة مصفحة من المطار إلى قصر الضيافة . وقيل لى إنها السيارة المصفحة الوحيدة فى العاصمة الهندية .

فى نيودلهى قادونى إلى القصر السابق لنظام حيدر أباد . ذكرنى هذا المبنى الضخم بقصر عمى واصف الذى كان قائما إلى جوار السفارة الفرنسية على ضفاف النيل فى الجيزة . وكان حجم المبنى وطرازه ، والأثاث الفرنسى الذى صنع بعد الحرب العالمية الأولى من طراز ماجوريل ، كل ذلك يذكرنى بأيام طفولتى والفترات السعيدة التى قضيتها فى قصر عمى . وكنت طفلا مدللا ، بحيث إنى كلما طلبت من والدىّ الذهاب إلى دار عمى واصف ، كانا يوافقان على ذلك . وكنا إذا مرض واحد من الأبناء الثلاثة يقوم والدىّ بإرسال الابنين الآخرين إلى بيت عمى تجنبا للعدوى .

أقام وزير الخارجية مأدبة عشاء تكريما لى . وأشرت فى الكلمة التى ألقيتها إلى العلاقات بين مصر والهند منذ أيام الملكية فى مصر ، عندما قامت الاتصالات بين غاندى وسعد زغلول باعتبارهما معارضين للحكم الاستعمارى البريطانى . وقد استمرت هذه العلاقات بعد قيام الثورة المصرية وعززتها اللقاءات بين عبد الناصر ونهرو . وقلت إن مهمتى هى ضمان استمرار الصداقة بين القاهرة ونيودلهى .

وبعد الالتقاء برئيس الوزراء الهندى موراجى ديساى وغيره من المسئولين ، توجهت إلى بومباى محاطا برجال الأمن ، لأن اغتيال يوسف السباعى غير من نظام الأمن فى مختلف أنحاء العالم .

فى كولومبو ، عاصمة سرى لانكا ، قابلت وزير الخارجية « حامد » الذى قارن بين موقفى كمسيحى فى دولة مسلمة وموقفه كمسلم فى دولة بوذية ويسكنها التاميل . وحاولت أن أقنعه بأنى لا أمثل الأقلية القبطية بل أمثل مصر بكاملها . ولكن وزير سرى لانكا لم يقتنع ، واستمر يتحدث فى موضوع الأقليات الذى كان من الواضح أنه موضوع حساس بالنسبة له .

والتقيت برئيس الوزراء ، وبعد ذلك برئيس جمهورية سرى لانكا فى مقر إقامته . وبعد يوم طويل من المحادثات شعرت بأن رحلتى عززت موقف مصر فى حركة عدم الانحياز .

فى سفارة مصر فى كولومبو أصرّ سفيرنا مصطفى راتب ، وهو رجل متشدد

ذو شخصية صعبة ، على أن أستشير منجما . وقال إن « حالتى الخاصة » تستوجب ذلك . وترددت فى الأمر ، ولكن مصطفى راتب تمسك برأيه قائلا إن المنجمين فى سرى لانكا لهم شهرة عالمية .

والتقيت بالمنجم فى غرفة مغلقة فى السفارة . تأمل راحة يدى وقص لى قصة حياتى وتنبأ لى بمستقبل باهر . وقال إنى سأصبح شهيرا للغاية ، وإنى سأصعد ويستمر نجمى فى الصعود ، لأصل إلى أحد أعلى المناصب فى العالم ، وبعد ذلك تنتهى حياتى بالاغتيال فى سن الخامسة والسبعين . وأسعدتنى نبوءته وأشعرتنى بالزهو والاطمئنان . فما زال الأمد طويلا حتى الخامسة والسبعين . وقلت لنفسى : ربما يكون هناك قدر من الصحة فى علم التنجيم رغم كل شىء .

وبعد ذلك سكت المنجم ثم قال إنه إلى جانب اشتغاله بالتنجيم يشتغل بالصحافة ، وإنه وقد أنهى عمله معى بوصفه منجما ، يريد أن يمارس مهنته كصحفى ، وسألنى عما إذا كان يستطيع إجراء حديث صحفى معى . وشعرت بالغضب والإحراج . فهذا ليس عرافا بل صحفى . قلت له وأنا أغادر الغرفة مندفعا بانفعال : « أنصحك بأن تحضر المؤتمر الصحفى المقبل الذى أعقده » .

وعندما غادرت جنوب آسيا على متن طائرة « سويس آير » شعرت كأنى قد وصلت فعلا إلى سويسرا . كانت هناك النظافة ، والنظام ، والهدوء ، والصفاء على الطراز السويسرى . وإذا كان الفقر موجودا فى المجتمع السويسرى فهو غير ظاهر . والواقع أن أوروبا فى مجموعها لم تنجح فى التغلب على الفقر ، ولكنها نجحت فى إخفائه . فى الطائرة استمتعت بموسيقى رمسكى كورساكوف وبورودين . وأدركت أنى بينما أنتمى بقوة إلى العالم الشرقى والعربى فإن ارتباطى بالثقافة الأوروبية لا انفصام له .

العودة إلى إفريقيا

فى شهر مارس غزا الجيش الإسرائيلى جنوب لبنان فى محاولة لاجتثاث جذور معسكرات الفدائيين الفلسطينيين . وكانت تلك العملية ضربة شديدة لموقف مصر . وكانت مناسبة لهجوم عنيف فى صحف العالم العربى على « خيانة » مصر للقضيتين الفلسطينية والعربية . وكنت هدفا خاصا للإدانة بوصفى « المهندس الأكاديمى للانهزامية العربية » ، وخائنا من أسرة خونة يستحق « التصفية » كما حدث لجدى . ونشرت صورتى فى إحدى المجلات مع دعوة لقتلى . وكان العالم العربى كله مقتنعا ، ولأسباب قوية ، بأن إسرائيل

ما كانت لتجسر على عبور الحدود إلى داخل لبنان إلا إذا كانت مطمئنة إلى أن حدودها الجنوبية مع مصر آمنة . وأن مفاوضات الرئيس السادات مع الإسرائيليين سمحت لهم بحرية مهاجمة العرب الآخرين . ونتيجة لذلك أصبحت مصر فى موقف أكثر صعوبة . وظلت أغلبية العرب على اعتقاد بأن الحرب فى لبنان ترجع إلى خيانة مصر للتضامن العربى .

وفى يوم الخميس ١٣ أبريل عقدت لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشعب اجتماعا برئاسة الدكتور جمال العطيفى . وطلب منى أن أقدم بيانات عن اعتداء إسرائيل على جنوب لبنان واستخدامها أنواعا متعددة من الأسلحة المحظورة ، بما فى ذلك القنابل العنقودية ، وأبلغت اللجنة أن مصر ترحب بانعقاد قمة عربية بشأن الأزمة الراهنة ، وأن مصر كانت أول بلد يتحرك على الجبهة الدبلوماسية لوقف العدوان الإسرائيلى وإدانته ، وأننا على اتصال وثيق مع منظمة التحرير الفلسطينية . وقدمت بيانا موجزا بالجهود التى أبذلها لتوضيح موقف مصر فى حركة عدم الانحياز ، ولا سيما لدى دول آسيا وإفريقيا .

وفى ٢٤ أبريل استقبلت فى مكتبى جوشوا نكومو قائد جبهة التحرير الوطنى فى زيمبابوى . وكان وزن نكومو يبلغ نحو ٢٧٠ رطلا . وقد انهار الكرسى الذى جلس عليه تحت وطأة وزنه ، وكاد يقع على الأرض لولا أنى أمسكت به . واعتذر الزعيم الإفريقى عما أحدثه من ضرر . وكان من شأن البيروقراطية المصرية أن استغرق إصلاح الكرسى ستة أشهر .

كان نكومو شخصية مرحة وحاضر البديهة ، وكان على ثقة فى أن بلده سيتغلب على روديسيا ، وأن الكفاح ضد الأقلية البيضاء سينتهى بالنصر . وطلب مساعدة مالية وعسكرية من مصر . وقد كلفت السفير أحمد صدقى الذى كان مديرا نابها ونشيطا للإدارة الإفريقية فى وزارة الخارجية ، بالاهتمام بالزعيم الإفريقى ، وأن يعد له برنامجا للمقابلات والزيارات فى القاهرة . كما طلبت منه أن يرتب عقد مؤتمر صحفى حتى يتمكن نكومو من عرض وجهة نظره على العالم من القاهرة .

وفى يوم الخميس ٢٥ مايو احتفلنا بيوم إفريقيا وإنشاء منظمة الوحدة الإفريقية . وحاولت خلال المؤتمرات الصحفية أن أقنع الرأى العام المصرى بأهمية القارة الإفريقية بالنسبة لمصر ، وبدأت الاستعداد لأسفارى فى أنحاء إفريقيا .

وفى يوم ٢ يونيو توجهت إلى مستشفى القوات المسلحة على طريق المعادى لزيارة نائب رئيس جمهورية أوغندا الذى كان قد أصيب فى حادث سيارة ونقل إلى القاهرة لإجراء

عملية جراحية . وقيل إن الحادثة رتبها رئيسه عيدى أمين لتلقين نائبه درسا . وكانت زوجة المصاب إلى جانبه عندما دخلت الغرفة .

حاولت أن أبدأ حديثا معهما ، ولكنى سرعان ما تبينت أن نائب الرئيس وزوجته ليس بينهما من يعرف اللغة الإنجليزية جيدا . ولذا اكتفيت بلغة الإشارة ، وحاولت الإعراب عن أملى فى سرعة شفائه . ونجحت فى إبلاغه أنى اعتزم زيارة كمبالا فى وقت قريب . وسألته عما إذا كانت هناك رسالة يريد أن أبلغها إلى رئيسه عيدى أمين ؟ وفهمت أن صحته آخذة فى التحسن بفضل الأطباء المصريين ، وأنه لا يريد منى إبلاغ شىء إلى رئيس بلاده ما عدا إبداء ولائه وخضوعه التام ، واستعداده للعودة حينما يطلب منه ذلك .

وفى اليوم التالى ، السبت ٣ يونيو ، بدأت رحلتى إلى العواصم الإفريقية . غادرنا القاهرة فى الصباح بطائرة نفاثة من طراز ميستير ، متجهين إلى الخرطوم . وكان معى السفير أحمد صدقى مدير الإدارة الإفريقية ، والسفير علاء خيرت ، والوكيل الأول حسن فهمى ، والعقيد أحمد الحفناوى ، واثنان من رجال الأمن . وقبل وصولنا إلى مطار الخرطوم بوقت قصير هبت عاصفة رملية شديدة كادت تقذف بالطائرة الصغيرة إلى الأرض عدة مرات قبل أن تتمكن من الهبوط . وبحمد الله لم تحدث كارثة . ولكننا شعرنا كلنا بالرعب ، ولا سيما علاء خيرت الذى رجانى أن أترك الطائرة الخاصة فى الخرطوم وأسافر بطائرات الخطوط التجارية .

كنت منذ أمد طويل أناصر قيام اتحاد فيدرالى بين مصر والسودان . وخلال فترة السيطرة البريطانية ، كان هناك اعتراف بالوحدة الاقتصادية والجغرافية بين مصر والسودان ، وكانت المساحة الممتدة من دلتا النيل إلى حدود أوغندا تحت سلطة واحدة من الناحية الاسمية . وكنت مقتنعا بأن التكامل بين البلدين هو المفتاح لازدهارهما معا . وقد عُقدت اجتماعات عديدة للجنة الوزارية المصرية السودانية المشتركة لمناقشة الموضوع ، ولكنها لم تحقق شيئا . فالمحادثات لم تكن مرتبطة بحقائق القضية ، ومع ذلك فعند نهاية كل جلسة كان ممثلو الجانبين يهنئون بعضهم بعضا فى جو من السعادة والشعور بالإنجاز ، وكأنما قد تم التغلب على العقبات الكبرى وتم التوصل إلى اتفاق على السير فى المشاريع المشتركة واسعة النطاق للإصلاح الزراعى ونشر الصناعة وإنشاء خزانات المياه .

وطلبت من حافظ غانم ، نائب رئيس الوزراء المعنى بشئون السودان ، أن يفسر لى هذه الاجتماعات التى لا تحقق شيئا . ضحك وقال : « إنها شعرة معاوية » . وهذا القول العربى القديم يعنى أهمية بقاء الطرفين على اتصال أحدهما بالآخر مهما بلغ من دقة الخيط

الذى يربط بينهما . وقال إن علينا أن نستمر فى هذه الاجتماعات وألا نفقد حماستنا . وسيأتى اليوم الذى يتحقق فيه التكامل استنادا إلى التفاهم الذى تصل إليه هذه الارتباطات المستمرة ، وإن تكن غير محددة المعالم . ولكن بعد سقوط رئيس السودان نميرى فى ١٩٨٩ انقطعت شعرة معاوية ، إذ قام نظام أصولى فى الخرطوم . وهذا النظام يمثل خطرا حقيقيا على استقرار كثير من الدول العربية والإفريقية .

واغتنم زميلى السودانى فرصة وجودى فى الخرطوم ليطلب منى ، وأنا ماض إلى محطتى التالية فى إفريقيا ، أن أحل بعض المشاكل التنظيمية المتعلقة باجتماعات القمة الإفريقية المرتقبة . ووعدته بأن أنقل رسائل السودان إلى البلاد التى أمر بها . وضحك مضيفى وقال : « لقد أصبحت مبعوثا فوق العادة للسودان ، بالإضافة إلى دورك الأصلى كممثل خاص للرئيس السادات فى إفريقيا ! » .

وتركت الخرطوم فى ٤ يونيو فى الصباح الباكر بالطائرة الميستير متجها إلى نجامينا ، عاصمة تشاد . عندما هبطت الطائرة الميستير فى مطار نجامينا لم يكن هناك أحد من المسئولين التشاديين لاستقبال وفدى ، وفسروا ذلك بأن طائرتنا وصلت قبل الموعد المتوقع . ولتمضية الوقت وافقت على إجراء حديث مع مراسلى إذاعة تشاد . وفى النهاية حضر وزير خارجية تشاد الكولونيل عبد القادر كموجو ، وهو رجل طويل القامة من منطقة الجنوب المسيحى ، ورحب بى ولكنه قال إنه ليس واثقا من أن الرئيس فيلكس معلوم سيتمكن من استقبالى . وأبلغت وزير الخارجية أنى أحمل رسالة من الرئيس أنور السادات ، وأعربت عن رغبتى الشديدة فى مقابلة الرئيس التشادى .

عاد وزير الخارجية بعد نصف ساعة . كان الرئيس معلوم قد استمع فى إذاعة تشاد للبيانات التى أدليت بها عند وصولى إلى مطار نجامينا . وكان الحديث نوعا من الاختبار من جانب حكومة تشاد . والآن بعد أن استمع التشاديون لما قلته عن تأييد مصر لتشاد ، وافق الرئيس معلوم على مقابلتى .

ودعيت إلى غرفة استقبال واسعة فى مقر الرئاسة ، وقد وقف الرئيس فى وسطها ، وهو رجل طويل نحيل ، على وجهه علامات للحزن والإرهاق . وكانت فى يده عصا طويلة . والغرفة أنيقة ، وبها ثلاثة أجهزة راديو كبيرة . دعانى الرئيس للجلوس . وبدأت بالقول بأنى أحمل تحيات الرئيس أنور السادات ، ولكن معلوم قاطعنى سائلا : « أين تعلمت اللغة الفرنسية ؟ » وأجبت بأنى تعلمتها فى المدرسة فى القاهرة . وعلق الرئيس على ذلك بقوله إن المصريين الذين التقى بهم من قبل لم يكونوا يتكلمون الفرنسية ، وأنه يسره أن يكتشف استثناء من بينهم . قلت : « كل قاعدة يا سيادة الرئيس لها استثناءاتها المهمة » .

اختفت علامات الحزن والتعب من على وجه الرئيس وراء ابتسامة ودية . وأعرب الرئيس معلوم عن امتنانه لتأييد مصر لتشاد ، وأدان عدوان ليبيا عليها . وقال إن الاتحاد السوفيتي وكوبا وراء القذافى ، ووصف ما يتحمله بلده بسبب التدخل الليبي . وقال إن ما يجرى فى تشاد ليس صراعا داخليا ، وإنما هى مؤامرة شيوعية دولية . وأعرب رئيس تشاد عن أمله فى أن توفر مصر لبلده مساعدة مالية وعسكرية عاجلة . وطلب أيضا أن تبذل مصر كل جهد ممكن لإقناع المملكة العربية السعودية ونيجيريا بمساعدة تشاد . وقد حاولت ذلك فيما بعد ولكنى لم أحصل على ردود إيجابية .

بعد طيران ساعتين وصلت إلى نيامى عاصمة النيجر . وانفجر إطار عجلة طائرتنا أثناء الهبوط ، مما زاد من مخاوف وفدنا الذى كان خائفا بالفعل . واستقبلنى الرئيس سينى كونتشى فى مكتبه الصغير فى وسط معسكر حربى . وكانت معلقة وراءه خريطة ضخمة لإفريقيا الوسطى . كان الرئيس رجلا عسكريا نشيطا وسريع البديهة ، يتمتع بشخصية قوية وإرادة قوية ينعكسان على ملامحه . وهو قصير القامة نحيل وعصبى ، له عينان سريعتا الانتقال من اتجاه لآخر ، وهو يختلف تماما – فى الشكل والجوهر – عن الرئيس معلوم رئيس تشاد . وناقشنا الحرب الدائرة فى تشاد بكثير من التفصيل . وشعرت بأن الرئيس كونتشى لا يثق بنظيره التشادى ولا يرتاح إليه . وكان رئيس النيجر يرى أن الأمر يتعلق بمشكلة داخلية . وقال إن الشمال الإسلامى يريد أن يكون ممثلا فى حكومة تشاد المؤلفة أساسا من زعماء من الجنوب .

وقد زرت بعد ذلك نجامينا عاصمة تشاد ، أفقر عاصمة فى إفريقيا . ونظرا لأنى كنت مديرا لصندوق إفريقيا ، فقد أرسلت فنيين وأطباء ومدرسين وغيرهم إلى تشاد ، ولكن ذلك لم يجد فتيلا ، لأن الحرب الأهلية المتصلة كانت قد دمرت البلد .

كانت لدى الرئيس كونتشى فكرة واضحة وجيدة عن شئون العالم والشئون الإفريقية . وكان يشعر بالقلق للوجود السوفيتى والكوبى فى القرن الإفريقى ، ويدرك أنه لو كانت لتشاد علاقات أفضل مع موسكو لكان ذلك عنصرا مساعدا فى التعامل مع ليبيا . وكان فى رأيه أنه عند النظر إلى علاقات تشاد بالسوفيت ، على ضوء علاقات تشاد بليبيا ، تظهر عوامل تناقض كما تظهر إمكانيات لتشاد . وقد ناقش الاستراتيجية بكثير من التفصيل واستمعت إليه بصبر .

بعد ذلك توجهت إلى السفارة المصرية فى نيامى لاتصل هاتفيا بباريس ، ولأطلب غيارا لإطار عجلة الطائرة ، إذ لم تكن لدينا قطعة غيار . واكتشف قائد الطائرة أيضا

أن مرشح الزيت به عيوب . كل ذلك أدى بطبيعة الحال إلى زيادة مخاوف علاء خيرت . وعاد مرة أخرى يرجونى أن نستكمل رحلتنا عن طريق الخطوط التجارية المعروفة .

وفى يوم الاثنين ٥ يونيو افتتح الرئيس كونتشى الدورة الجديدة للمؤتمر الوزارى الإفريقى العربى بكلمة أكد فيها أهمية التعاون بين الدول العربية والإفريقية فى مواجهة التخلف الاقتصادى . وكان هذا الجهاز للتعاون الإفريقى العربى قد أنشىء بقرار من القمة الإفريقية العربية التى عقدت فى القاهرة فى مارس ١٩٧٧ .

عند خروجى من مبنى المؤتمر كان بصحبتى على التريكى وزير خارجية ليبيا . قال لى : « كيف تستطيع ، بعد سنوات من الكتابة عن القومية العربية ، أن تسعى الآن لتدميرها ؟ إن حكومة ليبيا مستعدة للتعاون مع مصر إذا تخلت عما تفعله من التفاوض المباشر مع إسرائيل » . كان يتحدث بعجرفة ظاهرة ووجدت أسلوبه منفرا للغاية .

قلت إن مصر ليست بحاجة إلى نصيحة ليبيا . فمكانة مصر فى العالم قاطبة ، وفى العالم العربى ، لا تحتاج إلى توضيح لمن يريدون أن يفهموا . وأعطيت ظهرى للتريكى وتركته واقفا فى مدخل مبنى انعقاد المؤتمر . وخلال السنوات التالية كثيرا ما تقابلنا فى مواجهات قاسية فى المؤتمرات الدولية ، ولكننا فى التسعينات التقينا فى الأمم المتحدة فى نيويورك وتصالحنا ، وتذكرنا بروح طيبة الحرب الطويلة التى دارت بيننا فى الماضى .

وفى عصر ذلك اليوم طلبت أن يقابلنى الأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية ، الرجل المرح وليام ايتيكى وزير خارجية الكاميرون السابق . قلت له إنى تلقيت معلومات بأن الأمانة العامة لمنظمة الوحدة الإفريقية قبلت طلبا من ليبيا بإضافة بند فى جدول أعمال المؤتمر تحت عنوان « مبادرة السادات » . وقلت إن الإجراءات لا تسمح بذلك ، وأن الموضوع سيناقش فى تقرير الأمين العام . واعتذر ايتيكى ، فقد كان يريد أن يعاد انتخابه أمينا عاما ، وكان بحاجة إلى صوت مصر . وكان موظفوه يخربون عمل المنظمة ويعدلون فى جدول الأعمال بدون معرفته . ووعد بحذف ذلك البند من جدول الأعمال .

قابلت بعد ذلك وزير خارجية المغرب ورئيس حزب الدستور محمد بوسته . وهو رجل دولة متقدم فى السن ، أنيق ، أبيض الشعر ، من شخصيات النظام القديم ، دبلوماسى ارستقراطى كلاسيكى ، ذكَّرنى بسفراء مصر من طبقة الباشوات فى أيام الملك فاروق . وكان بوسته يبدو أقرب إلى موقعه الطبيعى فى أحد صالونات باريس منه فى مؤتمر متعدد الأطراف فى نيامى . كان يستقبل مفاتحات الآخرين الودية برحابة صدر ، ولكنه نادرا ما كان يحاول أن يفرض آراءه على الآخرين . وكانت كلماته فى الدفاع عن

مصالح بلده موجهة فى الغالب إلى العالم قاطبة . لم يقل بوسته كلمة عن مبادرة الرئيس السادات أو عن زيارة القدس ، كان كل اهتمامه موجها إلى مسألة الصحراء الغربية ، وهى مستعمرة أسبانية بها عدد قليل من السكان يسعون إلى الانضمام إلى المغرب ، بينما تسعى مجموعة أخرى من السكان تعيش فى المنفى فى الجزائر إلى الاستقلال . ناقشت مع زميلى المغربى الأعمال التحضيرية لمؤتمر عدم الانحياز المقبل فى بلغراد . وكان المقرر أن يعقد المؤتمر فى العام التالى ١٩٧٩ فى هافانا . وهاجم بوسته كوبا بشدة . وقال إن حكومته ترى ضرورة طرد كوبا من حركة عدم الانحياز . وأوضحت له صعوبة تنفيذ شىء كهذا ، وما يمكن أن يجلبه على الحركة من كوارث . وقلت إننا إذا أردنا أن نكون واقعيين يمكننا أن نحاول تأجيل مؤتمر هافانا ، وأن نستفيد بالوقت فى العمل معا على الحد من تأثير الدول الراديكالية مثل كوبا داخل الحركة .

تلقيت مكالمة هاتفية أخرى تؤكد لى ، مرة ثانية ، أن قطع الغيار التى نحتاجها للطائرة ستصل فى الصباح الباكر ، وأننا نستطيع أن نغادر مطار نيامى بمجرد تركيب الإطار والمرشح . مرة أخرى حاول علاء خيرت أن يقنعنى بأنه ليس من الحكمة استخدام طائرة الميستير . وقال إن أخاه كان قائدا لسلاح الطيران ويعرف مدى خطورة مثل هذه الطائرات الصغيرة . وقد استمر فى محاولته حتى اللحظة الأخيرة ، ولكنه استسلم لمصيره عندما رأى أنى لا أستجيب له ، وصعد إلى طائرة الميستير النفاثة .

بعد حوالى ساعتين هبطنا فى مطار لاجوس بهدوء ودون حدوث شىء مثير . وفى المطار وجدت مجموعة من الصحفيين النيجيريين الذين وجهوا إلىّ أسئلة استفزازية وعدوانية بالأسلوب الأمريكى . كانوا يريدون منى أن أعترف بأن مصر أصبحت معزولة فى العالم العربى بعد زيارة السادات للقدس .

ونظرا لأن رئيس الدولة الجنرال أوباسانجو كان فى زيارة رسمية لبولندا ، التقيت بالبريجادير شيهو يار أدوا نائب رئيس جمهورية نيجيريا والقائد الأعلى للقوات المسلحة . وكان نائب الرئيس شابا خجولا قليل الكلام . وبدا أنه يستمد جزءا من اطمئنانه من البزة العسكرية الرسمية . وعندما حاولت أن أشجعه على تأييد نيجيريا لتشاد أجاب بأن نيجيريا لن تقدم على أى عمل إلّا إذا طلبت منها تشاد ذلك بصورة علنية ومباشرة . ولم تنجح محاولتى للقيام بدور الوسيط .

فى عصر ذلك اليوم طلبت أن أزور متحف لاجوس ، وهو حافل بالكنوز حيث تعرض فيه التماثيل الإفريقية الرائعة وأعمال الفن النادرة . وزيارة هذا المتحف تؤكد للزائر سمو الحضارة الإفريقية وعراقتها وامتداد جذورها فى التاريخ .

وفى طريقنا إلى المطار لمغادرة نيجيريا ، تاه السائق عن الطريق . وعندما وجدنا سبيلنا للمطار بعد محاولات متعددة ، شكرت الظروف لكوننا نسافر على طائرة خاصة ، لأننا لو كنا نستخدم طائرة تجارية لكانت قد أقلعت قبل وصولنا بزمن طويل .

تقع ياوندى ، عاصمة الكاميرون ، فى منطقة ذات طبيعة خلابة ، وتحيط بالمدينة سلسلة من الجبال الخضراء . استقبلنى فى المطار رئيس بروتوكول قصر الرئاسة . وقادنى فى موكب حافل وهو يتكلم ويتحرك بتأن شديد ، ويوعز لى مع كل لفتة من لفتاته بأهمية الدور الذى يقوم به . وعندما صحبنى فى السيارة الليموزين الرسمية حرص على أن أعرف أنه يملك قصرا فى الريف الفرنسى . وقال إن الرئيس أهيدجو سيستقبلنى فى الساعة ٤,٣٠ تماما بعد الظهر .

وقبل موعدى مع الرئيس بربع ساعة حضر رئيس البروتوكول ليصحبنى إلى مكتب رئيس الجمهورية . وكان هناك موكب رسمى من السيارات ينتظر عند مدخل الفندق ، تسبقه مجموعة من راكبى الموتوسيكلات . ووقف حرس شرف أمام الموكب لتحية الوزير المصرى . وبعد ذلك تحرك الموكب الرسمى ببطء شديد متجها إلى قصر الرئاسة . وكانت على جانبى الطريق جموع من الأهالى الذين ينتظرون رؤية الضيف الأجنبى .

وفى قصر الرئاسة وجدت حرس شرف آخر فى انتظارى فى بزات رسمية مماثلة لملابس الحرس الجمهورى الفرنسى الذى يقف خارج قصر الإليزيه فى باريس . دخلت القصر مع الوفد المصاحب لى . وكان حسن فهمى الوكيل الأول يحمل الهدية التى نعتزم تقديمها للرئيس . وعندما رأى رئيس البروتوكول الهدية ، وبخ حسن فهمى بشدة . وقال إن تلك غلطة جسيمة فى المراسم ، لأنه بمقتضى البروتوكول فى الكاميرون كان يجب أن تقدم الهدية قبل المقابلة بوقت كاف وليس أثناءها . وطلبت منه أن يعالج الموقف بكياسته ، وقلت إننا نأمل أن نستعين بخبرته الواسعة لإنقاذ الموقف .

وعند ذلك سألنى رئيس البروتوكول عن اللقب الرسمى الذى أحمله . قلت : « إنى وزير ، وزير دولة للشئون الخارجية ، والمبعوث الخاص للرئيس السادات » . قال بلهجة حاسمة : « سوف نستخدم اللقب الثانى لأنه أكثر أهمية من اللقب الأول » . وبعد ذلك فتح رئيس البروتوكول الباب المؤدى إلى قاعة الرئيس ، وصاح بصوت رنان « المبعوث الخاص للرئيس أنور السادات ، رئيس جمهورية مصر العربية » .

دخلت إلى حضرة الحاج أحمدو أهيدجو الذى كان واقفا فى وسط القاعة . كان رئيس الكاميرون ، على خلاف موظفيه ، لطيفا ومتواضعا . رحب بى بحرارة ، وأشار إلى كل

عضو من أعضاء الوفد إلى مقعده . كان الأثاث والقماش الذى يغطى المقاعد من الطراز الإمبراطورى الفرنسى ، فى حين كان أهيدجو على النقيض من ذلك يرتدى الرداء والصندل الكاميرونى .

وبعد اللقاء ، الذى تحدث فيه الرئيس بوضوح تام عن المنازعات السائدة فى القارة الإفريقية ، خرجت من القصر الرئاسى لأجد حرس الشرف مصطفا مرة أخرى لتحيتى . ومررت بنفس الاستقبال الذى مررت به عند دخول القصر .

وفى المساء دعانى وزير الدولة لشئون الرئاسة ، بيب أدون ، لحفل عشاء فى منزله . كنت قد قابلته قبل سنوات عندما انضم إلى أكاديمية القانون الدولى فى لاهاى ، ثم قابلته مرة أخرى فى ١٩٦٨ عندما كان سفيرا لبلاده فى باريس . وكان قد دعا عددا كبيرا من كبار الشخصيات الكاميرونية البارزة ومن أساتذة الجامعات على العشاء الذى أقامه لتكريمى .

لا شك فى أن التربية الفرنسية والذكريات المشتركة للدراسة فى باريس هما القاسم المشترك فى أية محادثة تدور بين الزعماء الأفارقة المتحدثين بالفرنسية . ولا يستطيع أى دبلوماسى لا يتكلم الفرنسية ، ولا يعرف الثقافة الفرنسية ، أن ينجح فى إفريقيا الفرانكفونية . ومن العقبات التى تقف فى طريق الدبلوماسية المصرية قلة عدد من يتحدثون الفرنسية فى وزارة الخارجية .

وعند خروجى من مطار ياوندى قابلت وفدا صوماليا فى انتظار الطائرة التجارية المتجهة إلى دوالا . ورأيت أن السفر بالطائرات التجارية يتضمن تضييع ساعات طويلة من الانتظار وعدم اليقين بشأن المواعيد غير المنتظمة للرحلات فى هذا الجزء من العالم . ومع كل المخاطرة الزائدة ، كنت أفضل طائرتى الخاصة التى تقلع عندما أريد .

وبعد ساعة من وصولى إلى ليبرفيل ، فى الجابون ، استقبلنى الحاج عمر بونجو فى قصره الفخم على شاطىء الأطلنطى . وقد اصطحبونى إلى استراحة استقبال فسيحة وفخمة ومزينة بالرخام الإيطالى . وهنا أيضا كان الأثاث من الطراز الإمبراطورى النابليونى ، وهنا أيضا كان الرئيس يرتدى ملابس إفريقية تتناقض بصورة صارخة مع ذلك الأثاث . وفى وسط الركن البعيد كان هناك مقعد خاص موضوع فوق منصة ، وكأنه عرش . وهناك كان يجلس الرئيس بونجو يرتدى عباءة سوداء ، تصورت أن لها علاقة وثيقة بتكييف الهواء شديد البرودة الذى كان يتدفق إلى الغرفة بقدر ما لها من صلة بمراسم الاحتفال .

وبعد انتهاء الاستقبال طلب منى الرئيس بونجو أن أتحدث إلى وسائل الإعلام . وافقت ، واكتشفت أن ستوديو التليفزيون يقع داخل مبانى القصر الرئاسى . وفى وقت لاحق فى نفس اليوم استقبلت ممثلى الصحف والتليفزيون فى الجابون فى واحد من سلسلة قصور الضيافة المقامة فى قرية الزعماء الأفارقة التى أعدت من أجل القمة الإفريقية التى عقدت فى ليبرفيل فى ١٩٧٧ .

وبعد الحديث الصحفى قمت بجولة فى القرية المهجورة ، وزرت قاعة المؤتمر الفسيحة . وخارج القاعة كان هناك عدد من السيارات الفاخرة فى حالة سيئة ، ويبدو أنها تركت هناك دون صيانة منذ انعقاد القمة الإفريقية منذ سنة مضت . فكثيرا ما كانت تلك المؤتمرات الإفريقية تتخذ ذريعة لإنفاق وتبذير يدعو للانزعاج . وقد آن الأوان للكف عن عقد اجتماعات القمة الإفريقية فى العواصم المختلفة ، مما يدعو كل حكومة إلى التنافس على شرف عقد المؤتمر ، وعرض قدرتها على استضافة الوفود بكرم أكبر من غيرها . كانت استضافة القمة الإفريقية بالمنطق الإفريقى ، لا تختلف عن استضافة حفل زواج للابن أو الابنة . وفى أى من الحالتين لا يتردد الشخص المسئول عن إنفاق أكثر من دخله فى سنوات طويلة ، ويقترض فى سبيل ذلك أكثر مما يستطيع أن يسدده . وما دام مقر المنظمة فى أديس أبابا ، فربما يكون الحل هو عقد هذه المؤتمرات هناك ، بالرغم من أن أثيوبيا لم تتمتع بالاستقرار السياسى ، وتغير نظامها ثلاث مرات منذ إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية .

فى يوم الاثنين ١٢ يونيو غادرنا عاصمة الجابون فى الصباح ، ووصلنا إلى كنشاسا عاصمة زائير . عند وصولى أبلغونى أن الرئيس موبوتو غادر العاصمة وذهب للاستراحة فى قريته جبادوليت فى المحافظة الاستوائية ، على بعد ساعتين بالطائرة . وأنه رفض ، لأسباب غير معلومة ، أن يستقبل ضيوفا فى الفترة بين ١٠ و ١٧ يونيو .

ولكنهم أبلغونى فى المساء أن الرئيس موبوتو وافق على مقابلتى فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، وأمر بأن تقوم طائرة خاصة بنقلى مع الوفد المصاحب لى إلى جبادوليت مباشرة ، لأن المطار الموجود هناك لا يستطيع أن يستقبل طائرتى الميستير المصرية .

عندما وصلت إلى المطار العسكرى وجدت أن الطائرة التى وضعها الرئيس موبوتو تحت تصرفى ، طائرة ضخمة من طراز هيركيوليس « سى - ١٣٠ » . كانت الطائرة مستعدة للإقلاع ولكننا لم نستطع أن نجد طاقمها . وبعد البحث لمدة ساعتين وصل رئيس سلاح الطيران الزائيرى شخصيا ، وبصحبته بقية الطاقم . كانوا يشربون البيرة فى مقصف المطار !

أقلعت الطائرة دون مزيد من التأخير ، ووصلت إلى جبادوليت بعد حوالى ساعتين . استقبلنى الرئيس موبوتو فى قصره الخاص النائى ، والواقع وسط حدائق مزهرة وطبيعة تأخذ بالألباب . شكرته على تكرمه بمقابلتى رغم رغبته فى الاعتكاف . وأوضحت أهمية التنسيق بين موقفى مصر وزائير فى التحضير لقمة الخرطوم ومؤتمر عدم الانحياز فى بلغراد ، وأننا ينبغى أن نتعاون فى إنهاء تدخل كوبا والقوات التى وراءها فى إفريقيا .

اتفق معى الرئيس موبوتو فى ذلك وفى النقاط الأخرى التى طرحتها . واستمر حديثنا الودى على مائدة الغداء ، وفى اجتماع عقد فى حديقة الرئيس . وكان هناك عدد كبير من الزائيريين يقومون بالخدمة تحت إشراف رئيس أوروبى يرتدى بذلة رسمية كاملة على الرغم من حرارة منتصف الصيف . وقام بنفسه بتقديم أفخر أنواع النبيذ الفرنسى . وكان فى كل مرة يصب فيها النبيذ يضع على الزجاجة علامة بقلم أحمر حتى لا يستطيع أحد أن يصب لنفسه النبيذ دون أن يفطن إليه . ولم تخامرنى الرغبة فى المحاولة . وقد تجنبت النبيذ بسبب شدة الحرارة والرطوبة .

وبعد الغداء صحبنى الرئيس موبوتو إلى حديقة صغيرة بها أحواض من أجمل الزهور متعددة الألوان . وقال لى موبوتو حزينا إن زوجته ، التى توفيت منذ شهور قليلة ، كانت تعنى بهذه الحديقة بنفسها .

وفجأة ودون إنذار ، بدأت تهطل أمطار غزيرة ، وكأن كل أبواب السماء قد انفتحت . وسارعنا إلى داخل القصر ، ثم إلى السيارات المنتظرة . وانطلقت بنا بسرعة إلى المطار . وقال الرئيس موبوتو إنه إذا استمرت الأمطار فسيتحول مدرج المطار إلى وحل وسيتعذر على الطائرة أن تقلع ، وأننا قد نجد أنفسنا مضطرين إلى البقاء فى القرية عدة أيام حتى يصبح المطار صالحا للعمل . ولابد أن الفزع بدا على وجهى عندما أبلغنى الرئيس بذلك ، لأنه ضحك وقال : « ألا تريد أن تبقى معنا فى هذا البيت الريفى الجميل ؟ فلتعجل بالوصول إلى الطائرة لأنك قد تضطر إلى البقاء هنا سواء رغبت أم لم ترغب » .

وصلنا إلى المطار ، وأقلعت الطائرة بينما كانت العاصفة تزداد سوءا . جلست فى كابينة القيادة إلى جوار شخص أمريكى قدم لى نفسه على أنه موريس تمبلزمان ، رجل قانون ، وذكر أنه مستشار الرئيس موبوتو لشئونه الخاصة فى الولايات المتحدة . وقال إنه يحمل لقب القنصل الفخرى لزائير فى نيويورك . وقال لى إنه يهودى ومهتم أشد الاهتمام بالقرار الذى اتخذه الرئيس السادات بالذهاب إلى القدس . وبينما كانت الطائرة تتقاذفها رياح العاصفة بشدة ، كنا نحن نتحدث عن العلاقات المصرية الإسرائيلية .

وعند العودة إلى كنشاسا عقدت مؤتمرا صحفيا فى السفارة المصرية . وكان قد طُلب منى لأسباب أمنية أن أتجنب أية إشارة لوقت أو مكان لقائى بالرئيس موبوتو . وقد التزمت بذلك بطبيعة الحال ، وإن كنت لم أفهم الحاجة إليه . وفى ذلك المساء عدت بعد العشاء إلى أحد بيوت الضيافة فى القرية التى أنشئت من أجل قمة منظمة الوحدة الإفريقية فى ١٩٧٧ ، معتزما النوم على الفور ، ولكن الحشرات الطائرة والزاحفة فى أرجاء غرفتى أبقتنى مستيقظا حتى الفجر .

وفى يوم الأربعاء ١٤ يونيو توقفت لفترة قصيرة فى بوجمبورا ، عاصمة بوروندى ، وهى مدينة صغيرة وجميلة تشرف على بحيرة . وبعد الغداء قمت بزيارة وزير الخارجية فى مكتبه . وكنت آمل أن أقابل رئيس الجمهورية أيضا ، ولكن وزير الخارجية أبلغنى ، بلباقة ، أن زيارتى هى مجرد زيارة عابرة ، هى مجرد توقف لأسباب فنية فى رحلتى الإفريقية ، وأن رئيس الجمهورية ليس موجودا فى العاصمة . وأوضح الوزير أنى لو كنت أقوم بزيارة رسمية طويلة لبوروندى ، تستمر مثلا أكثر من أربع وعشرين ساعة ، فلا شك فى أنه كان سيسر الرئيس أن يستقبلنى . وهكذا كنت أتعلم أنه فى كل أنحاء العالم يتناسب الاهتمام بالبروتوكول عكسيا مع قوة الدولة .

عيدى أمين وجزيرة الفردوس

وصلنا إلى أوغندا بعد ساعة طيران . كان يتولى إدارة مطار عنتيبى الدولى مجموعة من الخبراء المصريين ، وكانوا يقومون بعمل ممتاز . واستقبلونا بحرارة ، واحتفوا بوصول الوفد والطاقم المصرى .

تقع كمبالا على بعد حوالى ساعة بالسيارة من عنتيبى . وهناك ذهبنا إلى الفندق حيث حُجز لنا جناح خاص فى الطابق العلوى . وتبين لى فيما بعد أنه الطابق الوحيد الصالح للاستعمال ، أما بقية الطوابق فكانت أنقاضا بسبب عدم العناية . وكان إحساس المرء غريبا بالانفراد فى هذا المبنى الهائل . ذكّرنى ذلك بأفلام الرعب الأمريكية .

فى صبيحة الخميس ١٥ يونيو قابلنى الرئيس المارشال عيدى أمين فى بيت خاص يطل على بحيرة فكتوريا . وجدت نفسى فى مواجهة عملاق رهيب يبلغ طوله ستة أقدام ويزن حوالى ٢٧٠ رطلا . تكلم مرحبا ، وقدمت إليه باسم الرئيس السادات هدية أبدى إعجابه الشديد بها ، وتفحصها لفترة طويلة . وبعد ذلك طلب مصوره الرسمى حتى يلتقط لاجتماعنا عددا من الصور .

بعد ذلك دعانى عيدى أمين للانتقال من البيت إلى سفينة راسية فى البحيرة . وطلب منى أن أجلس معه على دكة فى مقدمة السفينة بينما يظل بقية الركاب فى الكابينة أو على الأسطح السفلية . وبعد ذلك أبحرت السفينة لمدة تقرب من ساعة حتى وصلت إلى جزيرة فى البحيرة يسميها الرئيس الأوغندى جزيرة الفردوس . وقال إن الجزيرة كانت فى وقت من الأوقات زاخرة بالثعابين ولكنه طهرها منها . ثم بنى هناك بيتا خاصا لنفسه وعددا صغيرا من البيوت الأخرى لكبار الضيوف . وبدأ رذاذ ضئيل يتساقط ، فاحتمينا بالصالون الخاص بالرئيس . وأعرب عن تفضيله أن يكون حديثنا خاصا ، وألا يشارك فيه أى عضو من الوفدين .

عندما وصلنا إلى جزيرة الفردوس سار الرئيس أمين معى إلى بيته الرئاسى المتواضع ، والذى لا يضم غير أربع حجرات صغيرة . وطلب أن نواصل حديثنا الخاص فى غرفة نومه . وبدأ حديثه بالإشارة إلى ميزة تنفرد بها الغرفة التى نجتمع فيها ، وهى أن لها ثلاثة أبواب ، مما يسمح له بفرصة أوسع للهرب إذا ما تعرض لاعتداء . فهو يرى فى كل شخص قاتلا محتملا .

طلب منى عيدى أمين بعد ذلك أن أعد جدول أعمال لحديثنا . اقترحت أن يكون الجدول مرنا ، لأن تعليمات الرئيس السادات لى واضحة : أن ألتقى بالرئيس أمين وأناقش معه أى موضوع يشاء بدون جدول أعمال مسبق .

لكن ما قلته لم يوافق هوى الرئيس الأوغندى . قال : « إذا كان هذا هو الحال وأنت لم تعد جدولا للأعمال ، فعلينا أن نفعل ذلك الآن ، معا . ويجب أن يشمل جدول الأعمال عشرة بنود » . وبدأ يشيد بالعلاقات الودية والأخوية بين مصر وأوغندا ، وكذلك بعمل السفير المصرى فى كمبالا . وقال إن ذلك يجب أن يكون البند الأول فى جدول أعمالنا .

ثم قال إن الواجب يلزمه بأن يعبر عن تقديره وإشادته بجهود وعمل الخبراء المصريين العاملين فى مختلف المجالات فى أوغندا ، وأن ذلك يجب أن يكون البند الثانى فى جدول الأعمال . ثم عاد فقال : ولكن لا ، فهذا الموضوع يدخل فى الحقيقة فى البند الأول . وضايقه أن ذلك أنقص عدد البنود .

سألنى عن زيارتى للرئيس موبوتو وقال : « اكتب البند التالى فى جدول الأعمال : موافقة أوغندا على المشاركة فى قوة رمزية تتمركز فى محافظة شابا فى زائير » . وقال عيدى أمين إنه إذا طلب موبوتو ذلك فإنه سيوافق على الرغم من أن نظام موبوتو نظام فاسد . وأضاف : « لا شك فى أنك قمت بزيارة قصور موبوتو وشاهدت الفخامة الزائدة

التى يعيش فيها . وتستطيع أن تقارن بينها وبين البيت البسيط المتواضع الذى نجلس فيه الآن فى جزيرة الفردوس » .

بعد ذلك بدأ يصيح بصوت مرتفع للغاية : « لا يوجد فساد فى بلدى ! لا يوجد فساد فى بلدى ! » . وسألته عما إذا كانت هذه العبارة ستكون أحد بنود محادثتنا . ضحك طويلا وأجاب أن تلك فكرة جيدة ، ولكن لا ضرورة لوضعها فى جدول الأعمال . وسألنى « هل سجلت ذلك باعتباره البند الثالث ؟ » عندما اطمأن إلى ذلك انتقل إلى مسألة خلافاته مع تنزانيا وعلاقاته المتوترة مع زامبيا . وقال : « أريد أن يتوسط أنور السادات بينى وبين جوليوس نيريرى وكينيث كاوندا » . وأضاف بابتسامة عريضة أن ذلك يمكن تسجيله على أنه البند التالى .

ودون استراحة انتقل إلى الحديث عن الولايات المتحدة الأمريكية . « لقد أصبحت علاقات مصر بالولايات المتحدة ممتازة منذ زيارة السادات للقدس . آمل أن تستخدموا مساعيكم الحميدة مع واشنطن حتى تأخذ موقفا وديا من أوغندا ورئيسها » . ثم انتابه الغضب فجأة وقال : « لماذا أصبح الأمريكان أكثر تشددا معى ؟ لماذا ينتقدوننى ؟ كيف يجوز لأعضاء الكونجرس أن يرفضوا دعوتى لزيارة أوغندا ؟ » . وقال إنه يود أن يتوسط الرئيس السادات بينه وبين أمريكا لتغير موقفها من أوغندا . وقال إن هذه المسألة ستكون البند التالى فى جدول الأعمال .

قال بعد ذلك إنه ينبغى لمصر أن تؤيد اختيار كمبالا لتكون مقرا لوكالة الأنباء الإفريقية ، وهذا هو البند الثامن . وكف عن الكلام بضع دقائق ليفكر .

ثم قال إننا نحتاج بندين آخرين حتى ننهى مفاوضاتنا المهمة . وسألت عما إذا كان يمكن إضافة منظمة الوحدة الإفريقية والمؤتمر القادم فى الخرطوم . قال : « لا ، هذان الموضوعان لا يصلحان كبندين فى جدول أعمال محادثاتنا » . ولم أجد الشجاعة لأسأل عن السبب فى ذلك ، وساد بيننا الصمت بضع دقائق .

واصلنا الحديث عندما أعلن الرئيس الأوغندى أنه عثر على البند التاسع . وقال لى إنه مسألة شخصية ولكنها تصلح لأن تكون البند التاسع . قال إن الأمر يتعلق بأحد أبنائه ، « على عيدى أمين » . فقد رفض هذا الابن تنفيذ أوامر أبيه ، ولذا اضطر عيدى أمين لاعتقاله وحبسه لمدة أكثر من سنة . لكنه عفا عنه وأطلق سراحه وأرسله ليدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة . « وقد عرفت أنك كنت تقوم بالتدريس فى الجامعة قبل أن تصبح عضوا فى مجلس الوزراء ، ولذا أريد أن تشرف بنفسك على دراسة ابنى » . وعدت

عيدى أمين بحرارة أن أقوم بهذه المهمة ، وقلت إنه نظرا لأنه ليس لى أبناء فسأعتبر « على عيدى أمين » ابنى .

سألنى عيدى أمين : « ولماذا ليس لك أبناء ؟ » وترددت فى الإجابة . قال : « إذا أقمت أسبوعين مع زوجتك فى هذه الجزيرة ، للراحة والترويح ، فستنجب أبناء كثيرين ! أنت مدعو . ستكون ضيفى . تستطيع أن تختار أى استراحة تعجبك ! » .

كنا لا نزال نواصل حديثنا فى حجرة نومه ، إلى جانب سرير هائل الحجم . وكانت بقية الوفد فى الخارج . واستطعت أن اسمع موسيقى يعزفها لاعب جيتار إفريقى . تمدد عيدى أمين على السرير ، وطلب منى أن اتمدد على السرير معه لارتاح . قلت إنى لا أستطيع أن أفعل ذلك . قال إنى يجب أن أرتاح على السرير معه . ولمحاولة إرضائه قربت مقعدى من السرير ورفعت قدمى بحيث كان كعب الحذاء ملامسا حافة السرير . وظللت جالسا فى مقعدى بينما تمدد عيدى أمين فى السرير .

وعندما نهض أبلغته أنى قد زرت نائب الرئيس الذى كان موجودا فى مستشفى بالقاهرة بعد حادثة السيارة التى وقعت له فى أوغندا . وسألت عما إذا كان الرئيس أمين يريد أن أحمل أية رسالة إلى نائبه عند عودتى للقاهرة . قال وعلى وجهه تقطيبة مرعبة : « قل له إن مدير مكتبى قد وقعت له حادثة مماثلة تماما ولكنى أرسلته إلى المستشفى فى ليبيا » . ويبدو أن الرئيس أمين من عادته أن يأمر بوقوع حوادث لزملائه . وشرح لى أنه أرسل نائبه إلى المستشفى فى مصر لمعالجته ، بينما أرسل مدير مكتبه للعلاج فى ليبيا كوسيلة للمحافظة على التوازن بين هذين البلدين . وإنه ينبغى لنائب الرئيس أن يعتبر نفسه محظوظا لاختياره لخدمة العلاقات الأوغندية المصرية ، لأن العلاج فى ليبيا ليس جيدا . وأضاف وهو يبتسم بخبث ، أن هذا سيكون هو البند الأخير فى جدول أعمال مفاوضاتنا . وقال : « وعند ذلك نستطيع أن نقول إن هذه المحادثات المهمة بين أوغندا ومصر انتهت بنجاح تام ! » .

وافقت بطبيعة الحال ، وقدمت التهنئة لرئيس أوغندا لما فعله من أجل نجاح محادثاتنا . وبعد ذلك سألته عما إذا كان يوافق على أن ينضم إلينا بقية الوفد لإجراء محادثات مستفيضة . ورد أمين بأنه لا يرى ضرورة لذلك ، لأننا اتفقنا على كل شىء ونجحت المحادثات . « بالإضافة إلى أن الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر وحان وقت الغداء ! » .

غادرنا بيت الرئيس لننتقل إلى مكان آخر فوق الجزيرة . همس السفير حازم محمود

فى أذنى بأننا متجهون نحو ملعب كرة السلة ، وأن الرئيس كثيرا ما يدعو السفراء والوزراء للعب كرة السلة معه . لكن لم يكن ذلك ما يفكر فيه عيدى أمين . وبدلا من ذلك تناولنا الغداء بينما كانت هناك فتيات يرقصن أمامنا . تناول عيدى أمين طعامه بيديه وعرض ، مجاملة منه وتشريفا لى ، أن يطعمنى بيده .

وعندما انتهى الرقص ، جاءت إلينا الفتيات لالتقاط الصور معنا . ركعت الفتيات بجانب عيدى أمين وبجانبى . وقال لى عيدى أمين آمرا : « ضع يدك على رأسها ! » لم أوجه أية أسئلة ووضعت يدى على رأس الفتاة . وفعل عيدى أمين نفس الشىء مع الفتاة التى ركعت إلى جانبه . وأعلن عيدى أمين « هذا رمز للسلطة ! » .

سألنى عيدى أمين عما هو مسجل فى البرنامج للمساء . قلت إنه فى حدود علمى ليس هناك شىء . تولاه الغضب واستدعى واحدا من وزرائه وسأله : « ما معنى عدم إعداد عشاء كبير الليلة تكريما لصديقى وأخى بطرس غالى ؟ » . قاطعته وقلت أرجو أن تسمح لى بأن أعتذر لعدم قدرتى على حضور حفل كهذا . زاد غضبه وسألنى مندهشا لماذا أرفض دعوته لقضاء الليلة معه فوق جزيرة الفردوس ؟

طفقت أبحث بصورة محمومة عن سبب ، وانتابنى التردد . هل اتحدث عما أشعر به من إرهاق ، أم عن رغبتى فى مراعاة صحتى ، أم أتعلل برحيلى غدا فى ساعة مبكرة ؟ وقبل أن أتمكن من إجابته صاح عيدى أمين قائلا : « إنى أعرف لماذا تعتذر . لأنك تريد أن تشاهد صورك الليلة فى التليفزيون ! » وحتى أتمكن من ذلك سيكون علىّ أن أهرع إلى المدينة ، لأنه لا يوجد استقبال تليفزيونى فى الجزيرة . ولاحظت أن غضبه آخذ فى التلاشى ، لذا سارعت بالموافقة على التفسير الذى قدمه كسبب لاعتذارى . وأبديت إعجابى بإدراكه للسبب الحقيقى الذى جعلنى أعتذر عن اقتراحه ، وسألت : « كيف عرفت ذلك يا سيدى الرئيس ؟ » ضحك وقال : « هناك أشياء كثيرة أعرفها . والواقع أنى أستطيع أن أتنبأ بالمستقبل ! اسأل وزرائى ! » كان هناك ثلاثة وزراء حولنا . وهتفوا ، تقريبا بصوت واحد : « نعم ! نعم ! إن الرئيس يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل ! » .

ومنذ وصولنا إلى الجزيرة كانت عدسات التليفزيون الأوغندى تسجل كل خطوة نخطوها ما عدا الجلسة الخاصة . كان المصورون قد التقطوا صورا للأحاديث التى دارت على مائدة الغداء ، وصورا للراقصات . قلت للرئيس إنى أريد حقا أن أرى نفسى فى التليفزيون ، وأن أعيش مرة أخرى أحداث اليوم الحافل الذى قضيته مع رئيس أوغندا . وعلى ذلك وافق عيدى أمين على إلغاء حفل العشاء . وغادرته بعد أن شكرته على كرمه وعلى ما أولانى من اهتمام . وبعد أن كرر دعوته لى ، بلهجة الأمر ، بالعودة إلى جزيرة

الفردوس لإنجاب أبناء ، بقى الرئيس أمين فى جزيرته ، وغادرتها بزورق وأنا ألوح له مودعا . وعندما عدت إلى فندق كمبالا جلست أمام التليفزيون أشاهد أحداث اليوم الذى قضيته مع الرئيس عيدى أمين فى جزيرة الفردوس . كنت أريد أن أطمئن إلى أن موظفى الأمن الأوغنديين العاملين معى سيبلغونه بأنى عدت فعلا لأشاهد نفسى فى التليفزيون .

كان ما شاهدته فى ذلك اليوم ليس أمرا جديدا فى تاريخ الدول ، فقد عرف التاريخ الإمبراطور كاليجولا الذى عين حصانه عضوا فى مجلس الشيوخ ، وعرف نيرون الذى أشعل النار فى روما وجلس يقرأ الشعر ويعزف الموسيقى على اللهب . وقارتنا الإفريقية تعانى من التخلف الاقتصادى ، ولكنها مصابة بشىء أخطر وهو أوهام جنون السلطة لدى بعض حكامها . ولن نستطيع أن نحقق التنمية فى إفريقيا إلا إذا نجحنا فى بناء الفرد الإفريقى ، ولن نستطيع أن نشرع فى بناء الفرد الإفريقى إلا إذا اختفى من المسرح الحكام المستبدون الذين يتملكهم جنون السلطة مثل عيدى أمين والإمبراطور بوكاسا .

وشعرت بارتياح شديد عندما رأيت طائرتى الميستير تنتظرنا فى مطار عنتيبى . وشعرت بارتياح أشد عندما تركت عجلات الطائرة الأرض التى يحكمها عيدى أمين . وبعد أن تزودنا بالوقود فى الخرطوم ، طرنا عائدين إلى القاهرة . وكنت قد قطعت آلاف وآلاف الأميال فى ظل ظروف صعبة ومناخ قاس . ورغم ما شعرت به من إجهاد كنت سعيدا بأنى وثقت علاقات مصر بافريقيا . وفى الطائرة تلوت على زملائى الرؤية الشاعرية (والمختلف عليها) لارتباط مصر بافريقيا كما عبر عنها الكاتب الإفريقى الأمريكى الذى كان لرؤيته لافريقيا الموحدة أثر كبير علىّ ، ألا وهو و . إ . ب . ديبوا : « لقد شهدت اثيوبيا فجر حضارة الإنسان تمتد منسابة خلال نهر النيل ... وفيما وراء إثيوبيا ، فى إفريقيا الوسطى والجنوبية ، يرقد ذهب أوفير وتجارة بونط الغنية التى يتوقف عليها رخاء مصر . ولقد أحضرت مصر العبيد من إفريقيا السوداء ... ولكنها أحضرت أيضا المواطنين والزعماء من إفريقيا السوداء . وعندما فتحت مصر آسيا ، استخدمت الجنود السود على نطاق واسع . وعندما تغلبت آسيا على مصر ، وجدت مصر ملجأ فى اثيوبيا كما يعود الطفل إلى أمه ، وعند ذلك سيطرت اثيوبيا على مصر عدة قرون .... » .

وبمجرد عودتى أعددت تقريرا تفصيليا قدمته إلى الرئيس السادات . قلت إن زعماء إفريقيا يقدرون مبادرته ، ولكنهم يريدون إبقاء النزاع العربى بشأن مبادرة السلام بعيدا عن قمة الخرطوم المقبلة لمنظمة الوحدة الإفريقية التى ستكون صاخبة بما فيه الكفاية بسبب المعركة حول من يكون الأمين العام الجديد للمنظمة . وقلت إن الأفارقة قلقون أيضا بشأن

مؤتمر عدم الانحياز الذى سيستضيفه فيدل كاسترو فى هافانا بعد اجتماع الخرطوم . وأن وجود قوات كوبية فى دول إفريقية مختلفة يواجههم بمشكلة . فهم منقسمون بشأن هل يقاومون الوجود العسكرى الكوبى باعتباره مثالا للتدخل الشيوعى ؟ أم ينبغى استخدام هذا الوجود كعنصر مقابل لجنوب افريقيا والاتجاهات الاستعمارية الجديدة ؟ وختمت تقريرى بدعوة الرئيس السادات إلى إبداء اهتمام شخصى بالشئون الإفريقية .

وفى يوم الأربعاء ٢١ يونيو حضرت جلسة مجلس الوزراء حيث قُدمت ثلاثة تقارير . قدم الفريق الجمسى تقريرا عن مهمته فى واشنطن وباريس . ووصف الدكتور حامد السايح وزير المالية الاجتماعات الاقتصادية التى عقدت فى باريس . وقدمت أنا تقريرا عن جولتى فى إفريقيا . وحظى التقريران الأولان باهتمام كبير من جانب زملائى الوزراء ، ولم يكن ذلك مصير تقريرى . فوزراء مصر ما زالوا ينظرون إلى الشمال الأوروبى أكثر مما ينظرون إلى الجنوب الإفريقى .

وقضيت اليوم التالى فى ممرات قصر رأس التين ، القصر الصيفى المبنى على طراز الروكوكو الذى كان يستخدمه الملك فاروق ، وهو مبنى فى شبه جزيرة فى ميناء الاسكندرية . كنت أبحث عن عبد اللاى وزير خارجية الرئيس أحمد سيكوتورى وقريبه ، للحصول على موافقته على نص الإعلان المشترك الذى سيصدر بعد زيارة الزعيم الغينى . فى الوقت ذاته كان الرئيس السادات يعقد اجتماعا مع الرئيس سيكوتورى والرئيس سياد برى رئيس الصومال فى إحدى قاعات القصر . وعثرت على عبد اللاى واتفقنا على نص البيان المشترك . وتوجهت بعد ذلك إلى شاطىء المنتزة ، حيث القصر الصيفى الثانى للملك فاروق والذى بنى عند الطرف الآخر للاسكندرية . وهناك وجدت وقتا للاستحمام فى البحر والاستجمام فى أشعة الشمس قبيل الغروب .

استيقظت فى فندقى فى الساعة الرابعة صباح اليوم التالى ، وغادرت المنتزة فى الطرف الأقصى من شرق الاسكندرية إلى رأس التين فى طرفها الغربى . وحملتنى السيارة عبر ذلك الطريق الذى يمتد ثمانية عشر ميلا على الكورنيش . كانت نوادى الليل التى كنت أتردد عليها فى صباى تغلق أبوابها بعد ليل طويل . ورأيت الجرسونات يغادرون النوادى ، ورجال الأوركسترا والراقصات يبحثن عن تاكسيات ، وتذكرت شبابى الحافل وكم يختلف عن حياتى اليوم .

وصلت إلى قصر رأس التين لأقدم تحياتى للرئيس أحمد سيكوتورى . وكان رئيس غينيا رجلا طويل القامة وخطيبا مفوها يجيد استخدام العبارات الماركسية . وكان على اقتناع

كامل بأنه يعمل فى غينيا على مزج دواء اشتراكى إذا تناولته الدول الإفريقية الأخرى فهو كفيل بشفائها من جميع أمراضها . وحاول أن يثبت أن ماركس والإسلام يمكن أن يتفقا . وقال إنه يريد أن يصل إلى كوناكرى قبل صلاة يوم الجمعة . وكان الرئيس السادات قد وضع طائرته الخاصة تحت تصرف ضيفه لهذا الغرض . وقبل الفجر صحب ممدوح عطية وزير العدل الرئيس سيكوتورى فى طائرة هليكوبتر إلى مطار جناكليس ، وهو قاعدة جوية عسكرية فى الصحراء ، حيث أقلعت طائرة الرئيس فى وقت يسمح لها بالوصول بعد ست ساعات ، حتى يتمكن سيكوتورى من حضور صلاة الظهر فى مسجد كوناكرى .

وفى اليوم التالى عقدت الجولة السادسة لاجتماعات اللجنة الوزارية العليا المعنية بالوحدة بين مصر والسودان فى مكتب رئيس الوزراء بالاسكندرية فى حى بولكلى . وكان الوفد المصرى برئاسة رئيس الوزراء ممدوح سالم ، ويتألف من خمسة عشر وزيرا ، ومعهم ستة من أعضاء مجلس الشعب ، وسعد الفطاطرى سفير مصر فى الخرطوم . وكان الوفد السودانى برئاسة رشيد الطاهر نائب الرئيس ، ويضم عشرة وزراء ومجموعة من الزعماء السياسيين الآخرين .

ألقى ممدوح سالم كلمة ترحيب بالوفد السودانى ، وألقى رشيد الطاهر كلمة . واختتم الاجتماع بسلسلة من دعوات العشاء فى نادى اليخت فى ميناء الصيادين ونادى السيارات فى سيدى بشر ، والذى كان من أفخم نوادى الصفوة فى عهد الملك فاروق . وقام الوفد السودانى بتوزيع مجموعة مختارة من الهدايا على أعضاء الوفد المصرى - مثل القمصان الفاخرة والمصنوعات الجلدية . وكانت الألوان رديئة الذوق بحيث إنى أعطيت نصيبى من الهدايا لمن كان يصحبنى من الحراس . وبسبب هذه العادة فى إعطاء ما أتلقاه من هدايا ، كان الحراس دائما أكثر منى حرصا على حضور تلك الاجتماعات . ولكنها كانت مضيعة للوقت . ولا يمكن أن يتحقق شىء جدى فى سبيل التكامل بين مصر والسودان عن هذا الطريق .

وعلى الرغم من جولتى فى إفريقيا وعلى الرغم من زيارتى سيكوتورى وسياد برى ، وعلى الرغم من الاجتماعات الوزارية المنتظمة بين مصر والسودان ، لم تكن مصر تأخذ أمور إفريقيا مأخذ الجد ، وكانت إفريقيا ترى أن مصر لا تستجيب لاحتياجاتها . وقد شغلنى هذا الأمر . إن حلم الخديوى إسماعيل ، حاكم مصر فى وقت حفر قناة السويس بأن تصبح مصر جزءا من أوروبا ، ما زال هو حلم المثقفين المصريين ، رغم أنه كابوس بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين الأصولية ، التى ترى أن خلاص مصر هو فى رفض الغرب والالتزام بالإسلام الأصولى الخالص .

الفصل الرابع

الخرطوم ـ بلغراد ـ روما

أثناء عملى الأكاديمى فى مجال البحوث والدراسات كتبت كثيرا عن الشئون الإفريقية وعن منظمة عدم الانحياز ، لكن ذلك كان دائما من الجانب النظرى وحده . وفجأة وجدت نفسى مطالبا بحضور ثلاثة اجتماعات ، لكل منها طابعه الخاص . ففى الخرطوم كانت تتجمع محاولة من جانب الرافضين العرب والأفارقة لعزل مصر عن إطارها الإفريقى العريق والثمين . وفى بلغراد كانت ستجرى محاولة لحرمان مصر من دورها السياسى القيادى فى العالم الثالث . وفى روما كنت سأمثل مصر فى لقاء عالمى بمناسبة وفاة أحد البابوات . وبعد رحلة السادات إلى القدس لم يكن هناك غير ثلاث دول عربية فقط تحتفظ بعلاقاتها الدبلوماسية مع مصر وهى : السودان والصومال وعمان . فإذا أدان مؤتمر قمة الخرطوم السادات فسيتشكل تحالف عربى إفريقى غير منحاز يعارض مصر ، مما يضر بنا أبلغ الضرر ، إذ تخسر مصر قيادة العالم العربى ، ومكانتها فى العالم الثالث ، وموقفها المستقل بين الدولتين العظميين ، ويمكن أن تنهار مبادرة السادات نفسها تحت ثقل هذه المعارضة .

وسيكون مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية المنعقد فى الخرطوم فى يوليو ١٩٧٨ اختبارا حاسما . ولكن السادات لم يكن مهتما به . كان يرى أن هذه المعارضة لا أهمية لها . وكان مشغول البال بمفاوضاته مع إسرائيل ، ولا يبدو أن احتمال عزلة مصر يقلقه

فى شىء ، لو أنه أخذ ذلك المؤتمر مأخذ الجد لما تركه لى ، أنا الوافد الجديد فى مجال السياسة . ولكنه على العكس فقد أعطانى حرية التصرف كاملة . وقد قبلت المهمة بحماسة ، إذ سيكون ذلك أول مؤتمر دولى أحضره بصفة رسمية ، وسيعقد المؤتمر على أعلى مستوى حكومى ، سأكون مسئولا عن الشأن المصرى به . واستثارتنى احتمالات وضع النظرية موضع التطبيق فقد كنت أنا الذى ألّفت أول كتاب عن منظمة الوحدة الإفريقية . وقد كتبت وحاضرت على امتداد سنوات عن كل جوانب المنظمة الجامعة للدول الإفريقية تقريبا ، عن مؤسساتها وأنشطتها وقراراتها والاتجاهات السياسية التى تؤثر فى عملها .

فى العصور الفرعونية كانت مصر توجه لإفريقيا اهتماما أكبر مما توجهه لآسيا . وفى عهد المملكة الوسطى كانت الحدود تقع عند الشلال الثانى على النيل ، ولكن المصالح المصرية كانت تمتد جنوبا إلى أبعد من ذلك بكثير . وكانت مصر تحتفظ بمستعمرة ومركز تجارى حصين فى الكرمة ، وهى مدينة تقع إلى جنوب الشلال الثالث ، تحت قيادة موظف مصرى رفيع المستوى يتمتع بمكانة شبيهة بمكانة كلايف أو هستنجز أثناء توسع إنجلترا فى الهند فى أواخر القرن الثامن عشر .

وعندما غزا الهكسوس مصر حوالى سنة ١٦٥٠ ق . م . أصبح السودان وإثيوبيا ملجأ للمصريين ، من الناحيتين المادية والثقافية . فقد هاجرت الأسر المصرية العريقة إلى الجنوب فى إفريقيا وتم التزاوج فيما بينها ، ثم شكلت إحدى تلك الأسر ـ الأسرة الحاكمة الثامنة عشرة التى حررت مصر من الحكم الأجنبى . ومنذ ذلك التاريخ اندمجت أجزاء أكبر من السودان وإثيوبيا فى مصر ، ويمكن للمرء أن يتحدث بحق عن إمبراطورية مصرية إفريقية .

وعندما كان الهكسوس يدفعون المصريين نحو الجنوب ألزموهم أيضا بأن ينظروا إلى الشرق على أنه مصدر للخطر . والآن ، بسبب إسرائيل ، باتت أنظار مصر مركزة بصورة دائمة على الشرق على حساب الجنوب الإفريقى .

الخرطوم

بوصفى رئيسا للوفد المصرى ، كانت لدىّ حرية كاملة تقريبا فى المناورة والمفاوضة واتخاذ القرار بشأن القضايا الأساسية قبل هذا الاجتماع الإفريقى . وكنت متفائلا بشأن ما يمكن للدبلوماسية المصرية أن تحققه ؛ لأن وفدنا يضم مجموعة مختارة من رجال وزارة الخارجية الذين عملوا سنوات طويلة فى إفريقيا ، كان من بينهم فؤاد البديوى سفيرنا فى

كنشاسا ، والذى قررت وزارة الخارجية أن ترشحه أمينا عاما مساعدا لمنظمة الوحدة الإفريقية . وقد أيدته قائمة طويلة من سفراء مصر الممتازين العاملين فى إفريقيا .

ولم يكن الكثيرون يتفقون معى فى التفاؤل بالقدرة على مواجهة الرافضين . كانت الخرطوم هى المقر الذى انعقد فيه مؤتمر الجامعة العربية فى سنة ١٩٦٧ والذى أعلن اللاءات الثلاثة تجاه إسرائيل : لا اعتراف ، لا تفاوض ، لا سلام . وهنا فى الخرطوم ، بعد فترة تزيد على عقد واحد بقليل ، كان الجميع يعرفون أن السادات وضع مصر على طريق يمكن أن يؤدى إلى « نعم ثلاث مرات » .

كان مؤتمر الخرطوم محاولة من جانب جعفر نميرى رئيس السودان لاكتساب مكانة دولية . وتحظى اجتماعات القمة هذه بأهمية كبرى لدى الزعماء الأفارقة ، بل إن الرئيس الذى يستضيف اجتماع القمة لمنظمة الوحدة الإفريقية يصبح شخصية لها نفوذ ملموس ، ويحق له أن يتكلم باسم كل الدول الإفريقية لمدة سنة كاملة ، وأن يقوم بالوساطة فى المنازعات داخل القارة ، وأن يكون له الوزن المعنوى للقدرة على تمثيل إفريقيا بأسرها أمام العالم الخارجى . افتتح نميرى اجتماعات الخرطوم فى يوم الأحد ٨ يوليو ١٩٧٨ بخطاب طويل أشاد فيه بالتكامل الاقتصادى المقترح بين مصر والسودان ، باعتباره هدفا سيؤدى إلى حياة أفضل لكلا الشعبين .

ولكن لكلماته معنى خاص بالنسبة لى . فقد كان اهتمامى بالسودان يرجع إلى أمد بعيد ، لأنه كان يقال لى وأنا صبى صغير إن جدى بطرس غالى باشا هو الذى سلم ، أثناء توليه وزارة الخارجية ، السودان إلى البريطانيين عندما وقّع فى سنة ١٨٩٩ الاتفاقية التى أقامت الحكم الثنائى بين مصر وإنجلترا فى السودان ، الذى كان المصريون يعتبرونه من الأراضى الخاضعة لسيادتهم الخالصة . وكان ذلك من الأسباب التى دفعت من اغتالوا جدى فى أحد شوارع القاهرة ، وقد حوكم القاتل ، واسمه الوردانى ، وثبتت إدانته وتم إعدامه ، ولكنه تحول إلى بطل وطنى ، وكان الطلبة يهتفون فى الشوارع : *الوردانى ! الوردانى ! اللى قتل النصرانى !*

ومنذ سنوات شبابى كنت أريد أن أفهم بمزيد من العمق العلاقات بين مصر والسودان . قرأت كثيرا فى الموضوع ، وزرت السودان ، وكان لى أصدقاء سودانيون كثيرون . وعندما شغلت منصبى الجديد كوزير دولة للشئون الخارجية نجحت فى أن أشرك وزارة الخارجية فى ملف السودان الذى ظل لفترة طويلة فى يد رئاسة الجمهورية ، باعتباره قضية خاصة وحساسة . وكانت عملية التكامل بين البلدين لا تحقق شيئا ، لكن خطبة نميرى

كانت لها فائدتها ؛ لأنها صورت مصر على أن اهتمامها بإفريقيا يزيد على اهتمامها بالعملية المصرية الإسرائيلية .

كان ممدوح سالم قد نصحنى بأن أطلب مساعدة رشيد الطاهر رئيس وزراء السودان ورئيس المؤتمر الوزارى . التقيت به وقلت إن لدى تعليمات صريحة بأن أعارض بشدة أية محاولة لانتقاد مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات ، أو محاولة تلويث سمعة مصر . وقلت إن زيارة الرئيس السادات للقدس مسألة عربية خالصة وليس هناك ما يدعو لمناقشتها فى سياق المسائل الإفريقية . وكان من شأن فهم ذلك فهما واضحا أن يمهد الطريق لخروج مصر من المؤتمر بغير خسائر تقريبا .

وافق رشيد الطاهر على أن السودان ، الذى سيرأس المؤتمر ، سيحاول أن يتجنب المواجهة فى موضوع السادات . وقال إن مسئوليته الرئيسية هى إنجاح المؤتمر . ولكن عندما انتهى حديثنا لم أكن مطمئنا تماما . فالدولتان الرئيسيتان المعارضتان للسادات فى المؤتمر ، الجزائر وليبيا ، كانتا تسعيان بقوة لتحويل السودان من بلد مساند لمصر إلى بلد معارض لها . والسودان يحب مصر ويكرهها فى الوقت نفسه . فمصر بالنسبة للسودانيين أشبه بالنار : إذا اقتربت منها كثيرا حرقتك ، وإذا ابتعدت عنها كثيرا اشتد عليك البرد . وفى أحيان كثيرة حاول السودان اللعب على الموقف بين ليبيا ومصر . وكان اعتقادى أن رشيد الطاهر ، على الرغم مما أبداه من ارتباط سياسى بمصر ، يميل بعواطفه نحو ليبيا ، والعواطف تتغلب فى العالم العربى . وشعرت بأنى لا أستطيع الاعتماد عليه .

حفلت الأيام الثلاثة التالية ، ٩ – ١١ يوليو ١٩٧٨ بنشاط دبلوماسى مركز ، حين كنت أقوم بالاتصال بالوفود واحدا بعد الآخر . كان هارولد وولتر ، وزير خارجية موريشيوس ، متحمسا لزيارة الرئيس السادات للقدس . وكان وولتر ضابطا سابقا فى الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الثانية ، وهو مثقف وخطيب موهوب واسع الاطلاع على الأدبين الفرنسى والإنجليزى . وكان يهوى المناقشة والاختلاف حول مؤلفات شكسبير وكامى وسارتر . وكان يقتبس آية من الإنجيل تقول « افرحى يا أسوار أورشليم لأن رسول السلام قد جاء » . وقد ارتاح السادات لبادرة التأييد هذه ، ولكنه كان ارتياحا شخصيا ، لا يرتبط بالحاجة إلى كسب التأييد الدبلوماسى .

كان وزير خارجية ليبريا ، سيسيل دنيس ، طويل القامة ، وسيما وأنيقا فى بذلته البيضاء ، ويبدو كأنه أحد نجوم السينما . كان يتحدث بأدب وبقدرة استثنائية على الإقناع ، وهو من أكثر الأشخاص قبولا فى الدوائر الدبلوماسية . وبسبب ارتباطات ليبريا التاريخية

بالولايات المتحدة ، التى جاء منها مؤسسوها كعبيد تم عتقهم فى سنة ١٨٤٠ ، وبسبب الوعى بالعلاقة الجديدة بين مصر والولايات المتحدة ، كان هناك نوع من التحالف غير الرسمى بين مصر وليبيريا قد بدأ يظهر فى المؤتمر .

كان أليونى بلونديين باى ، وزير خارجية مالى ، محاميا بارعا أكثر منه دبلوماسيا . وهو قادر ببراعة على تغيير نغمة صوته وشحن كلماته بحماسة إفريقية تعجب الجماهير . وكان معارضا بشدة لمبادرة السادات ، بدعوى أنه ليس من حق مصر أن تتكلم باسم الفلسطينيين . وقد سبق أن كان مدرسا فى إحدى الجامعات الفرنسية عندما كنت أستاذا زائرا فى جامعة باريس ، وسبق أن قرأ كتاباتى المنشورة باللغة الفرنسية عن القضايا الإفريقية . وقد التزم حتى فى انتقاده لموقفى ، بأسلوب الباحث الأصغر الذى يخاطب أستاذه . وعندما أصبحت أمينا عاما للأمم المتحدة ، عينت أليونى بلونديين باى ممثلا خاصا لى فى أنجولا . وقد نجح فى إنجاز بروتوكول لوساكا لعام ١٩٩٤ الذى أنهى النزاع بين منظمة يونيتا والحكومة الأنجولية .

ولم يكن هذا هو الحال مع حمدى ولد مكناس ، وزير خارجية موريتانيا ، الذى كان من تلاميذى فى جامعة باريس . فهو لم يتمكن من التغلب على العلاقة النفسية بين التلميذ والأستاذ ، وكان يبدو قلقا فى وجودى عاجزا عن النظر إلىّ كزميل له ، على الرغم من الجهد الذى بذلته لتشجيعه على ذلك .

فى يوم الخميس ١٣ يوليو ، جاء النبأ بوقوع انقلاب عسكرى أطاح بحكومة الرئيس مختار ولد دادة فى موريتانيا . وجاء إلىّ فى غرفتى بالفندق حمدى ولد مكناس وزير الخارجية يطلب مشورتى ، فقد تغلب يأسه على قلقه السابق فى حضرتى ، واستؤنفت العلاقة بين أستاذ الجامعة بطرس غالى وتلميذه حمدى ولد مكناس . سألنى : « هل ينبغى أن أعود إلى موريتانيا ؟ » . قلت له إنه سيعانى فى المنفى فى الخارج أكثر مما يعانى فى السجن داخل بلده . ووافق على ذلك . وعاد إلى نواكشوط وألقى به فى السجن . وبعد سنوات طويلة زارنى فى القاهرة كرجل أعمال ناجح ، بعد أن تخلى تماما عن السياسة .

كان انعقاد مؤتمر القمة ، الذى بدأ فى يوم الثلاثاء ١٨ يوليو قد تطلب أن يخلى وفدنا الغرف التى يشغلها فى الفندق حتى ينزل بها المصاحبون لرؤساء الدول . وكان كثيرون ممن اضطروا إلى ترك فندق هيلتون والانتقال إلى فنادق أخرى فى وسط المدينة ، غاضبين ومستائين ، يعترضون على الأولوية التى أعطيت « للحاشية » على حساب السفراء

المصريين . وتدخلت لتهدئة الموقف ، وقلت إن هذا من طبائع الأمور فى الحياة الدبلوماسية والتى يجب قبولها كما تقبل مزاياها .

بعد مناقشات طويلة وصعبة بات واضحا أن أغلبية الدول الإفريقية تؤيد مصر ومبادرة الرئيس السادات . ولم تتمكن أكثر الدول تطرفا - وكان أعلاها صوتا فى هذا الصدد الجزائر وأنجولا وليبيا - من توجيه التيار ضد مصر . وكانت هناك أسباب عديدة لفشلها :

● أولا ، إن انعقاد المؤتمر فى الخرطوم أتاح لحكومة السودان المؤيدة لمصر أن تؤثر فى الموقف .

● ثانيا ، إن المؤتمر الإفريقى لم يكن هو المكان المناسب لمناقشة خلاف عربى . فقد قبلت الأغلبية فى الخرطوم الحجة القائلة بأن سياسة السادات تجاه إسرائيل ليست من المسائل التى تخص الأفارقة .

● ثالثا ، كان هناك عدد من الدول الصديقة أحدث أثرا ملموسا فى الدفاع عن موقف مصر . وقامت بهذا الدور موريشيوس والسنغال باقتناع تام .

● رابعا ، يبدو أن مهاجمة مصر لكوبا لتدخلها فى إفريقيا قلل من تأثير الرافضين المؤيدين لكوبا . وكنت قد طرحت قرارا ينص على أن قبول القوات الكوبية فى أراضى إفريقيا يعنى رفض عدم الانحياز . ولم ينجح القرار الذى تقدمت به ، ولكنه أضعف موقف الدول الراديكالية . وبذلك صدّ الخطر الذى كانت ستتعرض له مصر . وكان السادات يستطيع أن يحضر إلى اجتماع القمة دون خوف من الإحراج .

وصل الرئيس السادات فى الساعة الحادية عشرة . وكان معه على نفس الطائرة حسن كامل (كبير الياوران) واللواء حسن التهامى ، وفوزى عبد الحافظ (السكرتير الشخصى للسادات) ، والدكتور محمد عطية (طبيب السادات وطبيبى أيضا) ، و « حاشية » كبيرة غير محددة ، وفريق كبير للأمن .

بدأ مؤتمر القمة بجلسة مغلقة اقتصرت على رؤساء الدول ، على أن يصحب كلّ رئيس منهم عضو واحد من أعضاء الوفد . وطلب منى السادات أن أصحبه . ركبت معه إلى قصر المؤتمر سيارة ليموزين ضخمة يحف بها موكب مهيب من راكبى الموتوسيكلات .

همس فى أذنى فوزى عبد الحافظ المساعد الشخصى للرئيس السادات بأنه يريد أن يبلغنى برسالة مهمة : « يجب ألا تنسى أن تأخذ معك التبغ الذى يحتاجه الرئيس لغليونه

عندما تنتهى الجلسة ويغادر قاعة الاجتماع » . استمعت إليه بأدب وأدركت أن كيس التبغ والغليون لهما لدى هذا الشخص أهمية تتجاوز بكثير قرارات المؤتمر .

تولى عمر بونجو رئيس الجابون ، باعتباره الرئيس الحالى لمنظمة الوحدة الإفريقية ، رئاسة الجلسة التى قامت بانتخاب الرئيس جعفر نميرى رئيسا للمؤتمر نفسه . ورشح زعماء من بلدان مختلفة لشغل منصب نائب رئيس المؤتمر . واقترح الرئيس سنغور رئيس السنغال أن يخصص أحد تلك المناصب للرئيس السادات ، وأيده فى ذلك الرئيس موبوتو . ولم يعترض أحد .

كنت أراقب باهتمام تعبيرات وجه الرئيس السادات . كان يبدو غير مهتم بالجلسة ، كما لو كان غارقا فى التفكير فى مسائل أخرى .

عندما انتهت الكلمات وغادر الرؤساء القاعة ، كدت أنسى كيس التبغ والغليون . لكنى لحسن الحظ تذكرت فى آخر لحظة المهمة التى أوكلت إلىّ . ولكن سكرتير الرئيس انتزع منى بسرعة كيس التبغ والغليون كأنه يتصور أنى لست جديرا بهذه المسئولية ، ولعله خشى أن أنافسه إذا قمت بالمهمة بمهارة .

بعد الجلسة المغلقة توجهنا إلى القاعة الكبرى التى كانت بها مقاعد لجميع الوفود . وبوصفى قائدا للوفد الرسمى الذى ضم حسن التهامى وحسن كامل وفوزى عبد الحافظ ، جلست إلى يمين الرئيس السادات .

ألقى الرئيس نميرى كلمة الافتتاح . وبعده ألقى كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة كلمة رحب فيها بالرؤساء وبإفريقيا وبمنظمة الوحدة الإفريقية . وفيما عدا ذلك لم يقم فالدهايم بأى دور .

عندما انتهى فالدهايم من كلمته وقف السادات وقال إنه سيغادر الجلسة ، وطلب منى أن أبقى وأمثله فى غيابه . وأثناء انسحابه من القاعة كان زملائى ، بقية أعضاء الوفد الرئاسى ، يركضون وراءه . حاولت أن أقنعهم بالبقاء ولكن بلا جدوى . أوضحت لهم أن المقاعد الخالية للوفد المصرى ستكون صورة سيئة ، ولكنهم رفضوا البقاء قائلين : « إنك كفيل بأداء المهمة يا بطرس » . وهكذا وجدت نفسى وحيدا فى الجزء المخصص لمصر . وعندما انتبه الدبلوماسيون الذين يشكلون الوفد المصاحب لى للموقف المحرج سارعوا إلى قاعة الاجتماع وأنضموا إلىّ .

أقيمت فى المساء حفلة عشاء كبيرة فى إحدى قاعات قصر المؤتمر . وأبدى الرئيس

السادات رغبته فى الراحة ولم يحضر الحفل ، وبالتالى لم يحضره أى من أعضاء الوفد الرئاسى الذى حضر معه . ولما كنت العضو الوحيد فى الوفد المصرى الذى حضر العشاء ، انهال علىّ وابل من الأسئلة : « أين الرئيس السادات ؟ » « لماذا لم يشارك ؟ » « هل هو مريض ؟ » « أين أعضاء الوفد ؟ » « هل هناك أسباب سياسية لغياب الرئيس ؟ » وسرت إشاعة بأن السادات قرر مقاطعة المؤتمر ، وأنه غضب من بعض البيانات التى ألقيت . قلت إن ذلك غير صحيح ، وإن السادات استدعى لاجتماع عاجل . لكن لم يصدق كذبتى غير القليلين .

فى اليوم التالى حضرت التقاء الرئيس السادات مع كورت فالدهايم . وكان الاهتمام الأول للأمين العام هو عدم إتمام تسوية لأزمة الشرق الأوسط بدون الأمم المتحدة . وأكد السادات لفالدهايم أن مصر مهتمة بالدور القيادى للأمم المتحدة فى المجتمع الدولى . وطلب منى أن أحيط الأمين العام باستمرار بمناقشاتنا مع الأمريكيين والإسرائيليين .

التقى السادات بعد ذلك بالرئيس موبوتو . وعندما بدأ رئيس زائير فى الكلام باللغة الفرنسية شرعت فى ترجمة كلماته إلى العربية . وقاطعنى السادات قائلا : « لا ضرورة لذلك فإنى أفهم الفرنسية وإن كنت لا أتكلمها » . واقتصرت بعد ذلك على ترجمة كلام السادات من العربية إلى الفرنسية . وبدا أن ثمة جوا من التوافق التام يسود بين الرئيسين . فصداقتهما ترجع إلى حرب ١٩٧٣ ، وهما متفقان فى رؤيتهما للشئون العالمية . فموبوتو ، مثل السادات ، شديد العداء للشيوعية ، ويشعر بالقلق للوجود الكوبى فى إفريقيا . وكان يؤيد تماما اتصالات السادات بإسرائيل وافتتاح عملية سلام بين مصر وإسرائيل . وكان موبوتو يتصور وجود « محور » بين مصر وزائير . وكان من رأيه أن هذين البلدين باعتبارهما أهم بلدين فى إفريقيا ، يستطيعان مع نيجيريا أن يهيمنوا على المنطقة . كان موبوتو واثقا بنفسه للغاية ، يتصرف كما لو كان رئيسا تقليديا لقبيلة فى حين أنه ليس كذلك .

عندما كان الاجتماع يقترب من نهايته ، ظهر حسن كامل وقال إنه ينبغى أن يتوجه الرئيس السادات على الفور إلى قاعة الاجتماع لالقاء كلمته . غادرنا الفندق مسرعين ، وصحبت الرئيس فى سيارته إلى قاعة المؤتمر . وهناك علمنا أن المعلومات التى وصلتنا ليست دقيقة ، فقد بدأ الرئيس سيكوتورى لتوه فى إلقاء كلمته التى استمرت لأكثر من ساعة . ووجدت لدهشتى أن الرئيس السادات متوتر وعصبى ، على خلاف ما كان عليه من هدوء أثناء سفرية القدس . ولكنى علمت أن السادات يكون هادئا دائما فيما عدا اللحظات القليلة التى تسبق إلقاءه خطابا مهما . وكان ذلك هو الحال فى القدس أيضا ، ولكنى لم أكن حاضرا وراء منصة الكنيست لألاحظ ذلك .

كان هناك اختلاف ملحوظ بين السادات وسلفه جمال عبد الناصر . فعبد الناصر ، مثل قيصر ، كان يفضل أن يكون « الأول فى قريته » ، بمعنى قرى العالم الثالث . أما السادات فيقبل أن يكون « الثانى فى روما » ، أى فى عواصم دول العالم الكبرى . كان عبد الناصر معاديا للاستعمار وللغرب بشدة . أما السادات فيعجب بالثقافة والتقاليد الغربية وعلى استعداد للتحالف مع أعداء الشيوعية . فقد جاء ناصر إلى السلطة فى وقت المواجهة مع الدول الاستعمارية ، وجاء السادات فى وقت المصالحة معها . وهكذا كانا يمثلان فترتين مختلفتين بوضوح فى تاريخ مصر . وقد شاركت مشاركة إيجابية فى الحياة السياسية فى كل من هاتين الفترتين المختلفتين .

عندما انتهت كلمة الرئيس سيكوتورى تقدم الرئيس السادات إلى المنصة فدافع عن مبادرته ببلاغة وقوبل بتصفيق من وفود المؤتمر . ولم يكد الرئيس السادات يرجع إلى مقعده حتى قرر مغادرة الجلسة . ومرة أخرى سارعت حاشيته ، التى كانت قد عادت إلى الظهور فجأة فى وقت إلقاء كلمته ، إلى مغادرة القاعة معه . ومرة أخرى ، وجدت نفسى وحيدا فى المقاعد المخصصة للوفد المصرى ومستاء من موقف الحرص على « مرافقة السيد » الذى يتخذونه .

جاءت رسالة بأن الرئيس السادات يريد منى أن أحضر بدلا منه فى الجلسة المستمرة التى تقتصر على رؤساء الدول . ولم يكن هناك بديل من الناحية العملية . وكانت الدول الراديكالية ، بقيادة بنن وليبيا ومدغشقر والجزائر ، تسيطر على مجرى المناقشات ، ويتميز موقفها بالتحرش والاستفزاز . وفى وقت متأخر فى الليل ذهبت إلى الرئيس ليوبولد سنغور رئيس السنغال وسألته بشىء من العتاب المحوط بالاحترام لماذا التزمت جميع الوفود المعتدلة الصمت وتركت الساحة لهجوم واستفزاز الأقلية الراديكالية . وابتسم الرئيس السنغالى وقال بهدوء : « لأنهم معتدلون » .

كنت دائما احترم الرئيس سنغور احتراما عميقا باعتباره شاعرا عظيما . فهو أستاذ متمكن من اللغة الفرنسية ، ويعبر فى الوقت نفسه عن الحساسية الإفريقية الفريدة . ومثقفو باريس وصفوة عالم السود الناطق بالفرنسية كلاهما يقدر أعماله ، ولكنه ليس سهل المنال للقارىء الإفريقى العادى . وقال لى سنغور إنه تغلب على حاجز اللغة عن طريق ترجمة أشعاره إلى اللغات الإفريقية المحلية بنفسه . وأعجبت أيضا بسنغور رجل الدولة . فرغم تقدمه فى السن ، ورغم أن الساعة كانت قد بلغت الرابعة صباحا ، لم تظهر عليه علامات الإرهاق . وفى السادسة صباحا كان لا يزال جالسأ فى المؤتمر يدافع عن فكرته فى الحاجة

إلى اعتماد ميثاق إفريقي لحقوق الإنسان ، بينما كان كثير من المسئولين الأقل منه شأنا قد غادروا المؤتمر منذ أمد طويل ليخلدوا إلى فراشهم .

كان الجميع يسألوننى : « أين السادات ؟ » . وهو ربما كان قد قرر الرحيل ليتجنب مواجهة مزعجة . كان ذهنه مشغولا بأمور أخرى ، بسيناء والقدس ، ولم تعد شئون إفريقيا تشغله كثيرا .

وقد تأثرت كثيرا بهؤلاء الزعماء الأفارقة . فسهولة حديثهم باللغتين الفرنسية والإنجليزية كسبت لهم الكثير من الودّ فى العالم الخارجى بطريقة لم تتوافر للقادة العرب إلا بصورة نادرة . وليس معنى ذلك أن رؤساء الدول الأفارقة كانوا جميعا زعماء ممتازين . فلسوء الحظ أن الكثيرين منهم ، بعد سنوات طويلة فى السلطة ، لم يعودوا يميزون بين الواقع وما تنيعه دعايتهم . ولكنهم جميعا استفادوا من الاحتكاك بالثقافات الأوروبية ، وعرفوا كيف يتواصلون مع العالم على اتساعه .

وعندما قدمت تشاد مشروع قرار يدين ليبيا لعدوانها عليها ، طلب منى السادات تأييد المشروع التشادى . كتب لى مذكرة يقول فيها : « الدكتور بطرس ، لابد أن تبذل كل جهد ممكن لمساعدة تشاد فى قبول بيانها وتأييد قضيتها ضد ليبيا بكل قوة » . وتنفيذا لهذه التعليمات التقيت بالرئيس فيلكس معلوم رئيس تشاد . وقد رأيت أن مشروع القرار مكتوب بلهجة أشد مما يرجى معه أن يلقى أى تأييد . قلت إنه ليس من المتوقع أن تتبناه أية جهة أخرى ، واستأذنته فى تعديل النص . وبهذا التغيير أمكننى الحصول على تأييد أربعة آخرين لتشاد ، ولكن بحلول صباح اليوم التالى كان الأربعة قد غيروا رأيهم ، ولم نستطع العثور عليهم فى أى مكان . وذهبت إلى الرئيس التشادى لأعتذر له . لكنه قال لى حزينا : « لقد فعلها التريكى » . فقد وزع وزير الخارجية الليبى مظاريف « لتسهيل » معارضة القرار . لقد فشلت ، كما اكتسبت عددا من الأعداء فى هذه العملية .

فى صبيحة الخميس ٢٠ يوليو ، حضرت التقاء الرئيس السادات مع عدد من الزعماء الأفارقة فى جناحه الخاص . كان أولهم الرئيس ياديما رئيس توجو . طلب ياديما تأييد الرئيس المصرى لانتخاب وزير خارجية توجو أمينا عاما لمنظمة الوحدة الإفريقية . وبالرغم مما قاله لى السادات فى اليوم السابق فإنه لم يكن يفهم اللغة الفرنسية جيداً . فهو يستطيع أن يلم بالمعنى العام للمحادثة لكنه لا ينفذ إلى التفاصيل ، وما كان يستطيع أن يجيب إلا بعبارات عامة .

ثم استقبل السادات ، الرئيس سينى كونتشى رئيس النيجر الذى بدأ الاجتماع بالإشادة

بى قائلا : « إن وزير الخارجية المصرى أشبه بكبار الكهنة ! إنه واحد من حكماء إفريقيا ! » وشعرت بعدم الارتياح . واكتفى السادات بالابتسام وهز رأسه ، ولم يكن واضحا ما إذا كان ذلك موافقة أو عدم اقتناع . ودفعنى ذلك إلى المزيد من عدم الارتياح .

بعد مقابلة جوليوس نيريرى رئيس تنزانيا اتجه السادات نحوى وقال : « إن هذا الرجل أشبه بكبار الكهنة ، وهو بلا شك واحد من حكماء إفريقيا ، وهو شديد الذكاء ، بل إنه واحد من أذكى الزعماء الأفارقة الذين قابلتهم » . وكان نيريرى بالنسبة لشعبه ، المعلم ، وكانت تحيط به هالة من القداسة والعظمة البسيطة . ولكنه كان مناورا عظيما أيضا ، ولم ينتج عن حبه الشديد لشعبه أى تغيير فى حياته اليومية إلى الأحسن .

ثم جاء كينيث كاوندا رئيس زامبيا ، الذى كان بشكل من الأشكال منافسا لنيريرى على لقب كبير حكماء إفريقيا . وقد كان فى السابق قساً بروتستنتيا ، وأصبح الآن رجل دولة يحظى بالاحترام . كان يحمل دائما فى كم بذلته منديلا أبيض ، بالطريقة الإنجليزية القديمة ، ويخرجه ليجفف الدموع التى تنهمر بسهولة عندما يدور الحديث حول موضوع مؤثر .

ثم جاء جعفر نميرى رئيس السودان لوداع السادات . كان نميرى فى قمة قوته ، متفتح العقل ، انبساطيا ، ومزهوا بالدور الجديد للسودان فى قيادة إفريقيا . وكان السادات مدركا أقدمية نميرى فى القيادة ، لأنه قام بانقلاب فى الخرطوم عندما كان صغيرا فى السن نسبيا . وكان السادات ممتنا أيضا لنميرى لأن السودان هو الوحيد بين البلدان العربية الكبيرة الذى أيده بعد رحلة القدس .

وشعر نميرى بأن الأوضاع تتيح له فرصة القيام بدور الجسر بين العالمين العربى والإفريقى . وهو آت من وادى حلفا فى شمال بلده ، لكنه يرى أنه قادر على فهم الأفارقة المسيحيين وأتباع الديانات القبلية فى جنوب السودان . وقد تغير موقفه فيما بعد ، فأصبح أصوليا متعصبا ، وارتكب أبشع الفظائع إلى أن خرج من السلطة فى ١٩٨٩ بانقلاب قام به أصوليون أشد منه تعصبا .

وبينما كان نميرى والسادات يتبادلان الفكاهات وأجلس إلى جوارهما صامتا ، دخل أحد المساعدين ليقول إن سفير المغرب ، أحمد العراقى ، يطلب مقابلة عاجلة مع الرئيسين بشأن مسألة على أعظم جانب من الأهمية . ودخل مندوب المغرب وعلى وجهه علامات القلق الشديد ، فقد وصل إلى علمه أن وفدا من « البوليزاريو » ـ حركة التحرر فى الصحراء

الغربية ـ وصل إلى الخرطوم ويسعى لحضور المؤتمر . وقال العراقى إنه إذا حدث ذلك فسيضطر الوفد المغربى إلى مغادرة الخرطوم على الفور .

أكد الرئيس نميرى لسفير المغرب أنه سيتوجه فورا إلى قاعة المؤتمر لمنع دخول وفد البوليزاريو . وخرج نميرى مع سفير المغرب . وعند ذلك انتقد السادات سفير المغرب لعدم سيطرته على نفسه ، وقال : « إن السفراء الذين يمثلون الملوك مدللون وفاسدون وليسوا قادرين على العمل الجاد فى هذه المؤتمرات الدولية » . ثم قال لى : « إنى راض عنك يا بطرس لقدرتك على مواجهة الأوضاع الصعبة فى هذا المؤتمر بدون أن تفقد أعصابك . برافو يا بطرس » .

كان مطر خفيف يتساقط ونحن فى طريقنا إلى المطار لوداع الرئيس السادات عند مغادرته للخرطوم . وأثناء مراسم المغادرة همس فى أذنى الدكتور محمد عطية : « إن الرئيس راض عن كل ما فعلته هنا فى الخرطوم ، ولاسيما قدرتك على منع تعرض مصر لنكسة دبلوماسية » . وصحبت الرئيس حتى سلم الطائرة ، وقال لى : « لتظل عزيمتك قوية يا بطرس » ، وصافحنى .

عند عودتى إلى الهيلتون عرفت أن وليام إيتيكى ممثل الكاميرون ، والأمين العام الحالى لمنظمة الوحدة الإفريقية ، تلقى تعليمات من رئيسه بعدم تجديد ترشيحه من أجل إعادة الانتخاب . وجاءت زوجته لتقابلنى وهى تكاد تبكى . وطلبت منى أن أساعد زوجها على قبول هذا القرار المؤلم بالإشادة به ومدح عمله . ذهبت إلى إيتيكى ، وأعربت عن إعجابى بالطريقة التى أدى بها عمله كأمين عام . ولكن ذهنه كان شاردا ولم يستمع لما أقول . كان يشعر بأنه قد حلت به كارثة .

وعدت إلى قاعة المؤتمر حيث استمرت الجلسة حتى الرابعة صباحا . وهناك شهدت مواجهة شرسة بين الوفدين الصومالى والإثيوبى ، ثم مناقشة مريرة بين تشاد وليبيا . وحوالى الساعة الثالثة صباحا كاد يغلبنى الإرهاق وفكرت فى ترك أحد السفراء لتمثيل مصر فى مكانى . ولكنى عندما رأيت الرئيس سنغور ، الذى كان قد جاوز السبعين منذ سنوات غير قليلة ، مازال جالسا فى مقعده ، قررت البقاء إلى أن تنتهى الجلسة .

لم يكن ما يضايقنى فى الحقيقة هو مهمة الاستماع إلى كلمات تلقى حتى الفجر ، بل كان يضايقنى تكييف الهواء . وكنت أضع أوراق الصحف تحت قميصى لتعزلنى عن الهواء البارد . وعندما انتهت الجلسة كانت الشمس قد أشرقت ، وأضاءت صفحة النيل وأنا فى طريق عودتى إلى الفندق .

على الرغم من إرهاقى لم ألبث أن عدت إلى المؤتمر ، حيث شهدت مواجهة مفزعة بين إثيوبيا والسودان ، استمرت حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . وبعد ذلك سارعت إلى الفندق ، راجيا بعض الراحة ، لأنى كنت أعرف أن الجلسة المسائية ستستمر أيضا حتى الفجر . لم آكل حتى أتمكن من النوم ، واستطعت أن أرتاح حتى السادسة .

وعدت إلى قاعة المؤتمر وجلست فى انتظار بدء الجلسة . كانت تعزف موسيقى صينية ، ربما لتذكيرنا بأن الصين هى التى بنت قاعة المؤتمرات . وربما كانت الخرطوم قد حصلت على الموسيقى المسجلة عندما تسلمت مفاتيح القاعة . وبدا أن للموسيقى أثرا مهدئا ، لأن الجلسات التالية كانت أقل صخبا من الجلسات التى عقدت من قبل . لكن الكلمات استمرت حتى الفجر مرة أخرى ، ولم يتح لى أن أنام حتى الخامسة صباحا .

حضرت إلى قاعة المؤتمر فى العاشرة صباح السبت ٢٢ يوليو . كانت القاعة شبه خالية . فالجلسات التى تستمر طوال الليل بدأت تحدث أثرها . جلست هناك أستمع إلى الموسيقى الصينية ، وأتحمل تكييف الهواء حتى افتتح الرئيس نميرى الجلسة فى الساعة ١١,٣٠ وقد بدت عليه أيضا علامات الإجهاد .

بعد الظهر غادرت الجلسة لألتقى بالزعيم السودانى صادق المهدى بناء على طلبه . وكنت قد حصلت على موافقة الرئيس السادات على هذه المقابلة . والمهدى من خريجى جامعة أوكسفورد ، واسع الاطلاع ، ويتحدث الإنجليزية بلهجة الطبقات العليا . وكان رجلا حالما ، ولكنه ليس من أصحاب الأحلام العنيفة مثل جده الأكبر ، المهدى ، الزعيم ذى الشخصية الكاريزمية الذى كان قد قاد حركة العصيان على الخديوى المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر . كان المهدى يمثل قوة نامية فى السودان ، ويدرك أنه يستطيع أن يستفيد باستنكار الرافضين لمبادرة السادات كوسيلة لشجب سياسات نميرى وإضعافه .

كان شقيق زوجة صادق المهدى ، المفكر الإسلامى المتعلم فى باريس ، الدكتور حسن الترابى ، هو الحليف المقرب للمهدى . وكان بدوره متحدثا بارعا ، وذكيا ، وكارها لنميرى . وكان أيضا زعيم الإخوان المسلمين فى السودان . وفى بيت صادق المهدى دارت بيننا محادثة طويلة أثناء العشاء ، ناقشنا فيها مبادرة الرئيس السادات ، وحاولت أن أشرح جدول الأعمال السياسى المصرى الجديد . وقلت إننا قد اخترنا سبيل التفاوض والحوار بدلا من المواجهة العسكرية والعنف لأسباب لا تخفى على أحد .

لم أنجح فى إقناع صادق المهدى وحسن الترابى . فحكومة نميرى مؤيدة للسادات ، أما هما فمعارضان له ، وفى رأيهما أن اليهود خانوا الأسرة العربية . وقالا إنه فى الفترة

بين ١٩٤٥ و ١٩٥٥ لم يكن هناك غير سبعة أعضاء فى الجامعة العربية ، وبحلول عام ١٩٧٧ كان هناك اثنان وعشرون عضوا . لقد تحرر العالم العربى بكامله فيما عدا فلسطين . وقالا إن السادات الآن خان القضية العربية لأنه أعطى لسيناء الأولوية على فلسطين . كان المهدى يتكلم بهدوء وبتعقل وبلاغة . أما الترابى فكان متحمسا وقاسيا . وبمرور الوقت تفككت العلاقة بين الرجلين . وبحلول عام ١٩٩٥ كان المهدى قد وضع فى السجن ، أو تحت الاعتقال فى مسكنه ، وأصبح الترابى قائدا روحيا جديدا للأصوليين على امتداد العالم الإسلامى . وفى المؤتمر العربى الإسلامى الشعبى الذى عقد فى الخرطوم فى مارس ١٩٩٥ أبلغ الترابى الوفود القادمة من ثمانين بلدا إسلاميا أن « الجهاز الدولى المسمى الأمم المتحدة يعمل الآن بطريقة خاطئة ، وأصبح سلاحا ضد الدول الإسلامية » .

وعدت إلى قاعة المؤتمر لحضور جلسة أخرى امتدت طوال الليل . وهناك قابلت فى قاعة رؤساء الدول ليوبولد سنغور مرة أخرى . وبين الخامسة والسادسة صباح الأحد دارت بيننا مناقشة ممتعة عن الثقافة الإفريقية . كنا بين الفينة والأخرى نغادر الجلسة لنحصل على فنجان من القهوة يساعدنا على الاستيقاظ .

فى الثامنة من صباح ذلك اليوم علق الرئيس نميرى الجلسة ، وطلب عقد جلسة مغلقة لانتخاب الأمين العام . وعاد رؤساء الدول وممثلوهم إلى غرفة اجتماعات فى الدور الثانى من مبنى المؤتمر حيث قدموا لنا مرطبات خفيفة .

ونظرا لأنه كان هناك مرشح واحد لمنصب الأمين العام ، هو إيديم كودجو ، وزير خارجية توجو ، تصورت أن الجلسة لن تستمر غير بضع دقائق . ولكن لم يلبث أن تبين أن ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية يتطلب أغلبية الثلثين لانتخاب أمين عام جديد .

وأجرى التصويت ، ولكن كودجو لم يحصل على الأغلبية اللازمة . طلبت الكلمة بوصفي ممثلا للسادات ، وحاولت أن أقنع المستمعين بأنه مادام هناك مرشح واحد فلابد من انتخابه لأنه ليس هناك مجال للمناورات .

وبعد أن أجرى اقتراع ثان وثالث ورابع وخامس بدون الحصول على أغلبية الثلثين المطلوبة ، علق الرئيس نميرى الجلسة حتى يتيح الفرصة للمناقشات الجانبية . ذهبت إلى نميرى وقلت : « سيادة الرئيس ، لماذا لا تتقدم بمرشح سودانى ؟ » . ابتسم نميرى وقال : « إنى احتفظ بهذه الورقة لما بعد ، ولدىّ مرشح زنجى ربما اقترح اسمه فى اللحظة الأخيرة » . وكان نميرى يرى أن العجز عن الوصول إلى قرار هو أزمة مصطنعة خلقها

الشيوعيون فى المنظمة . وكانت درجات لون البشرة عاملا مهما فى التوازن السياسى فى السودان .

وبدا لى أن نميرى يفكر فى ترشيح فرانسيس دنج ، وزير الدولة لديه للشئون الخارجية . واقترحت على نميرى أنه قد يكون من المفيد أيضا أن يطلب من ليبريا أن ترشح وزير خارجيتها سيسيل دنيس الذى يملك مؤهلات نموذجية للمنصب . وافق نميرى ولكنه سأل عما إذا كنت أستطيع أن أقنع رئيس ليبريا وليام تولبرت ليوافق على ذلك . ورفض تولبرت الاقتراح ، قائلا إنه يحتاج إلى وزير الخارجية للإعداد لمؤتمر القمة الإفريقية المقبل الذى سيعقد فى مونروفيا . عدت إلى مقعدى مدركا أن المعركة ستستمر عدة ساعات .

وأجرى اقتراع آخر ، ولكن بلا جدوى . وأجريت مناقشات جانبية جديدة . وتبادل الرؤساء المواقع مع زملائهم للتشاور عن طريق الهمس . كنت على وشك طلب تأجيل الجلسة عندما همس باولو جورج وزير خارجية أنجولا فى أذنى قائلاً : « فلنحاول مرة أخرى . وربما نتغلب فى هذه المرة على الصعوبات التى تحول دون انتخاب صديقك كودجو » . وأدركت أن معظم الوفود فى الخرطوم يعتبرون - عن خطأ تماما - أنى كنت العقل المفكر وراء مبادرة السادات نحو إسرائيل . وامتدادا لذلك كانوا يعتقدون - عن خطأ تماما - أنى العقل المفكر وراء هذه المرحلة من سياسة منظمة الوحدة الإفريقية .

لم أكن على بيّنة من أن الراديكاليين قرروا أن ينهوا تعويقهم للانتخاب . أجرى الرئيس نميرى تصويتا آخر فتم انتخاب ايديم كودجو . وعندما أنهى كودجو فترة قيامه بمسئولية الأمين العام اضطرته الأوضاع فى توجو إلى اللجوء إلى فرنسا حتى سنة ١٩٩٣ ، حين عاد ليعين رئيسا لوزراء توجو .

ماذا كان معنى ذلك كله ؟ ومن الذى كان يستفيد من تلك المحاولات لتعطيل انتخاب كودجو ؟ ولماذا اضطررنا للتصويت أكثر من عشر مرات إذا كان كودجو هو المرشح الوحيد وليس هناك من ينافسه على المنصب ؟

وعند ذلك رأيت أن الدول الراديكالية أرادت أن تبين أنها تسيطر على المنظمة ، وأنها إذا أرادت تستطيع أن تمنع الأخذ بأية سياسة لا تتفق معها . وربما أرادوا أيضا أن يوضحوا للأمين العام الجديد ، الذى ينتمى إلى مجموعة البلدان المعتدلة ، أن الكلمة الفاصلة فى انتخابه هى كلمتهم ، وأنه يجب أن يستمع إلى أعضاء المنظمة الراديكاليين والموالين للسوفيت .

لقد كان هذا الاستقطاب هو أقوى انطباعاتى عن الخرطوم ، إذ كان فى قدرة مجموعة راديكالية متماسكة ، تتحرك بسرعة ، أن تسيطر على ثلث أصوات أعضاء المنظمة . وهم يشاركون فى كل الاجتماعات ، ويسهمون فى مناقشة كل مسألة ، ويتدخلون باستمرار ، ويظلون جالسين فى مقاعدهم حتى الفجر دون أن يبدو عليهم التعب أو الملل . وفى نفس الوقت فإن « الأغلبية الصامتة » من المعتدلين كانت تفتقر إلى الوحدة والالتزام ، وتفضل الدردشة أثناء احتساء كوب من البيرة . كانوا نادرا ما يتكلمون فى الجلسات ، وعندما يتكلمون تكون حججهم ضعيفة ، واقتراحاتهم غير موحدة ، وبياناتهم غير مقنعة .

بعد انتهاء الأعمال الإجرائية المرهقة غادرنا الخرطوم مساء الأحد ، ووصلنا إلى القاهرة فى فجر اليوم التالى . وكانت الدبلوماسية المصرية التى عززتها صداقاتها وارتباطاتها بإفريقيا ، قد منعت الدول غير الصديقة فى المؤتمر من الإضرار بسياسة السادات . وكنا قد كسبنا بعض الوقت ، وحصلنا على قدر من المكانة ، ولكن إشارات المتاعب كانت معلقة فى الجو . فقد تحالف الراديكاليون والرافضون والماركسيون ضد مصر . ولقد نجحوا فى عزل مصر فى العالم العربى لكنهم أخفقوا فى عزل مصر عن إفريقيا . غير أن محاولتهم فى هذا السبيل سوف تستمر . فهم سيسعون الآن إلى إخراج مصر من حركة عدم الانحياز العالمية .

بلغـراد

تسعى الدول الضعيفة إلى استخدام الحياد لحمايتها ، ولكن الدول القوية غالبا ما تنظر إليه على أنه موقف معاد لها . واتباع سياسة فعالة للحياد أمر بالغ الصعوبة ، على نحو ما أوضحه ثوسيديدس فى تاريخه لحرب البلوبونيز . ولكن من الممكن أيضا استخدام الحياد بمهارة كبيرة ونجاح ملحوظ كما فعلت الولايات المتحدة مرات عديدة فى تاريخها المبكر . وقد كتبت كثيرا عن نشأة الحياد ومشاكله وإمكانياته واعتبرنى البعض حجة فى الموضوع .

وترجع جذور الحياد المصرى إلى وقت حفر قناة السويس فى القرن التاسع عشر . فحتى تكون القناة مقبولة فى عالم قائم على توازن القوى ، كان لابد أن تكون مفتوحة أمام الجميع . وقد نصت اتفاقية القسطنطينية فى ١٨٨٨ على أن « قناة السويس البحرية تكون حرة ومفتوحة دائما ، فى وقت الحرب كما فى وقت السلم ، أمام كل السفن التجارية أو الحربية ، بدون تمييز بين ما ترفعه من أعلام » .

وللمحافظة على مُلكه ، حرص الملك فاروق على حياد مصر . فقد سعى أثناء

الحرب العالمية الثانية إلى تجنب استعداء بريطانيا ، بينما كان على اتصال مع دول المحور التي ربما تنهي سيطرة البريطانيين على مصر .

وازداد تمسك مصر بالحياد في سنوات الحرب الباردة . فقد أدت هزيمة العرب في فلسطين في حرب ١٩٤٨ إلى فقد الثقة بالاتحاد السوفيتي الذي أيد إنشاء إسرائيل . وأدى التأييد الأمريكي للدولة اليهودية إلى استبعاد إقامة علاقات وثيقة مع أي من دول الشرق أو الغرب . ونتيجة لموقع مصر الجغرافي بدا من الطبيعي أن تتخذ وضعا يجعلها على مسافة متساوية من كل من الدولتين العظميين .

وبدأ الحياد بصورته المعاصرة بالاجتماع الذي عقد في ١٩٥٤ بين جمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو في نيودلهي ، وأسفر عن عقد اتفاق صداقة بين الهند ومصر . وفي العام التالي عقد في باندونج بأندونيسيا المؤتمر الرئيسي الأول لزعماء ما أصبح يعرف فيما بعد باسم العالم الثالث . وعلى خلاف ما عرفت به باندونج بعد ذلك ، فإن الاجتماع الذي عقد فيها لم يكن اجتماعا لدول محايدة وغير منحازة بل كان مكانا لمناقشات حادة بين أنصار عدم الانحياز وأنصار المؤمنين بأن مثل هذا الوضع مستحيل عمليا في ظل الحرب الباردة . وخرجت الدول الجديدة في آسيا وافريقيا ، التي كانت قد تخلصت مؤخرا من السادة الاستعماريين ، من باندونج بمفهوم جديد يزودها بأداة تحتاج إليها للمشاركة في السياسة العالمية بفاعلية - وهو مفهوم الحياد وعدم الانحياز .

وبدأت الحركة في يوليو ١٩٥٦ عندما اجتمع نهرو وعبد الناصر وتيتو في بريوني . وكانت هذه الدول تمثل بلدين خرجا من سيطرة الاستعمار الغربي (الهند ومصر) وبلدا تحرر من سيطرة الاستعمار الشرقي لموسكو (يوغوسلافيا) . واتخذت الخطوة التالية في مؤتمر تمهيدي عقد في القاهرة في الفترة ٥ - ١٢ يونيو ١٩٦١ . وفي هذا الاجتماع التقى ثمانية عشر بلدا من إفريقيا وآسيا ، وانضمت إليها يوغوسلافيا من أوروبا ، وكوبا من أمريكا اللاتينية ، والحكومة المؤقتة في الجزائر . واعتمد المؤتمر المبادىء الخمسة لعدم الانحياز : (١) في الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، تلتزم هذه الدول بالحياد ولا تنحاز لأي من الجانبين ؛ (٢) في المواجهة بين الشمال والجنوب ، أي بين الاستعمار والقضاء على الاستعمار ، لن تكون محايدة بل منحازة مع الجنوب وتقاتل من أجل التحرير ؛ (٣) إنها لن تكون عضوا في أي حلف تدخل في عضويته إحدى الدولتين العظميين ؛ (٤) إنها لا تقبل أن تدخل في تحالف ثنائي مع أي من الدولتين العظميين ؛ (٥) ألا تسمح لأي من الدولتين العظميين بإقامة قاعدة عسكرية في أراضيها .

ولما كانت مصر من الدول المؤسسة لحركة عدم الانحياز فقد اكتسبت مركزا دوليا وموقعا إيجابيا .

وكانت بلغراد فى سبتمبر ١٩٦١ مقر انعقاد اجتماع القمة الرسمى الأول لدول عدم الانحياز . وفيه قوبلت مصر بالحفاوة والإشادة بمناسبة تأميمها قناة السويس وما أنزلته من هزيمة سياسية ببريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى عدوان ١٩٥٦ . وعقدت القمة الثانية فى القاهرة فى ١٩٦٤ . ومنذ ذلك التاريخ شاركت مصر فى جميع أنشطة قمة حركة عدم الانحياز .

وفى يوم الأربعاء ٢٦ يوليو ١٩٧٨ أخذت الطائرة إلى بلغراد حيث كان يعقد المؤتمر الوزارى لدول عدم الانحياز . وهناك واجهت احتمال أن تتعرض مصر ، التى أسهمت فى تأسيس الحركة التى أعطت لمصر دورا قياديا عالميا ، للإدانة والنبذ . وقد قال تيتو إن رحلة السادات إلى القدس أضعفت حركة عدم الانحياز بخيانة القضية العربية . وعندما ذهبت إلى بلغراد كان مركز مصر فى حركة عدم الانحياز نوعا من العقيدة بالنسبة للشعب المصرى ، وكانت تلك العقيدة على وشك أن تتعرض للتحدى .

وصل إلى بلغراد قبلى وفد كبير من الدبلوماسيين المصريين . وانسحبت إلى غرفتى فى الفندق لإعداد الكلمة التى سألقيها فى المؤتمر ، وقد اعتزمت أن ألقيها باللغة الفرنسية . غير أن زملائى تمسكوا بأن تكون كلمة مصر باللغة العربية ، إذ أن معارضينا يعتزمون استخدام هذا المؤتمر لاتهام مصر بالتخلى عن قضية عدم الانحياز لصالح الغرب وإسرائيل ، وهما عدوّان لعدم الانحياز . وقالوا إنه لن يكون مناسبا أن أتكلم بلغة أوروبية .

كانت كل الدول العربية ممثلة فى المؤتمر . وكان من المؤكد أنى سأجد التريكى من ليبيا ، وخدام من سوريا ، وسعدون حمادى من العراق ، وبوسته من المغرب ، ورشيد الطاهر من السودان ، وقد سبق أن التقيت بهم جميعا فى الخرطوم . وهم لن يجعلوا مهمتى سهلة هنا فى بلغراد .

اتخذت موقف الهجوم ، وبدأت كلمتى بالإشارة إلى أن الحرب الباردة تسللت بشكل مدمر إلى القارة الإفريقية ، وحولتها إلى ساحة للتدخل من جانب الدولتين العظميين ، ومجال للمواجهات بينهما . وقلت « إن بعض الدول غير المنحازة أصبحت أداة فى خدمة سياسات القوة ومحاولات الهيمنة التى تديرها إحدى الدول العظمى فى إفريقيا » . وكان من الواضح أنى أشير إلى كوبا والاتحاد السوفيتى . وكررت ما قاله أكثر من وزير إفريقى قبل بضعة أيام أثناء اجتماع مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية فى الخرطوم : إن التدخل

سيؤدى إلى تدخل مضاد ، وإن استعمال طائرات الميج سيؤدى إلى اللجوء إلى طائرات الجاجوار والميراج والفانتوم ، وإنه عندما يستأجر أحد الأطراف جنودا مرتزقة فإن الطرف الآخر سوف يستأجرهم أيضا .

كنت أسعى إلى مواجهة ضغط الراديكاليين العرب بالحصول على تأييد الأفارقة فى حركة عدم الإنحياز ، وأردت أن أبين أيضا أن قيادة مصر فى إفريقيا لم تتأثر بهجوم الراديكاليين العرب على قيادة مصر فى العالم العربى .

وقلت إن إفريقيا بسبب خروجها حديثا من سيطرة الاستعمار أكثر تعرضا لمخاطر الحرب الباردة من أية قارة أخرى . وإن عدم انحياز إفريقيا يحتاج إلى أقصى مساندة من جانب حركة عدم الانحياز العالمية . ودعوت اجتماع بلغراد إلى إدانة أى تدخل من خارج قارة إفريقيا - وأعنى بطبيعة الحال وجود القوات الكوبية فيها .

وانتقلت إلى مسألة مصر نفسها ، فقلت إنه لا يمكن طرد أى بلد غير منحاز ، لأن ذلك لا يتفق مع المبدأ الأساسى للحركة ويؤدى إلى إضعافها .

وقلت إن القضية المهمة هى قرار حركة عدم الانحياز بعقد القمة التالية فى هافانا ، وهو قرار يجب العدول عنه . فكوبا دولة منحازة إلى إحدى الدولتين العظميين . لم أقل ذلك صراحة ولكنى أبديت خشيتى من أن يؤدى انعقاد قمة عدم الانحياز فى إحدى العواصم الشيوعية إلى إحداث معارضة قوية للسادات ، يمكن أن تشعر مصر إزاءها بأنها مضطرة إلى ترك الحركة ، والانحياز إلى دولة عظمى ، وفقد دورها القيادى فى العالم الثالث .

كذلك تحدثت معارضا فكرة إنشاء أمانة لحركة عدم الانحياز . فمثل هذه المؤسسة سيستولى عليها الراديكاليون ويستخدمونها أداة لتحويل الحركة نحو المعسكر الشيوعى .

عندما كنت أقاتل للحفاظ على دور مصر القيادى فى حركة عدم الانحياز ، كنت أخشى ألاّ يكون السادات مهتما بالحفاظ على هذا الدور ، وأنه إذا أدينت مصر فسوف يكون رده على الفور هو ترك الحركة . وكان يبدو أن السادات يعتقد أن الحركة فى طريقها إلى الموت بسبب مرض التطرف والتحول نحو الاتحاد السوفيتى الذى لم يعد فى الوسع اعتباره موجة المستقبل . وبدا أن السادات على استعداد لأن يفعل فى مصر ما فعله كمال أتاتورك فى تركيا - فك ارتباطها بجذورها التاريخية والدينية والثقافية ، وتحويلها إلى جزء لا يتجزأ من الغرب .

وبدا أن التكتيك الذى اتبعته أحدث بعض الأثر . فقد اتجه الجانب الأكبر من

المناقشات من مصر إلى كوبا . كانت يوغوسلافيا تخشى أن يكون كاسترو يسعى إلى السيطرة على الحركة من أجل تحويلها نحو موسكو . ورغم أن كثيرين فى بلغراد شاركونى الرأى بشأن كوبا ، لم يمكن إيجاد أغلبية سواء لإلغاء أو تأجيل الموعد المتفق عليه أو المكان المقرر للمؤتمر المقبل وهو هافانا .

فى يوم السبت ٢٩ يوليو اقتحم أحد الشبان من أعضاء الوفد المصرى منفعلا اجتماعا كنت أحضره ليبلغنى أن ممثل كوبا بدأ يهاجم مصر . استأذنت وتوجهت على الفور إلى الجلسة .

أعطانى رئيس المؤتمر الكلمة تطبيقا لمبدأ حق الرد . وقلت إن كوبا تجاهلت مبادىء التضامن بين ممثلى دول عدم الانحياز . وإن هذا السلوك ليس غير مألوف من دول مثل كوبا التى لا تعدو أن تكون أداة طيعة فى يد صانعى السياسة السوفيتية ، وإن كوبا نفسها وافقت على أن تخدم الهيمنة السوفيتية فى إفريقيا . وتساءلت كيف تتجاسر كوبا على التهجم على مصر إحدى مؤسسى عدم الانحياز ؟

وبدا أن كلماتى أوقفت الهجوم الكوبى . وغادرت المؤتمر متوهما أنى هزمت كوبا وحافظت على وضع مصر . وفى مناقشات جانبية مهمة عارض خدام ممثل سوريا وسعدون حمادى ممثل العراق أية محاولات أخرى لإبعاد مصر عن العالم العربى . وقد علمت فيما بعد أنها لم تكن كلمتى التى أنقذت الموقف ، بل إن الذى أنقذه قرار اتخذته العراق وسوريا وغيرهما من الحكومات العربية بأن الوقت لم يحن بعد لإدانة مصر . وكان توقف المفاوضات المصرية الإسرائيلية قد أعطى هذه الدول أملا فى أن السادات قد يتخلى عن مبادرته ويعود إلى الأحضان العربية . عدت إلى القاهرة وأبلغت السادات أن الدبلوماسية المصرية تمكنت من احتواء الرافضين . والواقع أن المعركة كانت قد تأجلت فحسب .

بالرغم من شعورى بالنجاح فى الخرطوم وبلغراد أصبت بشىء من الأسف بعد عودتى إلى وزارة الخارجية . فبعد التفكير فى الأمر أدركت حجم المعارضة الشديدة لسياسة السادات والتى لم يتم احتواؤها إلا مؤقتا ثم عادت إلى التصاعد . ولم تكن معارضة ما فعله السادات مقصورة على الراديكاليين من العرب والأفارقة وبعض بلدان عدم الانحياز ، بل كانت تعارضه أيضا بعض دول أوروبا الغربية . وقد أبدى الأمريكيون استعدادهم لتأييد مبادرة السادات ، ولكننا لم نكن واثقين حتى منهم . وكان معارضونا يزدادون شدة فى معارضتهم بينما يزداد مؤيدونا هدوءا . لكن السادات نفسه لم يبد أمامى فى أية لحظة أنه

يشعر بالعزلة . وكان يأخذ علىّ قلقى ويقول لى : « لا تخف يا بطرس . كن واثقا من نفسك » .

وفى يوم الأحد ٦ أغسطس قدمت تقريرا تفصيليا بما تم فى مؤتمرى الخرطوم وبلغراد إلى مجلس الوزراء . وعندما انتهيت طلب الكلمة الدكتور مصطفى كمال حلمى وزير التعليم ، وتكلم بأسلوب خطابى أدبى ولغة عربية ممتازة ، بصوته العميق الذى يبدو وكأنه يروى قصة حب ، فشكرنى باسم مجلس الوزراء للجهد الذى بذلته والنتائج التى حققتها . ورفعت كلمته البليغة روحى المعنوية . وشعرت بأن الليالى الطويلة التى كافحت خلالها حتى الفجر فى جلسات المؤتمر لقيت تقديرا لدى زملائى الوزراء . وفى هذا الاجتماع كُلفت بتمثيل مصر فى الجنازة الرسمية للبابا بولس السادس .

كان الأمريكيون قد قرروا حينذاك إنهاء حالة التوقف فى المفاوضات المصرية الإسرائيلية . وصل سيروس فانس يوم الاثنين ٧ أغسطس ، وفى المساء بدأنا جلسة عمل فى فندق فلسطين فى الإسكندرية . وبعد ذلك توجهنا إلى استراحة الرئيس فى المعمورة على مسافة قصيرة من فندق فلسطين ، حيث اجتمع فانس مع السادات . وفى مساء اليوم التالى أقمنا حفل عشاء فى فندق فلسطين تكريما لسيروس فانس والوفد المرافق له . وبعد العشاء توجهنا مرة أخرى إلى استراحة الرئيس لإجراء جلسة ثنائية جديدة وجها لوجه بين السادات وفانس . وعندما خرجا من اجتماعهما شعرت بأنه لم يتحقق أى تقدم ، ولكن فانس أعلن أنه لابد من الاستفادة من مبادرة السادات فى أقرب وقت ممكن ، وإلا « فإن زيارة القدس ستتحول إلى مجرد هامش فى ذيل صفحات التاريخ » . وقال إنه لذلك قرر الرئيس كارتر الدعوة إلى عقد اجتماع قمة ثلاثى آخر فى واشنطن . وبدا لى أن هذه لن تكون غير جولة أخرى غير مجدية مثل الجولة التى مررنا بها فى القدس فى يناير . وقيل لى إن الفريق المصرى سيكون محدود العدد ، ولكنى سأكون بين المشاركين فيه .

عندما انتهى الاجتماع مع الوفد الأمريكى ، هربت من الصحفيين لاستمتع بالبحر ولو لنصف ساعة قبل العودة إلى الحرارة الحارقة فى القاهرة .

روما وجنازة البابا

لم يكن لقاء روما متصلا بالحملة على مصر ، ولكنه ضم من الشخصيات ذات النفوذ أكثر مما ضم مؤتمرا الخرطوم وبلغراد مجتمعين . اتصل بى السفير شافعى عبد الحميد سفير مصر فى الفاتيكان بالتليفون . كان مهتما للغاية بالملابس الرسمية التى يجب أن أرتديها فى جنازة البابا بولس السادس . وعلى الرغم من التعليمات المتكررة من شافعى عبد الحميد

لم أستطع أن أفهم بوضوح ما إذا كان يجب أن أرتدى بذلة الردينجوت أو البونجور أو الفراك .

كانت أمي رحمها الله قد وزعت بعد وفاة أبى ملابسه الرسمية على آخرين . ولذا اتصلت بخالتى آنّا التى أكدت لى أنها احتفظت بجميع الملابس الرسمية لعمى نجيب ، حتى يرتديها ابنه جفرى والذى مات قبل سنوات قلائل ، وأنها تركت الملابس كما هى . وقمت بقياس بذلة ابن عمى الردينجوت ووجدت أنى أستطيع أن ألبسها بلا صعوبة . وعندما اتصل بى شافعى عبد الحميد بالتليفون أبلغته بذلك ، ولكنه قال إن الردينجوت لا تصلح إطلاقا لأسباب بروتوكولية . وقال إنه استأجر لى بذلة فراك من روما . وبعد ذلك أصبح موضوع الاهتمام الرئيسى للسفير هو الأوسمة التى سأضعها على صدرى . وعندما اعتذرت بأنى لم أحصل فى حياتى أبدا على أى وسام أو نيشان لم يستطع شافعى أن يصدق ذلك . لقد خاب أمله فىّ . وكانت زوجتى « ليا » إلى جانبى تستمع إلى إجاباتى على محادثة عبد الحميد . ويبدو أنها هى أيضا انزعجت لعدم حصولى على أى أوسمة . وعند ذلك تذكرت الوسام الوحيد الذى حصلت عليه وهو نيشان من الجنرال بينوشيه ، تلقيته من وزير خارجية شيلى ، ولكنى لم أنبهها إلى ذلك . فمن الأفضل ألاّ أحمل أى وسام على أن أحمل وساما واحدا ! وقد حصلت بعد ذلك على عشرات الأوسمة ، ولكنى لم أجد مناسبة لأرتديها .

غادرت الطائرة التى تحملنى إلى روما مطار القاهرة حوالى الساعة الثالثة يوم ١١ أغسطس ١٩٧٨ . ووجدت على نفس الطائرة وفد الكنيسة القبطية الذى سيشارك فى تشييع بابا روما إلى مقره الأخير . وكان على رأس هذا الوفد الأنبا صموبل . وعندما كنت أدرس فى جامعة كولومبيا بنيويورك فى سنة ١٩٥٤ ، كنت قد عرفته قسيسا صغيرا يدرس فى جامعة برنستون . وقد أصبح الآن من ذوى المناصب المحترمة فى الكنيسة القبطية واشتركت معه فى كثير من اللقاءات الدولية .

كان فى استقبالى فى مطار روما سفيرنا فى إيطاليا سمير أحمد ، وسفيرنا فى الفاتيكان شافعى عبد الحميد . وشعرت بأن هناك ، وفقا لتقليد دبلوماسى قديم مستقر ، منافسة شديدة بين السفيرين . فوجود سفيرين فى عاصمة واحدة يعد عددا أكبر من اللازم . وقرر رجال الأمن الإيطاليون أنى يجب أن أنزل فى جراند أوتيل ، وأن يضعوا على بابى رجلين بالمدافع الرشاشة . وطلبوا منى أن أتناول وجبات طعامى فى الفندق ، وكان رجال الأمن يتبعوننى حيثما ذهبت .

فى صباح السبت ارتديت البذلة التى استأجرها لى عبد الحميد . وكنت قد أحضرت معى بذلة ابن عمى المتوفى أيضا . عندما أريتها للسفير قال باحتقار شديد إنها عتيقة الطراز ، من النوع الذى كانوا يلبسونه فى عهد الملك فاروق أو حتى الملك فؤاد . وجاءت البذلة المستأجرة مناسبة لى ولكن البنطلون كان ضيقا . وكان علىّ أن اتخذ احتياطات خاصة عند الجلوس . وذهبت مع السفير إلى الفاتيكان حيث كان موكب الجنازة سيبدأ من ميدان سان بيتر . وكان شافعى عبد الحميد يضع على صدره عددا كبيرا من النياشين والميداليات . وقد رحب أحد القساوسة الذين حضروا الجنازة بالسفير على أنه هو وزير خارجية مصر . وشعر عبد الحميد بالحرج وأشار إلىّ . وبدا أن القس المحترم قد أغلق عليه الأمر إذ رأى الوزير بلا أى أوسمة ، ولكنه قرر أن يقبل كونى الوزير الأصلى . وعرض علىّ السفير أن يقرضنى بعض أوسمته . ولم أستطع أن أعرف ما إذا كان يرغب حقا فى أن يحفظ ماء وجه وزيره أم أنه كان يسخر فحسب ، ولذا لزمت الصمت وبقيت بلا أوسمة .

جلست على المنصة الرئيسية بين وزيرى خارجيتى فرنسا وكوت ديفوار . وقد حضر الجنازة ١٧٧ وفدا يمثلون أكثر من مائة بلد ومنظمة دولية من أنحاء العالم ، وهو عدد غير مسبوق فى جنازات البابوات . وكان هناك كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة . ورأيت الرئيس كينيث كاوندا رئيس زامبيا ، وروزالين كارتر زوجة الرئيس الأمريكى . وأشار لى وزير خارجية فرنسا إلى الوفود الاشتراكية من أوروبا الشرقية وقال : « أليس من الغريب أن تمثل هذه الدول على هذا المستوى الرفيع فى جنازة البابا الراحل ؟ » .

ويبدو أن بهاء السماء قد تجمع فى ميدان سان بيتر . كانت السماء زرقاء صافية . وأصوات رنانة تتردد عبر الميدان . وهزنى ذلك . وكانت الصلوات تتلى بلغات متعددة ، من بينها العربية . وهمس وزير خارجية فرنسا فى أذنى قائلاً : « اللغة العربية فى الفاتيكان ظاهرة جديدة لم يكن أحد يتصورها منذ سنوات قليلة » . وكان ذلك صحيحا . وكانت لدى الكرسى البابوى أسباب قوية لزيادة الاهتمام بالعالم العربى : مثل احتلال إسرائيل للأماكن المسيحية المقدسة فى القدس ، والقوة السياسية والاقتصادية للبترول العربى ، والمشاكل الجديدة التى يواجهها المسيحيون فى لبنان .

وكنت قد اهتممت بالحوار المسيحى الإسلامى منذ وقت طويل عندما كنت أحضّر للدكتوراه فى جامعة باريس فى الأربعينات ، ودرست على لويس ماسينيون المستشرق المعروف . وكان ماسينيون كاتبا مبدعا ، على ارتباط وثيق بالسياسة وبالقوى الفكرية فى العالم . وقد عمل لحساب المخابرات الفرنسية فى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية

الأولى ، وقد حكى لى كيف دخل دمشق فى نفس السيارة مع لورانس العرب . وقد اعتنق الإسلام وأصبح من المتصوفة . وكان موضوع رسالته للدكتوراه عن « الحلاج » ، الصوفى العربى فى القرون الوسطى . وكانت تلك أولى إسهاماته فى الدراسات الإسلامية ، وحققت له شهرة فى الدوائر الفكرية والسياسية . وكان على اتصال منتظم بزعماء العالمين الإسلامى والعربى ، والعالم الثالث .

عندما التقيت بماسينيون لأول مرة كان قد أصبح قسا كاثوليكيا . وكنت أزوره مرة فى كل أسبوع فى شقته على الضفة الغربية لنهر السين . كان عضوا فى الأكاديمية المصرية ، وأستاذا فى الكوليج دو فرانس ، ويلقى محاضرات فى معهد العلوم السياسية الذى كنت ملتحقا به بالجامعة . وكانت غرفته خالية من الأثاث تقريبا . ولا يخرج الأثاث الموجود بها عن مائدة خالية ومقعدين . وعلى الأرض رصت مئات الكتب . ولم تكن صلتى به مجرد صلة تلميذ بأستاذ ، لأنه كان فى ذلك الوقت فى علاقة حب أفلاطونى مع مارى كحيل ، صديقة أمى وخالة زوجتى الأولى ليلى كحيل وأمها الروحية . وكانت التجربة أشبه بزيارتى لأحد المعلمين والمرشدين الروحيين الهنود ، إذ كان لماسينيون أثر كبير علىّ من ناحيتين : الأولى أنه كان يتكلم عن الشئون العربية فى شمال إفريقيا . وكنت فى الأربعينات أكاد لا أعرف شيئا عن المغرب ، وعن الجزء الغربى من العالم العربى الذى كانت تفصله عن مصر صحراء يصعب اجتيازها . وكان ماسينيون يتكلم عن أهمية الوحدة بين المغرب والمشرق ، أى الشرق العربى . والثانية أنه كان يتحدث عن أهمية التصوف الدينى باعتباره سمة مشتركة فى الحوار المسيحى الإسلامى . وقد كان ماسينيون إحدى الشخصيات العظيمة فى هذا القرن ، وهو لم يلق بعد حظه الكافى من الشهرة .

مر كل ذلك بخاطرى وأنا استمع إلى الشعائر الجنائزية للبابا بولس السادس ، وعدت ثانية إلى الواقع عندما جاء دورى لتقديم تعزيتى لمجمع الكرادلة المقدس باسم الرئيس السادات ، وأعبر عن الحزن والألم لوفاة البابا .

فى مساء ذلك اليوم تناولت العشاء فى مقر إقامة السفير شافعى عبد الحميد ، وحضر العشاء أيضا السفير اللبنانى وزوجته ، وصديقى محمد صابرا ممثل الجامعة العربية فى روما وزوجته . واقترح شافعى عبد الحميد أن أؤجل عودتى للقاهرة أياما قليلة حتى أقابل أربعة من الكرادلة الذين سيختار منهم ، وفقا لتأكيده ، البابا الجديد . وشرح لى السفير سياسات الفاتيكان بالتفصيل ، وأبدى أسبابا قوية لتوقعه اختيار واحد منهم . وقال إن الدبلوماسية المصرية إذا أقامت علاقات مع البابا الجديد قبل جلوسه على العرش البابوى ،

تستطيع بذلك أن تستفيد من نفوذ الفاتيكان الممتد على نطاق العالم ، وأن تصبح جسرا بين العالمين المسيحى والإسلامى .

ووافقت ، وكان ذلك جزئيا بسبب رغبتى العميقة فى قضاء بضعة أيام أخرى فى العاصمة الإيطالية ، وفى المقام الأول لزيارة الترزى الإيطالى الذى كان يزودنى بملابس أنيقة منذ سنوات .

فى صباح الاثنين ١٤ يوليو تقابلت مع المونسنيور جويزيى كابريو ، وكيل الوزارة الذى تولى كافة السلطات البابوية بعد وفاة بولس السادس . وقد أكد لى أنه لا يتوقع أن يحدث فى عهد البابا الجديد تغيير فى تأييد الفاتيكان لقيام دولة فلسطينية أو لمبادرة الرئيس السادات السلمية . وقلت إن الحوار بين الإسلام والمسيحية يمكن أن يساعد فى تسوية الخلافات فى لبنان ، وكذلك فى المنازعات الإفريقية ذات الطبيعة القبلية أو الاقتصادية ، ولكن هذا الحوار له أيضا أبعاده الدينية . كنت عندئذ أفكر فى المنازعات بين الشمال والجنوب فى تشاد وفى السودان ، وكذلك المنازعات الجارية بين الصومال وإثيوبيا .

التقيت بعد ذلك بالمونسنيور كاسارولى وزير خارجية الفاتيكان الذى كان يعتبر العقل المفكر لدولة الفاتيكان . ودار حديثنا حول مؤتمرى الخرطوم وبلغراد . كان كاسارولى ذكيا ومطلعا ومهتما تماما بمسألة القدس . وأبدى إعجابه بقرار السادات بالسفر إليها . وكان كلانا يرى أن الولايات المتحدة مرت بتحول سياسى يمكن أن يجعلها أكثر تقديرا لمواقف القوى الخارجية ، وأنه يبدو أن مركز القوة واتخاذ القرارات السياسية قد انتقل من البيت الأبيض ووزارة الخارجية إلى الكونجرس ، وذلك يتيح للجماعات الخارجية أن تسعى لتحقيق أهدافها بنشاط وبفاعلية أكبر مما كان عليه الحال فى الماضى . وناقشت مع كاسارولى كيف يمكن أن نعيد الحسابات بشأن نشاطنا الدبلوماسى ، وأن نعمل على تحسينه تبعا لذلك . وحثثت على أن يقوم الكرسى الرسولى بتشجيع الكنيسة الكاثوليكية فى الولايات المتحدة على تأييد قضية الفلسطينيين ، حتى يكون هناك توازن مع النفوذ الإسرائيلى الكبير فى واشنطن . وتحدثت عن الجهد الذى تبذله الدبلوماسية المصرية مع الزعماء اليهود والبروتستانت فى الولايات المتحدة ، من أجل إبراز الأبعاد الحقيقية لمبادرة الرئيس السادات السلمية .

وفى مقر كاسارولى ، كما فى الغرف الأخرى فى الفاتيكان ، أذهلتنى فخامة وأناقة الأثاث والقطع الفنية .

وفى العصر استقبلت فى جناحى بالفندق رولانديس ، وزير خارجية قبرص . وبناء على تعليمات من الرئيس السادات أبلغته أننا نتوقع أن تقوم قبرص بتنفيذ أحكام الإعدام

الصادرة على المجرمين الذين اغتالوا يوسف السباعى ، وأن ذلك أمر سبقت الموافقة عليه أثناء زيارة السيد ميخائيليدس ، المبعوث القبرصى إلى القاهرة ، وأن الرئيس السادات متمسك بأن تحترم قبرص الاتفاق .

وتحدث الوزير القبرصى عن الصعوبات التى ستواجهها حكومته نتيجة لتنفيذ أحكام الإعدام . قال إنها ستكون أول مرة منذ إحراز قبرص الاستقلال تنفذ فيها عقوبة الإعدام فى الجزيرة . وأنه لا يستبعد أن تسقط حكومته بسبب ذلك . وسأل عما إذا كان هناك ما تستطيع قبرص أن تفعله لإرضاء مصر بدون تنفيذ الإعدام . وقدم ضمانات بأن المجرمين سيبقون فى السجن ويقضون مدة العقوبة كاملة . وقلت لرولانديس إنه فى هذه الحالة ستضطر حكومته ، تحت ضغط الإرهابيين الفلسطينيين ، إلى الإفراج عن المسجونين عاجلا أم آجلا . وقلت إنى فى هذه الحالة أتوقع أن يفرج عنهم قبل نهاية السنة الحالية أو السنة المقبلة على الأكثر .

وكان من الواضح فى حديثنا أن الرئيس كبريانو سيؤجل تنفيذ حكم الإعدام لمدة شهر ، ثم يؤجله مرة أخرى ، وبعد ذلك يخفف الحكم إلى السجن مدى الحياة . وبعد سنة أو سنتين سيفرج عمن قتلوا يوسف السباعى !

وفى ١٦ أغسطس التقيت بالكاردينال بيرتولى ، أحد المرشحين الآخرين لمنصب البابوية . وكان البابا الراحل قد كلفه بالسعى للتوسط بين الأطراف المتحاربة فى لبنان حتى تتوقف الحرب الأهلية . وأوضح لى الكاردينال أن سياسة الفاتيكان تجاه لبنان تقوم على ثلاثة أسس : الاستقلال ، وعدم التقسيم ، والمصالحة الدينية . وأخذ الكاردينال على مصر موقفها السلبى تجاه لبنان ، وحث على قيام مصر بدور للمصالحة . وقال إن هذا هو دور مصر التقليدى فى لبنان ، وإنها يجب أن تستأنف القيام به . وكان من الواضح لى فى مقابلاتى مع المسئولين فى الفاتيكان ، ومع المندوبين الأجانب الذين التقيت بهم فى روما ، أن هناك اعتقادا بأن موقف السادات من إسرائيل يتركز بالكامل على أهداف مصر ، ويهمل القضايا العربية الجوهرية الأخرى . وكان فى اعتقادهم أنه ما كان يسع إسرائيل أن توجه ضرباتها الأخيرة إلى جنوب لبنان لولا شعورها بأن حدودها مع مصر لم تعد جبهة نشيطة . وأن مبادرة السادات لاستعادة سيناء تفقد مصر قيادتها وتأثيرها ودورها المستقل فى السياسة الخارجية .

وفى يوم الخميس التقيت بالكاردينال بيندولى ، المسئول فى الفاتيكان عن الأمور غير المسيحية ، ولاسيما الأمور الإسلامية . وكان الكاردينال بيندولى قد زار القاهرة فى شهر

أبريل فى إطار الحوار الإسلامى المسيحى بين الفاتيكان والأزهر ، الجامعة الدينية التى يمتد عمرها ألف عام . وكان من بين أفراد المجموعة الصغيرة التى يتوقع أن يتم اختيار البابا الجديد منها وفقا لرأى السفير شافعى عبد الحميد .

أشاد الكاردينال بيندولى بالتحرر الدينى السائد فى مصر ، وأعرب عن ارتياحه لتقدم الحوار الإسلامى المسيحى ، وأعرب عن أمله فى أن يقبل شيخ الأزهر بعد انتخاب البابا الجديد أن يقوم بزيارة روما لمواصلة الحوار الذى بدأ فى القاهرة .

كنا بسبيلنا للخروج من السيارة بعد الاجتماع عندما همس لى شافعى عبد الحميد بأنه يعتقد أن الكاردينال بيندولى سيكون هو البابا الجديد . قلت إنه إذا لم يحدث ذلك فإن مصر ستبحث عن سفير جديد لدى الفاتيكان ! وعليك أن تستعد لترحيلك إلى أواجادوجو !

وعدت إلى جناحى فى الفندق حيث حضر لزيارتى فيرجينيو رونيونى وزير الداخلية فى الحكومة الإيطالية . ولم يكن حضوره بوصفه عضوا فى الحكومة بل بوصفه رئيسا لجمعية الصداقة العربية الإيطالية . وناقشنا مسائل تتعلق بأنشطة الجماعات الإرهابية فى إيطاليا ، وتساءل الوزير الإيطالى عن إمكانية ترتيب زيارة غير علنية إلى القاهرة لمقابلة وزير الداخلية المصرى لمناقشة وسائل التعاون فى مكافحة أعمال الحركات الإرهابية . وقال إن هناك حاجة إلى ذلك لأن الأدلة أثبتت وجود علاقات بين الألوية الحمراء ، والحركات الإرهابية الألمانية ، وأعضاء المجموعة الإرهابية التى قبض عليها فى مصر فى شهر أبريل . وكان من الواضح أيضا أنه يشعر بالقلق لما سمعه عن شبكات الإرهاب العراقية وتعاونها مع غيرها من الجماعات الإرهابية الدولية .

وقد اهتم الكرادلة والمسئولون فى الكرسى الرسولى بكونى قبطيا ، وتحدثوا عن الوحدة المسيحية العالمية . غير أن الكنيسة القبطية المصرية كنيسة أرثوذكسية وطنية ليست لها علاقة بروما . والكنيسة الأرثوذكسية القبطية أقرب إلى الكنيستين الأرثوذكسيتين فى أرمينيا وروسيا . وقد قاومت هذه الكنائس تاريخيا توثيق العلاقات مع روما ، خوفا من محاولات السعى إلى تحويل المذاهب . ولو كان الأقباط قد ارتبطوا بإحدى الكنائس الدولية ، لنظر إليهم المجتمع المصرى على أنهم جسد أجنبى ، وعلى أنهم كيان خارجى له طابع الاستعمار الجديد . كان هذا دائما هو موقف كنيستى التى قاومت على امتداد قرون عديدة الارتباط الوثيق بالكنائس الأخرى فى أوروبا .

بطبيعة الحال لم يصبح أى من الكرادلة الذين قمت بزيارتهم فى روما هو البابا الجديد ، وكانت تنبؤات شافعى عبد الحميد خاطئة . وكما يقال فى الفاتيكان « إن من يدخل

اجتماع مجلس انتخاب البابا ، يخرج منه كاردينالا » . وكان البابا الجديد هو ألبينو لوشيانى الذى لم يخدم فى أى وقت فى الجهاز البيروقراطى للفاتيكان . وقد اتخذ لنفسه اسم يوحنا بولس الأول .

بعد أربعة وثلاثين يوما من اختياره لمنصب البابا ، توفى يوحنا بولس الأول فجأة متأثرا بأزمة قلبية . بيد أننى لم أعد لروما للمشاركة فى جنازته ، لأن فصلا جديدا ودراميا كان يوشك أن يبدأ فى المفاوضات المصرية الإسرائيلية .

الفصل الخامس

كــامـــب ديــفيــد

الـوصـول

في يوم الخميس الموافق ٢٤ أغسطس ١٩٧٨ ، أجريت محادثة طويلة مع محمد إبراهيم كامل حول المؤتمر القادم في كامب ديفيد . لم نكن ندرى كيف نعد للمؤتمر . كان هناك كثير من الأوراق والوثائق والدراسات والتحليلات ، ولكن الاستراتيجية العامة التى نؤسس عليها تحركاتنا لم تكن واضحة ، بالنسبة لى على الأقل . وقد قيل إن نابليون بونابرت لم يكن يضع خطة عسكرية مطلقا إلى أن يصبح في ميدان القتال . وداعبنى الأمل فى أن يأتينا الإلهام أيضا عندما نصل كامب ديفيد ، ولكننى لم أر علامات العبقرية النابوليونية فيما بيننا .

وفى ٢٨ أغسطس اجتمعنا أكثر من ست ساعات بوزارة الخارجية للإعداد لكامب ديفيد ولم ننجز إلا القليل . ثم انتقلت مناقشاتنا التمهيدية إلى الاسماعيلية ، حيث تحدث الرئيس السادات إلى الفريق المصرى فى اجتماع لمجلس الأمن القومى المصرى . تكلم السادات فى العموميات ، حيث قال إن مصر سوف تسعى لتحقيق حل شامل فى كامب ديفيد ، وإننا لن نقبل على الإطلاق باتفاق سلام منفصل مع إسرائيل . وكانت مصر قد خسرت آلاف الأميال المربعة عندما قامت إسرائيل باحتلال سيناء . ولقد كانت سيناء على

مدى التاريخ بمثابة المنطقة العازلة الحامية لمصر التى توفر الأمن على طول ضفتى النيل . ثم أصبحت سيناء فى عهد أكثر حداثة تعنى للمصريين مثلما كانت كاليفورنيا تعنى للأمريكيين قبل قرن من الزمان - أى أراض حدودية ذات إمكانيات اقتصادية هائلة . لقد تركت أربع حروب الآلاف من الجنود المصريين قتلى فى سيناء ، إنها أرض مقدسة .

غير أن صفقة منفردة مع إسرائيل من أجل سيناء بدت غير واردة . ذلك أن مصر زعيمة العالم العربى ، ونحن لا نستطيع التخلى عن الوحدة العربية لمجرد استعادة أراضينا فى حين تظل الأراضى العربية الأخرى تحت الاحتلال الإسرائيلى . إلا أننى لم أكن واثقا من أن السادات بالرغم من تأكيداته المكررة يشارك هذا الرأى . فمصر بالنسبة له تأتى أولا . وبعد أن تعرض للإدانة العربية بسبب مبادرته ، بدأ يهزأ ببقية العالم العربى باعتباره مجرد بركة بجوار النهر . وكانت « عصابة » وزارة الخارجية قلقة من أن استراتيجية السادات لاستعادة سيناء أولا ، بهدف إحراز القوة التى تمكنه من استرداد بقية الأراضى العربية فيما بعد ، لن تنجح . وكنا نخشى من أن الخطوة الأولى لن تستتبعها الخطوة الثانية ؛ بسبب الإجهاد والمعارضة ، ولأننا لا نحمل تفويضا من الفلسطينيين لمواصلة مرحلة ثانية . وبالرغم من أن مجموعتنا كانت تؤيد بقوة القضية العربية ، فإننا لم نكن مخولين لمشاورة بقية العرب الآخرين أثناء إعداد الترتيبات .

وغادرنا القاهرة إلى باريس على متن طائرة الرئاسة مع السادات وأسرته فى الجناح الخاص . إذ كان أمرا بالغ الأهمية أن نكسب فهم وتأييد الفرنسيين والأوروبيين لما كان السادات يعمله .

ومن مطار أورلى نقلت طائرات الهليكوبتر السادات ونقلتنا إلى ساحة الاستعراض فى المدرسة العسكرية القريبة من مبنى اليونسكو . وكانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها باريس من طائرة هليكوبتر . وتكشفت لى شوارعها ومعالمها من زاوية جديدة ، وتعرفت على الأماكن والأحياء التى عشت فيها قبل سنوات . وتطلعت مرة أخرى إلى المقاهى التى كنت أجلس فيها ، وإلى المكتبات التى كنت أتصفح الكتب بها . وجست فى حدائق لوكسمبورج وتوقفت أمام كلية الحقوق . ثم استقل أعضاء الوفد السيارات التى حملتنا إلى فندق كريون حيث كان جناحى يطل على شارع جانبى ومن نافذته أستطيع رؤية السفارة الأمريكية .

وفى مأدبة عشاء لنا بمبنى وزارة الخارجية تحدث محمد إبراهيم كامل بالإنجليزية متناولا العموميات ، ولكن حسن التهامى احتكر الحديث ، وكان بمثابة عرّاف السادات

وسمير الرئيس و « رجل بركة » ورافع للمعنويات . لقد كان التهامى ضابطا عسكريا جسورا ولامعا فى الثورة ، ثم أصبح أشبه بالصوفى ، مؤمنا بأنه يتلقى فى الأحلام تعليمات خاصة من الرسول . وكان يتصور نفسه صلاح الدين المصرى الذى يحمل رسالة خاصة باستعادة القدس والذود عن الإسلام . وكان السادات يرتاح إلى وجوده ويستمتع بصحبته ، غير أننا جميعا كنا نراه إنسانا غير متسق . وكانت له لحية كثة على الطريقة الإسلامية الأصولية ، الأمر الذى يخالف اللوائح العسكرية . وبالرغم من كل غرابة الأطوار التى كنا نراها فيه ، فإنه لعب دورا مهما بالنسبة للسادات . فقد سافر التهامى سرا لملاقاة موشى ديان فى المغرب ، ووصف هذه الرحلة بأنها مهدت الطريق لمبادرة القدس الساداتية . بيد أن اتصال التهامى مع ديان - كما قال لى السادات - لم يكن له دور على الإطلاق فى قراره بالذهاب إلى القدس .

الآن ونحن على مأدبة العشاء مع الفرنسيين كان التهامى يكشف كيف أنه فى اللحظة الأخيرة قرر عدم تنفيذ مخططاته للإطاحة بالحكومة الأفغانية ، وقص مغامرات أخرى كثيرة . وكان الفرنسيون يستمعون إليه باندهاش . وأسر أحد الدبلوماسيين فى أذنى : « هل هو حقيقة نائب لرئيس وزراء مصر ؟ » وأجبته بأن التهامى فى الحقيقة مستشار خاص للسادات ، وأنه لا يتولى مسئوليات محددة أو سلطات فى الحكومة المصرية ، ولا يشارك فى اجتماعات مجلس الوزراء . ولعدم اقتناعه بهذه الإجابة ، عاد الدبلوماسى إلى التساؤل عما إذا كان حسن التهامى سيرأس الوفد المصرى فى كامب ديفيد . فأكدت له بأن الرئيس السادات سوف يرأس الوفد المصرى . « ولكن التهامى يحتل المركز الثانى فى القيادة » ، هكذا أصر الدبلوماسى المتسائل . فقلت له : « نظريا صحيح ، ولكن وزير الخارجية سيكون مسئولا عن المفاوضات » .

وبينما نحن نغادر وزارة الخارجية بعد العشاء أسر لى السفير أحمد ماهر مشيرا إلى التهامى بكلمة « فضيحة ! » وأضاف محمد كامل الذى التقط هذا التعجب ، قائلا : « ليست هذه سوى البداية » . لقد أزعجنا جميعا الوجود السريالى للتهامى فى الوفد .

وعندما عدنا إلى طائرة الرئاسة ، دعانا السادات إلى صالونه الخاص ، إذ أن أسرته بقيت فى العاصمة الفرنسية ، وتناولنا الغداء معه . ولم يتناول الرئيس شيئا من الطعام ولكنه احتسى فنجان شاى . كان السادات على ثقة من أن الأمر كله سينتهى قريبا . فهو سيعرض موقفه . وسترفض إسرائيل هذا الموقف . وسيؤيد الرأى العام الأمريكى مصر . وسيرى كارتر أن موقف مصر جيد وموقف إسرائيل سيىء . ومن ثم تقوم الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل لقبول ما قدمه السادات . وقال إنه أمر بسيط . وكنت أعتقد أن الأمر ليس بمثل

هذه البساطة ، وأخشى من أن الأمريكيين لن يضغطوا على إسرائيل ، وأن السادات سيقوم فى هذه الحالة بتقديم تنازلات .

وهبطنا فى قاعدة أندروز الجوية بالقرب من واشنطن . وكان والتر مونديل نائب الرئيس وسايروس فانس على رأس لجنة الاستقبال . وألقى السادات خطابا قصيرا . ثم حملتنا طائرات الهليكوبتر إلى كامب ديفيد . وشاهدت من الجو أكواخا بسيطة وصغيرة متفرقة فى غابة . وبخروجنا من الهليكوبتر توجهنا سيرا على الأقدام إلى الأكواخ المخصصة للوفد المصرى . وكان كوخى فسيحا يحتوى على غرفتين للنوم وحمامين بالإضافة إلى صالون فسيح . وخصصت غرفة النوم الأولى لكل من حسن كامل وأشرف غربال سفير مصر لدى الولايات المتحدة ، وشاركت محمد كامل الغرفة الثانية .

وعلى مسافة قصيرة منا ، كان كوخ الرئيس السادات القائم فوق رابية صغيرة فى مواجهة كوخ الرئيس كارتر . أما حسن التهامى فقد أعطى كوخا صغيرا وحده على مسافة بعيدة بعض الشىء . وتم تخصيص كوخ آخر لبقية أعضاء الوفد ، أسامة الباز ونبيل العربى وعبد الرؤوف الريدى .

وبينما نحن نسير عبر كوخ الرئيس كارتر ، خرج الرئيس والسيدة قرينته لتحيتنا فردا فردا . ولما جاء دورى قال لى : « لقد قرأت تقريرا عن حياتك وشخصيتك » . ولم أدر بالضبط كيف أرد ، ومن ثم ابتسمت مرتبكا . إننى لم أر من قبل رئيس دولة فى ملابس بسيطة غير رسمية ، وكان المنظر غريبا ومثيرا .

ثم توجهنا إلى قاعة الطعام وكانت على مستويين . كان الإسرائيليون يتناولون طعامهم حول مائدة كبيرة مستديرة . ولاحظت بينهم مناحم بيجن وقرينته ، وموشى ديان وعزرا وايزمان وآخرين . وجلسنا إلى مائدة مجاورة بعد تبادل التحيات التى لا يمكن وصفها بالبرود إلا أنها تفتقد الدفء بالتأكيد . وحذرنا التهامى ومحمد كامل من إجراء اتصالات خاصة مع المفاوضين الإسرائيليين . وفى النهاية ، جرت اتصالات غير رسمية بين الأفراد ، ولكن كلما كنا على مقربة من بعضنا فى لقاءات رسمية ، كنا نحرص على ملازمة بعضنا البعض .

وعندما انتهى العشاء أخبرنا حسن التهامى بأنه توصل إلى طريقة لإيقاف قلبه عن النبض لبضع ثوان ثم إعادته إلى النبض . وجذب حديث التهامى طبيب بيجن الإسرائيلى وطبيبا أمريكيا آخر إلى مائدتنا . وتساءل الأمريكى ما إذا كان التهامى قد استخدم اليوجا

لوقف نبضات قلبه . وأثار ذلك غضب التهامى الذى قال إن أسلوبه لا علاقة له باليوجا . غير إنه فضل ألا يكشف عن وسيلته السرية إلى ذلك .

وقام التهامى بتوزيع قطع صغيرة من العنبر على أعضاء الوفد المصرى ، شارحا بأن علينا إذابتها فى الشاى وبأنها ستمنحنا القوة على مواجهة الإسرائيليين . ولم تكن هذه المادة الفوّاحة المستخرجة من أمعاء الحيتان الكبيرة لتناسبنى ، غير أن بعض أعضاء الوفد المصرى استعملها .

وجدنا كامب ديفيد مكانا غريبا للعمل الدبلوماسى . فنحن معتادون على التفاوض جلوسا إلى مائدة بكامل أرديتنا كرسميين ، بطريقة دبلوماسية كلاسيكية ، بينما الملفات والأقلام فى متناول أيدينا . أما هنا فإننا نشاهد بعضنا البعض بالبيجامات أو بملابس الرياضة أو على دراجات فى طرقات الغابة . وكان نوع من الفوضى الحميمة هو القاعدة . كما أدت بعثرة الأكواخ إلى صعوبة الاتصالات ، على الأقل فيما بين أعضاء وفدنا . ولم تكن الترتيبات المادية مشكلتنا الرئيسية . وإنما هو أسلوب السادات الذى أربكنا . فكلما التقى مع كارتر أو بيجن لم نكن نبلغ على الإطلاق بما قاله ، فى حين كنا نلاحظ أن الزعيمين الأمريكى والإسرائيلى يحيطان وفديهما علما بالأمر قبل كل اجتماع وبعده . وكنت أخشى من أن السادات بغرض استعادة سيناء قد يقدم تنازلات ضخمة . كان تكتيكه يقوم على إقناع وفدى الولايات المتحدة وإسرائيل بأنه معتدل بينما وفده غير مرن ، اعتقادا منه بأن ذلك من شأنه تدعيم موقفه التفاوضى ، ولم تكن بقيتنا بمثل هذا اليقين .

ومع تكرر اللقاءات مع الأمريكيين والإسرائيليين أصبحنا نعرف المندوبين كأفراد . كان سايروس فانس دقيقا ، وكان زبجنيو برجنسكى المساعد الخاص للرئيس لشئون الأمن القومى ، متلهفا . وكان بيجن مغرورا ، ووايزمان متفائلا ، وديان واثقا ، وأهارون باراك مجتهدا . وكان محمد كامل متوترا ، وحسن التهامى حالما ، بينما أسامة الباز يشع بالذكاء والطاقة .

وفى عصر أحد الأيام انطلقنا ، السادات ومحمد كامل وأنا ، نتمشى بعد الظهر وسط الأشجار فى تلك الغابة الصغيرة الجميلة . ولمحنا عزرا وايزمان من بعيد راكبا دراجته . واتجه نحونا وأسرع لتحية الرئيس مقبّلا إياه بحرارة على وجنتيه . وفى حديث بعيد عن السياسة ، عاد وايزمان إلى ترديد ما أصبح الآن دعابة قديمة ، وسأل السادات : « ماذا تسميه الآن ، بطرس أو بيتر ؟ »

هذه المداعبات لم تكن لتخفى انزعاجنا . كانت الأجواء المحيطة غريبة ، وكان

السادات لا يمكن التنبؤ بأفعاله . وبدا التهامى فى حالة عدم توازن . وبصفتنا مندوبين كنا مطالبين بتناول أجزاء من القضايا ، لكننا لم نكن قادرين على رؤية الصورة ككل . ولم نكن ندرى إلى متى يستمر هذا الوضع بينما الأيام تتعاقب واحدا تلو الآخر .

وفى ٧ سبتمبر استدعانا السادات ـ حسن كامل ومحمد كامل وأشرف غربال وأنا ـ إلى كوخه . واستعرض السادات ما دار فى اجتماعه مع كارتر وبيجن صباح هذا اليوم . لقد رفض رئيس الوزراء الإسرائيلى بعصبية كل مادة تقريبا مما ورد فى الإطار الذى قمنا بوضعه معا . وكان مما أثار بيجن بصفة خاصة طلبنا بأن تدفع إسرائيل تعويضات لمصر .

وقال السادات إن بيجن عاد مرة أخرى إلى نظريته الغريبة بأن الحرب الدفاعية المشروعة تسمح بضم الأراضى ، أما الحرب الهجومية فلا تسمح . وكان بعض الباحثين القانونيين قد تبنوا هذا الرأى فى القرن التاسع عشر ، غير أن ميثاق الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٥ استبعد أى اكتساب للأراضى بالقوة . وكنت قد شرحت ذلك تفصيلا لبيجن إبان زياراتى للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ وفى يناير ١٩٧٨ . ويبدو أن بيجن لم يدرك أن هذه النظرية البالية لا أساس لها فى القانون الدولى . ودأب على الإشارة إلى كتاب القانون الدولى غير المتداول الآن لأوبنهايم . وبدا لى بيجن متصلبا وكأنه محامٍ قادم من قلب أوروبا الوسطى فى العقود الأولى لهذا القرن .

وسأل أشرف غربال السادات عن موقف كارتر فى ذلك الاجتماع الثلاثى . وقال السادات إن الرئيس اكتفى بتدوين كل كلمة فاه بها الجانب المصرى والجانب الإسرائيلى فى كراسة صغيرة .

وطوال بعد الظهر عقدنا مناقشات مطولة فيما بيننا . ثم توجهنا إلى لقاء عمل مع الأمريكيين ، حيث قام كل من أسامة الباز ونبيل العربى وأشرف غربال بعرض للموقف المصرى بوضوح شديد .

وفى كوخنا بعد تناول العشاء دعانى محمد إبراهيم كامل وحسن كامل للانضمام إليهما فى لعب البوكر ؛ لكى نبعد عقولنا عن المحادثات . ولكننى آويت إلى فراشى مجهدا . لقد كان الجو فى كامب ديفيد مرهقا للأعصاب .

وفى يوم السبت ٩ سبتمبر عقدنا جلسة عمل فى كوخ السادات . ودارت مناقشة حامية بين السادات ومحمد كامل . لم يكن السادات ليثق فى ديبلوماسييه . وكان كامل على حق ، ولكنه لم يتمكن من عرض موقفه بفاعلية . وحاولنا التدخل إلى جانب كامل ، ولكن السادات

لوّح لنا بالسكوت . ولم يكن كامل بعصبيته واضطرابه ناجحا كمفاوض . وكان واضحا أن السادات يريد لاجتماعات كامب ديفيد أن تنتهى بوثيقة دولية مهما كان الثمن . إذ كان السادات يدرك أنه بدون مثل هذه الوثيقة ، سوف تبدو رحلته للقدس والمبادرة الدبلوماسية اللاحقة فاشلة .

وفى ذلك المساء دارت مناقشة طويلة بين عزرا وايزمان وبينى . وشرحت له الأهمية القصوى لربط الانسحاب الإسرائيلى من سيناء بالانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة . وإلا فلن يكون هناك حل شامل . وكنت أعتقد حقا بأن الانسحاب المتزامن على كافة الجبهات يمكن تحقيقه فى كامب ديفيد ، لو أن السادات أصر على ذلك . وعندما اتهمنى وايزمان « بالتشبث بوجهة نظر أيديولوجية » ، قلت له إننى أدافع عن الحقوق الفلسطينية والحقوق العربية الأخرى ، ليس فقط بدافع إيمانى العميق بتلك الحقوق ، ولكن لأنه لا يمكن أن يسود سلام دائم إلا إذا أعادت إسرائيل هذه الأراضى .

وعدت إلى كوخى حيث وجدت محمد إبراهيم كامل عصبيا . بادرنى بالسؤال « أين كنت ؟ » . قلت له إننى كنت أتناقش مع عزرا وايزمان لمدة ساعة ، وشعرت بأننى استطعت أن أنقل إليه بعض النقاط المهمة . ولكن محمد كامل عاتبنى بحدة قائلا : « ألم نتفق على ألا نتحدث مع أولئك الناس ؟ » . وقلت إنه ينبغى أن نتحدث معهم ، ليس فقط لتوضيح مواقفنا ، وإنما لإقناعهم بتغيير مواقفهم . وأردفت قائلا : « محمد ، المفاوضات ليست مجرد جلوس حول مائدة ، وإنما هى أيضا حوار بعيد عن المائدة » .

ولكن محمد كامل شعر بأنه فقد السيطرة على وفده . وأصبح يشعر بالخزى . وتفهمت مخاوفه . ففى رأيه أن السادات لم يكن يدرك بالضبط ما يريد تحقيقه . كان ثابتا فى موقف ولينا فى آخر دون سبب واضح . ففى بعض الأحيان بدا السادات وكأنه يريد منا التوصل إلى اتفاق مهما كان الثمن . وأحيانا أخرى بدا وكأنه يتمنى فشل المفاوضات حتى ينقلب الرأى العام ضد إسرائيل ، وتنكشف المخططات الإسرائيلية أمام المجتمع الدولى .

وأكثر من أى شىء آخر ، كان محمد كامل يخشى من أن يربط السادات بين الفشل فى كامب ديفيد وفشل مبادرته السلمية ككل ، حيث إنه لا يستطيع احتمال أن تبدو زيارته للقدس بمثابة غلطة . ووافقت على أنها ستكون فكرة طيبة أن نقول للرئيس إن هناك اختلافا عريضا بين مبادرته بزيارة القدس وبين نجاح أو فشل مباحثات كامب ديفيد . وقلت إن مبادرته تقف على قدميها ولها ما يبررها فى ذاتها . وحتى فى حالة فشل كامب ديفيد فإنه

يمكن إيجاد طرق أخرى للتفاوض . وتحدثنا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وانتهت بقول محمد كامل : « أنا غير قادر على الاستمرار . إن أعصابى تكاد تنفجر » .

وفى يوم الأحد ١٠ سبتمبر استيقظت مبكرا بصورة غير عادية وتوجهت إلى قاعة الطعام لتناول الإفطار . والتقيت فى طريقى بالسادات يؤدى رياضته اليومية . وكان يصر على المشى مسافة ميلين أو ثلاثة فى نحو ساعة من الزمن بهمة ونشاط كل يوم .

ودعانى لمشاركته . وبينما نحن نسير كان يتحدث بصفة مستمرة وبصوت مرتفع وكأنه يلقى خطابا . كان يتحدث عن المفاوضات الجارية والعناد الإسرائيلى . كما تحدث عن الملك حسين ملك الأردن . وهو أمر حساس . ذلك أن أى اتفاق لكى يبدو شاملا ولا ينظر إليه كسلام منفصل ، يوجب على السادات الإصرار على أن يتناول الاتفاق كلا من الضفة الغربية وغزة . ولكن كيف يتأتى له ذلك إذا لم يكن الفلسطينيون والأردن مشتركين فى مبادرته ؟ وكان السادات واثقا من أن الملك حسين لن يثير مشاكل . وقال لى السادات « إنه بمجرد الحصول على غزة فإنه سيوافق » . وكان السادات يعتبر غزة مسئولية مصر بحكم الأمر الواقع ، وأنه سوف يعطيها للأردن ، الأمر الذى يوفر للأردن ميناء على البحر المتوسط . علاوة على جموع من الغزاويين الغاضبين . وكان السادات يظن بأنه سيستطيع فى كامب ديفيد حمل الإسرائيليين على الموافقة على تسليم غزة إلى الأردن . إنها ستكون « هدية » السادات للملك حسين . ولابد أن الملك سيسعده ذلك ، هكذا قال السادات ، وأنه سوف ينضم إلى المفاوضات . وفيما بعد ، تحدث السادات مع الملك حسين تليفونيا ، وسمعتهما يرتبان لعقد اجتماع فى أوروبا . وعندما تساءل أحدنا عن موقف الملك وأهمية الحصول على مشاركته فى العملية ، تجنب السادات الإجابة المباشرة ونحانا جانبا غير مبال بنا . إنها دائرته « شخصيا » .

وبينما نحن نتمشى ونتحدث ، عرضت عليه فكرة تشكيل قوة عربية متعددة الجنسيات تتولى مسئولية الضفة الغربية وغزة لفترة انتقالية بعد الانسحاب الإسرائيلى . واستمع السادات ولكنه لم يقل شيئا .

الاعتقـــال

ومع مرور الأيام بدت كامب ديفيد أكثر فأكثر كمعسكر اعتقال . وبهدف تسلية الوفود ، نظم الأمريكيون زيارة لحديقة جيتسبرج العسكرية القومية . جلس كارتر إلى جانب سائقه وأصر على أن يركب السادات وبيجن فى المقعد الخلفى للسيارة الليموزين . وكنت

أنا مع عزرا وايزمان الذى أثارته رمزية الزيارة لساحة المعركة المهمة فى تاريخ الحرب الأهلية الأمريكية . وقال إن زيارة ميادين القتال من شأنها دائما أن تدفع القائد العسكرى إلى إدراك عدم جدوى الحروب وقيمة السلام . وبالنسبة إلى وايزمان كان مثل هذا الشعور حقيقة تفرض نفسها بقوة . ذلك أن ابنه المحارب فى الجيش الإسرائيلى أصابته رصاصة فى رأسه مما تركه عاجزا ومعوقا . وتحدث وايزمان عن مصابه الشخصى الأمر الذى حوله إلى « الحمائم » .

وقد وجدت نفسى ونحن نسير على أرض القتال بين ديان وحسن التهامى . وسأل التهامى غير المتسق وزير خارجية إسرائيل : « هل أنت المناهض للمسيح ؟ » وكانت الإجابة بلا . وعندئذ أعلن التهامى عن عزمه دخول القدس على ظهر جواد أبيض وأن يتولى منصب محافظ مدينة القدس . وابتسم ديان فى أدب ولكنه لم يعلق ، الأمر الذى شجع التهامى على الانغماس فى أوهامه .

وكان واضحا أن مناحم بيجن قد درس بعناية تفاصيل معركة جيتسبرج . وكان يستعرض عضلاته الفكرية وهو يتباهى بتمكنه من تفاصيل عملية هجوم الفرسان المفاجىء التى وقعت قبل مائة وخمسين عاما . وقال كارتر إنه منبهر للغاية بمعرفة رئيس الوزراء الإسرائيلى بالمعركة . وبقى السادات صامتا حالما ، يحدق بعيدا إلى الفضاء .

وعدنا إلى كامب ديفيد وتوجهنا مباشرة إلى قاعة الطعام لتناول الغداء . وأصر حسن التهامى على إعطائى مزيدا من العنبر ، وطلب إلىّ مرة أخرى إذابته فى قهوتى . لابد أنه لاحظ علىّ علامات الإجهاد ، وأراد تقويتى على مواجهة المفاوضين الإسرائيليين .

وعندما بدأ التهامى فى شرح الشريعة الإسلامية ، قلت له إننى درست الشريعة الإسلامية لمدة أربع سنوات بكلية الحقوق فى جامعة القاهرة ، وإننى بحثت وكتبت عدة دراسات فى الفكر السياسى الإسلامى . لم يصدقنى التهامى . وطلب أن أسرد عليه أسماء الفقهاء المسلمين الذين قرأت لهم . وذكرت عددا منهم ، من أعمق المفكرين وأوسعهم شهرة إلى أكثر المغمورين منهم . وقدمت للتهامى ملخصا للإنجازات الفكرية لكل منهم وقرأت عليه بعضا من آيات من القرآن . وانبهر التهامى وأصر على أن أتحول إلى اعتناق الإسلام . وقال إنه لابد لى من التحول للإسلام فى كامب ديفيد ، وإن عملى هذا ستكون له قيمة رمزية عظمى لمستقبل الشرق الأوسط . وعندما تناهى ذلك إلى أسماع بقية أعضاء الوفد المصرى ، شجعونى على مواصلة الحديث مع التهامى لصرف اهتمامه عن المفاوضات .

ووافقت وقمت أنا والتهامى بالمشى مسافات طويلة فى الأحراش ، نناقش العقيدة الإسلامية بإسهاب . وشعرت بالغرابة إزاء ذلك ، ولكن كان من الأهمية بمكان جذبه بعيدا عن الآخرين . وكنت أنا الطعم .

وفى ساعة متأخرة من يوم الأحد ١٠ سبتمبر تردد أن الجانب الأمريكى يعتزم تقديم ورقة أمريكية للرئيس السادات . وطلبت نسخة لدراستها مقدما ، ولكننى لم أنجح فى الحصول عليها .

وفى صباح اليوم التالى دعانا السادات إلى كوخه . وسلمنى وثيقة وطلب منى قراءتها بصوت عال على أعضاء الوفد . إنها الورقة الأمريكية . وبدت فى قراءتها الأولى طويلة ومعقدة بصورة لا تطاق . وعندما فرغت من قراءة النص ، طلب السادات إلى كل منا تقديم ملاحظاته وآرائه . وبينما نحن نقوم بذلك ، أصبح واضحا أن السادات لا ينتبه لما كنا نقوله . واقترح محمد كامل أن ننسحب جميعا لنعكف على دراسة الوثيقة بعناية ثم نعود إلى الاجتماع لنقدم للرئيس آراءنا . ووافق السادات ، وانتقل الوفد إلى كوخ آخر حيث قرأنا وناقشنا النص نحو ثلاث ساعات . تضمنت الخطة الأمريكية جزءين ، أحدهما يتناول السلام بين مصر وإسرائيل ، ويتناول الآخر القضية الفلسطينية والسلام الشامل . ويقدم الجزء الأول أساسا للتوصل إلى معاهدة سلام ، ولكن الجزء الثانى كان يفتقر كثيرا إلى التحديد بحيث يكون من السهل على إسرائيل أن تتجنب اتفاقا بشأن القضية الفلسطينية .

ولدى عودتنا إلى كوخ السادات ، هاجم السادات المشروع الأمريكى ، ليس لعدم كفايته بالنسبة للفلسطينيين ، وإنما لما ينص عليه من أن سيناء ستعود إلى مصر على مراحل فحسب . وبغض النظر عن الأسباب ، فقد أسعدنا غضب السادات . ووصف السادات بيجن بالتعنت وباستحالة التعامل معه . وأعلن بأنه سوف ينسحب من المحادثات وسيترك كامب ديفيد فى صباح اليوم التالى . وهذا لم يسعدنا . فبالرغم من عدم موافقتنا على الورقة الأمريكية ، كنا نشعر بأن مصر ينبغى عليها مواصلة المفاوضات . فالرأى العام الدولى كان قد استقبل الانسحاب المفاجىء للوفد المصرى من اجتماعات اللجنة السياسية فى القدس فى شهر يناير بصورة سيئة . وإذا كررنا مثل هذا التصرف فإننا سنضعف التأييد الدولى لمعركتنا الدبلوماسية . والأسوأ من ذلك أنه إذا ترك السادات كامب ديفيد خاوى الوفاض فإن حكومته سوف تضعف فى الداخل . بل قد تسقط .

وعندما ألححت على السادات بالبقاء فى كامب ديفيد ، استشاط غضبا ، وقال : « إنك لا تفهم شيئا فى السياسة » ، وصرفنى قائلا إنه يريد قسطا من الراحة . لقد صدم السادات

حقا بالمشروع الأمريكى ، وأراد بالفعل أن يغادر المكان . وفى الوقت نفسه كنت أخشى أنه إذا غير السادات من رأيه وبقى فى كامب ديفيد ، فقد يضعف ذلك موقفه التفاوضى ويجعله أكثر قابلية لتقديم تنازلات .

ولدى عودتنا إلى كوخنا المشترك تحدث محمد كامل طويلا عن السادات والمفاوضات ومستقبل مصر . كانت أعصابه منهكة بوضوح وكان متشائما للغاية . وبذلت قصارى جهدى لتهدئته . وأوضحت أن دورنا ثانوى ، وأن القرار السياسى سيتم اتخاذه شئنا أم أبينا . قلت إن « علينا أن نقدم مشورتنا للرئيس ، غير أن القرار النهائى قراره » .

وجاء رد فعل محمد كامل غاضبا قائلا : « لكن الرئيس متلهف » .

وفى اليوم التالى - الثلاثاء ١٢ سبتمبر - أبلغ السادات فانس بأن وفده سيستقيل برمته وبأنه ، هو والفريق المصرى كله ، سيغادرون كامب ديفيد . وبسرعة قام فانس بالجمع بين كارتر والسادات فى محاولة لوقف انهيار المفاوضات . وعندما خرج السادات قال إن كارتر أبلغه بأنه إذا انهارت محادثات كامب ديفيد فإنه لن يعاد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة . أما إذا نجحت محادثات كامب ديفيد – كقول كارتر للسادات – فإنه فى فترة الرئاسة الثانية سوف يضمن له أن يحقق الاتفاق كل تطلعات السادات . وبتعهده للسادات بالأشياء الكثيرة التى سيفعلها كرئيس لفترة ثانية ، استطاع كارتر أن يقنع السادات ويرده على أعقابه . وانتابنى شعور بأن السادات كان راغبا فى الاقتناع والرجوع عما قاله . ولكن هل قدم كارتر بالفعل هذه الوعود ؟

وبإعادة قراءة المشروع الأمريكى ، رأيت أنه لم يكن شاملا وإنما كان مضطربا . فهو سلسلة من الحلول الوسط ، وكأنه دراسة جدوى أو مشروع أولى أو مجموعة من المبادىء التوجيهية ، ولكنه ليس باتفاقية حقيقية . فالقسم الأول من المشروع - وهو الانسحاب من الأراضى المصرية - لا يستتبعه بالضرورة القسم الثانى - وهو الانسحاب من الأراضى الفلسطينية . ولم تكن الأجزاء مترابطة ، الأمر الذى يعنى بأن مصر قد تتهم بتوقيع سلام منفصل مع إسرائيل وبأنها تتخلى عن العرب . غير أن السادات بدا غافلا عن ردود الفعل العربية . كان يريد من الأمريكيين أن يضمنوا نجاح مبادرته ، وكنت أخشى من أن الأمريكيين يخدعون أنفسهم ، وأن السادات بدوره سوف يخدع العرب .

وبعد ظهر اليوم نفسه التقى المصريون والأمريكيون فى جلسة عمل . وتحدث أعضاء الوفد المصرى بقوة وشجاعة إلى فانس وبرجنسكى ووليام كوانت العضو فى هيئة

مجلس الأمن القومى المعروف بدفاعه عن الحقوق العربية . ولكن كان انطباعى للأسف هو أن قليلا مما قلناه سيؤخذ فى الاعتبار .

واستمر حسن التهامى فى تصرفاته بالطريقة الباطنية . ففى الصباح طلع علينا ساعة الإفطار ليعلن بأنه أمضى الليل كله « فى الاتصال » . وتساءلنا « مع من ؟ » . وأشار « فوق » وصرح بأنه تلقى رسالة من العالم المبروك . ثم ذهب التهامى إلى السادات ليبلغه بأن الرسالة السماوية أكدت أن السادات يسير على الطريق الصحيح . وبعدها جاءنى ليحاول مرة أخرى هدايتى إلى الإسلام . فأجبته قائلا : « إن مثل هذا القرار الحاسم يحتاج إلى مداولات كثيرة » .

وفى يوم الأربعاء - الثالث عشر - دعا الرئيس كارتر أسامة الباز وأهارون باراك إلى الاجتماع معه . وواصلوا العمل من الثامنة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر ، ثم استأنفوا فى المساء من الثامنة حتى العاشرة . وأخذ أسامة الباز يتحول إلى بطل « عصابتنا » ، مناضلا من أجل صيغة تعترف بحقوق الفلسطينيين وتدعم الصبغة الشمولية للوثيقة . ولم يكن السادات ليلتفت إلا لما يهمه شخصيا ، وهو عودة سيناء كلها قبل أى شىء آخر .

وقبل الغداء استقبلنا السادات فى كوخه . كانت الأجواء متوترة بين السادات ومحمد كامل . وتخفيفا من وطأة الموقف أخبرت السادات كيف أن حسن التهامى يسعى إلى هدايتى لاعتناق الإسلام . ونظر السادات إلى التهامى مسرورا وقال : « لا تقلل من شأن بطرس يا حسن ، إنك ستهتدى إلى المسيحية قبل أن يهتدى هو إلى الإسلام ! » .

واغتاظ التهامى . وأدى مزاح السادات إلى تعقيد علاقاتى مع التهامى .

وفى ذلك الحين لم يعد أعضاء الوفود الثلاثة - المصرى والأمريكى والإسرائيلى - يشتركون فى المفاوضات . كان كارتر والباز وباراك يقومون بالعمل ، ولو أن الكثيرين ، فيما بعد ، ادعوا مشاركتهم العميقة .

وبينما هم يعملون استقبل السادات موشى ديان فى الكوخ الرئاسى . وكنت قد حاولت عقد هذا اللقاء لعدة أيام ، تلبية لطلب وايزمان . فقد شرح لى وايزمان مدى تعقد علاقاته مع ديان . لقد كانت زوجة ديان السابقة وزوجة وايزمان شقيقتين . وكان ديان هو قائد وايزمان فى الجيش . أما الآن فقد أصبح وايزمان وزيرا للدفاع ، ووفقا للتسلسل الهرمى الإسرائيلى فإنه يسبق وزير الخارجية . وقال وايزمان إن ذلك جعل الأمور بينهما حساسة . وأسهم السادات فى زيادة التعقيد بكونه باردا مع ديان ، وودودا إلى حد التعاطف مع

وايزمان . وقد قال السادات بإعزاز ذات مرة : « لا يمكن أن يكون وايزمان يهوديا . إنه أخي الصغير » .

كنت ألح على السادات لمقابلة ديان ليس فقط استجابة لطلب وايزمان ، وإنما لتيسير جريان المفاوضات . وكان السادات يرفض . ولم أجد بدا من نقل هذا الرفض إلى وايزمان . وإزاء حساسيته للمشكلة تدخل الرئيس كارتر وتقدم بنفس الطلب إلى السادات . وفي هذه المرة وافق السادات على لقاء ديان « علشان خاطر كارتر » . وحظيت هذه العبارة بشعبية وسط المندوبين المصريين . فكل طلب نراه ضد المصالح العربية صار يوصف بأنه « علشان خاطر كارتر » .

وهكذا ، عندما التقى السادات بديان اعتبرت جهودي التوفيقية انتصارا ديبلوماسيا متواضعا . وبعدها شكرني وايزمان لما قمت به لتحقيق اللقاء . ولكن اللقاء لم يُذب الثلوج بين الاثنين . ولدى مغادرته الاجتماع أعلن السادات أن ديان رجل متشائم وغير قادر على استيعاب الآثار بعيدة المدى لمبادرته السلمية . ولم اتفق مع تقييم السادات . فإن الرجل بالرغم من شخصيته الصعبة قادر على الرؤية البعيدة ، وقد دأب على تقديم حلول خلاقة لمشكلات معقدة . أما سبب هذه العداوة فلا يرجع إلى استخفاف السادات بقدرات ديان ، كما أنها لا تعود فقط إلى الكيمياء الشخصية السيئة . ويبدو أن السادات كرجل عسكري مصري كان يشعر بأن ديان يتصرف بغطرسة نظرا لهزيمة إسرائيل لمصر في المعركة .

وشعر المندوبون المصريون بالصدمة إزاء الأحكام المتعلقة بسيناء الواردة في الوثيقة الأمريكية . فشبه الجزيرة المصرية ستكون منطقة منزوعة السلاح تشرف عليها قوات الأمم المتحدة ووكالة دولية لحفظ السلام . وتضمن المشروع عشرات من القيود على السلطة المصرية . وكانت تلك الشروط مهينة لمصر .

وذهبت إلى دار العرض السينمائي في كامب ديفيد بأمل رؤية فيلم يرفع من معنوياتي . كان الفيلم يدور حول قبيلة منعزلة في وسط أفغانستان تعبد ذكرى الأسكندر الأكبر ، وكان هناك جندي تابع للإمبراطورية البريطانية يحاول خداع القبيلة لتصدق بأنه خليفة الأسكندر . غير أنني كنت منشغلا ولم أتمكن من متابعة الفيلم ، وتركت قاعة العرض قبل نهايته .

وعدت إلى كوخي حيث وجدت محمد كامل في نفس حالتي من القلق . وفي هذه المرة ، شاركته فيما يشعر به من كرب . ولم يفلح الحديث بيننا في تهدئة أعصابنا ، ولم

نستطع ـ كلانا ـ النوم . كنت معجبا بأمانة كامل ووطنيته ، إلا أن عدم قدرته على السيطرة على مشاعره كان يؤرقنى .

وفى يوم الجمعة ١٥ سبتمبر دعانا السادات إلى كوخه . كان شديد الغضب ، وأعلن أنه قرر مرة أخرى وقف المفاوضات ومغادرة كامب ديفيد . وأمرنا بحزم حقائبنا بعد ظهر اليوم نفسه .

وفى كوخنا فتح حسن كامل وأشرف غربال حقائبهما وشرعا فى جمع ملابسهما . ورفضت أن أفعل ذلك . وقلت إنه ليست هناك حاجة لحزم الحقائب ؛ لأننى على ثقة من أن السادات سوف يغير رأيه خلال الساعات القليلة القادمة ، فإن القرار الذى أعلنه ليس إلا تحذيرا وأسلوبا للضغط على الأمريكيين والإسرائيليين .

وتبعنا محمد كامل إلى الكوخ وطلب منى مرافقته فى جولة على الأقدام . وبينما كنا نتجول فى الأحراش قال لى : « حاول أن تتذكر هذا اليوم ، فقد اتخذت قرارا مهما ستعلم به فيما بعد » . وخامرنى الشك فى أنه يشير إلى رغبته فى الاستقالة أو فى المعارضة العلنية لاتفاق كامب ديفيد .

وحثثته على البقاء فى موقعه . وقلت : « نحن ما زلنا فى بداية طريق طويل » . وفى اعتقادى أننى لم أنجح فى التخفيف عنه .

وانتشر بسرعة نبأ قرار السادات وقف المفاوضات ومغادرة كامب ديفيد ووصل الرئيس كارتر الذى سارع إلى مقر السادات . وتابعنا الحدث وكأنه فيلم درامى .

وعندما خرج كارتر كان واضحا أن السادات وافق على البقاء . والحقيقة أنه كان قد وافق على التوقيع على وثيقة معدلة لم يعرف أى منا شيئا عن مضمونها . وبعد ديباجة طويلة وغير مترابطة ، قال السادات إنه وافق على التوقيع لأنه كان مقتنعا بأن بيجن سيرفض بكل تأكيد . وكثيرا ما قال السادات إنه إذا أمكنه مرة واحدة كشف الموقف الإسرائيلى أمام الرأى العام الأمريكى ، فإن الولايات المتحدة سوف تنصر مصر على إسرائيل . غير إن وليام كوانت أبلغنى بعد ذلك بوقت طويل بأن السادات كان قد نقل سرا موقفه « المتراجع » إلى الأمريكيين . كان يريد أن يستخدم كارتر ضغوطه ، بينما هو يؤكد لكارتر بأنه سوف يتراجع إذا لزم الأمر . والنتيجة أن كارتر دأب مرارا على مطالبة السادات بتنازلات .

وأثناء طعام الغداء جاء مناحم بيجن إلى مائدتنا ودعانا جميعا لحضور حفل موسيقى

لفرقة الموسيقى الكلاسيكية الإسرائيلية فى واشنطن بعد غد . وكانت شكوكنا قد وصلت الآن إلى آفاق بعيدة ، إلى حد أننا فكرنا مليا فى مغزى هذه الدعوة ، هل كان بيجن يبلغنا بأن مفاوضات كامب ديفيد قد اختتمت ؟ أم أنه يقترح فترة من الراحة فى واشنطن قبل العودة إلى كامب ديفيد ؟ أم أنه يعنى القول بأن يوم الأحد قد تحدد كآخر يوم فى كامب ديفيد سواء تم التوصل إلى اتفاق حينذاك أو لم يتم ؟ ثم قام نائب الرئيس الأمريكى والتر مونديل بزيارة السادات . ولم يقف أى منا على ما دار أثناء هذا اللقاء ، غير أن الوفد المصرى كان يعتريه الاكتئاب دائما كلما ظهر مونديل على المسرح . كان لدينا انطباع بأنه يعمد إلى دفع كارتر نحو الموقف الإسرائيلى .

ومرة أخرى قمت بجولة طويلة فى الغابة مع محمد إبراهيم كامل . كان لا يزال عصبيا ومتقلب المزاج ، وبدا وكأنه على حافة انهيار عصبى . تحدث عن العلاقات الخاصة التى كانت تربطه بالسادات منذ أن نشأت بينهما صداقة عميقة فى السجن . وأكد لى أنه ما كان يريد إطلاقا أن يصبح وزيرا للخارجية . وكان مثبطا للغاية لأن القرارات تتخذ بدون علمه ، قرارات سيكون هو مسئولا عنها . وقال لى إن السادات لا يمكن التنبؤ بخطواته القادمة . وأردف قائلا : « قد يوافق السادات على شىء فى الصباح ، وبعد ساعة من الزمن يرفض ما سبق أن قبله ، ثم يوافق بعد الظهر على الشىء نفسه مرة أخرى ! » . وكان يتعين علىّ إقناع محمد كامل بأن الدبلوماسية أحيانا ما تتطلب أن يكون المرء متقلبا ، ولكننى لم أفلح فى تحسين مزاجه .

ولدى عودتنا من الأحراش التقيت بحسن التهامى . كان شديد الغضب لأن الوثيقة المطلوب توقيعها لم تتضمن شيئا عن القدس . ووجه نقده لى . وقلت له : « إنك تضيع وقتك فى انتقاد مشاة الجيش . وعليك أن تتوجه فورا إلى الرئيس لتعلن موقفك » . وهكذا فعل ، مصرا على أن يتضمن أى نص يوقعه السادات بيانا بأن القدس ينبغى إعادتها إلى العالم العربى .

وبعد العشاء جلسنا أمام التليفزيون لمشاهدة مباراة محمد على دفاعا عن لقبه كبطل للعالم . وكان محمد على يتباهى أمام الصحفيين بقوله : « إننى أشهر رجل فى العالم بعد موشى ديان » . وقد يكون ذلك صحيحا . فانتصارات ديان الحربية ووجهه الوسيم ، الذى أضافت إليه مزيدا من الرومانسية تلك العصابة على عينه ، معترف بها فى سائر الأنحاء . وكسب محمد على المباراة ، ورفع انتصاره من معنوياتنا . كنا نرى فيه الضحية والمقاتل الذى تصدى للحكومة الأمريكية (إبان حرب فيتنام) والذى حقق الانتصار .

في صباح اليوم التالي ـ السبت ١٦ سبتمبر ـ كان الجو بهيجا وتناول الحديث فيما بيننا تفاصيل انتصار محمد علي .

وأثناء المشي في طرقات كامب ديفيد التقيت وهيرمان ايلتس ، وحثثته مرة أخرى على أن يربط الوفد الأمريكي الانسحاب الإسرائيلي من سيناء بالانسحاب من الضفة الغربية وغزة . كان ايلتس متوترا . وقال ايلتس إن أي اقتراح ينبغي أن يأتي من الرئيس السادات شخصيا . وأحسست بأن الاضطراب داخل الوفد الأمريكي على نفس درجة سوء اضطرابنا .

وفي وقت متأخر من الصباح اجتمعنا في كوخ السادات . واستقبلنا مبتهجا ، وتحدثنا طويلا في موضوعات شتى بعيدة تماما عن المفاوضات ، وكأننا نحتسي القهوة في نادي الجزيرة الرياضي بالقاهرة . وكان واضحا لي أننا ، أعضاء الوفد ، بمثابة كم مهمل ، وأن علينا الانتظار لحين إعلان النتيجة النهائية .

وبعد العشاء التقيت مع وايزمان وبرجنسكي اللذين أوحيا لي بأنهما أيضا خارج المباراة النهائية ، في هذه اللحظة الحاسمة ، الأمر الذي أراحني بعض الشيء .

وتبع ذلك مناقشة حامية بيني وبين وايزمان ، بينما برجنسكي يستمع . قلت لوايزمان إن المتطلبات الأمنية في الضفة الغربية وغزة ، وهي ما يشير إليها الوفد الإسرائيلي في كل مناسبة وبدون مناسبة ، ليست إلا حجة ضعيفة . وقلت إن دولة إسرائيل حينما كانت في المرحلة الأولى من نشأتها استطاعت البقاء وتنمية قواها فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ دون أي وجود أمني في الضفة الغربية وغزة .

وحاول وايزمان جاهدا ، ولكنه لم يتمكن من دحض هذه الحجة ، واعترف بأن إسرائيل كانت قوية قبل احتلالها لتلك الأراضي بوقت طويل .

وحدثت وايزمان مرة أخرى عن الرابطة الأصيلة بين مصر والعالم العربي ، اقتصاديا وماليا واستراتيجيا وسياسيا وثقافيا . إن آلافا مؤلفة من المصريين يعملون في العالم العربي . كما أن مصر تستمد قوتها الدبلوماسية والسياسية من قيادتها للعالم العربي . وإذا لم تتمكن مصر من إيجاد حل للقضية الفلسطينية في إطار كامب ديفيد ، فإنها ستنعزل وسط

جيرانها العرب ، وبذلك تضعف ، ولا يمكن استبعاد انهيار النظام المصرى . وهكذا فإن الاتفاقية التى نحن بصدد توقيعها ستصبح بلا محتوى .

واستغرقت مناظرتى مع وايزمان نحو ساعتين بينما برجنسكى يستمع فى صمت . وفى آخر الأمر وقد أجهدتنا المناقشة توقفنا عن الكلام . وهنا قال برجنسكى : « لابد أن أقول لكما إن هذه أفضل مناقشة استمعت إليها فى كامب ديفيد ! » .

وأثناء عودتى إلى كوخى تساءلت ترى ما الفائدة وراء هذه المناقشات . ولماذا أحاول إقناع وزير إسرائيلى ومسئول أمريكى بينما اتخاذ القرار بيد المستوى الأعلى ؟ فإنه لا وايزمان ولا برجنسكى ولا بطرس غالى ، بقادرين على تغيير كلمة فى الوثيقة المزمع توقيعها . ولكن مناقشتى مع وايزمان أدت فيما يبدو إلى تقوية أواصر الصداقة بيننا ، وقد تكون عدلت من آرائه بعض الشىء .

ودلفت إلى غرفتى حيث وجدت محمد كامل جالسا على سريرى . وصرخ فى وجهى قائلا : « لماذا تركتنى يا بطرس ؟ أين كنت ؟ » .

وشعرت بتعاطف شديد نحو صديقى وزميلى الذى كان متوترا للغاية . وقلت له ، بشىء من التردد ، إننى كنت مع وايزمان وبرجنسكى . وسألنى : « لماذا تتحدث إلى هؤلاء الكلاب ؟ » وأجبته قائلا : « محمد ، صدقنى ، إن المناقشة مع وايزمان كانت مفيدة . لقد أنجزت شيئا سيفيدنا على المدى البعيد . وينبغى علينا الاستعداد للمعركة الدبلوماسية القادمة » . وقاطعنى محمد ليقول فى يأس : « لقد خسرنا المعركة » .

وبقدوم يوم الأحد ـ السابع عشر ـ كان هناك اتفاق على تناول نقاط الاختلاف الباقية من خلال خطابات متبادلة تكون بمثابة جزء لا يتجزأ من وثائق كامب ديفيد . ونقلا عن أسامة فإن الموضوعات التى تشملها الخطابات ستكون القدس ، والمستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة ، وقيام مصر بدور الأردن فى المفاوضات فى حالة رفض الملك حسين المشاركة . وقد أثار الموضوع الأخير مخاوفنا . فقد تستطيع مصر أن تطالب بمسئولية خاصة نحو غزة ، ولكنها لا تستطيع بسهولة تبرير التحدث عن الفلسطينيين فى الضفة الغربيـة .

وبعد الظهر ، جاء نبيل العربى إلى كوخنا حيث أشار إلى عبارة وردت فى الوثيقة أحس بأنه لا يمكن قبولها . وأجبناه جميعا : « لا تخبرنا نحن ، اذهب إلى الرئيس وأخبره » . لقد فقدنا الأمل فى إقناع السادات .

وتوجه نبيل العربى إلى كوخ السادات ، وسرعان ما عاد إلينا مضطربا مهزوما . لقد أثارت ملاحظاته غضب السادات الذى انفجر فيه .

تضمنت اتفاقيات كامب ديفيد جزءين رئيسيين . الأول ، انسحاب القوات الإسرائيلية خطوة خطوة من سيناء ، جنبا إلى جنب مع إجراء مفاوضات تستهدف التوصل إلى معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل . والجزء الثانى يتركز على الفلسطينيين ويتضمن مفاوضات حول الحكم الذاتى لفترة انتقالية ، يتبعها التوصل إلى اتفاقية بشأن الوضع النهائى . وكان ما يقلقنا ، نحن المصريين ، أن تحاول إسرائيل الإبقاء على العلاقات الإسرائيلية المصرية ثنائية تماما بدلا من كونها جزءا من سلام شامل على كافة الجبهات . وكنا نخشى أيضا من أن عملية سلام كامب ديفيد لن يسمح لها الإسرائيليون إطلاقاً بأن تؤدى إلى تقرير المصير للفلسطينيين فى شكل دولة فلسطينية .

واجتاحت الشائعات كامب ديفيد بأن بيجن يرفض التوقيع لأن القدس ورد ذكرها . والتهامى يصر على ذكر القدس فى صلب الاتفاقية . وجاءنا نبأ بأن الأمريكيين تغلبوا على هذه العقبة . وكتب السادات خطابا لكارتر سرد فيه موقف مصر من القدس . وكتب بيجن خطابا لكارتر تناول فيه موقف إسرائيل . وكتب كارتر خطابا اقتصر فيه على القول إن موقف الولايات المتحدة « سيبقى كما ورد » على لسان السفراء الأمريكيين لدى الأمم المتحدة فى ١٩٦٧ و ١٩٦٩ . وكانت النقطة الرئيسية بالنسبة لنا أن الولايات المتحدة لن تعترف بأى عمل من جانب واحد يؤثر على وضع القدس ، وبعبارة أخرى : إن إعلان إسرائيل من جانب واحد بأن القدس عاصمة لها غير مقبول . كان هذا كافيا للسادات : وبذلك انفتح الطريق المسدود ! وتم إبلاغنا بأننا سنتوجه إلى واشنطن ذلك المساء لحضور احتفالات التوقيع .

وفجأة سقطت أمطار غزيرة واجتاح كامب ديفيد ريح شديدة ، وكأن الطبيعة تطلب منا مغادرة هذا المكان . وأثناء تناول الإفطار ترددت أصداء الرعد والبرق فى كبد السماء . وقال أحد دبلوماسيينا إن « السماء غاضبة مما حدث فى كامب ديفيد » .

وحان وقت الرحيل . حملتنا السيارات إلى مطار صغير حيث ربضت طائرات الهليكوبتر فى الانتظار . وجلس محمد كامل بينى وبين هيرمان ايلتس فى الطائرة . وأحنى محمد رأسه بين يديه ورفض الحديث . سألته عما إذا كان مريضا ولكنه لم ينبس بكلمة . وحاول ايلتس أن يتحدث إليه ، ولكن الضوضاء التى احدثتها ريش مروحة الهليكوبتر جعلت الحديث مستحيلا .

وهبطت بنا طائرات الهليكوبتر في واشنطن على مسافة قصيرة من البيت الأبيض . لقد أمضينا أسبوعين ونصف أسبوع في كامب ديفيد . وقال محمد كامل إنه مرهق ولن يستطيع حضور الاحتفال معنا . وخشيت أن يكون قد قرر القيام بعمل مثير ، وحاولت إقناعه بواجبه في المشاركة في الاحتفال . وحثثته على المحافظة على المظاهر أمام الأمريكيين والإسرائيليين . وركب هيرمان ايلتس السيارة مع محمد كامل وحثه على الظهور في الاحتفال . ولكنه عندما وصلت السيارة إلى البيت الأبيض ونزل منها ايلتس ، أمر محمد سائق السيارة بتوصيله إلى الفندق .

وداخل البيت الأبيض التقيت وأشرف غربال وأخبرته عن كامل . وسارع غربال إلى الاتصال بزوجته تليفونيا ليطلب إليها التوجه مباشرة إلى فندق ماديسون ، وأن تحاول إقناع محمد كامل بالعودة إلى البيت الأبيض .

ووجدت الوفد الإسرائيلي متجمعا بكامله في إحدى قاعات الاستقبال . ولمحني ديان وقال : « شكرا لله أنك معنا اليوم . لقد تناهى إلينا أن الوفد المصري برمته قد استقال احتجاجا » .

وأخبرت ديان بألا تضلله شائعات لا أساس لها . وسألني مباشرة عن محمد كامل . فقلت : « إنه مريض ويعتذر عن عدم حضور الحفل » . ورد ديان بنبرة متشككة : « مريض أو مستقيل ؟ » . فقلت إن « محمد كامل وفقا لمعلوماتي مريض » .

ثم سألني وايزمان نفس الشيء . فقلت : « انظر ، هناك حسن كامل إلى اليمين ، وهناك حسن التهامي واقف بجوار النافذة ، وأشرف غربال هنا ولو أنك لا تستطيع رؤيته لأنه قصير القامة » .

ودعينا للتوجه إلى الدور الثاني حيث اصطفت المقاعد في مواجهة منصة جلس عليها السادات وكارتر وبيجن . ولاحظت عيني السادات تبحثان عن أعضاء الوفد المصري . لقد بلغته هو أيضا الشائعات وراح يتطلع ليرى ما إذا كنا جميعا هنا . وأردت أن ألوح للسادات ليرى أنني موجود ، ولكنني عدلت عن مثل هذا التصرف الصبياني . ولمح السادات حسن التهامي وابتسم له ، فقد أراحه أن صديقه المقرب موجود .

وألقى كل من الزعماء الثلاثة خطابا . وقد اختار بيجن أن يخص حسن التهامي بالذكر ، وذلك في إشارة واضحة للحط من قدر « عصابة » وزارة الخارجية . وتألق التهامي ، وأسعده أن القدس وردت في الخطابات المتبادلة . ولم يهمه بقية ما جاء في اتفاق كامب ديفيد . فالقدس وحدها هي كل ما يعنيه .

وتم التوقيع . وانطلقت عاصفة من التصفيق . وغادر الزعماء الثلاثة المكان . كان الأمريكيون مبتهجين . وأبدى الجانب الإسرائيلى مشاعر مماثلة . أما المندوبون المصريون فكانوا قانطين وانعكست مشاعرهم على وجوههم .

وعندما عدنا - أشرف غربال وأنا - إلى مقر السفير المصرى تأكد نبأ استقالة محمد إبراهيم كامل . وصعدنا إلى الدور الثالث حيث كان السادات يرتدى البيجاما يحيط به الصحفيون المصريون . كان يوضح النقاط الإيجابية فى اتفاقية كامب ديفيد . وعندما سئل عن استقالة محمد كامل ، قال : « إننى أعتبر محمد كامل أخا صغيرا ، مثل ابنى . لقد شاركنا معا فى النضال السرى ودخلنا السجن معا . إننى أعذره لأن أعصابه لم تتحمل الضغوط العنيفة التى واجهناها ، كما أن بعض الأولاد فى وزارة الخارجية سمموا الجو » . والحقيقة - هكذا قال السادات مضيفا - أن واحدا منهم جاءنى بعد ظهر ذلك اليوم ليسدى إلىَّ النصح . وتساءل السادات : « هل معقول أن يتدخل موظف بوزارة الخارجية فى أمور السياسة الدولية ؟ » . كان يشير إلى العربى ، وهو دبلوماسى مرموق . ثم نظر السادات إلىَّ ، وقال : « بطرس ، إن وزارة الخارجية التى ستشرف عليها فى حاجة إلى عملية نظافة » .

وفى هذا المساء ، وبينما أنا فى غرفتى بفندق ماديسون ، رحت أفكر فى النمط الغريب لتلك المفاوضات . كان السادات مرنا بينما وفده متصلبا ، وكان يستخدم ذلك كأداة ضغط عندما يواجه الأمريكيين والإسرائيليين . وكان الوفد الإسرائيلى على العكس من ذلك ، إذ كان بيجن عنيداً فى حين كان الوفد المرافق مرنا ومتساهلا .

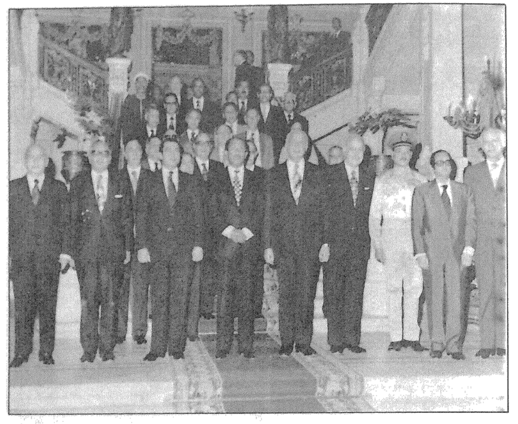
وفيما يتعلق بالجانب الأمريكى ، فإنهم كانوا ببساطة يريدون للمفاوضات أن تنجح ، وما كانوا مستعدين أن يأخذوا فى الاعتبار الثمن الذى سوف تدفعه مصر على المدى الطويل . ووجد كارتر أن أنجع طريقة مؤثرة للضغط على السادات هى التلميح بأنه إذا لم يكتب لنا النجاح فإن ذلك سوف يعنى نهاية حياته السياسية ، وأنه من أجل الضغط على الجانب الإسرائيلى المح إلى أن إسرائيل فى حالة الفشل لا يمكنها أن تتوقع تأييده السياسى مستقبلا . وهكذا لعب كارتر على ما اعتبره نقطة الضعف الرئيسية لكل من الجانبين .

وبالنسبة لمحمد إبراهيم كامل فقد أظهرت استقالته المدى العظيم لقوة الشخصية . ففى العالم الغربى يستطيع الفرد أن يستقيل معترضا بينما الحياة تسير قدما . أما فى العالم الثالث فإن الاستقالة هى خيانة للزعيم ، وقرار يؤدى بصاحبه كما يقول الرومان إلى « الوفاة المدنية » . كان محمد كامل دبلوماسيا محترفا . وإذا لم يخدم حكومته بهذه الصفة فليس

هناك عمل آخر فى مصر يتناسب والمهارات التى أمضى الجانب الأكبر من حياته فى تحصيلها . وكان محمد كامل يعتقد بأن إسرائيل أشد قوة وأكثر تقدما وأعمق حنكة وأكثر عصرية من مصر ، وأنها تحظى بتأييد عالمى أوسع ، وبأنه فى مواجهة مثل هذا الخصم ، ليس لمصر سوى مصدر قوة أساسى واحد : أن ترفض التفاوض ما دامت القوة العربية غير متكافئة مع إسرائيل . وبالنسبة للكثيرين من العرب فإن « الرفض » هو بمثابة الرابطة التى توثق الوحدة العربية . وما إن تشرع فى المحادثات ، كما فعلت مصر ، فإن نصف المعركة تكون قد ضاعت ، لأن الحوار يقتضى ضمنيا المساواة ، فى حين أن الحقائق تشير إلى عدم التوازن الضخم بين الجانبين . وكان تيتو قد حثنى على اتخاذ موقف مماثل ، مجادلا بأنه ينبغى على مصر ألا تتحدث مع إسرائيل إلى أن تستطيع ذلك من موقع القوة . وكان رأى السادات أنه يتعين عليه الحديث مع إسرائيل لاستعادة سيناء ، الأمر الذى سيدعم قوة مصر لكى يتسنى إجراء مفاوضات فى المستقبل كندين حقيقيين . وكنت أخشى أنا وزملائى من أن السادات قد يفقد الاهتمام بالعملية حالما يستعيد سيناء .

وسجلت هذه النقاط وأنا جالس إلى مكتبى فى جناحى بفندق ماديسون . وهو جناح فخيم يضم عددا من التحف الصينية الطابع ، وأثاثا فاخرا على الطراز العتيق . ومع كونى وسط هذه الخلفية الجميلة ، فإننى لم أستطع النوم . لقد تركت حبوب النوم فى كامب ديفيد . وحاولت دون جدوى القراءة . وتطلعت من النافذة متابعا تدفق المرور الذى لا ينقطع فى الشارع . كانت سيارات أمريكية فارهة تتوقف عند الناصية بالقرب من الفندق فى انتظار الضوء الأخضر ثم تنطلق مسرعة إلى غايات لا أستطيع الوقوف عليها .

ومن نافذتى ، بدت واشنطن بعد منتصف الليل هادئة ساكنة . وفجأة وجدتنى فى سلام مع نفسى . إن اتفاقية كامب ديفيد تتضمن كثيرا من النواقص ، غير أننا حققنا خطوة مهمة أولى على الطريق إلى سلام قد لا يكون للقدس وحدها ، إنما لما وراء القدس .



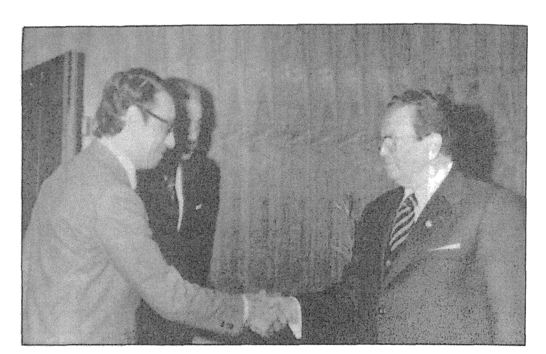
. تشكيل الوزارة برئاسة ممدوح سالم
ويقف د .بطرس بطرس غالى فى
الصف الأخير (أكتوبر ١٩٧٧) .



الرئيس السادات يلقى خطابه فى مجلس الشعب والذى أعلن فيه استعداده للذهاب لإسرائيل من أجل السلام (نوفمبر ١٩٧٧) .



الرئيس أنور السادات وحديث ضاحك مع جولدا مائير عند وصوله إلى إسرائيل (نوفمبر ١٩٧٧) .



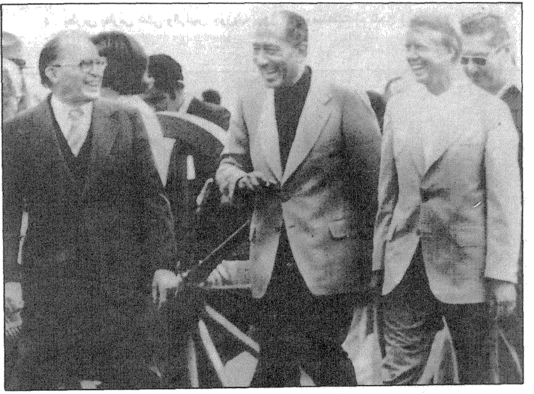
د . بطرس بطرس غالى والرئيس جوزيب بروز تيتو ومباحثات لم تنجح (يناير ١٩٧٨) .



عيدى أمين ود . بطرس بطرس غالى وأيديهما على رأسى راقصتين كما طلب الرئيس الأوغندى (يـونيـو ١٩٧٨) .



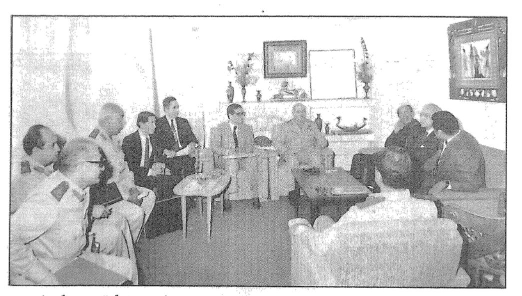
حسن التهامى يرحب بمناحم بيجن وبينهما د . بطرس بطرس غالى ويرى إلى الخلف الرئيسان أنور السادات وجيمى كارتر وعزرا وايزمان (سبتمبر ١٩٧٨) .



الرئيس السادات ومعه الرئيس الأمريكى جيمى كارتر ورئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن فى زيارة لساحة معركة جيتسبرج (سبتمبر ١٩٧٨) .



التوقيع على معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل :
الرئيسان جيمى كارتر وأنور السادات ورئيس الوزراء مناحم بيجن على المنصة (سبتمبر ١٩٧٨) .



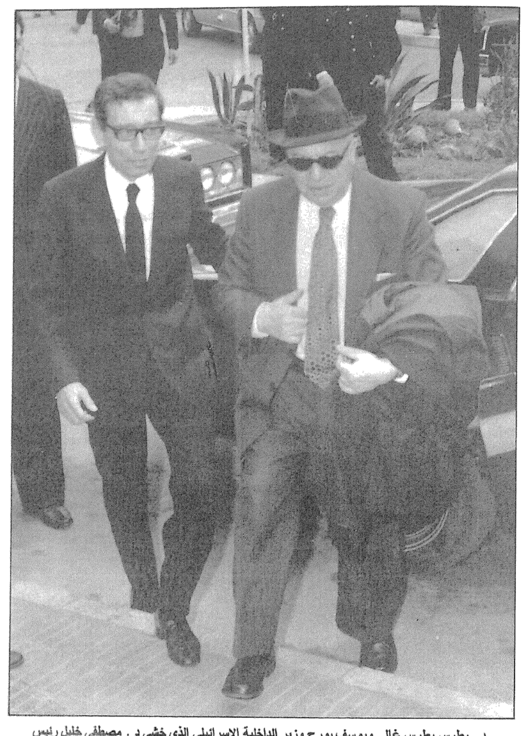
اجتماع الرئيس السادات مع وفد المفاوضات المسافر إلى واشنطن فى استراحة الهرم : وقد جلس بجواره د . مصطفى خليل رئيس الوزراء ، وجلس فى الوسط الفريق كمال حسن على ود . بطرس بطرس غالى (أكتوبر ١٩٧٨) .



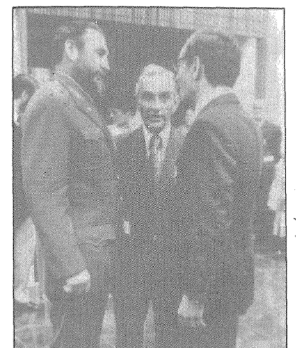
الرئيس الأمريكى جيمى كارتر مع الوفد المصرى لمباحثات السلام : الفريق كمال حسن على وزير الدفاع ود . بطرس بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية (أكتوبر ١٩٧٨) .



الوفد الأمريكى برئاسة سيروس فانس وزير الخارجية والوفد المصرى برئاسة د . بطرس بطرس غالى فى لقاء فى وزارة الخارجية الأمريكية (أكتوبر ١٩٧٨) .



د . بطرس بطرس غالى ويوسف بورج وزير الداخلية الإسرائيلى الذى خشى د . مصطفى خليل رئيس الوزراء أن يموت بمكتبه (يونيو ١٩٧٩) .



د . بطرس بطرس غالى مع فيدل كاسترو فى مؤتمر هافانا لدول عدم الانحياز (سبتمبر ١٩٧٩) .



حديث باسم بين موشى ديان وإلى جواره د . مصطفى خليل ود . بطرس بطرس غالى وإلياهو بن إليسار سفير إسرائيل فى القاهرة (مارس ١٩٨١) .

الفصل السادس

كامب ماديسون

الاشتباك

فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين ١٨ سبتمبر توجهت إلى مقر السفير حيث كان الرئيس السادات يعقد سلسلة من اللقاءات مع كبار الأمريكيين . كان على سجيته مع ديفيد روكفلر ، ولكنه يتفصد عرقاً ومتوتراً كعادته كلما تعرض لمواجهة جماهيرية ـ إنه على وشك الإدلاء بحديث إلى بربارا والترز . وقال لى وهو يسرع فى الممر : « أقبل يا بطرس . إننى على وشك مقابلة بار ـ با ـ راه » . وبينما كان السادات يتقبل بسرور الأسئلة التى توجهها بربارا الجميلة ، تسللت خارجا ، وتوجهت إلى متجر للملابس فى قلب واشنطن حيث وجدت البذلة التى احتاج إليها ، والحقيقة أننى اشتريت بذلتين .

ثم ذهبت إلى جناح محمد كامل بفندق ماديسون ودعوته لتناول الغداء معى . وجدته هادئا ، صافى الذهن ، ومرتاحاً للقرار الذى اتخذه فى اليوم السابق . لم يكن لديه أى شعور بالندم . وناقشنا معا عودته إلى القاهرة . فالسادات سيتوقف فى الرباط فى طريق عودته للقاهرة ، ووجود محمد كامل ضمن الوفد بعد استقالته سيبدو أمرا غريبا . ولم يكن كامل يدرى ماذا ينبغى عمله . وقرر العودة إلى القاهرة على متن طائرة تجارية .

وباستقالة محمد كامل ترددت التخمينات حول من سيخلفه كوزير للخارجية . كان

عصمت عبد المجيد وأشرف غربال ، سفيرا مصر لدى الأمم المتحدة والولايات المتحدة على التوالى ، يتطلعان إلى المنصب . لم يكن عبد المجيد قد شارك فى مفاوضات كامب ديفيد ، بينما شارك فيها غربال . ولكى أعطى عبد المجيد فرصة الحديث مع السادات ، طلبت إلى معاون الرئيس أن يسمح له بالركوب فى سيارته ، وذلك بحجة اطلاع الرئيس على مجريات الأمور فى الأمم المتحدة . وأثناء انطلاقهما إلى قاعدة أندروز الجوية ، حيث مراسم المغادرة ، أبلغ السادات عبد المجيد بأننى مطلوب فى القاهرة ، أى أننى لن أحضر اجتماعات الجمعية العامة فى نيويورك فى الخريف . وفهم عبد المجيد ذلك بأنه يعنى أن السادات يعتزم اختيارى وزيرا للخارجية .

ولدى صعودى الطائرة ، همس عصمت عبد المجيد فى أذنى قائلاً : « مبروك . لقد فهمت من الرئيس أنه قرر تعيينك وزيرا للخارجية » . لم آخذ هذه العبارة على محمل الجد ، وأجبته مازحا بأن مشكلتى الرئيسية ستكون من سيخلفنى وزيرا للدولة للشئون الخارجية ، « لأنه إذا كان شخصا مثلى ، فإن ذلك سيجعل وظيفة وزير الخارجية مستحيلة ! » .

ووصلنا إلى الرباط مع غروب الشمس ، ورافقت الرئيس إلى قصر الضيافة الذى وضعه الملك الحسن تحت تصرف السادات . وكانت قرينة الرئيس - جيهان السادات - وأفراد أسرته الذين سبقونا إلى الرباط هناك فى استقبال السادات لدى وصوله .

وتقدمت جيهان السادات الأنيقة ، الجميلة والذكية نحوى وقالت : « مبروك يا دكتور بطرس » . وشكرتها معربا عن تقديرى لثقة الرئيس السادات . وأدركت مرة أخرى أن الانطباع العام قد نشأ بأننى سأصبح وزيرا للخارجية . غير أن السادات - مرة أخرى - لم يقل لى شيئا . ولم أر مبررا وجيها يجعله يعيننى وزيرا لخارجيته .

لقد خطط السادات لوقوفه فى الرباط حينما بدا له أن بإمكانه الحصول على تأييد الملك الحسن لاتفاقية كامب ديفيد ، ولمقابلة الملك حسين عاهل الأردن هناك ، لمناقشة دخوله فى عملية السلام . كان السادات مخطئا تماما فى كلا الحسابين . فالملك حسين يعتقد بأن الوقت مبكر جدا للتورط فى التزام ، علاوة على استيائه لذكر الأردن فى اتفاقات كامب ديفيد دون موافقته . وأدركت مدى سوء تناولنا لعملية البحث عن تأييد عربى ، ومدى مناهضة العالم العربى للسادات . كان الأمريكيون يدافعون عن اتفاقيات كامب ديفيد قبل أن تدافع مصر عنها ، ولم يكن هذا مقبولا للعالم العربى . وكان السادات يضخم المشكلة بسلوكه الغاضب إزاء كل بادرة معارضة عربية . كان رد فعله عنيفا وقاسيا . وكان هناك ما يبرر هذا السلوك . فهو يشعر بأنه إذا أيده العرب ، فإنهم سيطالبون بأن يكون

لهم كلمة فى اتخاذ القرار ، وكان قد سئم فكرة النهج الجماعى العربى . ولم تكن المعارضة إلا لتحفزه على إعلان إزدرائه . أما نحن ، « عصابة » وزارة الخارجية ، فكان يشكل موقفنا ربع قرن من التضامن العربى ، وكنا نريد أكبر قدر من المشاركة والتأييد العربى . وانتابنا الأسى لرؤية المعارضة تتصاعد بمثل هذه السرعة ضد مبادرة السادات .

ودارت مناقشة طويلة وحادة بينى وبين محمد بوسته وزير خارجية المغرب ، الذى صرح بأننا ضحينا بالحقوق الفلسطينية لأن الاتفاقية لم تؤكد حق الفلسطينيين فى تقرير المصير من خلال حقهم فى إقامة دولة فلسطينية ، كما أن الاتفاقية لم تشر إلى منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى ، أو إلى حق العرب فى مدينة القدس المقدسة . وأعلن بوسته : « إنكم تقيمون سلاما منفردا » .

وقلت : لكن كامب ديفيد ليست سوى الخطوة الأولى نحو تحقيق العدالة للفلسطينيين ، وإن القدس ورد ذكرها فى الخطابات المتبادلة . وحثثت محمد بوسته على أن يتحدث مباشرة مع الرئيس السادات .

والتقى السادات والملك الحسن فى استراحة الصخيرات ، وهى مجموعة لطيفة من المبانى على شواطىء الأطلنطى على مسافة نحو ٢٥ ميلا من الرباط . وشرح الرئيس للعاهل المغربى الظروف والأجواء المحيطة التى سادت مفاوضات كامب ديفيد واستعرض النقاط الرئيسية للاتفاقيات . ثم دخل السادات والملك إلى غرفة لعقد اجتماع ثنائى وحدهما . وانتهزت هذه الفرصة للتنزه على شاطىء المحيط والاستمتاع بهواء البحر النقى .

وعندما خرج السادات بادرته بالسؤال : هل أقوم بإعداد بيان مشترك عن محادثاته مع الملك الحسن . وأجاب السادات فى غضب : « إننا لا نطالبهم بشىء . إذا أرادوا بيانا مشتركا فعليهم هم إعداده » . وأدركت أن محادثات السادات مع الملك الحسن لم تحقق آمال السادات . بالرغم من أن المغرب كانت الدولة التى يعتقد السادات أنها أول من سيسارع بتأييد ما قام به .

واقترحت أن يعقد الرئيس مؤتمرا صحفيا قبل مغادرة الرباط لضمان التغطية الإعلامية الإيجابية للأحداث من جانب الصحافة الأوروبية . وأوضحت له أن مؤتمره الصحفى فى واشنطن نجح فى التأثير على الإعلام الأمريكى فى تغطيته لكامب ديفيد . ولكن فى حين كان الإعلام الأمريكى راغبا فى الدفاع عن كامب ديفيد ، فإن قراءتى للصحف الأوروبية تشير بجلاء إلى أن الإعلام الأوروبى لا ينزع للسير فى اتجاه مماثل . وقلت إن الصحافة الفرنسية سوف تؤثر على كيفية النظر إلى كامب ديفيد فى دول المغرب

العربى ـ تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والدول الإفريقية الناطقة بالفرنسية . وأصدر الملك الحسن تعليماته للإعداد لعقد مؤتمر صحفى ودعوة الصحفيين الأجانب .

ووافق السادات . وجلست إلى جواره فى مواجهة جمع حاشد من الصحفيين . وكعادته دائما كان عصبيا أمام رجال الإعلام . غير أنه أعلن فى هدوء ووضوح أن هناك ارتباطا بين انسحاب إسرائيل من سيناء وانسحابها من الضفة الغربية وغزة . وكان عرض السادات رائعا . وأشارت مجموعة من الصحفيين إلى الحاجة لعقد المزيد من هذه المؤتمرات لتصحيح البلبلة التى أثارتها كامب ديفيد .

وغادرنا الرباط فى الصباح الباكر . وجاء الملك الحسن لتوديع السادات وبصحبته حشد من الوزراء الذين تقدموا لتقبيل يد الملك الحسن وفقا للتقاليد المغربية . ولم يتردد حسن التهامى فى احتضان الملك الحسن وتقبيل وجنتيه .

وأثناء الرحلة الجوية حاولت تخفيف الجوّ بالمزاح ، قائلا إن التهامى جرح الملك الحسن بلحيته الطويلة ، وإن الملك أصدر قرارا ملكيا بأن يحلق التهامى ذقنه فورا . وعندما نقلوا ذلك إلى التهامى لم يضحك .

ووصلنا إلى القاهرة عند الظهر حيث تجمعت الآلاف المؤلفة من المستقبلين فى المطار لتحية السادات بالهتافات والشعارات .

وفاجأتنى زوجتى حال وصولى إلى بيتى فى الجيزة بمطالبتى بالاستقالة من منصبى الوزارى . وقالت : « لقد انتهيت من مرحلة كامب ديفيد . وعليك الآن أن تترك الخطوة التالية للآخرين » . وشرحت لها أن المعركة قد بدأت من توها ، وأننى سأقود تلك المعركة على الجبهة الدبلوماسية . وازداد غضبها . فقد وصلتها أنباء من واشنطن بأننى استقلت مع محمد إبراهيم كامل وكانت سعيدة لسماع ذلك . ثم جاء لخيبة أملها ، تصحيح لهذه المعلومة ، الأمر الذى أثار انزعاجها . فقد كانت جدّ قلقة على سلامتى الشخصية .

وبالرغم من الاستقبال الحار للسادات فى المطار ، والمؤكد أنه استقبال مدبّر ، فإن موقف الأصدقاء والزملاء فى القاهرة كان سلبيا إزاء كامب ديفيد . وأخذت أشرح الاتفاقيات وأدافع عنها ، ولكنى لم أجد عونا كبيرا من الآخرين ، الذين كانوا قد عقدوا العزم على ما يبدو على تقديم معلومات خاطئة عما حدث فى كامب ديفيد وما تعنيه بالنسبة للمستقبل .

وفى استراحته فى القناطر الخيرية التقى السادات يوم ٣٠ سبتمبر مع ألفريد (روى) أثرتون ، المبعوث الخاص للرئيس كارتر ، وهيرمان ايلتس سفير الولايات المتحدة فى

القاهرة . وكان الرئيس قد وصل على متن طائرة هليكوبتر وبصحبته أسامة الباز . ونقل أثرتون للسادات نتائج محادثاته فى عمان والكويت وكذلك اتصالاته مع بيجن فى إسرائيل ومع الفلسطينيين فى الضفة الغربية . لم ينجح أثرتون . وكانت القطيعة السياسية لمصر قادمة على الطريق .

وبعد الظهر عقدت اجتماعا آخر مع أثرتون بمبنى وزارة الخارجية بميدان التحرير . وتمخضت جولة أثرتون عن اتفاق ببدء المفاوضات الثلاثية حول عملية السلام فى الأسبوع التالى فى واشنطن . وتقرر أن أرأس الوفد المصرى ، وأن يرأس ديان الوفد الإسرائيلى .

وأكد أثرتون أن الأمريكيين سيشنون حملة دبلوماسية في العالم العربى ولن يدخروا وسعا لتوضيح اتفاقيات كامب ديفيد والدفاع عنها . وأوضحت لأثرتون أهمية مشاركة الأمم المتحدة فى المفاوضات القادمة . بيد أنه بلغتنا معلومات تشير إلى أن الأمم المتحدة أبعد ما تكون عن الحماس للمشاركة . وقيل لنا إن الأمين العام للأمم المتحدة فالدهايم كان بالغ الحساسية إزاء المعارضة العربية لكامب ديفيد .

وفى يوم الاثنين الموافق ٢ أكتوبر ، ألقى السادات خطابا أمام مجلس الشعب المفعم بالحماس ، حول نتائج محادثات كامب ديفيد . وقاطع الأعضاء خطابه مرارا بالتصفيق الحاد وقوفا . وفى اليوم التالى جلست أمام اجتماع مشترك للجان الرئيسية : لجنة العلاقات الخارجية ولجنة العلاقات العربية ولجنة الأمن القومى . وكانت مهمتى هى الرد على كافة الأسئلة حول كامب ديفيد . وكان رئيس الاجتماع سيد مرعى ، وهو أيضا رئيس مجلس الشعب ، قد أعلن أن جميع الأعضاء بغض النظر عن إنتماءاتهم السياسية مسموح لهم بالإعراب عن رأيهم ، وأن الاجتماع لن ينفض إلا بعد الاستماع إلى كل فرد .

وتقدم الأعضاء بعدد ضخم من الأسئلة التى حاولت الإجابة عنها بوضوح وصراحة . وقلت إنه لم تبرم اتفاقات سرية فى كامب ديفيد ، وإن مصر ستستعيد سيناء كلها ، وإنه لن يسمح بوجود قواعد عسكرية أمريكية هناك ، ولن تنشأ « علاقة خاصة » بين مصر وإسرائيل ، وإنه قد تم الاتفاق على تجميد المستوطنات الإسرائيلية طوال فترة المفاوضات . وإلى جانب ذلك ، فإن القدس العربية جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية ، وكل ما ينطبق على الضفة الغربية سينطبق عليها . وقلت إن الموقفين المصرى والأمريكى متطابقان فى هذا الشأن . وأخيرا فإن إطار كامب ديفيد يفتح الطريق أمام سوريا للتوصل إلى تسوية حول الجولان عن طريق التفاوض ، على غرار ما توصلت إليه مصر بشأن سيناء . وهكذا أكدت للبرلمانيين أن المبادرة المصرية تستهدف التوصل إلى حل شامل لجميع جوانب النزاع العربى الإسرائيلى .

واستغرق الاجتماع اليوم كله . وعندما رفع سيد مرعي الجلسة في المساء ، أعلن أنها ستعود إلى الاجتماع في اليوم التالي . وفي اليوم التالي أجبت عن كل سؤال إلى أن توقف أعضاء المجلس مجهدين .

وفي غضون أسبوع كنا قد أعددنا العدة للعودة إلى واشنطن لبدء المفاوضات التفصيلية لتحويل إطار كامب ديفيد إلى معاهدة سلام . ودعا السادات أعضاء الوفد إلى استراحته القريبة من أهرامات الجيزة . كانت هناك خرائط كبيرة لشبه جزيرة سيناء معلقة على الحوائط . وأخذ السادات يشير أثناء حديثه إلى نقاط على الخرائط لتمكين عدسات التليفزيون من تسجيل تعليماته لنا قبل المغادرة .

وبعد أن ترك الصحفيون والمصورون المكان طلب مني السادات قراءة نص مشروع اتفاق السلام الذي تعتزم مصر التقدم به في واشنطن . وكان المشروع الذي يتضمن اثنتين وعشرين مادة من إعداد الدكتور عبد الله العريان ولجنة من الخبراء تحت إشرافي . ثم خرج الجميع ليلتفوا حول الرئيس لإتاحة الفرصة للمصورين لالتقاط الصور التي تظهر الأهرامات في خلفيتها .

وبينما كنت أهم بركوب سيارتي أسرع نحوي الدكتور عبد الله العريان ليشكرني بحرارة على إتاحة الفرصة له لأول مرة لتقديم عرض أمام رئيس الدولة . وقال إنه أمر غير عادي إطلاقا أن يسمح الوزير لشخص آخر القيام بدور بارز في حضرة الرئيس .

وفي طريقنا من القاهرة إلى واشنطن توقفنا ـ كما سبق ـ في باريس . وفي قصر الإليزيه تحدث معي جان فرانسوا بونسيه ، سكرتير عام الرئاسة ، عن مهمتي ، وقال : « إذا لم تتمكن من التوصل إلى اتفاق بشأن الفلسطينيين قبل توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية فكن على ثقة من أنك لن تحصل لهم على شيء فيما بعد من الإسرائيليين » . ذلك أن وسيلة الضغط الوحيدة لمصر ـ كما قيل لي ـ هي عدم توقيع المعاهدة قبل الحصول على حق تقرير المصير للفلسطينيين .

كانت نظرة الأمريكيين للأوروبيين هي نفس نظرة السادات للعرب ، وهي أنهم إذا شاركوا في المفاوضات فسوف يجعلونها أشد تعقيدا . وحيث إنه تم استبعاد العرب ، والأوروبيين والسوفيت والفلسطينيين جميعا من كامب ديفيد ، فلذا لم يشعر أحد منهم بأي التزام لتأييد كامب ديفيد . لقد أحس العرب بالمهانة ، وشعر الأوروبيون بالعداء ، وعمد السوفيت المنبوذون إلى انتهاز الفرصة لتحقيق مكاسب سياسية في الشرق الأوسط . وكنا نظن أن الولايات المتحدة – تلك القوة العظمى المهيمنة – ستحصل بسهولة على تأييد زعماء

العالم والمنطقة الرئيسيين . ولكنه مع مرور الأيام أخذ يتضح أن هذا لن يحدث وأننا طفقنا نصبح معزولين بصورة متزايدة .

كانت الرحلة من باريس إلى واشنطن مريحة وبدت سريعة ، ربما بسبب الفيلم الذى استمتعت بمشاهدته ، حول رسام أمريكى وقصة حبه لشقراء باهرة الجمال .

وفى واشنطن لم نكد نتعرف على غرفنا فى فندق ماديسون حتى وجدنا أنفسنا فى الطريق إلى البيت الأبيض حيث رحب بنا الرئيس كارتر . وكان بصحبته برجنسكى ووليام كوانت ، بينما كان روى أثرتون ، وهارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط يمثلان وزارة الخارجية .

وقال كارتر إن إدارته أعدت مشروعا لمعاهدة سلام مصرية إسرائيلية ، وإن المفاوضات ينبغى ألا تتعدى ثلاثة شهور ، وإن المرحلة الأولى للانسحاب الإسرائيلى من سيناء يمكن أن تتم بعد ذلك فى غضون ستة شهور . وأعرب عن أمله فى اختصار الزمن اللازم للانسحاب الكامل من ثلاث سنوات إلى سنتين .

وقلت لكارتر إن تقصير زمن الانسحاب كان واحدا من مطالب مجلس الشعب المصرى . وبدا واضحا من تعليقات كارتر أنه - مثلنا - يرى ضرورة ربط معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية بالتقدم لصالح الفلسطينيين .

وعدنا إلى فندق ماديسون حيث تم تسكين الوفد المصرى فى الدور التاسع والوفد الإسرائيلى فى الدور العاشر . وقابلت عزرا وايزمان فى ردهة الفندق ، ورأيته قلقا ومتحيرا . إذ كان السادات قد عين رئيسا جديدا لمجلس الوزراء - مصطفى خليل - كما قام فى إطار التعديل الوزارى بإقصاء وزير الدفاع الفريق عبد الغنى الجمسى .

وكان وايزمان قد أنشأ علاقة قوية مع الجمسى ، ولم يكن يعرف الكثير عن خلفه كمال حسن على . وكان على اقتناع بأن علاقة العمل الجيدة بينه وبين الجمسى كانت ستساعد فى التغلب على الكثير من العقبات . وبدا قلقا بشأن إمكانية بناء علاقة مماثلة مع كمال حسن على .

ولو كان وايزمان أى إسرائيلى آخر ، ولو كانت لى عقلية ترى فى كل شىء مؤامرة ، لظننت أنه يلمح لى بأن أقوم أنا بدور الجمسى معه ، الأمر الذى كان سيؤدى إلى توتر العلاقات بينى وبين كمال حسن على ، باعتبارنا رئيسين للوفد المصرى . غير أننى أدركت صدق القلق الذى ينتاب وايزمان . وقلت لوايزمان إن كمال حسن على رجل لطيف

وبشوش ، وليس هناك سبب يحول دون إقامة علاقة معه لا تقل عمقا عن علاقته بالجمسى . كان خاله ـ كمال المهندس ـ قد درّس لى الشريعة ، وكان كمال حسن على يضع ثقته فيّ . واقترحت أن نتوجه معا على الفور إلى جناح كمال حسن على . ورحب وايزمان بالفكرة ، وذهبنا إليه من فورنا . كان كمال حسن على أحد أبطال الحروب العربية الإسرائيلية ، وقد أصيب فيها بجراح . وكانت المؤسسة المصرية تغلب عليها الثقافة العسكرية ، وكان كمال حسن على يحظى بشعبية فى داخلها . وسرعان ما أدى ذكاؤه ولطفه وروحه المرحة وتواضعه وأمانته الفكرية وأسلوبه العسكرى إلى كسب وايزمان .

وفى يوم الخميس ١٢ أكتوبر بدأت المفاوضات رسميا فى احتفال بالبيت الأبيض . وبعد أن ألقى جيمى كارتر وموشى ديان وكمال حسن على كلماتهم ، سألت الرئيس الأمريكى : « ماذا عن المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية وغزة ؟ » . واعتدل كارتر غاضبا ، وقال : « أنا رئيس الولايات المتحدة ، وهذه مشكلتى » . و « زغدنى » كمال حسن على من تحت المائدة وهمس فى أذنى بالعربية : « اسكت . توقف ! إنك تثير غضبه ! » . وكان يحق لكارتر أن يغضب . فقد تبادل هو وبيجن خطابات جانبية حول المستوطنات الإسرائيلية . وأعتقد كارتر أنه حصل على التزام بيجن بالتجميد طوال فترة المفاوضات ، ولكن بيجن ادعى أنه وافق على فترة ثلاثة أشهر يتوقف خلالها النشاط الاستيطانى . وفى ختام الجلسة انتقلنا إلى بلير هاوس ، مقر الضيافة الرسمى ، على الضفة الأخرى من شارع بنسيلفانيا فى مواجهة البيت الأبيض .

وعندما انتهت جلسة المفاوضات الأولى عدنا إلى فندق ماديسون حيث التقيت أنا وديان فى جناحه . وذكرته بالحديث الذى دار بيننا فى السيارة من القدس إلى تل أبيب قبل نحو سنة ، حين أكدت له حتمية إيجاد حل للقضية الفلسطينية . وقال ديان إنه مستعد للبحث عن صيغة ملائمة لتحسين أوضاع الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة . وأبلغته بضرورة تحقيق بعض التقدم من أجل احتواء حملة الرفض العربية . وقال ديان إن أفضل طريقة لذلك هى الإسراع بالعملية والتوصل إلى اتفاق قبل انعقاد مؤتمر القمة العربى فى بغداد . وتساءلت : هل نستطيع التوصل إلى اتفاق وتوقيعه قبل نهاية شهر أكتوبر ؟ أى قبل أقل من ثلاثة أسابيع من الآن . وأجاب ديان بقوله : نعم ، ولكن ذلك لن يكون سهلا . ذلك إن على الحكومة الإسرائيلية أن تواجه الرفض الداخلى الإسرائيلى لكامب ديفيد ، بينما المعارضة لمصر خارجية ، تأتى من الدول العربية الأخرى . وفى حين أننى كنت أريد تأييدا عربيا عريضا ، فإننى أدركت أن مثل هذه المعارضة يمكن أن تدفع عنا ضغوطا إسرائيلية للحصول على مزيد من التنازلات .

وعقب اجتماع مع وزير الخارجية سايروس فانس فى وقت متأخر من اليوم ، طلبت إلى الدكتور عبد الله العريان وعمرو موسى من وزارة الخارجية اقتراح عدة إجراءات يمكن أن تتخذها إسرائيل لبناء الثقة بين الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة . وكان كثير من الأفكار التى طالبت زملائى بأن يضمنوها اقتراحاتهم قد جاء من المناقشات الطويلة التى عقدتها مع ديان . وكنت أعتزم تقديم قائمة إجراءات بناء الثقة هذه إلى فانس فى اليوم التالى . وكان من الأسلم انتظار رأى القاهرة قبل إعداد مثل هذه المذكرة ، ولكن الحاجة إلى التحرك سريعا جعلتنى أتصرف بدون تردد .

وفى يوم الجمعة ١٣ أكتوبر اجتمعت الوفود الثلاثة طوال اليوم فى بلير هاوس . قدم سايروس فانس المشروع الأمريكى للمعاهدة . واعترض ديان على الربط الوارد فى المشروع بين المعاهدة والتسوية الشاملة فى الشرق الأوسط . وقال إن الوفد الإسرائيلى قد فوضه الكنيست فقط للتفاوض حول معاهدة مع مصر . ولذلك فإنه يستحيل ربط هذا الاتفاق مع أمور أخرى .

وأجبت بأنه طبقا لاتفاق كامب ديفيد فإن المعاهدة المصرية الإسرائيلية ليست إلا خطوة أولى فى سلسلة من المعاهدات الأخرى ، وأن جميع الخطوات مرتبطة ببعضها البعض . وقال ديان إنه مضطر مع ذلك إلى أن يرفض أى ارتباط بين المعاهدة المصرية الإسرائيلية وغيرها من الاتفاقات ، خاصة أن الأطراف العربية الأخرى رفضت مبدأ التفاوض مع إسرائيل نفسه .

وحاول مائير روزين المستشار القانونى الإسرائيلى التقليل من أهمية الفقرات الواردة فى اتفاقات كامب ديفيد التى تطالب بسلام شامل . ولم يوافق فانس على ذلك ، ولكنه أوضح أنه لن يعارض تغيير وضع بعض الفقرات فى المشروع الأمريكى . ونتيجة لذلك فإن الفقرة المتعلقة بالسلام الشامل تم نقلها إلى مقدمة مشروع معاهدة السلام حيث إنها ـ كما يفهم المتخصصون فى القانون الدولى ـ تكون أقل إلزاما من النصوص الواردة فى صلب المعاهدة .

وكشف الاجتماع عن اختلافات عميقة . كان الخلاف حول الكلمات ، ولكن الكلمات تمثل حقائق . فإسرائيل كانت ترغب فى إعلان نهاية حالة الحرب . ولكن كيف نوافق على ذلك بينما القوات الإسرائيلية تواصل احتلال سيناء ؟

كما اختلفنا أيضا حول الصياغة المتعلقة بالحدود المصرية الإسرائيلية ، حيث إنه كان يمكن تفسيرها بأن قطاع غزة يقع فى داخل إسرائيل . وكانت إسرائيل قد أعربت بالفعل

عن مثل هذه الدعاوى بالنسبة لبعض الأراضى التى تحتلها ، وكانت تلك الصياغة ستضع قيودا على حرية مصر فى الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى .

ووراء هذه المعركة الدبلوماسية الحامية ، كانت هناك خلافات أساسية بيننا نحن وبين إسرائيل : إن مصر تصر على سلام شامل يشمل الفلسطينيين وجميع الأطراف العربية ، بينما تسعى إسرائيل إلى سلام منفرد مع مصر .

كانت المملكة العربية السعودية ، هى مفتاح التأييد العربى لكامب ديفيد . وفشل الأمريكيون فى إقناع السعوديين ، وبصورة عامة أساءوا تقدير عمق المعارضة العربية . وكان السادات قد بعث بالتهامى ليتحدث إلى السعوديين ولكن بدون جدوى .

وإزاء هذا الرفض ، وضع الأمريكيون تحت تصرفنا طائرة خاصة لتحملنى أنا وكمال حسن على إلى كليفلاند بولاية أوهايو حيث كان الملك خالد قد أجرى عملية دقيقة فى القلب . وتوجهنا مباشرة من المطار إلى المستشفى . واستقبلنا الملك خالد فى غرفته بالمستشفى . وقمنا بتحيته وتهنئته ، وتمنينا له شفاء عاجلا ، وبعد خمس دقائق استئذناه فى المغادرة . وانتقلنا إلى غرفة مجاورة لمقابلة مستشار الملك وسفيره الأمير بندر . لم أسع لطلب التأييد السعودى لكامب ديفيد ، فقد كنت أدرك أنهم لن يمنحونا ذلك . وبدلا من ذلك طلبت التأييد السعودى لجهود مصر فى تحقيق سلام شامل من شأنه أن يؤدى إلى انسحاب إسرائيل على كافة الجبهات .

وفى ختام لقائنا ، همس مستشار سعودى فى أذنى قائلا : « أشكرك على تحليلك الواضح . لقد جاءنا التهامى قبل أسبوعين ولم نستطع فهمه . لقد قال لنا إن هناك نصوصا سرية حول عدة مسائل بما فى ذلك القدس » . وأكدت له بحزم عدم وجود اتفاقات سرية . وأبلغته بأننى قد أوضحت أمام البرلمان المصرى عدم وجود أى نصوص سرية .

وبينما كنت أغادر المستشفى ، أسعدنى معرفة أن طبيب التخدير الذى تابع حالة الملك خالد مصرى .

وعقب عودتى إلى الفندق فى واشنطن ، اتصل بى حسن صبرى الخولى الذى تربطه صلات قريبة بالأسرة المالكة السعودية . وطلبت إليه أن يحث السعوديين على استغلال فرصة مأدبة الغداء التى سيقيمها الرئيس كارتر فى البيت الأبيض خلال أيام تكريما للملك خالد ، فى الضغط على الأمريكيين بشأن الحاجة إلى ربط الانسحاب الإسرائيلى من سيناء بالانسحاب من الضفة الغربية وغزة . واتصل الخولى بى تليفونيا مرة أخرى فى الساعة الواحدة صباحا ليقول إن لقاءنا فى مستشفى كليفلاند كان إيجابيا .

وفى صباح اليوم التالى سلمت الأمريكيين مذكرة مصرية بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٧٨ . وجاء فيها رأى مصر فيما هو مطلوب للضفة الغربية وغزة : تجميد المستوطنات ، ومشاركة منظمة التحرير الفلسطينية إذا قبلت القرار رقم ٢٤٢ ، ومشاركة القدس الشرقية فى التصويت على الحكم الذاتى الفلسطينى ، وإعادة الأراضى التى استولت عليها إسرائيل فى الأراضى المحتلة ، والسماح بالبنوك العربية فى الضفة الغربية وغزة ، وحرية الاجتماع والتعبير والحركة للفلسطينيين فى الأراضى المحتلة ، والإفراج عن المعتقلين السياسيين الفلسطينيين ، وعودة عدد من اللاجئين الفلسطينيين النازحين فى حرب ١٩٦٧ ، وإشراف مراقبين دوليين أو تابعين للأمم المتحدة على انتخابات السلطة الفلسطينية ، والانسحاب الفورى لبعض القوات الإسرائيلية من بعض أجزاء الضفة الغربية وغزة ، وإعادة نشر القوات الأخرى .

وأبلغت ديان بهذه الورقة ولم يسعده ذلك . فبالنسبة له ، ليس هناك من موقف صحيح إلا إذا كان جزءا من اتفاق كامب ديفيد . كان ديان هو العقل الإسرائيلى ، فهو يتمتع بالشجاعة الفكرية والقدرة على التخيل ، وكان يحظى بثقة بيجن . وكانت جلسات العمل بيننا تقتصر دائما علينا نحن الاثنين فقط . وفى يوم الأحد ١٥ أكتوبر ١٩٧٨ وفى فندق ماديسون توصلنا إلى اتفاق على أنه بالإضافة إلى الاتفاق المصرى الإسرائيلى ، فإن اتفاقا ثانيا ملحقا بمعاهدة السلام يمكن أن يتناول المسألة الفلسطينية .

وتناول الوفد المصرى المفاوض الغداء على مائدة أشرف غربال بالسفارة المصرية . وكان قد دعا عددا من السفراء العرب فى واشنطن . وشرحت لهم الجهود المصرية والمشكلات والعقبات التى نواجهها . واستمعوا دون أى تعبير ولم يقولوا شيئا . فليست لديهم تعليمات ولن يغامروا . وعندما علم السادات بهذا اللقاء استشاط غضبا وبعث ببرقية إلينا فى واشنطن . كانت رسالته بألا نضيع الوقت فى الحديث إلى السفراء العرب . وزعم بأنه لا يحتاج إلى تأييد عربى . ويبدو أن مزاج السادات كان يتغير يوميا تقريبا . فهو فى يوم يزدرى العرب ، وفى اليوم التالى يكتئب لقراءة الصحافة العربية التى تتهمه بالخيانة ويتوق لكسب ودّ العرب .

وفى منتصف أكتوبر تلقينا من مجلس الشعب فى القاهرة مبادىء توجيهية مفصلة لنسترشد بها فى المفاوضات . كان أعضاء المجلس قلقين ويريدون أن يشاركوا فى الجهود الدبلوماسية . ورحبت بمشاركتهم ، لأننا نستطيع الآن أن نوضح للإسرائيليين والولايات المتحدة القيود التى تمليها علينا السياسة الداخلية والرأى العام فى مصر .

وبعد اجتماع عمل يوم الاثنين ١٦ أكتوبر ، أبلغنا وايزمان بأن ديان متشائم وغاضب ، وبأنه لا يدرى سببا لذلك . واستجابة لطلب وايزمان طلبت ديان تليفونيا . وسألته : « أين تتناول عشاءك هذا المساء ؟ » . وجاءنى الرد : « إننى لا أتناول شيئا فى المساء » . فقلت : « ماذا تفعل عندما تتلقى دعوة على العشاء ؟ » . وأجاب ديان : « أقبلها إذا كانت رسمية » . وقلت : « إذن فأنا أقدم لك دعوة رسمية للعشاء معى فى مطعم الفندق » . وأجاب : « لذا فإننى ملزم بقبول الدعوة وأشكرك عليها ، ولكن لماذا لا نلتقى فى غرفتى قبل العشاء لتناول شراب ؟ » .

وأثناء تناولنا الشراب تحدثت أنا وديان حول موضوع « غزة أولا » . وقلت إن وجودا مصريا مؤقتا فى غزة من شأنه أن يسهل انسحاب القوات الإسرائيلية . وقال إنه لا مانع لديه ، ولكن أى شكل من الوجود المصرى سوف يتعرض لهجوم فلسطينى . وأضاف ساخرا إن وجود مكتب مصرى فى غزة قد يحتاج إلى حماية إسرائيلية .

وكانت محادثاتنا حول موضوع « غزة أولا » شخصية بحتة ، فلم يكن أى منا مخولا من حكومتينا بالتفاوض الرسمى حول هذه الفكرة . وقد أشرت إليها فقط كخطوة نحو الدولة الفلسطينية . فمصر لا ترغب فى ممارسة السلطة على الفلسطينيين ، وأهل غزة لا يريدون ارتباطا مع مصر . فمصر احتلت غزة من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٧ ، ولم يكن أى من الطرفين سعيدا بذلك .

وفى اليوم التالى تناولت الغداء مع زبجنيو برجنسكى وأسامة الباز فى مكتب برجنسكى فى البيت الأبيض . وتحدثنا عن العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل . كان الإسرائيليون يريدون ذلك فى أقرب وقت ممكن . وقلت إن العلاقات ينبغى أن تأتى تدريجيا ، ويجب أن تبدأ أولا بإعلان العلاقات الدبلوماسية . ثم تقوم كل دولة بإرسال بعثة دبلوماسية يرأسها قائم بالأعمال إلى الدولة الأخرى . وأخيرا يجرى تعيين السفراء فى القاهرة وتل أبيب . وشعرت بأن كلامى قد قوبل بأدب ولكنه صادف معارضة هادئة .

وبعد الظهر استقبلنا الرئيس كارتر . وفى قاعة تيودور روزفلت حيث جلسنا معا حول المائدة ، اتهمنى كارتر بتعقيد مسألة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل . وأجبته بأن الأمر له حساسية خاصة لدى الرأى العام المصرى والعربى .

ولم نحقق شيئا فى هذا اليوم . كانت التعليمات الواردة من القاهرة غامضة . وكان الإسرائيليون يستهدفون دفعنا بسرعة إلى سلام منفرد وإقامة علاقات دبلوماسية كاملة بعد انسحابهم إلى خط العريش / رأس محمد . وكانوا يطالبون أيضا بروابط تجارية لضمان

استمرار تدفق البترول المصرى من آبار سيناء إلى إسرائيل . إن ما كانت إسرائيل تريده هو تحييد مصر تماما وإبعادها عن الساحة العربية . وفى الوقت نفسه كنا نخشى أن يقدم السادات تنازلات أبعد ما تكون عن أسوأ مخاوفنا . فالسادات هو الرئيس . ويستطيع تجاهل مستشاريه وتخطى مجلس الشعب وتجاوز رغبات الشعب المصرى ، وكان يستمتع باستعراض سلطته .

وعلى الجبهة الفلسطينية كان الأمر أشد سوءا . فقد رفضت إسرائيل بفظاظة التخلى عن السيطرة العسكرية على الضفة الغربية وغزة بغض النظر عن شكل الحكم الذاتى الفلسطينى . وأصرّت على بقاء القدس موحدة تحت السيادة الإسرائيلية عاصمة لإسرائيل . وأقصى ما يمكن لإسرائيل أن تقدمه للمسلمين والمسيحيين هو وعد بأنهم يستطيعون زيارة الأماكن المقدسة . وبرّر الإسرائيليون هذا الموقف على أساس الرفض الفلسطينى ، الأمر الذى سهل على الأمريكيين أن يقللوا لأدنى حد من أهمية ربط الاتفاق المصرى الإسرائيلى بالمسألة الفلسطينية .

وجاء رد ديان علىّ قويا . إذ قال : « كيف تطالب مصر بمثل هذا الربط بينما الفلسطينيون يرفضون التعامل مع إسرائيل ؟ والحقيقة أيضا أنهم يرفضون التعامل مع مصر فى ظل إطار كامب ديفيد » . وكان ديان محقًا فى ذلك . ولكننى كنت أسعى إلى خلق سياق يعطى الفلسطينيين وغيرهم من العرب الثقة من أجل المشاركة فى العملية . وعلى العكس من ذلك ، كانت الثقة تضمحل يوما بعد يوم .

وفى مساء ١٨ أكتوبر أقام الأمريكيون مأدبة عشاء فى القاعات الدبلوماسية الفاخرة بالدور الثامن من مبنى وزارة الخارجية . وعزفت فرقة موسيقى تابعة للجيش الأمريكى مقطوعات خفيفة ، وأنشدت جوقة من المغنيين ألحانا بهيجة . وأثناء العشاء ناقشت مع بيل كوانت فكرة بدء الانسحاب الإسرائيلى من غزة وإقامة وجود مصرى مؤقت هناك لتوفير الأمن فى الوقت الذى تنسحب فيه إسرائيل .

وكان واضحا من تعليقات كوانت أن الأمريكيين يعلمون أن حكومتى فى القاهرة ترفض فكرة وجود مصرى فى غزة . والحقيقة أن الأمريكيين كانوا يعرفون القرار المصرى قبل وفدنا فى واشنطن . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى نكتشف فيها أن الأمريكيين يقفون على تعليمات القاهرة قبل وصولها إلينا ، نحن المفاوضين المصريين فى واشنطن .

وفى بلير هاوس يوم ١٩ أكتوبر أعلن أثرتون أن الرئيس كارتر سيدعو ثلاثة أعضاء

فقط من كل وفد إلى غداء عمل بسبب المقاعد المحدودة على المائدة . واستشاط ديان غضبا . وقال : « هذا مستحيل . إن الوفد الإسرائيلى يضم أربعة أعضاء ، وإذا لم توجه الدعوة للأعضاء الأربعة فإن الوفد لن يحضر ! » . وانسحب أثرتون لبضع دقائق ثم عاد لإبلاغنا بأنه تم توسيع المائدة بما يسمح بحضور أربعة أعضاء من كل وفد .

وحضر الغداء من المصريين كل من كمال حسن على وأشرف غربال وأسامة الباز وأنا . وكان الإسرائيليون هم ديان ووايزمان وروزين وباراك . وكان هناك ثلاثة أمريكيين .

وأكد لنا كارتر مرة أخرى أنه سيلعب دورا نشيطا وإيجابيا . ولكن ديان كان منحرف المزاج مرة أخرى ، وأعلن أنه غير مخول بالتفاوض بصورة كاملة ، وبأن مفتاح الموقف بيد القاهرة والقدس . وشعرت بأن ديان يحاول دفع الأمريكيين جانبا . وعندما تحدثت مرة أخرى عن أهمية ربط الانسحاب من سيناء بالمسألة الفلسطينية ، أيدنى كارتر قائلا إنه لم يكن هناك شك فى كامب ديفيد فى وجود رابطة قوية وملموسة بين اتفاق السلام المصرى الإسرائيلى ، والتسوية الشاملة بصفة عامة ، والمسألة الفلسطينية بصفة خاصة . وأضاف قوله إنه من المفيد لكل الأطراف الاتفاق على موعد للانتخابات فى الضفة الغربية وغزة حتى يشعر الفلسطينيون بجدية نوايانا . ثم اقترح كارتر أن تتخذ إسرائيل خطوات محددة .

كنت متأكدا استنادا إلى ملاحظات كارتر من أنه قرأ مذكرتنا المؤرخة فى ١٣ أكتوبر ، وأنه تأثر بما جاء فيها . واعتقدت أنه قد يؤيد الموقف المصرى .

وطلب ديان الكلمة ليعلن رفضه ربط المعاهدة المصرية الإسرائيلية بالضفة الغربية وغزة . وأعاد قوله إن سكان الضفة الغربية وقطاع غزة لن يقبلوا اتفاقيات كامب ديفيد ويرفضون أيا من إجراءاتها . كما اعترض على أى وجود مصرى فى غزة ، على عكس ما دار بيننا من حديث قبل يومين . وقال إن لا شىء فى إطار كامب ديفيد يشير إلى دور عسكرى مصرى هناك .

وكنت على وشك الردّ بأن لا شىء فى نصوص كامب ديفيد أيضا يحظر وجودا مصريا فى غزة ، ولتذكير ديان بموافقته فى حديثنا الخاص على مبدأ الوجود المصرى فى القطاع ، ولكننى أحجمت ، وذلك لأن « بناء الثقة » أمر أساسى بين المفاوضين ، وأن ما يرد ذكره فى محادثات خاصة ينبغى عدم إفشائه فى اجتماعات رسمية . وتدخل كارتر قائلا إنه بعد استماعه إلى الجانبين فإنه سيطلب إلى معاونيه إعداد مشروع جديد للمعاهدة ، المشروع السادس . فالأمريكيون الثلاثة ـ كارتر وفانس وأثرتون ـ أصبحوا الآن فى واقع الأمر هم واضعى مسودات المعاهدة ، بينما عكف ديان وباراك على النص فيما يخص إسرائيل ، وعكفت أنا وأسامة الباز على نفس الشىء لمصر .

وذهبت يوم السبت ٢١ أكتوبر ، استجابة لطلب الرئيس كارتر ، إلى البيت الأبيض فى السابعة صباحا . وطلبت إلى الدكتور عبد الله العريان المستشار القانونى للوفد المصرى أن يصحبنى . لم تكن الشمس قد بزغت بعد . ودلف كارتر إلى قاعة الاجتماعات بعد دقائق من دخولنا فى بذلة زرقاء ورباط عنق أزرق . وقال إنه بدأ فى الخامسة صباحا فى وضع الأفكار التى سيناقشها معنا .

وقلت مازحا إننى شخصيا لم أذق طعم النوم طوال الليل خوفا من أن أتأخر . وتجاهل كارتر تعليقى . وبجدية تامة اقترح تبادل خطابات بشأن الضفة الغربية وغزة تتضمن جدولا زمنيا لعقد اجتماع بين مصر وإسرائيل لمناقشة انتقال السلطة من العسكريين الإسرائيليين إلى السكان الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة . كما يحدد الجدول الزمنى موعدا لانسحاب القوات الإسرائيلية وإعادة نشرها فى مواقع جديدة ومحددة . وبعد استعراض تفاصيل الاقتراحات الأخرى ، قال لى كارتر إنه يتعين عليه مغادرة واشنطن إلى مكان آخر فى الولايات المتحدة . وقال إنه سيصلى من أجل التغلب على العقبات التى تحبط مفاوضاتنا .

وطوال الاجتماع كان كارتر صارما وجادا وغير ملاطف . ولم تنفرج أساريره إلا عندما أسمعه السفير عبد الله العريان - وهو مداح مسرف - فيضا من الثناء عليه . وأعلن أنه قرأ كتاب كارتر « *لماذا لا تكون الأفضل ؟* » . والواقع أنه كان قد أعاد قراءته وأخذ يقرأه المرة تلو الأخرى . وكان يضع الكتاب بالفعل فوق المنضدة بجوار السرير . وأكد للرئيس أنه يعود إلى الكتاب ليستمد التأييد المعنوى فى أوقات الشدة .

ولدى عودتى إلى الفندق أسرعت لتناول الإفطار ثم إلى جناح كمال حسن لاطلاعه على ما دار فى اجتماعنا بالبيت الأبيض . ثم صعدت إلى الدور الحادى عشر حيث ينعقد اجتماع ثلاثى للمفاوضات ، وإن لم يكن على المستوى الوزارى . كنت أحل مؤقتا محل أسامة الباز الذى طار إلى باريس لمقابلة مبارك . وعندما تناهى إلى ديان أننى أشترك فى المفاوضات ، جاء هو الآخر إلى الدور الحادى عشر وانعقد فى الواقع « اجتماع وزارى » . بدأنا فى التاسعة صباحا وواصلنا حتى الرابعة بعد الظهر .

وبينما كنا نناقش صياغة الخطابات المتبادلة التى اقترحها كارتر ، ظهرت عقبة جديدة . فالإسرائيليون يصرّون على تسمية الضفة الغربية بـ « يهودا والسامرا » . وهكذا لن تتماثل خطاباتنا إذا استخدموا هم « يهودا والسامرا » واستخدمنا نحن « الضفة الغربية » . وخشينا ألا تصبح الخطابات المتبادلة اتفاقية دولية صحيحة . واستمرت المناقشة فى جو متصاعد من التنافر . وفى إحدى النقاط تبادلنا ، ديان ونحن ، كلمات عاصفة . وهمست

فى أذن الدكتور عبد الله العريان قائلا : « إننى لا أستطيع تحمل هذا الرجل أكثر من ذلك . إننى سأترك هذه المباحثات ! » . ولكن الدكتور عبد الله وضع كلتا يديه فوق ركبتى لإبقائى جالسا ، وهمس فى أذنى ببطء ، وهو يؤكد كل كلمة : « لابد أن نتحمل يا دكتور ، لأن أرض مصر محتلة » . وشعرت بضعف موقفنا ومهانتنا . وتراءى لى الريف فى صعيد مصر ، وتبدد غضبى ، ومن أجل هذه الأرض أمكننى مواصلة المناقشة ساعات بلا انقطاع .

وبعد الظهر حضرت حفل إنشاء الأمم المتحدة ، ثم توجهت بعدها إلى مناسبة اجتماعية أخرى . ولفتت انتباهى مغنية سوداء بجمالها الخلاب وعينيها الساحرتين وطول قامتها . استمعت إليها تغنى ثم طلبتها للرقص . وكنت الوحيد الذى راقصها . وأمضيت سهرة رائعة ونسيت صراع اليوم الذى بدأ فى السابعة صباحا بلقاء الرئيس كارتر .

طريق مسدود

التقيت فى بلير هاوس يوم ٢٥ أكتوبر مع وزير البترول الإسرائيلى إسحق موداعى ، الذى وصل إلى واشنطن للمشاركة فى المفاوضات حول إعادة إسرائيل لآبار البترول فى سيناء . وكان الإسرائيليون يطالبون بضمانات من مصر باستمرار تدفق البترول من هذه الآبار إلى إسرائيل . واستوقفنى موداعى كرجل لا يتمتع بأى قدر من التواضع . وأخبرنى عن دراساته بإحدى الجامعات البريطانية ، الأمر الذى أدى به إلى الاعتقاد بأنه عالم ومفكر عظيم . وكان على ما يبدو يعتبر أن كل من حوله ، حتى زملائه الإسرائيليين ، جهلاء أو أغبياء بصورة مؤسفة . ولم اقتنع بأنه يعرف ما يتحدث عنه .

كنت منذ سنوات فى عام ١٩٥٦ قد سمعت من أحد الأصدقاء ، وهو بيريز جوريرو وزير مالية فنزويلا ، عن فكرة إنشاء منظمة للدول المصدرة للبترول (التى أصبحت تعرف فيما بعد باسم منظمة « أوبك ») . وقبل حرب ١٩٧٣ مع إسرائيل نشرت مقالا فى جريدة الأهرام تناولت فيه إمكانية استخدام البترول كوسيلة ردع هائلة ضد أولئك الذين يعارضون السياسة العربية تجاه إسرائيل . وشعرت بأن البترول قد يصبح « السلاح النووى » للعرب . وبأننا نستطيع عن طريق خفض الإنتاج تدريجيا انتهاج استراتيجية « الرد المرن » . ولقى مقالى إقبالا واسعا من القراء ، وعندما أدت حرب ١٩٧٣ إلى فرض الحظر البترولى العربى ، اعتُبِرت العقل المدبر وراءه ، رغم أن ذلك لم يكن صحيحا .

وقد أثارتنى شخصية موداعى إلى حد أننى قررت دراسة ملف البترول ، وهى مهمة كان يمكن تركها لعضو آخر فى وفدنا . وعكفت ساعات طويلة على دراسة الملف فى

غرفتى . وكنت أطلب العشاء وأتناوله وحيدا فى غرفتى بصحبة الأوراق والوثائق . كان الملف معقدا . وكان كمال حسن على قد أشرف على هذا الجانب من المفاوضات والمفترض أنه فهم أسراره . وكانت النواحي القانونية للمشكلة مهمة وشيقة . وقسمت الموضوع إلى خمسة أجزاء :

١ ـ تنازل إسرائيل عن آبار بترول سيناء لمصر .

٢ ـ مطلب إسرائيل بأن تتضمن المعاهدة نصوصا بشأن بترول سيناء .

٣ ـ مطلب إسرائيل بأن تواصل « نبتيون » ، وهى شركة أمريكية اسما وإسرائيلية فعلا ، التنقيب وحفر آبار البترول فى منطقة « علما » بجنوب سيناء . وأسست إسرائيل دعواها على قيامها بإعداد أكثر من ثلاثمائة مسح جيولوجى للمنطقة . وقالت إسرائيل إنه إذا حلت شركة أخرى مكانها فإن إنتاج البترول سوف ينخفض مما يؤدى إلى خسارة ملايين الدولارات لمصر .

٤ ـ إصرار إسرائيل على تعهد كتابى من مصر بأنها ستصدّر قدرا محددا من البترول سنويا لإسرائيل كجزء من العلاقة الجديدة بين البلدين .

٥ ـ وأخيرا ، تهديد إسرائيل الضمنى بربط الانسحاب من آبار بترول سيناء بموافقة مصر على هذه المطالب البترولية .

وأبلغنى الخبراء أنه فى حالة انخفاض أسعار البترول ، وهو أمر وارد ، فإن مصر ستكون فى حاجة إلى إسرائيل كمشتر أكثر من احتياج إسرائيل لمصر كمورد . وأن المسافة القصيرة بين آبار البترول المصرية ومصافى البترول الإسرائيلية تجعلها علاقة طبيعية . وقال الخبراء إنه يبدو منطقيا لمصر أن ترغب فى اتفاق مضمون مع إسرائيل . وأنه سيساهم فى ربط المجتمعين معا فى تطبيع دائم .

اعترضت وقدمت الحجج ضد بعض مطالب إسرائيل . فلقد منحت مصر بالفعل حقوق التنقيب عن البترول فى تلك المنطقة لشركة « أموكو » ، كما أن انخفاض الإنتاج بسبب خروج شركة « نبتيون » هو مشكلة مصر وحدها ، وأن الأمر كله على أى حال مبالغة من جانب إسرائيل . وأن مصر نفسها ستستهلك كل البترول المصرى تقريبا ، وأن مسئولية الحكومة المصرية أن تبيع ما تبقى بأعلى سعر فى الأسواق الدولية . وأننا لا نستطيع أن نضمن أن إسرائيل سوف تحصل على قدر محدد سنويا . وأخيرا فإن استغلال البترول المصرى فى سيناء مسألة تتعلق بسيادة مصر على مواردها الطبيعية ، وأننا لا نقبل قيودا على هذه السيادة وخاصة فى معاهدة سلام .

كان الموقف الأمريكى غير واضح بالرغم من أن الولايات المتحدة كانت تسعى إلى حل تفاوضى ، ولم تر سببا يدعو مصر إلى عدم إعطاء إسرائيل أولوية فى شراء كمية من البترول بالسعر العالمى .

وكان من الممكن أن تصبح مسألة النفط مشكلة أخرى تعوق التقدم نحو المعاهدة . وكانت هناك مشاكل غيرها أيضا . وعلى عكس الوعد الذى اعتقد الرئيس كارتر بأنه حصل عليه من بيجن ، أعلنت إسرائيل قرارها ببناء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية . وكان كارتر فى آخر اجتماع بكامب ديفيد يوم الأحد ١٧ سبتمبر يعتقد أنه حصل على موافقة بيجن على تجميد المستوطنات إلى حين قيام سلطة فلسطينية للحكم الذاتى يمكن التفاوض معها على اتفاق إسرائيلى فلسطينى بشأن المستوطنات . ثم فى اليوم التالى - الاثنين - وصل خطاب من بيجن يقول فيه إن إسرائيل ستجمد المستوطنات ثلاثة أشهر فقط . وأحس كارتر وهو فى غاية الانزعاج بأنه قد غرر به . وكان التسجيل الوحيد لاجتماع الأحد مدونا فى المفكرة التى يحتفظ بها المستشار القانونى الإسرائيلى ، وتشير إلى أن بيجن والسادات تحدثا فقط فى العموميات . وشعرت الولايات المتحدة بحرج حقيقى ، إذ كانت وزارة الخارجية قد بعثت برقيات مساء يوم الأحد هذا إلى السعوديين والزعماء العرب الآخرين تبلغهم بأن الولايات المتحدة قد انتزعت من الإسرائيليين تجميدا ممتدا للمستوطنات .

وفى يوم ٢٨ أكتوبر انتشرت شائعة أخرى فى ردهات « كامب ماديسون » ، حيث اتصل البعض بنا فى الفندق ليقولوا إن إسرائيل تعتزم نقل مقر وزارة خارجيتها ومجلس الوزراء إلى القدس العربية . فيبدو أن بيجن ، بعد أن عاون فى تدشين هذه المفاوضات المهمة ، عازم الآن على كسب كل ما يمكن من ميزات على حساب مصر ، ربما بافتراض أن الأمريكيين سيحثوننا على المضى قدما بدلا من تعريض الجهود المبذولة من أجل توقيع المعاهدة للخطر . ولكن كيف لنا أن نتفاوض فى ظل هذه الضغوط ؟

وأمضينا اليوم التالى - الأحد - فى بيت ريفى خارج واشنطن حيث دعانا مليونير أمريكى صديق لأشرف غربال . كان الطقس رائعا والهواء نظيفا . وتجولنا على الأقدام فى الحقول واستمتعنا بالمناظر الطبيعية الساحرة . لقد أفرج عنى لبرهة قصيرة من كامب ماديسون ومن المفاوضات التى تزداد كآبة . ولكن سرعان ما انتهى اليوم الجميل ، وعدنا إلى واشنطن وإلى اجتماع دام ثلاث ساعات مع ديان ووايزمان لنغرق مرة أخرى فى المناورات والمماطلات الإسرائيلية .

وصباح يوم الاثنين جاء لزيارتى أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل السابق ، والذى

كان حينذاك يقضى إجازة دراسية باعتباره أستاذا فى جامعة برنستون . وقال إيبان إنه على اقتناع بأن الطريق الذى تسلكه مصر وإسرائيل طريق بلا عودة ، وبأن المفاوضات سوف تنجح مهما بدت العقبات على الطريق . وأعطانى إيبان نسخة من كتابه الأخير هدية .

وفى المساء وبعد العشاء اشتركت فى اجتماع عمل امتد إلى ما بعد منتصف الليل بجناح كما حسن على . ولم أنم جيدا تلك الليلة . فبالرغم من كلمات أبا إيبان المشجعة كنت متشائما بصورة عميقة .

وفى ٣١ أكتوبر علمت بانتخاب الجمعية العامة للأمم المتحدة الدكتور عبد الله العريان قاضيا فى محكمة العدل الدولية . وأقبل أعضاء الوفد المصرى يهنئون عبد الله بحرارة ، وشعرت بأن حماسهم قد لا يكون بعيد الصلة عن حقيقة مغادرة عبد الله إلى لاهاى والمحكمة الدولية ، مما يؤدى إلى خلو منصب السفير فى برن ، الذى يطمعون فيه كثيرا .

وفى الأمسيات وكلما كان ذلك ممكنا كنت أتناول عشائى وحدى فى غرفتى عاكفا على دراسة ملف البترول .

وفى يوم ٢ نوفمبر التقينا ، أنا وكمال حسن على ، مع روى أثرتون الذى كان قد عاد من توه إلى واشنطن قادما من نيويورك حيث كان قد اجتمع مع مناحم بيجن . وأفادنا تقرير أثرتون بأن الإسرائيليين أصبحوا أكثر تصلبا . اتفقت مع كمال حسن على ، على أنه ينبغى لنا إعداد تقرير مفصل للقيادة السياسية فى القاهرة . فلقد أصبح جليا من المقارنة السريعة للمواقف الثلاثة أن الأمريكيين يؤيدون المواقف المصرية ولكن فى حدود معينة .

وأدليت بحديث لثناء يوسف مندوبة أخبار اليوم فى واشنطن ، وهى صحفية مجتهدة ونشيطة ، وطلبت إليها نشر بيان منسوب إلى « مسئول فى الوفد المصرى » يقول « إن تاريخ الأمة العربية لابد أن يسجل هذه المحادثات . إن مصر كانت ولا تزال الدولة العربية الأكثر التزاما بالقضية القومية . وإن تأييدها حقوق الشعب الفلسطينى ، الواضح والجلى من الحروب التى خاضتها واحدة بعد أخرى ضد إسرائيل ، يزداد وضوحا من خلال مفاوضات مصر السلمية لنيل هذه الحقوق » .

وفى صباح ٣ نوفمبر وصلت برقية من القاهرة تطلب إلى العودة إلى البلاد مع أسامة الباز لمزيد من المشاورات . ووصلنا إلى القاهرة فى اليوم التالى ونحن فى أشد الحاجة إلى الراحة . ولدى وصولى علمت أن الرئيس السادات كان قد رفض استقبال وفد من وزراء خارجية الدول العربية أرسله مؤتمر القمة العربى فى بغداد إلى القاهرة .

وذهبت إلى استراحة الأهرامات يوم الأحد لمقابلة الرئيس السادات . وشرحت له الموقف بأمانة واختصار ، ولكنه لم يبد أى علامة على القلق . كما اطلعت على إدانة مؤتمر بغداد لمصر واتهامها بالتخلى عن القضية الفلسطينية ، ورفضه مقدما تأييد أى اتفاق قد تتوصل إليه مصر . وتضمنت القرارات فرض إجراءات اقتصادية ضد مصر علاوة على مقاطعة عربية لها . وطالب البعض بطرد مصر من الجامعة العربية ونقل مقر الجامعة من القاهرة وضرورة قطع العلاقات الديبلوماسية مع مصر .

وغادرت القاهرة إلى واشنطن يوم الأربعاء ٨ نوفمبر . وفور وصولى إلى فندق ماديسون التقيت مع كمال حسن على وأسامة الباز لمناقشة مسألة البترول .

وفى اليوم التالى اجتمعت مع ديان فى جناحه ووايزمان وأشرف غربال . وعقب الاجتماع الذى دام أربع ساعات ، شعرت بأنه قد يكون أهم جلسة عمل فى المفاوضات حتى الآن . فقد تحدثت عن أهمية إجراءات بناء الثقة التى كنا نطالب الحكومة الإسرائيلية باتخاذها من أجل إقناع الفلسطينيين بالمشاركة فى عملية السلام . وتكلمت بحماس عن الأمل فى الغد فى إطار من السلام لجميع شعوب المنطقة . واستمع الوزيران الإسرائيليان باهتمام إلى ما أقول ولم يحاولا مقاطعتى . وعندما انتهيت من كلمتى قال ديان : « إننى أتفهم موقف الحكومة المصرية ، ولكننى لا أستطيع أن أعد بشىء . ولو كان بن جوريون هو الذى يحكم إسرائيل اليوم لاختلف الموقف » .

وسرعان ما تبين لنا ، أن مقررات بغداد لم تؤد إلا إلى مزيد من التصلب فى موقف إسرائيل . واعتقد واضعو السياسة الإسرائيليون بأن عزلتنا أضعفت موقفنا التفاوضى ، وكانوا على حق .

واحتفالا بعيد الأضحى دعانا الملحق العسكرى المصرى عبد الحليم أبو غزالة إلى بيته . وكان احتفالا مبهجا يسوده الدفء الأسرى .

وبعد الظهر التقينا نحن والجانب الإسرائيلى ، وأبلغتهم بصفة رسمية برأى مصر فى الأمور المتنازع عليها :

١ - لابد من ربط اتفاق السلام بالضفة الغربية وقطاع غزة . وينبغى أن يتلازم الانسحاب من الضفة الغربية وغزة مع الإجراءات الخاصة بالانسحاب من سيناء .

٢ - من الأهمية بمكان أن تتخذ إسرائيل من جانب واحد عددا من إجراءات بناء الثقة فى الضفة الغربية وغزة ، على أن تتضمن رفع الحظر عن الاجتماعات السياسية ،

وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، والسماح لبعض أسر اللاجئين فى ١٩٦٧ بالعودة إلى ديارهم .

٣ - إن الخطابات المتبادلة ينبغى أن تحدد موعدا لبدء مفاوضات الحكم الذاتى الفلسطينى بين مصر وإسرائيل ، وموعدا محددا لإجراء الانتخابات فى الضفة الغربية وغزة ، وموعدا محددا لانتقال السلطة من الحكم العسكرى الإسرائيلى إلى الفلسطينيين .

وأعاد ديان عرض الموقف الإسرائيلى . ثم قال : « من المهم أن نوضح للوفد المصرى أن وعد الحكومة الإسرائيلية بوقف بناء المستوطنات الجديدة فى الضفة الغربية وغزة لمدة ثلاثة شهور سوف ينتهى قريبا . ولذلك أود ألا يفاجأ الوفد المصرى إذا قامت إسرائيل فى الفترة القادمة ببناء مستوطنات جديدة » . وقال إنه ليس مخولا من حكومته بإبلاغنا بهذا الأمر رسميا ، وإن ملاحظاته تقييم شخصى بحت ، حيث إنه رأى من المفيد نقله إلينا .

وغادرت الاجتماع وأنا أشعر بأن المفاوضات قد فشلت . واقترح كمال حسن على أن نتمشى لتهدئة أعصابنا . وتمشينا نحو ساعة على ضفاف جدول صغير ، ولكننى لم أستطع التغلب على إحساسى بأن المفاوضات قد انهارت .

ويوم الأحد التقينا بالأمريكيين لمدة ست ساعات . وأبلغنا الأمريكيون بمواقف إسرائيل الجديدة :

١ - رفض إسرائيل تبادل الخطابات بشأن الضفة الغربية وغزة .

٢ - إن إسرائيل غيرت رأيها بشأن الانسحاب من سيناء على مراحل ، وأنها تود الانسحاب كاملا على الفور .

٣ - إن الإسرائيليين يرفضون تحديد موعد لإجراء الانتخابات فى الضفة الغربية وغزة .

واتصل ديان ليعلن أنه تلقى استدعاء إلى إسرائيل للمشاورات . وأبلغت ذلك للقاهرة ، واقترحت أن أعود أيضا إلى القاهرة للمشاورات . وتمت الموافقة على طلبى وغادرت واشنطن بعد ظهر الاثنين ١٣ نوفمبر .

الجنوح

وصلت إلى باريس فى ساعة مبكرة من الصباح حيث أبلغنى رجال السفارة بأن نائب الرئيس حسنى مبارك سيصل إلى باريس فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى فى طريقه

إلى واشنطن حاملا رسالة مهمة من السادات إلى كارتر . لذا أجلت سفرى للقاهرة لكى أقابل مبارك .

وتوجهت إلى مطار أورلى لأكون فى استقباله للترحيب به ، ولكنهم أخبرونى فى آخر دقيقة أن طائرة الرئاسة الخاصة ستهبط فى مطار شارل ديجول . وأسرعت إلى هناك لأصل قبل ثوان من هبوط الطائرة . وطلبت توجيهات مبارك ، ولكنه قال إن زيارته لا تتعلق مباشرة بمهمتى ، وإن علىّ أن أذهب إلى القاهرة . وفى مؤتمره الصحفى قال مبارك للصحفيين إن رحلته إلى واشنطن لا تهدف لتقديم مقترحات جديدة ، وإنما لشرح وجهة النظر المصرية بطريقة أكثر تفصيلا . وبعد الظهر عدت إلى القاهرة . وكانت « ليا » فى استقبالى بالمطار مع عشرات من الصحفيين الذين لم أتمكن من الرد على أسئلتهم .

واستأنفت عملى بوزارة الخارجية . وكانت قد تراكمت تفصيلات كثيرة فى غيابى . وتقرر لى مقابلة السادات مساء الجمعة ١٧ نوفمبر ، وسرعان ما علمت أن المقابلة لابد من تأجيلها . وعلمت من نشرة الأخبار الإذاعية أن وايزمان غادر واشنطن هو الآخر إلى تل أبيب . ولم يبق فى واشنطن سوى كمال حسن على ، وأنه هو الآخر سيعود قريبا بعد أن أبلغ ديان مصر فى صلف بأن عليها « أن تقبل الاتفاق أو تتركه ».

وفى يوم الاثنين التقيت مع مساعدى الوزير ومديرى الإدارات بوزارة الخارجية لاستعراض المفاوضات . كانوا يشعرون بأنهم مستبعدون من عملية السلام ، وكان موقفهم يتسم باللامبالاة وانعدام الثقة .

وفى يوم الخميس ـ الثالث والعشرين ـ دعا مبارك إلى اجتماع فى قصر الطاهرة لمناقشة ما ينبغى علينا عمله ، الآن وقد أصبحت المفاوضات فى حكم المنتهية . وانضم إلينا ـ الدكتور خليل وأنا ـ كل من كمال حسن على وأسامة الباز اللذين وصلا مباشرة من مطار القاهرة الدولى حيث إنهما غادرا واشنطن فى الليلة السابقة .

وفى اليوم التالى نشرت جريدة الأهرام النص الكامل لمشروع المعاهدة مثلما فعلت الصحافة الإسرائيلية قبل يومين . وأدى النشر إلى جعل المفاوضات شبه مستحيلة .

لقد انتقلنا من المفاوضات إلى الهجوم الإعلامى والهجوم المضاد .

وفى هذا اليوم شاركت فى جنازة المرحوم والد حسنى مبارك . وكان السادات هناك أيضا ، وبدا شاردا ومنشغلا على غير عادته . وقدمت عزائى .

لقد أصبحت حقيقة جديدة قائمة الآن . فقد أعلن الإسرائيليون عن استعدادهم توقيع المعاهدة « وفق المسودة » . وأعلن الأمريكيون أنهم أيضا يوافقون على النص . ولكن النص يتضمن المادة السادسة التى تقول إن المعاهدة المصرية الإسرائيلية سيكون لها الأسبقية على كافة اتفاقيات مصر الدولية . وشعرت بأنها كارثة ، لأنها سوف تبعد مصر تماما عن التزاماتها إزاء العالم العربى . وشرحت لكل واحد يريد الاستماع أن لدىّ الحل لهذه المشكلة : إن المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة أعطت كل دولة الحق فى الدفاع عن النفس فرديا أو جماعيا ، وإن أحدا لا ينبغى أن يعترض إذا أوردنا ذلك فى النص . وخطوة كهذه ستمكن مصر من إعطاء أولوية صامتة لميثاق الأمن الجماعى العربى الموقع عام ١٩٥٠ ، والذى يستند إلى حق الدفاع الجماعى عن النفس المنصوص عليه فى الميثاق . وأسر لى بعض الأمريكيين بأنهم موافقون ، ولكن ينبغى ألا أتعرض لهذه القضية أو أحاول تغيير المادة ٦ لأن ذلك سيدفع الإسرائيليين إلى المطالبة بإدخال تعديلات على مواد أخرى ، الأمر الذى قد يؤدى إلى انهيار كل الجهود . كانت الولايات المتحدة ترغب فى إحراز تقدم سريع ، وكانت إسرائيل لا تريد القبول بأحكام تراها مصر حيوية . وهكذا لم يكن أمامى من خيار سوى التراجع التكتيكى . وأبلغت مصطفى خليل وأسامة الباز بأنه يتعين على مصر قبول النص الحالى للمعاهدة من أجل تركيز قوانا للتوصل إلى اتفاق حول مستقبل فلسطين ؛ فإننا لا نستطيع أن نحارب فى جبهتين ونأمل فى الوقت نفسه فى الانتصار .

وفشلت فى إقناع زملائى . فبينما كانوا فى البداية يعارضون وجهة نظرى فى المادة ٦ وأمكننى إقناعهم بأننى على حق ، فقد أصبحوا الآن ، حينما تراءت لى الحاجة إلى التراجع ، لا يقبلون التخلى عن محاولة تعديل بعض المواد الواردة فى المعاهدة . كنا جميعا نواجه طريقا مسدودا .

وفى ١٠ ديسمبر وصل سايروس فانس ، يصحبه وفد ضخم يضم المجموعة التى شاركت فى محادثات بلير هاوس : هارولد سوندرز ، الذى نادرا ما يبتسم ولكنه ودود ومحترم ، وهيربرت هانزيل ، المستشار القانونى الذى لعب دورا مهما فى صياغة مشروع المعاهدة ، ومايكل ستيرنر ، الذى يتحدث العربية بلهجة سورية ، ووليام كوانت ، وهو الأستاذ الذى التحق بهيئة موظفى مجلس الأمن القومى . وحملتنا الطائرات الهليكوبتر إلى

القناطر الخيرية لمقابلة السادات . وسرعان ما اتضح أن الوفد الأمريكى لا يحمل أفكارا جديدة . ولم يكن لدى سايروس فانس ما يضيفه إلى ما سبق أن قدمه لنا قبل شهرين فى واشنطن . وأصرَّ مصطفى خليل على أن صياغة المادة ٦ غير مقبولة ولابد من تعديلها . وقال الأمريكيون إن مجرد اقتراح أى تغيير سوف يحفز الجانب الإسرائيلى على تعديل كثير من المواد . وكانت المناقشة لا تبعث على السرور .

واستمع السادات إلى مصطفى خليل وسايروس فانس ، ثم واجهنى قائلا : « ما هو رأيك يا بطرس فى صياغة المادة ٦ ؟ » . وقلت إن المادة ٦ تنطوى على قيود على مصر ، ولكن المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة تسهل على مصر الاحتفاظ بكامل حريتها السيادية .

وضحك السادات قائلا : « إنك أنت يا بطرس الذى ستدافع عن هذه المعاهدة أمام البرلمان . إذا كنت ترى أن هذه المادة لا تحتاج إلى تعديل ، فإننى لن أعارضك » .

وهنا تدخل حسن التهامى ليصيح غاضبا بأنه إذا لم يرد ذكر القدس فى معاهدة السلام فلن يسود السلام فى الشرق الأوسط . وانتهى الاجتماع بتبادل الكلمات الحادة بين حسن التهامى وأسامة الباز .

وفى طريق العودة إلى القاهرة قال لى سايروس فانس : « إن صديقك التهامى كان منفعلا اليوم بطريقة غريبة » . ولم أرد .

وفى منتصف يناير ١٩٧٩ أرسل الأمريكيون وفدا يضم المبعوث الخاص روى أثرتون والمستشار القانونى هيربرت هانزيل إلى إسرائيل والقاهرة فى محاولة لحل الخلاف على المادة ٦ . وانضم إليهما فى القاهرة هيرمان ايلتس . وسأل أثرتون : ماذا تفعل مصر إذا تعرضت دولة عربية شقيقة لهجوم من جانب إسرائيل ؟ هل ستهب لمعاونتها وفقا لالتزاماتها العربية ، أم ستقف جانبا طبقا للمعاهدة المصرية الإسرائيلية ؟ واقترح الوفد الأمريكى أن نحاول تعريف العدوان حتى يمكن تحديد من هو المعتدى ومن هو الضحية . فإذا وقع عدوان من جانب إسرائيل ضد دولة عربية أخرى ، فإن لمصر الحق فى معاونة الدولة العربية المعرضة للهجوم وفقا لحق الدفاع الجماعى الشرعى . أما إذا جاء العدوان من جانب دولة عربية ضد إسرائيل ، فإن مصر لن تعاون المهاجم العربى وفقا للمعاهدة المصرية الإسرائيلية .

ورفضت هذا الرأى دون تردد . وقلت إن التزامات مصر العربية تسبق أى التزامات أخرى . ومصر وحدها ، بسيادتها واستقلالها ، ستقوم بتعريف العدوان حسب الظروف والملابسات السائدة ، وستقرر بحرية من هو المعتدى . وقلت إننا إذا شرعنا الآن فى

التفاوض مع إسرائيل حول تعريف العدوان ، فإن ذلك سيفتح الباب لمباحثات لا تنتهى تستهدف إلغاء حق مصر فى الدفاع عن النفس بصورة منفردة أو جماعية طبقا لميثاق الأمم المتحدة . وهذا أمر غير مقبول .

وبينما كنت أسرد وجهة نظرى ، كنت أشعر بأن هيرمان ايلتس يشاركنى الرأى ولو أنه لم يقل شيئا . فهو بطبيعة الحال لا يمكنه نقد اقتراح تقدم به فى حماس رئيس وفد بلاده .

وفى ذلك المساء تناولت العشاء فى بيت الدكتور زهير فريد . وكان ايلتس ضمن الضيوف . وانتحى بى جانبا ليهمس فى أذنى بارتياح واضح بأن واشنطن أيدت اعتراضاتى على اقتراح أثرتون بتعريف العدوان كوسيلة لإنهاء الخلاف حول صياغة المادة ٦ .

وسافر الأمريكيون وتركوا خلفهم عملية السلام وقد جنحت مرة أخرى .

الفصل السابع

وقفة على الطريق

قارب عام ١٩٧٨ نهايته وانحسرت كثافة المفاوضات مع انسحاب الأمريكيين لقضاء أعيادهم . وفى يوم الكريسماس الغربى قبلت دعوة العقيد أحمد الحفناوى وضباط الشرطة المنوطة بهم مهام الأمن والحراسة أثناء جولاتى . وعلى مائدة الإفطار معهم بنادى الشرطة شرحت المفاوضات الجارية وأجبت عن أسئلتهم حول سياسة مصر الخارجية .

وذهبت إلى مأدبة عشاء بنادى التحرير ، الذى كان من قبل يعرف باسم نادى محمد على ، وهو النادى الذى كان التردد عليه مدعاة للزهو أيام الملك فؤاد والملك فاروق . وقد تغير اسمه بعد أن صادرته سلطات الثورة ووضعته تحت تصرف وزير الخارجية . وكان العشاء على شرف سيمون فيل التى بقت على قيد الحياة بعد المعسكرات النازية إبان الحرب العالمية الثانية ، وأصبحت الآن وزيرة الصحة الفرنسية . وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث اكتشفنا أننا كنا معا فى نفس الوقت فى كلية الحقوق فى باريس ، بالرغم من أننا لم نتذكر أننا التقينا . وداعبنى زملائى بإيمائهم إلى النفوذ الصاعد لفرنسا فى مصر ، وبأننى « صديق الفرنسيين » .

وفى المساء احتفلت بنهاية عام ١٩٧٨ وبدء عام ١٩٧٩ ، وذلك فى بيت أمين فخرى عبد النور . وهو متزوج من ابنة عم والدى أمين باشا غالى . وكان الأصدقاء المجتمعون هناك أبعد ما يكونون عن عالم الدبلوماسية . وقد يفسر ذلك نظرتهم البهيجة للحياة .

وفى مساء اليوم التالى ذهبت إلى بيت صديقى المستشار ممدوح عطية وزير العدل . وهناك قابلت الموسيقار محمد عبد الوهاب وجلست معه بعض الوقت . وكان فى صوته وشخصيته معا بمثابة فرانك سيناترا وإنريكو كاروزو العالم العربى . ومازحنى بقوله إنه كان يراقب تعبيرات وجهى ونبرة صوتى أثناء الأحاديث التليفزيونية ، وإنه انتهى إلى إننى ينبغى أن أصبح ممثلا فى السينما بعد ترك الوظيفة .

الشـــاه

وفى يوم السبت ٦ يناير عقدت مؤتمرا صحفيا بمناسبة العام الجديد . وجلس إلى جانبى على المنصة صفوت الشريف رئيس هيئة الاستعلامات ، وأحمد توفيق خليل الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ، ومدير مكتبى أحمد ماهر السيد .

وجاء السؤال الأول من مراسل « *نيويورك تايمز* » : « لماذا لم تصدر كلمة واحدة من القاهرة حول الأزمة فى إيران ؟ » . إن إسرائيل تعتمد على البترول الإيرانى . هل سيؤثر توقف الإمدادات لإسرائيل على مسار عملية السلام ؟ وأجبت قائلا إن مصر تتابع الأحداث فى إيران عن كثب وبقلق متزايد ، ولكننا مشغولون بمشكلاتنا الخاصة . ونحن نعلم أن لا شىء يعرض الشاه للخطر ، وأننا مثلنا مثل الطالب الذى يستعد لمناقشة رسالته ، لا نفكر إلا فى أمر واحد : إزاحة إسرائيل من الأرض العربية . وأوضحت أن الولايات المتحدة قد وافقت على مد إسرائيل بالبترول . وقلت إن مصر لن تخص إسرائيل بأى امتيازات خاصة فيما يتعلق بالبترول المصرى الذى سنعرضه فى السوق العالمية بالسعر السائد . ورغم اننى لم أقل ذلك للمراسل ، فقد أدركت أن طلب إسرائيل على البترول المصرى سيصبح أكثر إصرارا نتيجة للاضطراب الحادث فى إيران .

وبعد زيارة للخرطوم بشأن تطوير التكامل المصرى السودانى ، عدت إلى القاهرة يوم الاثنين ١٥ يناير ، لأتسلم رسالة بأن الرئيس السادات يستدعينى إلى أسوان صباح اليوم التالى لأكون فى استقبال شاه إيران .

ولذا طرت جنوبا مرة أخرى . وفى مطار أسوان كان حرس الشرف مصطفا ومتأهبا لاستقبال الشاه . وهبطت الطائرة الإمبراطورية بقيادة الشاه نفسه ، وتبعتها بعد ثوان قليلة طائرة إيرانية ثانية . وهمس أحد الصحفيين بأن الطائرة الأخرى تحمل المجوهرات والتحف التى لا تقدر بثمن التى هرب بها الشاه من بلاده .

كان للشاه ارتباط طويل مع مصر . ففى عام ١٩٣٩ رتب له والده الزواج من فوزية

الشقيقة الكبرى للملك فاروق – وهو زواج تم على الطريقة القديمة للأسر الحاكمة ، ويعنى خلق نوع من التحالف بين إيران ومصر ، وهما من أقدم الحضارات فى العالم . وفشلت الزيجة ، فقد كانت طهران قروية أكثر من اللازم بالنسبة لفوزية التى كانت ، حتى فى سن السابعة عشرة ، قد اعتادت على مجتمع القاهرة المتألق فى ظل الملكية . وبالرغم من انهيار أواصر الزواج ، بقيت إيران (بعد تغيير اسمها من فارس) ومصر على علاقة سياسية وثيقة . وساعد الشاه السادات إبان حرب ١٩٧٣ بتزويد مصر بالبترول . كما وافق الشاه على مبادرة السادات إزاء إسرائيل . وكان لجهاز الشرطة السرية التابع له علاقات عمل ممتدة مع الموساد ، وكان لإيران وإسرائيل مصلحة مشتركة فى الإبقاء على الدول العربية الواقعة بينهما جغرافيا فى حالة انعدام وزن .

وعزفت الموسيقى السلام الإمبراطورى الإيرانى والسلام الجمهورى المصرى لدى ظهور الشاه والشهبانو . ونمّ وجه الشاه عن علامات المرض والإجهاد . وأسر لى موسى صبرى : « إننا نشهد نهاية الإمبراطورية الإيرانية » .

وكانت زيارة الشاه تحذيرا بأن الأصولية أصبحت خطرا يتهدد العالمين الإسلامى والعربى . وسألت موسى صبرى : « هل هناك خطر امتداد الثورة الإيرانية لمصر ؟ » . وأجاب صبرى ، وهو أحد الصحفيين القلائل الذين جرأوا على انتقاد الإخوان المسلمين فى جريدته اليومية واسعة الانتشار ، قائلا : « إن الثورة الإيرانية مرض لا يمكن انتشاره فى مصر . ذلك أن مصر بلد سنى بينما إيران شيعية ، كما أن الدولتين تفصلهما جغرافيا ودينيا المملكة العربية السعودية حصن الوهابية ، القوة الثالثة فى الإسلام » . ثم أضاف وهو مستغرق فى التفكير أن « الحكومات المتعاقبة فى مصر أسهمت بقدر غير قليل فى بناء الإخوان المسلمين كقوة سياسية . فقد غازلهم فاروق للحد من نفوذ الوفد ، الحزب الجماهيرى الوحيد فى مصر . وتوافرت لرئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادى الشجاعة للقضاء على الإخوان ، ولكن جمال عبد الناصر ارتكب نفس الخطأ مثل فاروق . فقد ألغى جميع الأحزاب السياسية بعد انقلابه العسكرى عام ١٩٥٢ فيما عدا الإخوان ؛ بحجة أنهم ليسوا حزبا سياسيا وإنما حركة دينية . وسرعان ما اكتشف خطأه عندما حاولوا اغتياله . فأمر بعملية اعتقالات جماعية للإخوان ، وعمد إلى سحق الحركة مرة أخرى . والرئيس السادات على وشك ارتكاب نفس الخطأ بسماحه ليس فقط بعودتهم إلى الظهور وإنما بممارسة نشاطهم ، وبأن يصبحوا قوة فعالة » .

وقاطعت موسى صبرى سائلا : « إنك تراه كثيرا وتستطيع أن تتحدث معه بحرية ، لماذا لا تتحدث معه عن هذا الخطر الحقيقى ؟ » .

قال : « نعم . إنه موضوع أثيره معه بانتظام . وجيهان السادات تتفق معى ، وهى تصر على ضرورة تجنب هذا الخطر . ويجيب السادات على نحو منتظم بأننا نبالغ فى تقدير أهميتهم ، وبأنه لن يتردد فى التدخل بقوة إذا ما أصبح ذلك ضروريا » .

وسألت : « هل تعتقد أن « الريس » سيتحرك الآن وقد سقط نظام الشاه ؟ » .

وأجاب موسى صبرى وهو يهز رأسه : « لا أظن ذلك ، لأن نصف الناس حاليا يتخيلون أن الشاه سيعود إلى طهران منتصرا ، والنصف الآخر يظن أن الإخوان لن يستطيعوا أبدا الاستيلاء على مصر . والسادات نفسه ما زال يعتقد أن الخطر الحقيقى يأتى من الشيوعية » .

وانتهى حديثنا حينما فرق البروتوكول بيننا . وعلى باب الطائرة احتضن الرئيس السادات الشاه وقبّله . ثم استقلا سيارة ليموزين إلى فندق أوبروى المشيد فوق جزيرة فى النيل . وأقام الشاه فى أسوان خمسة أيام طار بعدها إلى المغرب .

وفى يوم الأحد ١١ فبراير غادرت أسوان إلى القاهرة ومنها إلى بلجيكا . وصحبنى على الطائرة علاء خيرت مدير مكتبى ، وعز الدين عيسى مدير إدارة غرب أوروبا ، ومجموعة من ضباط الأمن .

ووصلنا إلى بروكسل وكان الطقس باردا جدا . وكنت أتمنى الإقامة فى أحد الفنادق الفاخرة بالعاصمة البلجيكية ، ولكن الأمن البلجيكى قرر أن نقيم فى مقر الضيافة الرسمى .

وكان سفيرنا لدى بلجيكا هو كمال خليل ، شقيق مصطفى خليل رئيس الوزراء . لكن الاختلاف بين الشقيقين كان مثل اختلاف الليل والنهار . فقد كان رئيس الوزراء سريع البديهة وحادّ الذكاء ، بينما كان شقيقه كمال غندورا يأخذ الحياة بيسر . وكانت زوجته شقيقة شمس الدين الوكيل صديقى فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، ثم التقينا ثانية فى باريس فى كلية الحقوق ، حيث كان كل منا يعد رسالة الدكتوراه .

وكان مقر الضيافة فى بروكسل عبارة عن فيللا أنيقة تحيط بها حديقة ، الأمر الذى ذكرنى بفيللا تعرف باسم « لو بريبرى » فى سان - ريمى - ليشيفريز التى تبعد نحو سبعة وثلاثين ميلا من باريس ، حيث كثيرا ما أقمت لدى عمى وزوجته . كانت مؤثثة على نفس الطراز الفرنسى الكلاسيكى ، وبنفس أسلوب العرض للوحات الزيتية .

وزارنى فى الفيللا كلود شيسون ، الذى كان حينذاك عضوا فى اللجنة الأوروبية والمسئول عن التعاون والتنمية مع الدول النامية . وسرعان ما أحسست بالتوافق والتماثل

فى التفكير بيننا . كما اكتشفت أن لنا أصدقاء مشتركين فى فرنسا ولبنان وبلدان عربية أخرى . وكان شيسون ، وهو رجل واسع الاطلاع ، على وعى بقضايا العالم الثالث بصفة خاصة .

وأعرب شيسون عن إعجابه الشديد بالخطوة الجريئة التى قام بها السادات ، وقال إن زيارة السادات للقدس حدث لا يباريه شىء فى التاريخ . وقال إنه مستعد لتقديم كل المساعدة لمصر فى إطار برامج المجموعة الأوروبية ومعوناتها للتنمية الاقتصادية .

وفى صباح اليوم التالى التقيت مع روى جينكنز رئيس اللجنة الأوروبية فى مكتبه فى مبنى البرج الشاهق الذى تتخذه اللجنة مقرا لها . والمنصب الذى يحتله جينكنز ، وهو سياسى بريطانى نابه طويل القامة قليل الكلام ، يعادل سكرتير عام المجموعة الأوروبية .

وتحدثت بإسهاب عن الدور الذى تستطيع أوروبا عامة ، والمجموعة الأوروبية بصفة خاصة ، أن تلعبه فى تدعيم جهود السلام . وعرضت عليه أيضا موقف مصر فى مفاوضات السلام . ولكننى شعرت بأن جينكنز ليس شديد الاهتمام باستعراض الأمور .

وعقب اللقاء وبعد زيارة لمدينة مجاورة وكاتدرائيتها المهيبة ، عدنا إلى بروكسل وتوجهنا إلى مقر السفير كمال خليل . وهناك شرحت لعدد من السفراء العرب آخر التطورات بشأن مفاوضات السلام ومواقف مصر الرئيسية .

وبعد حفل استقبال أقامه السفير كمال خليل حيث قمت بتحية ما يزيد على مائتى ضيف ، عدت إلى قصر الضيافة وآويت إلى الفراش دون تناول العشاء . إذ كنت مقتنعا بأننى أنام بسهولة وبصورة أفضل حينما لا أتناول العشاء . فغدا ينتظرنى يوم مشحون وأحتاج إلى نوم عميق وراحة لمواجهته .

ملك بلجيكا

وفى اليوم التالى استقبلنى الملك بودوان فى قصره بأحد ضواحى بروكسل . وأهديته تمثالا فرعونيا صغيرا ، كنت قد وجدته فى المكتب الذى آل إلىّ من وزير الخارجية السابق بمبنى وزارة الخارجية . وحرصت على الحصول على موافقة الرئيس السادات قبل تقديم هذه الهدية القديمة الثمينة إلى ملك البلجيك . وأبدى الملك إعجابه بالهدية ، وطلب أن أسرد عليه تاريخ التمثال وترجمة الحروف الهيروغليفية المنحوتة عليه . واعتذرت واعترفت بجهلى التام ، وقلت إننى لا أعرف شيئا عن التمثال . وقلت لنفسى إنه لو كان لدىّ سكرتيرة

جيدة ، لكانت اتصلت بالخبراء فى المتحف المصرى وحصلت على الحقائق الخاصة بهذا التمثال الصغير ، ولاستطعت حينذاك الحديث مع الملك عن أهمية الهدية التى بعث بها الرئيس السادات إليه . ولكن العمل بوزارة الخارجية كثيرا ما كان ضربا من اللامبالاة والارتجال . وبدا الحرج الشديد على وجهى حينما وجدت الملك يبتسم ويقول بلباقة : « على أى حال ، يا سيدى الوزير ، إذا كانت معلوماتك ناقصة بعض الشيء فإننى على ثقة من أن معلوماتك عن التاريخ الحديث كاملة تماما » .

ثم أخذ الملك يستمع لعرضى للموقف فى الشرق الأوسط . وقال : « إنك محظوظ بالعمل مع رجل عظيم مثل أنور السادات » . وفى ختام اللقاء قال الملك بودوان إنه يأمل عند زيارتى القادمة لبروكسل أن أطلب مقابلته لأنه يود مواصلة مناقشاتنا . وشكرت الملك وابتسمت ، إذ خطر فى بالى أنه فى زيارتى القادمة للعاصمة البلجيكية قد لا أكون وزيرا أو مسئولا حكوميا . وقال الملك وكأنه قرأ ما يدور بخلدى : « إننى أرحب بلقائك فى زيارتك القادمة سواء بصفتك الرسمية أو بصفة شخصية » .

وفى أحد القصور التابعة للحكومة أقام وزير الخارجية هنرى سيمونيه مأدبة غداء تكريما لى . وألقى الوزير البلجيكى خطاب ترحيب . وألقيت بدورى كلمة كنت قد أعددتها قبل مغادرة القاهرة . وقدمت عرضا تاريخيا للعلاقات بين مصر وبلجيكا . وأثنيت على بلجيكا للدور الذى لعبته فى مصر على مدى قرن من الزمان . وذكرت عددا من الباحثين والأساتذة البلجيك الذين قاموا بدور بارز فى مصر فى مجال الآثار الفرعونية ، الجامعات ، وحتى فى وزارة الخارجية . وامتدحت مسيو جاكيه الذى عمل سنوات طويلة حتى أوائل الخمسينيات كمستشار لوزارة الخارجية المصرية . ورعى جيلا من الدبلوماسيين المصريين الذين خدموا فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وزراء مثل إسماعيل فهمى ومحمد رياض ، وسفراء مثل نجيب قدرى وجمال نجيب . وقلت إنهم فى وقت ما كانوا يعرفون بـ « أولاد جاكيه » .

وأثنيت على الإسهامات التى قدمها لمصر مهندس بلجيكى شهير فى القرن التاسع عشر . وقلت لهم إن دستور ١٩٢٣ المصرى منقول عن الدستور البلجيكى . وإنه حينما كان ينشب خلاف حول التفسير الدستورى بين الملك فؤاد وحزب الوفد ، كانا يطلبان إلى القانونى البلجيكى « فان دير بوش » أن يبت فى الأمر . وتصادف أن كان ابن « فان دير بوش » حاضرا فى مأدبة الغداء !

وحينما انتهيت من إلقاء كلمتى وقف هنرى سيمونيه وقدم لى ، نيابة عن الملك بودوان ، أكبر وسام بلجيكى . ثم اقترب منى رجل عجوز ، وقال لى إنه كان منذ سنوات

طويلة يعرف عمى واصف غالى باشا وعمى نجيب غالى باشا ، وامتدح خطابى بأنه ممتاز « بالرغم من خطأين اثنين » . فإن اسم الأثرى البلجيكى هو جاك وليس هنرى ، وإن الموعد الذى وصل فيه إلى مصر المهندس البلجيكى ليس ١٨٩٧ وإنما ١٨٩٩ . وشكرت الباحث البلجيكى العجوز وأثنيت عليه لدقته .

وبعد الظهر ألقيت محاضرة فى الأكاديمية الملكية للشئون الدولية حول مفاوضات السلام منذ زيارة السادات للقدس . وكانت القاعة الرئيسية مكتظة بالدبلوماسيين وأساتذة الجامعات والصحفيين .

وفى اليوم التالى ، وبعد زيارة لهنرى سيمونيه فى بيته وإبداء إعجابى بمقتنياته الفنية التى لا تقدر بثمن ، توجهت إلى مقر السفير كمال خليل لحضور مأدبة غداء دعا إليها هنرى سيمونيه وكبار المسئولين بوزارة الخارجية البلجيكية .

وقبل مغادرة بروكسل أرسلت خطابا إلى صحيفة « *لو سوار* » ردا على مقال نشرته لمناحم بيجن ، أوضحت فيه أن رئيس الوزراء الإسرائيلى أغفل ذكر الفلسطينيين وكأن لا وجود لهم .

وغادرت بروكسل بعد الظهر وسط عاصفة ثلجية شديدة . ولدى وصولنا جنيف وجدت الطقس رائعا على النقيض تماما من العواصف البلجيكية .

وكانت الوقفة على الطريق بمثابة استراحة قصيرة ، فسرعان ما عدنا إلى الطريق مرة أخرى نسير بسرعة تقصم الأعناق .

الفصل الثامن

المعـــــاهـــــدة

لدى عودتى إلى القاهرة فى ١٥ فبراير ١٩٧٩ علمت بأننى لن أذهب إلى « كامب ديفيد رقم ٢ » . فحيث إن الوفد الإسرائيلى سيضم وزيرا واحدا وهو ديان ، فإن رئيس الوزراء مصطفى خليل ، كما قيل لى ، سيكون الوزير الوحيد الذى يمثل مصر . إذ ينبغى أن يكون الوفدان بنفس الدرجة .

وعدت إلى بيتى واتصلت تليفونيا بالدكتور مصطفى . وقدمت له استعراضا موجزا عن رحلتى إلى بروكسل ، وسألته فى خبث ما إذا كنت ضمن الوفد إلى كامب ديفيد ، وقال بأدبه المعهود إن الوفد لم يتشكل بعد ، وإنه يود استطلاع رأى الرئيس بالنسبة لمن سيشترك فيه .

وقلت : « إننى وزير خارجية مصر - وإن كان بالإنابة - ومن ثم فإن محادثات مهمة تتناول عقد معاهدة مصرية إسرائيلية لا يمكن إجراؤها دون مشاركتى » . وأضفت أن الخبرة التى اكتسبتها من مفاوضات فندق ماديسون ستكون مفيدة لمصر ، وأننى أود الاستمرار فى المشاركة حتى توقيع المعاهدة .

وأوضحت أننى منذ سبتمبر - أى قبل ستة شهور - فى وضع غير طبيعى . فكثيرا ما ألمح السادات ضمنا عقب استقالة محمد إبراهيم كامل إلى أنه سيختارنى وزيرا للخارجية ، لكن ستة أشهر انصرمت ومازلت رسميا قائما بأعمال وزير الخارجية .

وقال مصطفى خليل إنه سيتصل بالسادات على الفور . ثم طلبنى فى غضون ربع الساعة . وقال إنه استرضاء لى فقد وافق الرئيس على سفرى إلى اجتماع كامب ديفيد الثانى . ونقل لى قول الرئيس إنه لم يعد بتعيينى وزيرا للخارجية . وكنت على وشك الرد بأنه « إما أننى أكذب أو أن الرئيس هو الذى يكذب » ، ولكننى بقيت صامتا .

وكنت أتمنى أن تدرك القيادة المصرية ضرورة أن أصبح وزيرا للخارجية ، وأن أقود الدبلوماسية المصرية فى هذه الفترة الحرجة . ولكن أملى لم يكن واقعيا نظرا لأن التقديرات فى السياسة أمر يخضع للتوازنات الداخلية ، بما فى ذلك التيارات الدينية . وإذ أدركت ذلك ، فقد لمت نفسى على أننى لم أكن واقعيا . كنت أعرف أن جانبا من تردد السادات يرجع إلى الهجوم على شخصى وعلى أسرتى من جانب الإعلام العربى . فلا فرق لدىّ بين أن أحمل لقب وزير الخارجية أم لا . فالوظيفة هى نفس الوظيفة . ولكن ما آلمنى هو التيار المتصاعد لعدم التسامح الدينى فى مصر ، وهو علامة على التردى الفكرى . فلم يتردد خديوى مصر عباس حلمى باشا فى تعيين جدى بطرس غالى وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزراء قبل قرن من الزمان تقريبا . ومنذ نصف قرن عملت سلسلة من وزراء الخارجية المسيحيين فى وزارة وفد الأولى بعد ثورة ١٩١٩ .

ولم يتردد سعد زغلول بموافقة الملك فؤاد فى تعيين عمى واصف بطرس غالى وزيرا للخارجية . أما اليوم ، وفى الربع الأخير من القرن العشرين ، يتردد السادات فى تعيين شخص غير مسلم وزيرا لخارجية مصر .

ولم تكد تمضى أربع وعشرون ساعة حتى اتصل بى الدكتور مصطفى خليل ليقول لى إن الرئيس قرر تعيينه هو وزيرا للخارجية إضافة إلى منصبه كرئيس للوزراء . ثم أضاف فى أدب أن تلك مجرد شكليات ليس لها تأثير حقيقى ، لأننى سأواصل الاضطلاع بمسئولياتى الحالية ، والإشراف على وزارة الخارجية من كافة النواحى . وقال إن مهمته كرئيس للوزراء ووزير للخارجية سوف تقتصر على الإشراف على المفاوضات لحين التوصل إلى معاهدة السلام .

وآلمنى قرار السادات بصورة عميقة ، بالرغم من تفهمى لسبب ذلك . واستطعت التغلب على مشاعرى وقلت إننى أرحب بالعمل والتعاون مع الدكتور مصطفى خليل فى إنجاز معاهدة السلام . وساد الدفء والإعجاب الصادق بيننا ، بالرغم من اختلافاتنا خلال المفاوضات فى الأسابيع الأخيرة .

تناولت العشاء تلك الليلة فى بيت دكتور مجدى وهبة صديق الطفولة ، وهو رجل

حكيم نأى بنفسه عن السلطة وزخرفها . وناقشنا تعيين الدكتور خليل وزيرا للخارجية . وقال مجدى : « عليك بعد توقيع معاهدة السلام أن تعود إلى الجامعة . فهناك الكثير من السياسيين ، بينما الأساتذة الجيدون قليلون » .

وفى يوم الاثنين ١٩ فبراير غادرنا القاهرة فى الصباح . جلسنا فى صالون الرئيس بالطائرة نحن الأربعة : مصطفى خليل ومصطفى كامل مراد وقرينته وأنا . وكان مصطفى كامل مراد ، بموافقة السادات ، « يأخذ توصيلة » إلى نيويورك . لقد كان من ضمن طلبتى فى معهد العلوم السياسية ، ثم التحق بالجيش ، وقام مؤخرا بتأسيس حزب سياسى يمينى يرفع شعار حرية السوق ، وهو شىء جديد فى مصر . ولقى حزبه ترحيبا من السادات الذى أراد نقل مصر إلى نظام تعدد الأحزاب وإلى اقتصاد السوق . وكان وجود مصطفى كامل مراد مدعاة لكثير من المرح ، وسلينا أنفسنا بالتندر على هشاشة حزبه ، حيث إن أعضاءه عددهم جدّ محدود .

وتحدث مصطفى خليل بصراحة حول عدم تعيينى وزيرا للخارجية . وقال إن عدة « أسماء لامعة » كانت ترغب فى المنصب ، وإنه كان من المحتم عليه تولى المنصب لحمايته من المرشحين غير المؤهلين . وأكد لى مرة أخرى أننى وحدى المسئول عن وزارة الخارجية والشئون الدبلوماسية . وقال إنه سيصدر قرارا وزاريا يعطينى كافة الصلاحيات وينص فيه على أنه سيشرف فقط على مفاوضات المعاهدة .

وصلنا إلى لندن بعد الظهر . واستقبلنا جيمس كالاهان بمقر رئيس الوزراء فى داوننج ستريت ودعانا لتناول الشاى على الطريقة الإنجليزية . ودارت المحادثات حول التيارات الدينية المتطرفة والخطر الذى تمثله على السلام فى الشرق الأوسط . وتذكرت حديثى مع موسى صبرى عندما هرب الشاه من إيران . ولكن غالبية زملائى كانوا يفترضون أن مصر محصنة ضد الثوران الدينى مثلما كنا من قبل نعتقد بأن الشاه موقفه منيع .

وعلى العكس منهم ، كنت قلقا بشأن المخاوف التى أثارها كالاهان . وقلت له إنه إبان عهد الملك فاروق ، أقدم المتطرفون الدينيون على اغتيال أحمد ماهر رئيس الوزراء . ثم قتلوا محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء الذى أعقبه . وعندئذ قررت حكومة فاروق توجيه ضربة قاصمة للإخوان المسلمين وتعرض مرشدهم العام حسن البنا للاغتيال فى فبراير ١٩٤٩ . وكان فاروق قد حاول ، كما سبق ذكره ، استخدام الإخوان لموازنة قوى الوفد ، وهو الحزب الوطنى الذى يقوده سعد زغلول ، ولكن « الإخوان المسلمون » كانوا قد أصبحوا وحشا . وعمد عبد الناصر إلى حظر كافة الأحزاب السياسية فيما عدا الإخوان

أملا فى تأييد الإخوان له . ولكنهم حاولوا بعد ذلك قتله . وعندما قام بقمع الإخوان بقسوة ، تحولوا إلى تنظيم سرى . وارتكب السادات الخطأ نفسه . فقد فتح أبواب الزنزانات على أمل استخدام الإخوان كقوة مناوئة للشيوعية . وفى الظاهر ، كان الإخوان يسعون للسلطة بالأساليب الدستورية ، أما تحت السطح ، فقد كان المتطرفون يستخدمون أساليب التخويف والعنف لدفع قضيتهم إلى الأمام وعمدوا إلى اختراق الفئات المهنية مثل الصيادلة والمحامين والمهندسين والأطباء .

حـل وسـط

أثناء الرحلة إلى واشنطن عكفنا – مصطفى خليل وأنا – على تحليل المفاوضات . ولم أكن متفائلا . وقلت إن الفشل أكثر احتمالا من النجاح لأن ديان غير مفوض واقعيا للتفاوض ، إذ أن بيجن يمسك بعنان السلطة . ومن جانبنا أيضا فإن الحلول الوسط اللازمة تتعدى مجال التفويض الذى يحمله مصطفى خليل . فالسادات وحده هو القادر على اتخاذ القرارات المهمة ، والفرق أن السادات قد يتنازل أما بيجن فلا يتنازل .

ونقلتنا طائرات الهليكوبتر على الفور من قاعدة أندروز الجوية إلى كامب ديفيد . كانت الثلوج تغطى الحقول . كانت كامب ديفيد فى الشتاء تختلف كثيرا عما كانت عليه فى سبتمبر . خصصوا لنا – أشرف غربال وأنا – الكوخ الصغير الذى سبق تخصيصه لحسن التهامى فى الخريف الماضى . وقلت لأشرف غربال إن شبح التهامى سوف يطاردنا فى هذا المكان ليل نهار .

وفى الكوخ الخاص بالمطعم وجدنا الإسرائيليين – موشى ديان وإيلى روبنشتين وإلياهو بن إليسار ومائير روزين . وأبلغنى ديان بأنه متشائم هو الآخر . وتساءلت ما إذا كان يعنى أن أنقل رسالته إلى مصطفى خليل أو إلى الأمريكيين ، أم أنه حقا مجهد ويكاد يفقد الإيمان بعد الجولات الطويلة من المحادثات غير المثمرة ؟ أم أنه مجرد زميل يعرب عن مشاعره لزميل آخر شاركه ساعات من جلسات العمل ؟ وفى اعتقادى أن مزاجه المنحرف كانت له علاقة بتدنى علاقاته مع رئيس الوزراء مناحم بيجن .

وزدات حدة المناقشات المعقدة حول صياغة الكلمات . فى البداية حاول مصطفى خليل أن يتفاوض وحده ، ولكنه سرعان ما أدرك استحالة ذلك ، ودعانا – أشرف وأسامة وأنا – للمعاونة فى إعداد موقف متماسك .

وبعد الظهر وصل نبيل العربى ومحمد شاكر وحسين حسونة من نيويورك وواشنطن

لزيارتنا ، وقد أصبحوا جميعا فيما بعد سفراء مرموقين لمصر . ونقلوا إلينا الشائعات التى سمعوها بأن المفاوضات لم تتقدم على الإطلاق بالرغم من جهود سايروس فانس الهائلة . كان ذلك صحيحا . وكان جيمى كارتر قد اعتزم قضاء نهاية الأسبوع معنا فى كامب ديفيد ، ولكنه غير رأيه على ضوء التقدم الهزيل على المائدة والعلاقات الشخصية التى تزداد سوءا فيما بين المفاوضين .

وفى جلسة عمل انعقدت يوم السبت ٢٤ فبراير ، وجه أسامة الباز عبارات السخرية والتهكم إلى بيل كوانت ، متهما إياه بالضعف والخوف من جماعات الضغط اليهودية . وانفجر كوانت . وحاولت تهدئتهما والتخفيف من أثر كلمات أسامة ، ولكن جفوة نشأت بينهما . وبعدها أنّبت أسامة قائلا : « ليس من الصواب أن تكون بمثل هذه العدوانية » . وانطلق أسامة يرد بحدة : « أنت تطلب منى ألا أكون عدوانيا ! انظر إلى عدوانيتك أنت ! » .

كانت الأمطار تنهمر بشدة دون توقف منذ الصباح . وكنا جميعا مكتئبين ومتجهمين . ومن أجل إظهار أن مصر لا تسعى إلى سلام منفرد على حساب الفلسطينيين ، نقلت إلى ديان مرة أخرى فكرة « غزة أولا » ، ولكن ديان كان مثبطا . وقد أدى الطريق المسدود بفانس إلى التفكير فى دعوة بيجن إلى كامب ديفيد للتفاوض مع مصطفى خليل . ولكن بيجن لم يكن ليتحدث إلى مسئول يقل عن السادات منزلة . وفى الصباح المبكر ليوم الأحد أصبح جليا للجميع أن المفاوضات قد فشلت تماما . وادعى ديان بأنه لا يملك تفويضا من بيجن للتفاوض حول أى شىء . وكان مصطفى خليل يريد التفاوض مع بيجن ، ولكن بيجن لم يكن ليقبل مصطفى خليل ندا له ، رغم أن كليهما رئيسان للوزراء . بيد أن رئيس الوزراء فى إسرائيل يحظى بسلطة حقيقية ، أما فى مصر فإن السلطة منوطة برئيس الجمهورية . وأحس خليل بالمهانة لتعالى بيجن ، ولم يغفر له ذلك أبدا . غير أن منطق بيجن كان صحيحا . فأنور السادات هو صاحب القرار ، وليس مصطفى خليل . وتلقى الوفد المصرى أمرا بالعودة فورا إلى القاهرة .

ومن كامب ديفيد انتقلنا صباح اليوم التالى إلى البيت الأبيض مباشرة حيث استقبل جيمى كارتر خليل وديان . وعدت أنا إلى فندق ماديسون . وفى الصباح التالى توجهت إلى مستشفى البحرية فى بيثسدا حيث أجريت لى الفحوص والاختبارات لمدة ثلاث ساعات . واكتشف الطبيب بقعة سوداء على الرئة ولم يخفى اعتقاده بأنها بداية ورم سرطانى . ونصحنى بإجراء كشف آخر فى غضون شهرين أو ثلاثة أشهر على الأكثر .

وأحس أشرف غربال بما أنا فيه من كرب . وقال : « إن الخوف من السرطان فى أمريكا مرض أوسع انتشارا من السرطان نفسه . والأطباء الأمريكيون يرون السرطان فى كل شىء » . ولكن كلماته لم تساعدنى .

وفى مساء اليوم نفسه وفى حفل عشاء فى بيت هيربرت هانزيل ، المستشار القانونى لوزارة الخارجية ، وردت أنباء بأن مجلس الوزراء الإسرائيلى رفض إيفاد بيجن إلى واشنطن للتفاوض إذا ما كان نظيره المصرى مجرد مصطفى خليل . ووافق جميع الحاضرين على أن عملية السلام قد توقفت الآن ، وأنه لابد من تدخل سريع لإنقاذها .

وفى اليوم التالى ولكى أبعد ذهنى عن تشخيص بيثسدا الذى أجرى لى ، قررت زيارة المتحف القومى لمشاهدة أعمال ماتيس وفان جوخ ، ولكن متعة الزيارة أحبطها انشغالى بصحتى ، بالإضافة إلى الوجود المقتحم لفصيل الأمن الخاص بى ، وفشل المفاوضات .

وفى المساء أقام أشرف غربال مأدبة عشاء تكريما لى ، دعا إليها سايروس فانس وقرينته وأعضاء الوفد الأمريكى . وفى حديث مطول مع فانس ، اقترحت بأننا قد نستطيع تحريك المحادثات بالعودة إلى موضوع « غزة أولا » . واستمع فانس باهتمام ، وطلب أن أقابل الرئيس كارتر فى ساعة مبكرة من صباح الغد لأعيد على مسامعه ما قلته الآن . وعدت إلى الفندق وأعددت ملاحظاتى للاجتماع الذى تصورت أنه قد يكون حاسما .

وأمضيت صباح يوم ٢٨ فبراير فى انتظار مكالمة تليفونية من البيت الأبيض ، ولكن شيئا لم يحدث . ولذا قررت العودة إلى القاهرة . وتركت الفندق فى الظهيرة إلى المطار ، قاصدا نيويورك لأستقل الطائرة إلى باريس . وفى نيويورك أمضيت نحو ساعتين داخل حجرة مغلقة ومؤمنة يحيط بها رجال الأمن الأمريكيون إلى أن حان وقت الرحيل إلى باريس . ولدى وصولى إلى هناك ، متعبا ومحبطا ، ذهبت إلى فندق كريون ، حيث تناولت العشاء مع صديقة قديمة هى بولا العلايلى والصحفى الفرنسى دانييل ايكوييم . وطلبت الشمبانيا وتبادلنا أنخاب السلام ، الحلم الذى لم يتحقق .

اتصل بى أشرف غربال تليفونيا ليفيدنى بأنه تسلم رسالة من القاهرة بتكليفى برئاسة الوفد المصرى للاجتماع الطارىء الذى تعقده الجامعة العربية فى الكويت فى يوم الأحد التالى لمناقشة عدوان حكومة عدن على اليمن الشمالية ، وتلقيت مكالمة ثانية أفادتنى بأن السلطات الكويتية ستبذل كل ما فى قدرتها لتأمين سلامتى .

وقابلتنى « ليا » فى مطار القاهرة ، وقالت على الفور بأنه يتحتم علىّ الاعتذار عن

مهمة الكويت . حيث سمعت بأنها محفوفة بالمخاطر الشديدة . فالمجموعات الفلسطينية المتطرفة ستحاول توجيه ضربة لمصر ولعملية السلام باغتيالى . وقلت لها ألا تلقى بالا للشائعات ، وإن السلطات الكويتية ستتخذ كافة الاحتياطات الأمنية .

وعندما قابلت رئيس الوزراء مصطفى خليل فى مكتبه ، أعاد على مسامعى ما قالته زوجتى ، وحثنى على عدم الذهاب إلى الكويت . وقال إن سلطات الأمن لديها تقارير بأن مجموعات الفلسطينيين تعتزم اغتيالى كما سبق لهم أن قتلوا يوسف السباعى فى قبرص . وقلت لمصطفى خليل إن مصر لا يمكنها الخضوع للتهديدات ، أو أن تقع فريسة للشائعات والإرهابيين إلى أن نجد أنفسنا بمعزل عن المؤتمرات الدولية بسبب مخاوفنا . واقنعت مصطفى خليل بضرورة ذهابى ، وأمر من جانبه بتعزيز فصيل الأمن الخاص بى .

ووصلت إلى الكويت بعد منتصف الليل يوم ٣ مارس ١٩٧٩ . وكانت السلطات الكويتية قد أعدت سيارة مدرعة نقلتنى من المطار إلى فندق هيلتون وسط حراسة أمنية مشددة .

ولدى وصول الشيخ جابر الأحمد وزير خارجية الكويت ، الذى يتمتع بالذكاء والسلطان ، إلى الفندق ، أبلغته بأن لدىّ تعليمات بالرد بقوة على أى هجوم يوجه إلى مصر أو إلى الرئيس السادات ، وبأن مثل هذا الأمر قد يؤدى إلى تعطيل أعمال المؤتمر المنعقد خصيصا للتصدى للأزمة فى اليمن وليس للمشكلة الفلسطينية . وكان الشيخ جابر يريد تجنب ذلك ، واقترح بأسلوب دبلوماسى بأن أتحاشى التنديد بالدول العربية إذا ما انتقدوا اتفاقات كامب ديفيد ، مادام هجومهم ينصب على كامب ديفيد نفسه وليس على مصر أو الرئيس السادات . وأجبته قائلا بأن الهجوم على كامب ديفيد هجوم على مصر والسادات .

وتناولت العشاء فى مطعم بإحدى ناطحات السحاب الكويتية . وكان ضمن الزعماء العرب فى العشاء : محمود رياض الأمين العام لجامعة الدول العربية ، وسعدون حمادى وزير خارجية العراق ، وعبد الحليم خدام وزير خارجية سوريا ، وعلى التريكى وزير خارجية ليبيا ، وفؤاد بطرس وزير خارجية لبنان . وساد العشاء جو من الصداقة والسرور ، وجاءت الأحاديث المتبادلة بعيدة عن المواجهات السياسية دخل العالم العربى .

وعندما بدأ المؤتمر فى صباح اليوم التالى ، التفت إلى وزير خارجية ليبيا أمازحه بصوت عال يصل إلى آذان الجميع ، وقلت : « إننى أخاف على مستقبلك السياسى لأنك تجلس بين بطرسين – فؤاد بطرس وبطرس غالى – واحد ليبى بين اثنين من المسيحيين ! » . وضحك الجميع ، كما اضطر التريكى إلى الضحك ولكن ضحكته جاءت مرتبكة .

وفى مأدبة الغداء الرسمية التى أقيمت فى قصر الأمير ، كان مقعدى بين قيس الزواوى وزير الدولة العمانى للشئون الخارجية وأمير الكويت الشيخ الصباح . وجلس معنا وزير خارجية منظمة التحرير الفلسطينية . وتحدث الشيخ الصباح عن المأكولات التى تناولها والأدوية التى يتعاطاها .

وفى السادسة مساء استأنف المؤتمر أعماله ، وفى حوالى التاسعة تردد نبأ فى أنحاء القاعة بأن الرئيس كارتر سيزور القاهرة فى الأيام القليلة القادمة . وجاء هذا النبأ بمثابة الصاعقة الكهربائية . وانطلق المندوبون يهاجمون بضراوة اتفاقات كامب ديفيد والدور الأمريكى ، وذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ولم أرد . وبعد فترة وجيزة من عودتى إلى الفندق فى نحو الساعة الثالثة والنصف صباحا ، وجدت الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودى على باب الجناح الخاص بى . وكنت قد طلبت من السفير تحسين بشير مندوب مصر الدائم لدى الجامعة العربية أن يكون هناك معى .

وأبلغنى الوزير السعودى ، وهو ابن الملك فيصل ، بأن حكومته ستقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر إذا أقدمت على توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل . ودافعت عن سياسة مصر بإسهاب ، مؤكدا أننا نشترك فى نفس الهدف ، ولا نختلف إلا على كيفية الوصول إليه . واستمع الأمير السعودى ولم يقل شيئا . لقد كانت العلاقات المصرية السعودية بمثابة الدعامة لسياسات الشرق الأوسط ، وتقف فى مواجهة التحالف الهاشمى للأردن والعراق ، سواء قبل إنشاء الجامعة العربية أو خلال السنوات الأولى من عمرها . وفى نحو الرابعة صباحا ودعت زائرى السعودى حتى باب المصعد وشكرته على الزيارة . وناقشت مع تحسين بشير تدفق الأحداث . لقد جاء توقيت الإعلان عن زيارة كارتر مؤسفا . فالمارد الأمريكى سيضغط علينا لتوقيع معاهدة السلام دون إبطاء . ولم أكن قد نمت أكثر من ساعتين حينما غزت الشمس جميع أرجاء غرفة نومى .

وفى يوم ٦ مارس وعلى متن الطائرة التى تحملنى إلى القاهرة وجدت نفسى جالسا إلى جوار محمود رياض الأمين العام للجامعة العربية ، الذى تحدث معى بلا انقطاع عن النزاع بين مصر والعرب ، وراح يكرر المرة بعد الأخرى بأنه أمر ضار للجامعة العربية وللتضامن العربى . وحاولت متابعة حديثه ولكن رغبتى فى النوم كانت قوية للغاية .

ووصلنا إلى القاهرة وسط عاصفة رملية سيئة . كانت رياح الخماسين تهب عبر المطار ، وكنا نتنفس بالكاد حتى فى قاعة كبار الزوار بسبب الهواء المحمل بالرمال .

ولدى وصول الرئيس كارتر إلى مطار القاهرة بعد بضعة أيام كنت واقفا فى الصف

مع المستقبلين لتحيته . وتوقف كارتر أمامى برهة من الوقت وقال مبتسما : « عودة للأيام الخوالى مرة أخرى » . وابتسم السادات وكأن هذه اللفتة علامة قبول .

وتوجهنا إلى الاسكندرية بقطار خاص كان يستخدمه الملك فؤاد . وكان مصمما على طراز العمارة المزخرفة فى السكة الحديدية . ففى كل عام ، وفى بداية فصل الصيف ، كان الملك يستقل هذا القطار من القاهرة إلى الإسكندرية يصحبه كل وزرائه ، جاعلا من الإسكندرية عاصمة مصر الثانية . ثم يعودون إلى القاهرة فى سبتمبر بنفس القطار وبنفس المراسم . وعلى مدى أجيال ، كان لزاما على كل فرد من الطبقة الحاكمة المصرية امتلاك مقر ثان فى الإسكندرية . وفى صباى كانت مثل هذه السمات الاجتماعية الجميلة تستبد بى ، وكنت أشعر بالمهانة لأن أسرتى لم تكن تمتلك مقرا ثانيا فى الإسكندرية ، وإنما يقتصر الأمر على استئجار فيللا هناك . وفى كل مرة طالبت فيها أبى بشراء فيللا ، كان يسألنى ما إذا كنت أفضل أن يكون مقرنا الثانى فى الإسكندرية أو فى أوروبا . وكنت أرد دائما « أوروبا ! » . ويعود أبى إلى سؤالى : « هل تعرف الآن لماذا لا نمتلك فيللا فى الإسكندرية ؟» . وفى القطار المزخرف المنطلق إلى الإسكندرية كانت « الدرجة الأولى » مخصصة للرئيسين ، و« الدرجة الثانية » للوزراء والخبراء والياوران . وكانت الحشود تصطف على طول الطريق تهتف للسادات وكارتر . وكلما أبطأ سائق القطار من سرعته عند كل محطة كانت الهتافات ترتفع لتشق عنان السماء .

وبدا أن المحادثات فى الاسكندرية لن تصل إلى شىء ، ولكن الرأى السائد وسط الوفد المصرى أن السادات على استعداد للتنازل من أجل معاهدة السلام . هل ستكون هذه التنازلات على درجة من الخطورة كما كنت أتوجس ، أم أنها ستكون تافهة كما كان السادات يؤكد لنا ؟ فقد أعلن السادات بأن معاهدة السلام أهم كثيرا جدا من التفاصيل التى دأبنا على إثارتها . واتبع السادات رؤاه .

وفى ١٠ مارس غادر كارتر متوجها إلى إسرائيل . لقد بدأت دبلوماسية المكوك الرئاسية . فبعد أيام قليلة عاد كارتر ، والتقى هو والسادات على انفراد لمدة ساعة فى قاعة كبار الزوار بالمطار . وترددت شائعة بأن كل الخلافات أمكن حلها ، وبأن دبلوماسية المكوك نجحت . وانتابنى القلق وقلت للسفير ايلتس : « هل تضغطون على الرئيس للتوصل إلى معاهدة سلام على حساب التزامات مصر العربية ؟ إن ثمن الاستجابة لضغوطكم ستدفعه مصر والرئيس السادات » .

توضيحـــات

وأخيرا وفى ١٤ مارس كان نص المعاهدة جاهزا . وقررنا نشره فى الصحف المصرية ، وتمت الترتيبات لارسال تفسير للمواد والنقاط الرئيسية الواردة فى المعاهدة من خلال برقية عاجلة إلى البعثات التى تمثل مصر فى الخارج . كان كثير من المواد يصعب تفسيره ، علاوة على اعتبار المذكرات الجانبية جزءا لا يتجزأ من المعاهدة . وأمضيت أيامى التالية فى شروح معقدة للنص أمام البرلمانيين والصحافة والسفراء الأجانب وموظفى حكومتنا .

وفى يوم الخميس ٢٢ مارس التقيت مع أعضاء لجان الشئون الخارجية والشئون العربية والأمن القومى لمجلس الشعب . وقلت لهم إن ما سيوقع الاثنين القادم هو فى الحقيقة معاهدتين وليست واحدة . الأولى تنص على الانسحاب الإسرائيلى من سيناء ، والمعاهدة الثانية تتناول الحكم الذاتى للفلسطينيين فى غزة والضفة الغربية . وإن المعاهدتين مرتبطتان من حيث إن الموقعين هم أنفسهم فى الحالتين ، وإن الأسس القانونية التى تقوم عليها اتفاقات كامب ديفيد وقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ هى نفس الأسس ، وإن الضامن فى كل من المعاهدتين هو الولايات المتحدة التى ستكون شريكا كاملا فى تنفيذ كل منهما . وطبقا لأحكام المعاهدة الثانية المتعلقة بالضفة الغربية وغزة ، فإن الأردن والفلسطينيين سيشتركان فى المفاوضات . وفى حالة عدم اشتراكهما فإن مصر ستتفاوض نيابة عنهما . وللفلسطينيين أن يقبلوا أو يرفضوا ما يتوصل إليه المفاوضون المصريون . ذلك أن مصر ستعمل كطرف مفاوض نزيه باسم الآخرين بدون تفويض منهم ، وأن ما يتم الاتفاق عليه لن يكون سارى المفعول بدون قبول الطرف المعنى .

وأعلن الدكتور عبد الله العريان ، المستشار القانونى السابق ، الذى أصبح الآن القاضى المصرى فى محكمة العدل الدولية ، أن الالتزامات التعاقدية الناجمة عن معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية جاءت متفقة مع القانون الدولى . وكنت قد طلبت منه أن يعاوننى فى إبعاد شكوك النواب فى المعاهدة . وأمضينا ساعات طويلة نرد على عشرات الأسئلة التى تتناول كثيرا من نواحى الاتفاق .

وفى يوم السبت ٢٤ مارس انطلقت طائرة الرئاسة فى الصباح إلى واشنطن . لقد تم الإعلان عن موعد توقيع المعاهدة ، وذلك بعد ٤٨ ساعة فقط . وجلست أثناء الرحلة مع مصطفى خليل وحسن التهامى . وجلس الرئيس فى صالون آخر مع قرينته وأبنائه ، ولم نره مرة أخرى إلا عندما توقفت الطائرة لتتزود بالوقود فى جزر الآزور .

وفى قاعدة أندروز الجوية كان هناك أسطول كبير من السيارات فى انتظار نقلنا من المطار إلى فندق ماديسون . وكان جناحى هو نفس ما كان يحتله موشى ديان إبان الجولة الأخيرة من المفاوضات .

وصباح الأحد تابعت القنوات التليفزيونية الأمريكية الثلاث حيث ظهر كل من بيجن وديان وكيسنجر يتحدثون واحدا بعد الآخر عن المعاهدة . ولم يسمع للمصريين أو العرب صوتا .

وتناولت الغداء مع أشرف غربال وعصمت عبد المجيد الذى جاء من نيويورك للمشاركة فى احتفالات التوقيع ، ثم عدنا معا إلى جناحى حيث دارت بيننا مناقشات طويلة استمرت إلى ما بعد منتصف الليل . وبدت المعاهدة التى سيجرى توقيعها بعد ظهر اليوم التالى فى البيت الأبيض بمثابة انتصار للدبلوماسية المصرية ، ولكننى شعرت بأنها سوف تضُرّ بنا ، فمما لا شك فيه أن هذا النصر أمكن تحقيقه بتهميش الفلسطينيين وإضعاف تأثير مصر على مستقبل الضفة الغربية وغزة . فمصر ستحصل على السلام ، ولكن الفلسطينيين لن يحصلوا على حقوقهم .

وفى الثانية بعد الظهر أعطانا السفير ايلتس نسخة من اتفاقية سايروس فانس وموشى ديان ، تتضمن ضمانات إضافية من جانب الحكومة الأمريكية لإسرائيل فى حالة قيام مصر بخرق معاهدة السلام . ونصت الاتفاقية الإسرائيلية الأمريكية على أنه إذا وجدت الولايات المتحدة أن هناك خرقا للمعاهدة ، أو حتى تهديدا بخرقها ، فإنها ستتخذ من الخطوات ما يضع حدا لهذا الخرق أو ما يمنع وقوعه . وبدا من الصياغة أن مصر وحدها قد تخرق المعاهدة ، وأن الولايات المتحدة فى هذه الحالة ستقدم معونة « عاجلة » لإسرائيل .

وفى الصباح الباكر من يوم ٢٦ مارس هرع عمرو موسى ليبلغنى بأن مصطفى خليل قد أعد مذكرة يعترض فيها على تلك الاتفاقية الإسرائيلية الأمريكية . وبفضل شبابه وطموحه وديناميكيته تقدم عمرو موسى الصفوف ليصبح وزيرا لخارجية مصر فى التسعينات . وتوجهت لمقابلة مصطفى خليل ووجدته فى حالة ثورة . وكان مصرا على الذهاب إلى السادات الموجود فى مقر السفارة المصرية لإبلاغه بالمخاطر الكامنة فى هذه الاتفاقية التى لم نكتشفها إلا قبل ساعات قليلة من توقيع المعاهدة . وقال إن الولايات المتحدة قد أعطت نفسها دور الحكم فى تقرير متى وما إذا كان هناك خرق لمعاهدة السلام ، الأمر الذى يتعارض ونصوص المعاهدة التى تحدد الإجراءات التى ينبغى اتباعها لحل أى خلاف قد ينشأ فى التطبيق . وحاولت تهدئة الدكتور مصطفى خليل . وقلت إن هذه الاتفاقية فى

الحقيقة هى استطراد لتأكيدات أمريكية سابقة لإسرائيل ، تعود إلى حرب ١٩٧٣ . واقترحت أن نطالب الجانب الأمريكى بإعطائنا فى المقابل ضمانات بأن المرحلة الفلسطينية من المعاهدة سيجرى تنفيذها وفقا للجدول الزمنى .

وجاء سايروس فانس إلى الفندق لاحتواء قلق مصطفى خليل مجادلا بأن الولايات المتحدة على استعداد لإعطاء مصر نفس الضمان فى حالة خرق إسرائيل لمعاهدة السلام ، وأضاف أن القراءة المتأنية للاتفاق مع إسرائيل تشير إلى انه لا يتضمن أى التزام حقيقى تجاه إسرائيل من الجانب الأمريكى . فإن عباراته واسعة ومطاطة ، وإن أى معونة أمريكية لإسرائيل تتوقف على موافقة الكونجرس . وبعبارة أخرى فإنها ليست تلقائية وإنما تستلزم قرارا أمريكيا محددا .

وأجبت قائلا إن مصر لا يمكن لها قبول ضمانات مماثلة من الولايات المتحدة ، لأن مصر - بوصفها دولة غير منحازة - محظور عليها الارتباط بأى اتفاقية أمنية مع دولة عظمى . ووافقنى الدكتور مصطفى خليل . وبعد مغادرة فانس ،بعث الدكتور مصطفى خليل مذكرة إلى فانس يقول فيها إن مصر فى غاية الإحباط لاكتشافها أن الولايات المتحدة دخلت فى اتفاقية مع إسرائيل ، الأمر الذى نعتبره موجها ضد مصر ، والذى يمكن فى الواقع تفسيره كتحالف مستقبلى بين الولايات المتحدة وإسرائيل ضد مصر ، مما سيكون له آثار سلبية فى مصر ، ويوفر للدول العربية الأخرى أسبابا إضافية لعدم المشاركة فى عملية السلام .

وعندما قام الدكتور مصطفى خليل بإبلاغ الرئيس السادات بالالتزام الأمريكى لإسرائيل ، لم يبد السادات ، كما توقعت ، أى اهتمام . فبالنسبة للسادات ، فإن شيئا لم يكن ليستطيع أن ينقص من سحر الاحتفال الذى سيجرى فى الساعات القليلة القادمة .

وتناولنا الغداء فى بلير هاوس مع قيادات الدول الثلاث ، ثم عبرنا شارع بنسيلفانيا على الأقدام إلى البيت الأبيض . كان الجو جميلا تشوبه لفحة من البرد . وأثناء حفل التوقيع جلست بجوار هنرى كيسنجر ، الذى كان يتصرف وكأنه العريس فى حفل زفافه . وبعد سنوات طويلة أبلغنى هيرمان ايلتس بأن كيسنجر سأله فى ذلك اليوم : لماذا وقع السادات هذه المعاهدة ، « لقد كان فى وسعى أن أحصل له على ما هو أكثر كثيرا » .

وحينما عزفت فرقة موسيقات الجيش الأمريكى السلام الوطنى الإسرائيلى ، شارك الإسرائيليون بالغناء فى حماس . كذلك فعل الأمريكيون عندما عزفت الفرقة السلام الوطنى الأمريكى . ولكننا لم نقم بالغناء عندما عزفت الموسيقى سلامنا الوطنى لأنه ليس تقليدا مصريا أن نفعل ذلك . وقد حزَّ فى نفسى أن أدرك ، كما كان الحال حين ظهر بيجن وديان

وكيسنجر على شاشات التليفزيون ، أننا نحن المصريين لا ننتمى إلى النادى ، وأننا كمن ينظر إلى الأحداث من الخارج .

وتناهت إلى أسماعنا هتافات الفلسطينيين يشجبون المعاهدة من خارج أسوار البيت الأبيض ، الأمر الذى أعاد إلى ذاكرتى مرة أخرى أن المعاهدة أغفلت الشعب الفلسطينى ، مما أثار شعورا بالمرارة أفسد على الاستمتاع بالمناسبة .

ولدى عودتنا إلى الفندق كان فى انتظارى الكاتب الروائى الأمريكى سول بيللو الذى سبق أن طلب إجراء حديث معى . وسألته ما إذا كان قد حضر الاحتفال بالبيت الأبيض ، وقال إنه حضر . وقلت له : « هل سمعت هتافات الفلسطينيين المتجمهرين أمام البيت الأبيض ؟ » . وأضفت قائلا إن تلك الأصوات سيطرت على أفكارى طوال الحفل . وقلت : « إذا كنا قد فشلنا فى حل المشكلة الفلسطينية فإن المعاهدة الموقعة اليوم لن يكون لها مستقبل » .

وأجاب بيللو قائلا : « بوصفى يهوديا ، لا أستطيع القبول بذلك ، ولكننى كإنسان ينبغى أن أعترف بأنها الحقيقة » .

وكتب بيللو عن لقائنا فى *« نيوز داى »* ، وقال : « من حديقة لافاييت حملت مكبرات الصوت صيحات المتظاهرين الفلسطينيين والمتعاطفين معهم ، فقد حجزهم هناك مئات من شرطة مكافحة الشغب » . وكتب عنى قائلا : « إنه دبلوماسى ، أفصحت قسماته المصرية الفرنسية بوضوح عن تساؤلات غير راضية . لم تكن هناك عبارات رفض غير لائقة ، وإنما أسلوب مدرب على تجنب الأشياء التى لا يهمه مناقشتها . وإزاء هذه الأشياء كان يعمد إلى نوع من البلاغة من صنعه هو . ولقد فعلت أنا نفس الشىء تقريبا فى بعض المناسبات ، ولكن بقدر أقل من الأناقة ، وبعيدا عن خلفية الطنافس الشرقية والورود المنثورة » . وقدم بيللو ملخصا لعرضى المطول بشأن الحقوق الفلسطينية ، ولكنه أبدى اهتماما أكبر بما أحسه أنا نحو الإسرائيليين .

وقال إننى أرى « ديان باعتباره وزير بيجن ، وإن ما بينهما هو بمثابة الرباط الشرقى بين الخليفة ورجل الدولة المقرب فى الحاشية » . وأضاف قوله إن « غالى يرى فى وايزمان ولى العهد والخليفة المنتظر الذى يشعر تقليديا بعدم الثقة فى الوزير وينتهى به الأمر إلى فصله » . أما بالنسبة للعلاقة بين مصر وإسرائيل ، كما قال بيللو ، فإن « غالى يضع العلاقات الثقافية فى المكان الأول .... وعلى الإسرائيليين أن يتعلموا العربية . وإنه لا يعنى

بذلك العربية العامية التى تعلمها الكثيرون من اليهود من جيرانهم فيما مضى – نوع العربية التى يتحدثها ديان » .

وقد حاولت فى حديثى مع بيللو أن أعبر له عن عمق حزنى على حقوق الفلسطينيين والتزامى بسياسة مصر . ولكن بيللو ، فى مقال آخر عن لقائنا ، لم يكد يذكر شيئا عن مادة حديثنا وإنما اكتفى بسرد بعض الطرائف عنى . قال :

غالى يتحدث كثيرا عن فرنسا والفرنسيين وعن المثقفين الفرنسيين . وهو يوصى بقراءة مقال جان بول سارتر عن زيارة السادات للقدس . أصدقاؤه يسمونه بيير . والسادات ، كما قال لنا ، يدعوه بيير عندما يكون راضيا عنه ، أما إذا لم يكن راضيا عنه فإنه يناديه باسم بطرس .

وعندما نترك جناحه فإننا نطالع من خلال الباب المفتوح للغرفة المجاورة أولئك المصريين ذوى العضلات المفتولة والبنية القوية ، بلا سترات ، وهم يتحدثون على سجيتهم بينما يحدث جراب مسدساتهم الجلدى صريرا كلما تحركوا . إنهم مدججون بالسلاح .

ثم كتب بيللو بعد ذلك يقول إنه التقى بى مرة أخرى فى الحفل الكبير فى البيت الأبيض احتفالا بالمعاهدة . قال : « قابلت السيد غالى مرة أخرى . انحنى فى أدب محبب ، بنظارته ذات الإطار الأسود ، ليبدو فرنسيا للغاية ، بل أشبه بالممثل الراحل ساشا جيترى » . كم هو غريب أن تقرأ وصف أحد الفائزين بجائزة نوبل لك كشخصية شاعرية تكاد تكون مندثرة .

وفى حفل العشاء الكبير فى البيت الأبيض تلك الليلة ، جاء مقعدى وسط مجموعة من الزعماء اليهود الأمريكيين الذين بدوا فى غاية السعادة بمعاهدة السلام ، وأعربوا عن ذلك فى كل مناسبة ، فى تباين حاد مع مشاعرى الخاصة المستنزفة . وغادرت الحفل عقب العشاء مباشرة . وأقبلت نحوى فصيلة حراستى الأمريكية اليقظة بمجرد وقوفى استعدادا للرحيل ، وصحبونى إلى سيارتى المدرعة التى أصر الأمريكيون على أن استخدمها . وعدت إلى فندق ماديسون .

وفى يوم ٢٧ مارس رافقت السادات إلى الكونجرس حيث أقيم احتفال تكريما له . وجلست إلى جوار أشرف غربال الذى أبلغنى بأن الرئيس كارتر بعث برسالة إلى الدكتور مصطفى خليل بشأن الإجراءات التى ستتخذها إسرائيل فى الأراضى المحتلة ؛ لبناء ثقة الفلسطينيين فى عملية السلام . وقد جاء خطاب كارتر عموميا للغاية ، وتضمن البيان الذى

أكد فيه بيجن لكارتر أنه سيحاول الحصول على موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلى على نقل مقر الإدارة العسكرية الإسرائيلية خارج مدينة غزة . ولكنه لم يشر إلى الضفة الغربية ، الأمر الذى أثار الشكوك عندى مرة أخرى .

واستيقظت فى ساعة مبكرة جدا من صباح اليوم التالى للذهاب إلى مستشفى بيثسدا البحرية لإجراء فحص على البقعة السوداء العالقة برئتى . وعندما أكد لى الأطباء أن هذه البقعة لا تمثل خطر التحول إلى ورم سرطانى ، قفلت عائدا إلى فندق ماديسون ينتابنى الإحساس بأننى إنسان جديد ، وعلى استعداد للكفاح مجددا من أجل الفلسطينيين ضد غريمهم الإسرائيلى .

وبعد ظهر ذلك اليوم ، وأثناء جلسة عمل مع الأمريكيين ، نشب خلاف رهيب بين مصطفى خليل وسايروس فانس . كان خليل قد قرر نشر الخطابين المصريين اللذين يعترضان على الاتفاق الإسرائيلى الأمريكى . وللمرة الأولى فى حضورى يفقد فانس أعصابه . فقد أسود وجهه وارتفع صوته ، وقال : « هذان الخطابان وثائق سرية وليسا للنشر ! » . وأجاب الدكتور مصطفى خليل بأنه كما أقدمت إسرائيل على نشر اتفاقها مع الأمريكيين ، فإن من حق مصر بالتأكيد أن تنشر رأيها فى الاتفاق . ثم غادر الغرفة . وكان فانس شديد الغضب ، وعاملنى ببرود وأنا أصحبه إلى المصعد ، وهو أمر غير مألوف عنه .

وفى رحلة العودة إلى القاهرة توقفنا فى ألمانيا ، وكان فى استقبالنا عمر سرى سفيرنا فى بون . وهمس عمر فى أذنى قائلا : « إن حاجتك الشديدة للراحة تبدو واضحة جدا على وجهك » . وفور وصولنا إلى الفندق ، توجهت إلى غرفتى وألقيت بنفسى على السرير دون أن أخلع ملابسى .

وبعد ساعات من النوم استيقظت وأنا فى حالة أفضل بعض الشيء . وبعد الظهر نقلتنا سيارات الرئاسة إلى قصر الضيافة ، حيث يقيم السادات وأسرته على بعد نحو سبعة وثلاثين ميلا من كولونيا . وهناك ، وفى جلسة عمل مع المستشار هيلموت شميت ، هاجم السادات تركيا بدون منطق . وقال إنه لا يثق فى الأتراك . واستمع الوفد الألمانى باستغراب ، وفى أدب ولكن بلا فهم . وتعود آراء السادات فى أصلها إلى أن مصر كانت دولة تابعة للإمبراطورية العثمانية . ولم يكن مسموحا للمصريين بالخدمة كضباط فى الجيش العثمانى . وصارت كلمة « عثمانلى » تعنى « غير مصرى » . وهكذا بقى معظم المصريين

يتأرجحون فى مشاعرهم إزاء الأتراك ، على عكس الطبقات الاجتماعية العليا فى مصر التى كثيرا ما تزوج أبناؤها من أسر عثمانية وأصبحوا منحازين للأتراك .

وفى اليوم التالى قمت بزيارة كاتدرائية كولونيا التى كنت قد شاهدتها من قبل منذ نحو ربع قرن . ولدى عودتى إلى الفندق رأيت حراس الأمن أمام بابى حاملين المدافع الرشاشة .

وقبل وقت قليل من هبوطنا فى القاهرة ، استدعانى الرئيس إلى جناحه الخاص حيث التقط المصورون الصور لمجموعتنا بما فى ذلك حامد السايح وعلى لطفى وحسن التهامى . وكان السادات مبتهجا ، وخاطبنى مداعبا : « عليك أن تستعد يا بطرس للقاء صديقك مناحم بيجن يوم الاثنين القادم فى القاهرة . إنك ستكون مرافقه الرسمى . إن وزيرا سيرافق رئيس الوزراء » . لم يسعدنى سماع ذلك .

الحكم الذاتى

فى يوم أول أبريل ١٩٧٩ أبلغتنى الرئاسة بأننى سوف أرأس بعثة الشرف المرافقة أثناء زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى للأهرامات وأبى الهول . واعترضت مجادلا بأن اسمى على رأس القائمة السوداء للمتطرفين الفلسطينيين ، وليس هناك ما يدعو للمزيد من استعدائهم . وكان اعتراضى الحقيقى هو أن علاقتى بمناحم بيجن لم تكن حميمة . كما أننى لم أرغب فى الضغط على زوجتى لمرافقة قرينة بيجن أثناء الزيارة ، أو أن توصف فى التليفزيون المصرى بأنها قرينة « مهندس » السلام مع إسرائيل .

ووصل بيجن ظهر اليوم التالى . وبينما الحرس الرئاسى يعزف السلامين الإسرائيلى والمصرى ، عنّ لى أن زى حرس الشرف المصرى يشبه زى الجنود الألمان إبان العهد النازى . وكان يقف بجوارى وزير السياحة محمود عبدالحافظ الذى علق بقوله إن السلام الوطنى الإسرائيلى – هاتيكفا – كئيب ومعقد . ولاحظ الجميع غياب الدكتور مصطفى خليل الذى قال إنه مريض ، ولكنه كان فى الحقيقة لا يزال مجروحا لرفض بيجن التفاوض معه فى كامب ديفيد الثانية . وكان واضحا على وجهىّ حسنى مبارك والسيدة قرينته أنهما أيضا متضايقان لتكليفهما باستقبال هذا الضيف . ولم أكن وحدى الذى يشعر بأن إسرائيل هى الرابحة ومصر الخاسرة فى هذه المعاهدة .

وتوقف بيجن أمامى برهة ليقول : « ما هو مزاج صديقى بطرس الآن ؟ إننى لن أدعوه بيتر مرة أخرى ! » .

وبنهاية مراسم الاستقبال عدت إلى مكتبى . وهناك وجدت فى انتظارى برقية من صديق وزميل لسنوات طويلة ، وهو جورج طعمه مندوب سوريا السابق لدى الأمم المتحدة ، يقول فيها : « إن رئاستك اليوم لبعثة الشرف المرافقة لمجرم الحرب بيجن هى صفعة على وجه كل عربى . ولكى أؤكد لك أن بيجن مجرم حرب فإننى أطالبك باعتبارك رجل قانون بأن ترجع إلى الجرائم وإلى قتل المئات التى اعترف هو نفسه بها فى كتابه « *الثورة* » ، الطبعة الإنجليزية الصادرة فى ١٩٥١ » . وأفاض نص البرقية فى وصف دور بيجن كإرهابى مسئول عن تفجير فندق الملك داود عام ١٩٤٦ الذى أودى بحياة نحو مائة شخص ، ومذبحة « دير ياسين » تلك القرية العربية القريبة من القدس يوم ٩ أبريل ١٩٤٨ ، واغتيال الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ .

وجاء فى البرقية أن هذه كلها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية كما ورد فى قواعد ومحاكمات نورمبرج ، والتى اعترف بها مرتكبها ، علما بأن المهلة القانونية للعقوبة لم تسقط بعد . وقال : « إنه لمما يدمى القلب ويضع الإنسان فى حرج أن تعمد أنت - بطرس غالى - الأستاذ من الدرجة الأولى ورجل القانون ، إلى إغفال مبادىء علمك وأخلاقياتك ورسالتك . وبدلا من أن تكون ضمن المطالبين بمحاكمة بيجن كمجرم حرب ، فإنك اليوم تستقبله كرئيس للوزراء . إن كل عربى مؤمن بعروبته ، وخاصة كل مسيحى عربى ممن تدلت أجسادهم من المشانق من أجل الثورة العربية الكبرى والذين يواصلون تقديم الضحايا دفاعا عن قدسية الحقوق العربية فى فلسطين ، تتفصد جباههم حرجا لأنك تضع المكسب السياسى قبل المبادىء الأبدية للقانون ، وأن تنحدر لرئاسة وفد مرافق لمجرمى الحرب . فلا الشعب العربى النبيل ولا الإنسانية تغفر لك صنيعك ولا لتبريرات رئيسك السادات .... وستكون لى لقاءات أخرى معك » .

لو أننى تسلمت هذه البرقية قبل ذلك ، لكنت قد طلبت دون تردد وبفخر أن أرأس وفد الشرف المرافق لمناحم بيجن .

وفى ذلك المساء حضرت أنا وزوجتى حفلا كبيرا فى قصر القبة تكريما لبيجن . وكان الجو دافئا وجميلا ، وبدت حدائق القصر رائعة وهى تسبح فى الأضواء المثبتة بطريقة فنية خلف الزهور والأشجار . ووسط هذه الأشجار كانت فرقة موسيقية تعزف ألحانا خفيفة .

وفى هذا الحفل الساهر كانت المجموعة الإسرائيلية تجلس على جانب والمجموعة المصرية على الجانب الآخر ، وكأن سورا خفيا يفصل بينهما . وتذكرت كلمات سارتر

« الجحيم هو الآخرون » . وأنقذت الموقف السيدة فايدة كامل ، عضوة مجلس الشعب والمغنية المعروفة ، لتقول بصوت عال إن أولئك هم ضيوفنا وعلينا أن نتحدث معهم ونرحب بهم . وبطريقة مسرحية عبرت السور الخفى الذى يفصل بين المجموعتين اللتين بدأتا فى الاختلاط ولم تعد أى من المجموعتين هى « الآخرين » بعد ذلك .

ووصل الرئيس السادات ومناحم بيجن تصحبهما قرينتاهما وشدوا على أيدى الضيوف واحدا بعد الآخر . وحينما جاء دورى كرر رئيس الوزراء الإسرائيلى مداعبته الجافة سائلا إياى ما إذا كان سينادينى ، بيتر أو بطرس ، هذا المساء . كانت مداعبة ثقيلة ولكنها لم تعجز أبدا عن إسعاد السادات . لقد كنت بمثابة الولد الشقى ، وكان سلوكى يوفر مادة جاهزة للحديث لرئيس الوزراء الإسرائيلى والرئيس المصرى .

وجلس الرئيسان وقرينتاهما إلى مائدة ممتدة ، مع حسنى مبارك وقرينته ، وسط عديد من الموائد الصغيرة التى جلس حولها الوزراء وغيرهم من كبار الشخصيات . وجلست إلى مائدة مع الدكتور محمود داود وزير الزراعة ونسيم جاعون المليونير الإسرائيلى السودانى الأصل . وكان إبان « ثورة الاشتراكية المباركة » قد غادر الخرطوم إلى المهجر فى أوروبا حيث ضاعف ملايينه عدة مرات . وأثناء العشاء تحدثت مدام جاعون - وهى سيدة بسيطة وحنونة - عن ذكرياتها فى الخرطوم ، بينما تحدث زوجها عن المشروعات الزراعية التى يمكنه المعاونة فى تنفيذها فى مصر . ولاحظت أن الوفد المرافق لبيجن لا يتكون من وزراء إسرائيليين ، وإنما من أصدقاء رئيس الوزراء الذين يبدو أنهم قدموا مساهمات مالية ضخمة لليكود .

وبعد العشاء قدمت فرقة رضا ، الفرقة المصرية للفنون الشعبية ، بملابسهم الريفية ، رقصات بمصاحبة الأغنيات التقليدية . وصفق الإسرائيليون بحماس ، وسادت الحفل بهجة محببة اعتبرتها أنا فألا طيبا . هل نحن نشهد بشائر الثمار لسلام منشود منذ زمن طويل ؟ ولكن علاقاتنا مع العرب لا تبدو واعدة . وكنت فى نفس هذا اليوم قد أصدرت بيانا من خلال وزارة الخارجية بأن القرار المتخذ فى بغداد بنقل مقر الجامعة العربية من القاهرة ينتهك ميثاق الجامعة ويعتبر لاغيا وكأنه لم يكن ، ولا يمكن استخدامه لمواجهة مصر . كما أعلنت قرار مصر الاحتفاظ بالوثائق ، وبتجميد حسابات الجامعة العربية المصرفية فى القاهرة .

وفى اليوم التالى ، وبسبب كثافة المرور فى الصباح ، وصلت إلى قصر القبة متأخرا . وحال خروجه من الصالون حيث أمضى ساعة وحده مع السادات ، قام بيجن

بتحيتى بصوت عال وعلى مسمع من الصحفيين . وقال : « هاهنا صديقى بطرس الذى سيأتى إلى القدس فى الأسبوع القادم ؛ ليشارك فى احتفالات تبادل وثائق التصديق مع زميله موشى ديان » .

فاجأنى هذا النبأ وغاص قلبى . ومن أحد المكاتب بقصر القبة اتصلت تليفونيا بالدكتور مصطفى خليل ، وقلت له : « يبدو أن الرئيس قد وافق من حيث المبدأ على استكمال تبادل وثائق التصديق فى القدس . وإذا ماحدث ذلك ، فإنه سيعنى اعترافا من جانب مصر بأن القدس عاصمة لإسرائيل ، وهذا الأمر يتعارض مع موقف المجتمع الدولى كله . وحتى الولايات المتحدة لم تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل ! » .

واتصل مصطفى خليل على الفور بالسادات ، ثم عاد إلى الاتصال بى ليفيدنى بأنه أقنع السادات برأينا . ووافق السادات على اقتراحنا بأن يجرى تبادل وثائق التصديق إما فى واشنطن أو فى شبه جزيرة سيناء .

وغادر بيجن يوم الأربعاء وهو بادى السرور بالاستقبال الذى لقيه ، وبالاحتفالات التى أقيمت تكريما له ، وبمحادثاته مع الرئيس السادات . ومرة أخرى تحدث معى وهو يصافح مودعيه . فقد أبلغوه بأننى الشخص الذى اعترض على تبادل وثائق التصديق فى القدس . وابتسم لى قائلا : « بالرغم من اعتراضك فإننى أدعوك للقيام بزيارة رسمية لإسرائيل ولمدينة القدس ، أما بالنسبة لمكان تبادل وثائق التصديق فيمكنك أن تقرر ذلك مع ديان » . وكان خيارنا أن نتبادل الوثائق عند الخط الفاصل بين القوات المصرية والإسرائيلية فى سيناء ، عند محطة الإنذار المبكر التى يديرها الأمريكيون .

وفى يوم ٩ أبريل دارت مناقشات ضخمة حول معاهدة السلام فى مجلس الشعب . وقد أعلن خالد محيى الدين ، وهو أحد « الضباط الأحرار » فى ثورة عبد الناصر عام ١٩٥٢ ، بينما هو الآن زعيم لـ « المعارضة » المصرية ، أعلن فى نبرة عاطفية أنه يرفض هذه المعاهدة « من أجل مصر » ، تلك العبارة التاريخية ذات الرنين القوى . وكانت قد استخدمت فى تبرير معاهدة ١٩٣٦ التى منحت بريطانيا بموجبها الاستقلال لمصر ، ولكن وفقا لشروط نالت من سيادة مصر . ثم فى عام ١٩٥١ استخدم الوفد نفس العبارة - « من أجل مصر » - عندما ألغى معاهدة ١٩٣٦ . وقال خالد محيى الدين إن المعاهدة لا تقدم لمصر سوى انسحاب مشروط من سيناء ، من شأنه أن يضر بسيادة مصر على أراضيها ، وبأن المعاهدة تنتهك تعهدات مصر العربية وتضعف دورها القيادى فى العالم العربى . وقال إن إقامة علاقات طبيعية كاملة مع إسرائيل ثمن باهظ يتحتم على مصر دفعه قبل إتمام

الانسحاب الإسرائيلى ، وإن ذلك سيترك المفاوض المصرى بلا وسائل ضغط فى المفاوضات من أجل الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة . كما وجه اتهاما بأن مصر لا تحقق سلاما شاملا بل سلام منفرد . وقال أيضا إن المعاهدة سوف تعزل مصر عن العالم العربى ، والعالم الإسلامى ، وعالم عدم الانحياز ، وإنها ستفتح الباب واسعا أمام الهيمنة الأمريكية على مصر والمنطقة كلها .

وأجبت بأن هذه ليست المرة الأولى التى تتفاوض فيها مصر نيابة عن أشقائها العرب . فقد حدث فى ١٩٥٣ – ١٩٥٤ ، وهى فترة يعرفها السيد خالد محيى الدين جيدا ، أن تفاوضت مصر عن الشعب السودانى ، وحصلت على الحكم الذاتى للسودان ، الذى أدى إلى استقلاله كأمة ذات سيادة كاملة على أراضيها .

ووقف السيد خالد محيى الدين ليرد علىّ . وعندما انتهى من كلمته كنت على وشك دحض كلامه مرة أخرى حينما شدنى أحد الزملاء من سترتى هامسا بأننى قلت مافيه الكفاية .

ثم تحدث أحمد ناصر ، وهو عضو بارز آخر فى البرلمان ، ليعلن أن المعاهدة تنتهك الشروط الأساسية للجامعة العربية ، حيث ينص القرار ٢٩٢ على أن أى دولة عضو فى الجامعة لا يمكنها التفاوض على سلام منفرد أو عقد أى سلام مع إسرائيل . وأن أى دولة تتخذ مثل هذه الخطوة تتعرض للطرد من الجامعة العربية .

وبينما أحمد ناصر يتكلم ، عادت إلى ذاكرتى محاضراتى لطلبة جامعة القاهرة التى أكدت فيها ما يقوله أحمد ناصر بشأن القرار ٢٩٢ . ولكننى تذكرت أننى لقنت طلبتى أيضا نظرية "rebus sic stantibus" ، أى أن استمرار صلاحية أى معاهدة يستلزم « أن تبقى الأشياء على ما هى عليه » . ففى القانون الدولى ، حينما تتغير الظروف ، يحق لك أن تطالب بتعديل الشروط الواردة فى الاتفاقية السابقة . وأثناء جلوسى فى مجلس الشعب ، رحت لبعض الوقت أتأمل هذه الذكريات ، ولم أتمكن إلا بصعوبة من تركيز اهتمامى الكامل على الحاضر أو على أعضاء مجلس الشعب ، أو على المناقشات الدائرة حول معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل .

وواصل أعضاء مجلس الشعب إثارة المخاطر الكثيرة الكامنة فى المعاهدة : تعريض المغتربين المصريين العاملين فى الدول العربية للخطر ، وتعريض الاقتصاد المصرى للدمار ، وزيادة احتمالات الاشتباكات المسلحة بين مصر والدول المجاورة ، وتوقف المعونة الاقتصادية العربية لمصر ، ومنع البترول العربى عن مصر ، ونقل مقر الجامعة

العربية من مصر ، وفرض المقاطعة على مصر مثلما هو الحال مع إسرائيل . وأخيرا تأجل الاجتماع على أن يعود إلى الانعقاد فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى . وعندما خرجت من المجلس ، تطلعت إلى سماء القاهرة ذات الزرقة الداكنة المليئة بالنجوم ، وأحسست بالراحة لأول مرة فى هذا اليوم .

وفيما أنا أستقل سيارتى عائدا إلى بيتى ، رحت أفكر بأن مصر قد ضحت بما فيه الكفاية ، من حياة أبنائها وأموالها ، من أجل العرب والفلسطينيين . وقد حان الوقت لأن تفكر مصر فى نفسها . وإن التزام السادات « بمصر أولا » له ما يبرره . وكنت على اقتناع تام بأن الرافضين ، مصريين كانوا أو غير مصريين ، سيدركون إن عاجلا أو آجلا أن مصر كانت على حق ، وأن الطريق المنطقى الوحيد الذى ينبغى انتهاجه هو طريق الحوار والمفاوضات مع الإسرائيليين .

وعندما استأنف مجلس الشعب مناقشاته حول المعاهدة يوم الثلاثاء ، كانت الحكومة المصرية برمتها تقريبا حاضرة . وألقى حافظ بدوى ، أحد المقربين من السادات ورئيس مجلس الشعب السابق ، خطابا حماسيا ضمنه كل أشكال البلاغة من الشعر المنثور إلى التورية ، ومن الشعر إلى الكناية . واختتم كلمته قائلا : « إن السلام ليس من موقع الضعف والعبودية ، وليس من موقع الإذلال والاستسلام ، وإنما من موقع القوة والشرف . وإذا لم يكن كذلك ، فدعونا نجدد الصيحة ونكرر الصلاة للأمة العربية جمعاء . إن مصر هى الشقيقة الكبرى وسوف تظل الشقيقة الكبرى » .

وترددت هتافات المجلس . وقال آخرون فى دفاعهم عن المعاهدة إنها لا تتضمن أية فقرات سرية ، وتراءى لهم أن الوقت سيحين « عندما نصلى معا ، بإذن الله ، فى القدس العربية تحت السيادة العربية ، وعندما نتبادل السفراء مع دولة فلسطين العربية ، بإذن الله » . وحث مصطفى مراد ، رئيس حزب الأحرار الذى كان معنا فى واشنطن ، على أن نشرح وجهة نظرنا للسوفيت ، على أمل أن يطلبوا إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة أن يوافق على المعاهدة ، وأن يشكل قوة لحفظ السلام فى سيناء ، الأمر الذى لايمكن تحقيقه بدون موافقة السوفيت .

واقترح محمود أبو وافية ، عديل السادات والمحامى بالاقاليم ، إرسال محاضر مناقشات مجلس الشعب الحالية إلى جميع الدول العربية . وناولت جارى الجالس إلى جانبى قصاصة صغيرة كتبت فيها « إن العضو المحترم يغفل حقيقة أن إخواننا العرب لن يقرأوها »، مثلهم فى ذلك مثل أولئك الذين هاجموا إطار كامب ديفيد دون أن يقرأوا تلك الوثيقة .

ثم تحدث محمد حلمى مراد ، أحد أقطاب المعارضة . ووجه هجمته ضد المعاهدة فى عشر نقاط تفصيلية ليبرهن على أن المعاهدة بعيدة كل البعد عن أفضل ما كان يمكن لمصر أن تحققه ، وهو بعبارة أخرى ، ما يعد هجوما على كفاءة المفاوضين المصريين . وشعرت بالإساءة لى ولزملائى .

وطلبت الكلمة للرد على محمد حلمى مراد ، ودحضت نقاطه واحدة بعد الأخرى ، الأمر الذى بدا لى وكأنه للمرة المائة .

وتحدث بعد ذلك ألبرت برسوم سلامة ، الوزير السابق ، مؤيدا للمعاهدة . واختار أن يختتم كلمته بأبيات من قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » لشاعر النيل حافظ ابراهيم ، أحد كبار شعراء مصر :

« أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق
ودراتــــه فرائــــد عقــــدى
أنــا إن قــدر الإلــه مماتــى
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى » .

واستمرت الجلسة حتى ساعة متأخرة من الليل ، تتناول أمورا عدة ، مثل النص الذى يحرم الدعاية المضادة لإسرائيل فى الإعلام المصرى .

وبعد كلمات لا نهاية لها ، اقترح رئيس المجلس قفل باب المناقشة ، الأمر الذى أثار ضجة عاصفة ، حيث طالب أعضاء المعارضة بفرصة للكلام . ولكن رئيس المجلس قاطعهم وطلب إلى سكرتير الجلسة قراءة ما يلى : « نحن نوافق على معاهدة السلام الموقعة فى واشنطن فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ بين جمهورية مصر العربية ودولة إسرائيل ، وملاحقها والاتفاقية الخاصة بإقامة حكم ذاتى كامل فى الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة مع التحفظ التام لحين التصديق » .

وكان التصويت على مشروع القانون بالاسم . ووافق على المعاهدة ٣٢٩ عضوا ، واعترض ١٥ عضوا ، بينما امتنع عضو واحد عن التصويت . وعندما وجه الدكتور مصطفى خليل الشكر للمجلس ، حدث نوع من الهيستريا الجماعية . فقد اعتلت السيدة فايدة كامل ، المطربة البرلمانية ، أحد المقاعد وراحت تصيح « عاش السادات ! عاشت مصر ! » ، وردد أعضاء المجلس الهتاف وراءها . ثم راحت تغنى « بلادى ، بلادى ، لك حبى وفؤادى » ، وهى أغنية وطنية أصيلة تعلمناها جميعا فى المدارس والتى أصبحت السلام الوطنى غير الرسمى . وصاحب أعضاء المجلس المطربة العضو فى جو مشحون

بالمشاعر . وسرعان ما قرر الرئيس السادات أن تصبح هذه الأغنية التى نحفظ جميعا كلماتها السلام القومى الحقيقى لمصر .

وفى اليوم التالى تقرر تأجيل تبادل وثائق التصديق . وأحس السادات بأن الموافقة على المعاهدة من جانب مجلس الشعب ليست كافية . كان يريد استفتاء شعبيا أيضا ليؤكد لإسرائيل التزام مصر بمعاهدة السلام ، كما يثبت للمعارضة المصرية أن الشعب يؤيد المعاهدة .

واتفقت مع الدكتور مصطفى خليل على تشكيل لجنة لمفاوضات الحكم الذاتى الفلسطينى تقتصر على رئيس الوزراء ووزير الدفاع وشخصى . وكان الجانب الإسرائيلى يزمع تشكيل لجنة من خمسة أو ستة وزراء . وشعرت بأن ذلك فى صالح مصر ؛ لأن لجنة صغيرة من شأنها أن تكون أكثر تماسكا وفعالية . وعلاوة على ذلك ، فإنه نظرا لمهام مصطفى خليل كرئيس للوزراء وانشغال كمال حسن على بوزارة الدفاع ، فإن العبء الرئيسى فى إدارة المفاوضات سيقع على كاهلى بمعاونة من أسامة الباز الذى تعاونت معه أثناء مفاوضات فندق ماديسون .

وفى يوم ١٩ أبريل ووسط حشد من الناخبين أدليت بصوتى فى إحدى الدوائر الانتخابية فى الجيزة فى الاستفتاء على المعاهدة . واختلطت بالجماهير وتساءلت لماذا هم سعداء إلى هذا الحد . قال بعضهم إنهم فقدوا ابنا فى المعركة ولن تكون هناك حروب أخرى بعد الآن . وقال آخرون إن الأمريكيين سيقومون ببناء المصانع فى مصر ، وسيتمكن الجميع من العمل . وقال غيرهم ببساطة إن مصر قدمت ما يكفى من القتال نيابة عن العرب الآخرين الذين لم يصنعوا شيئا . ولقد أسعدنى سماع هذه العبارات . إنها صادقة .

غير أن عزلتنا الدبلوماسية زادت حدتها طوال شهر أبريل . وبالرغم من مناقشاتنا الطويلة فقد فشلنا فى الاتفاق على كيفية عرض قضية مصر أمام منظمة المؤتمر الإسلامى التى كانت تسعى إلى طرد مصر . وكانت هذه العزلة الدبلوماسية عن الدول الشقيقة فى العالم العربى والإسلامى مرة المذاق . ذلك أن الدول القومية مثلها مثل البشر ترغب فى الحياة فى اطار المجتمع وتكره الإقصاء . ولأول مرة أدركت الوحدة التى عاناها الإسرائيليون بسبب عزلتهم عن الدول العربية المجاورة .

وفى يوم السبت ٢١ أبريل ، وفى نادى التحرير ، أقمت حفل عشاء تكريما لفرانسوا بلانشار ، وهو فرنسى قدير وعالم يشغل منصب مدير عام منظمة العمل الدولية ، لقد عرفته منذ تعيينى قبل سنوات فى لجنة الخبراء التابعة لمنظمة العمل الدولية ، حينما كنت فى صدر

شبابى ، وكان الأعضاء الآخرون يخصوننى بالرعاية ، وكان المندوب الروسى يعلن أننى لست أكبر من ابنه .

وفى خطابى بعد العشاء فى نادى التحرير وجهت نقدا لاذعا للرافضين العرب . وبعد ذلك انتحى « بلانشار » بى جانبا ليلومنى فى أدب على مهاجمة الدول العربية فى وجوده . وقال إنه يتعين عليه بصفته موظفا دوليا الالتزام بالحياد الصارم فى المنازعات بين الدول الأعضاء فى منظمته . وقال إننى أحرجته .

وتقرر أن يرأس السفير سعد عفره ، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ، الوفد المصرى المشارك فى مراسم تبادل وثائق التصديق فى سيناء . وكان موشى ديان قد رفض المشاركة فى عملية التبادل لأن بيجن - كما يقال - لم يشاوره بشأن موقع المناسبة . وبدون وجود ديان لم يكن هناك مايستلزم حضورى .

وسافرت أنا و « ليا » إلى الاسماعيلية يوم ٢٥ أبريل لاستقبال الرئيس شاوشيسكو وقرينته . فقد طلبت أن أرأس بعثة الشرف المرافقة للضيف الرومانى لأننى رأيت أن من الأهمية بمكان الالتفات إلى الدول الاشتراكية لكى لا يبدو أن مصر تراهن بكل أوراقها على الغرب . كان شاوشيسكو فى طريق عودته من إفريقيا يرافقه وفد ضخم فى ملابس سيئة الصنع . وبدا وكأنه رجل أعمال غير ناجح لايترك إحساسا بالقوة أو السلطان . ونظرا لأن السادات لم يكن ليسمح لأحد أن يحرمه من « تمشيته » اليومية لوحده فقد كان علّى أن اهتم بشاوشيسكو ، الذى صحبته إلى أحد مقار الضيافة التابعة لهيئة قناة السويس . وكانت السيدة قرينة شاوشيسكو نشيطة إلى حد العصبية ولكنها قوية الشكيمة . وكان شاوشيسكو دائب الاهتمام بزوجته ويبدى تجاهها عاطفة حقيقية . وقالت لى « ليا » بطريقة طفولية : « انظر كيف يهتم بها » . وجلسا فى حديقة بيت الضيافة وراحا يتجادلان حول أسماء الزهور . ونادياني لأخبرهما بالأسماء اللاتينية لنباتات الصبار ، ولكننى لم أستطع تقديم الإجابة .

وبعدها صحبت شاوشيسكو إلى مقر الرئيس حيث أقام السادات مأدبة غداء على شرفه . وكعادته لم يتناول السادات شيئا سوى الشاى . وتحدثنا بعد الغداء . واقترح شاوشيسكو ، كما كان يدعو منذ بعض الوقت ، عقد مؤتمر دولى لمناقشة القضية الفلسطينية . ولم يبد السادات اهتماما بذلك . أما أنا فقد أيدت الفكرة ، واعتقدت أنها إذا وردت فى نص البيان المشترك الرومانى المصرى ، فإنها ستدعم موقف مصر التفاوضى مع إسرائيل والولايات المتحدة ، ذلك أن انعقاد مؤتمر دولى قد يساعدنا فى تجنب عزلة دولية ، وعقد مؤتمر كهذا لابد أن يقر ، ولو بصورة غير مباشرة ، معاهدة السلام المصرية

الإسرائيلية . وفى حالة فشل معاهدة السلام وعملية كامب ديفيد ، فإن المؤتمر الدولى سيوفر لنا وسيلة للتراجع . ولكننى لم أقل ذلك بصراحة للسادات .

وبينما نحن نتحدث فى الصالون بفيلا السادات تلقيت مكالمة عاجلة من السفير سعد عفرة من محطة الإنذار المبكر في سيناء قال فيها إن الإسرائيليين يرفضون تبادل وثائق التصديق لأنها تتضمن وثيقتين ، الأولى تتعلق بالمعاهدة المصرية الإسرائيلية والثانية بتبادل الخطابات الخاصة بالحكم الذاتى الفلسطينى . وقال الإسرائيليون إن برلمانهم وافق فقط على معاهدة السلام وليس على الاتفاق الآخر . كما أصر الإسرائيليون مرة أخرى على استخدام تعبير « يهودا والسامرا » بدلا من « الضفة الغربية » .

وعدت إلى القاعة وهمست فى أذن الدكتور مصطفى خليل بأن عملية التبادل فى سيناء تواجه مأزقا بسبب اعتراضات إسرائيلية . وقام هو بدوره بإبلاغ السادات بالأمر بالعربية . وابتسم السادات قائلا : « إن صحف العالم ستملأ صفحاتها بهذه الأزمة الجديدة بين مصر وإسرائيل » . وقال مصطفى خليل منفعلا « إن كل شيء يسير على طريق الخطأ » ، وهو قول ، على ما يبدو ، لم يعجب السادات . وواصل شاوشيسكو حديثه باللغة الرومانية مع موظفيه ، وكأن أحدا لم يقاطعه ، وأعتقد أنه كان يتحدث عن المؤتمر الدولى .

وغادرت الغرفة لتوجيه التعليمات لسعد عفرة بألا يوقع إلا إذا قبل الإسرائيليون موقفنا . واتصل سعد عفرة مرة أخرى بعد ربع الساعة ليفيد بأن الإسرائيليين وافقوا فى اللحظة الأخيرة على تبادل الوثائق . وأبلغت الرئيس السادات بذلك ، ولكنه بقى ساكنا ولم يعلق بينما شاوشيسكو يواصل الحديث عن المؤتمر الدولى .

وعندما عكفت على صياغة البيان المشترك المصرى الرومانى ، وجدت أن السادات مازال مترددا فى ذكر المؤتمر الدولى الذى يدعو شاوشيسكو إلى عقده . وأقنعته بأن المسودة التى أعدها تدعو إلى دراسة الفكرة دون الالتزام بها .

وفى صباح اليوم التالى نشرت صحيفة الأهرام نبأ اعتقال اثنين من الإرهابيين فى مطار القاهرة ، حيث قالا إن مهمتهما كانت تفجير مكتبى بوزارة الخارجية المصرية . وكنت قد علمت بهذه المؤامرة قبل ذلك بأسبوع من النبوى إسماعيل وزير الداخلية ، وطلبت إليه أن يبقى النبأ فى طى الكتمان لأننى أريد تجنب الهيستريا العائلية وخاصة الزوجية ، الأمر الذى قد يحيل حياتى إلى جحيم . ووافقنى وزير الداخلية ولكنه لم يف بوعده .

أخفيت الأهرام ، ولكن « ليا » اكتشفتها بطريقتها . وفى الوقت نفسه ، اتصل بها بعض الأصدقاء ليخبروها بالقصة ، وكأنهم يقدمون لها العزاء مقدما . وفى ثورة عاصفة

أصرت زوجتى على أن أترك المنصب الوزارى على الفور . وقالت إن هيرمان ايلتس اختار توقيع المعاهدة كلحظة مناسبة ليتحوّل فيها إلى أستاذ فى جامعة بوسطون . وقالت : « إنك ستبلغ الستين قريبا ، ولقد حان الوقت للاستعداد لمرحلة جديدة فى الحياة » . ووعدتها بإننى سوف أستقيل فور توقيع اتفاق الحكم الذاتى الفلسطينى . واستطردت بحدة : « إن مهمتك قد انتهت بتوقيع معاهدة السلام . ماذا تريد أكثر ؟ إن حمارا حيا أفضل من أسد ميت » . لقد كانت تستخدم هذا القول كثيرا عندما تتهمنى بـ « إدمان العمل » ، ولكن نبراتها هذه المرة كانت أكثر عنفا من المعتاد .

وفى المساء هدأت الأمور بعض الشيء . ووافقت « ليا » على مرافقتى إلى حفل العشاء الذى يقيمه الدكتور مصطفى خليل تكريما لعزرا وايزمان . وكانت السيدة جيهان السادات ضمن الضيوف . وأدار المضيف تسجيلات من الموسيقى الكلاسيكية مما وفر خلفية لطيفة لأحاديثنا . وبدت جيهان السادات مبتهجة ، وكان الجو مفعما بالصداقة والتناغم . وكنت أنا وزوجتى آخر المنصرفين ، والتقطت أذنى طلب رئيس الوزراء بأن توافيه إدارة المراسم بفاتورة الأطعمة التى جاءت من نادى التحرير . وعلقت على ذلك قائلا إن هذا الحفل لقاء رسمى وأن على وزارة الخارجية أن تتحمل التكاليف . ولكن مصطفى خليل رفض قائلا : « إننى أريد إرساء قواعد لمثل هذه الأمور ، وموقفى ينبغى أن يكون درسا للجميع . فلو كانت هذه المناسبة قد تمت فى نادى التحرير التابع لوزارة الخارجية لكانت مناسبة رسمية ، وبناء عليه تتولى وزارة الخارجية تغطية تكاليفها . ولكن الحفل أقيم فى بيت خاص ، ولذلك فإن على المضيف أن يتحمل التكلفة مهما كانت الظروف أو أوضاع الضيوف ، وأى تصرف آخر سيفتح الباب للانحرافات » – أى الفساد . وقررت تطبيق نفس القاعدة فى وزارة الخارجية .

وفى صباح اليوم التالى ، ولأسباب لا أعلمها ، اختفى الحراس من مدخل عمارتنا السكنية . وانزعجت زوجتى وصار الجو متوترا . وعندما استعلمت ، قيل لى إن اليوم هو الجمعة وإنهم ذهبوا إلى المسجد للصلاة . وحاولت تهدئة « ليا » ، ولكنها كانت فى قمة الغضب ، ورفضت مرافقتى إلى مأدبة غداء كمال حسن على تكريما لوايزمان . وقالت إن وجودها فى مثل هذه المناسبات سيثير حفيظة المتطرفين . وأخبرتها بتناقض مواقفها . ففى الليلة الماضية ذهبت إلى عشاء الدكتور مصطفى خليل ، أما اليوم فهى ترفض حضور مأدبة غداء كمال حسن على ، فى حين أن المناسبتين تكريم لوايزمان . وأجابت بأن الحراس كانوا أمام بابنا أمس ، ولكنهم ليسوا هناك اليوم . ولم أفهم المنطق وراء هذا .

وبعد الظهر عقدت مؤتمرا صحفيا بوزارة الخارجية حضره أكثر من مائتى صحفى ، سألونى عن مستقبل العلاقات الدبلوماسية بين مصر وعدد من الدول العربية . وفى محاولة من جانبى لوضع الموقف فى أفضل صورة ، أجبت قائلا إن روابط مصر مع هذه الدول مازالت قوية ، وإن أبواب مصر مفتوحة على مصراعيها لأشقائنا العرب . كما أشرت إلى وجود مليونين من الخبراء والعمال المصريين فى الدول العربية ، وإلى خطوط المواصلات الدولية بين مصر وغيرها من العرب .

وكنت قد طلبت من التليفزيون المصرى التركيز على لقاء تم يوم ٢٣ أبريل مع وكيل وزارة الخارجية الهندية لإظهار أنه بالرغم من كل الجهود لعزل مصر ، فإن ممثلى دول العالم مازالوا يأتون إلى القاهرة .

فى ذلك العام أقيم احتفال عيد العمال فى سفاجا ، الميناء الصغير على البحر الأحمر . وكنا - مصطفى خليل وأنا - نرجو ألا يثير خطاب السادات فى هذه المناسبة حفيظة الدول العربية ، وألححت على موسى صبرى الذى كان عاكفا على كتابة الخطاب أن يتأكد من أن شيئا من هذا لن يحدث . فقد كنا نتفاوض بهدوء مع بعض الحكومات العربية حول مصانع السلاح المملوكة ملكية مشتركة ، ولم نكن نريد لأموالنا فى الحسابات الأجنبية أن تصادر . وسوف تمضى المفاوضات بصورة طيبة مادام السادات قد امتنع عن مهاجمة الزعماء العرب الآخرين ، الأمر الذى دعانا إلى مناقشة كل كلمة فى الخطاب مع موسى صبرى . وعندما وصلنا واتخذنا أماكننا ، توجه السادات إلى المنصة ومعه مشروع الخطاب ، غير أنه فجأة أزاح الخطاب المكتوب جانبا ليتحدث بدون مذكرات . ونظر مصطفى خليل نحوى وكأن العالم يقترب من نهايته . وبادلته النظرة فى أسى . وشرع السادات فى شن هجوم عنيف على الزعماء العرب الآخرين ، يشجب تقاعسهم وغدرهم وانعدام تأثيرهم . ونتيجة لذلك . انهارت المفاوضات الخاصة بالمصانع المشتركة للسلاح ، وتعرضت مصر لاحتمال إقامة الدعاوى أمام المحاكم الأجنبية على نحو يستمر لسنوات .

وبينما أنا فى مكتبى يوم ٣ مايو ١٩٧٩ فوجئت بمكالمة تليفونية من شخص مجهول الهوية يدعى أنه سكرتير السادات ، يطلب منى إعداد خطاب ليلقيه حسن التهامى أمام المؤتمر الإسلامى فى المغرب . وعلى الفور اتصلت بمصطفى خليل لأوضح له أننى لست كاتب خطابات حسن التهامى . كما أبلغت رئيس الوزراء بأن إيفاد حسن التهامى لتمثيل مصر فى المؤتمر الإسلامى كارثة . وقلت إن الدكتور صوفى أبو طالب زميلى بجامعة القاهرة ورئيس مجلس الشعب ، وهو رجل ذو باع فى قوانين الشريعة ، سيكون اختيارا أفضل كثيرا . ووافق مصطفى خليل . وعلى الفور اتصلت بالدكتور صوفى أبو طالب

وحثثته على قبول هذه المهمة الخاصة ، ولكنه رفضها بحكمة . ثم علمت أن حسن التهامى اتصل مباشرة بعدد من الدبلوماسيين العاملين بوزارة الخارجية دون علمى ، وطلب إليهم أن يكونوا أعضاء فى وفده للمغرب . وسارعوا بالموافقة وهرعوا لحضور الاجتماعات التى عقدها استعدادا للمؤتمر .

كان الاضطراب والبلبلة يسودان ، حيثما يحل التهامى . فلم يكد يبدأ فى تشكيل الوفد حتى أعلن بنفسه أن مصر ينبغى ألا تمثل فى المغرب على الإطلاق . وادعى أنه تلقى وعدا من « صديقه » الملك الحسن عاهل المغرب بأنه إذا امتنعت مصر عن الحضور ، فإن الملك سيبذل قصارى جهده لتجنب تعليق عضوية مصر فى المؤتمر الإسلامى .

وطلبت رئيس الوزراء وأخبرته أن المؤتمر سيعلق عضوية مصر على وجه التأكيد إذا لم يمثلنا وفد قوى ، وفد على دراية بإجراءات المؤتمرات الدولية وقادر على الدفاع عن وجهة نظرنا . وانتصرت . ولم يذهب التهامى إلى المغرب .

وعندما قررت جيبوتى ، وهى دولة متناهية الصغر تقع تحت النفوذ الفرنسى سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، قطع علاقاتها مع مصر ، قلت للسفير الفرنسى فى القاهرة ، غاضبا ومعترضا ، إن فرنسا كان فى استطاعتها الحيلولة دون ذلك . وأذكر أننى فى اجتماعات كامب ديفيد الأولى أبلغت زبجنيو برجنسكى مستشار الأمن القومى الأمريكى بأن الدول العربية ، من جيبوتى الواقعة على المحيط الهندى إلى موريشيوس على المحيط الأطلسى ، سوف تقطع علاقاتها مع مصر . وضحك برجنسكى وقتها متسائلا عن قيمة اعتراف جمهورية جيبوتى بالنسبة لمصر . والواقع أنه حتى إقدام جيبوتى على قطع العلاقات معنا كان لطمة مريرة لكبرياء مصر . وقد حاول وزير خارجية جيبوتى فيما بعد أن يسترضينى بقوله إنهم لم يقطعوا العلاقات وإنما علقوها ، مضيفا أن الضغط العربى لم يترك لهم خيارا .

ومن حيث لا أدرى وجدت نفسى مطالبا بحل أزمة عائلية . فقد تم نقل السكرتير الثالث كامل خليل ابن السفير كمال خليل سفيرنا فى بروكسل إلى سفارة مصر فى كوالالمبور عاصمة ماليزيا . وهذا الشاب ، علاوة على أنه ابن سفيرنا لدى بلجيكا ، فهو ابن شقيق رئيس الوزراء مصطفى خليل . كما أن زوجته ابنة صديقى السفير سامح زايد ، وخاله الدكتور شمس الدين الوكيل مندوب مصر الدائم لدى اليونسكو وزميل الدراسة أيام جامعة القاهرة ، كل هذه الروابط الأسرية جعلت من السكرتير الثالث شخصا شديد الغرور بصورة لا تصدق . فقد اعتبر نقله إلى آسيا مهانة بالغة وإهانة لايقبلها . وقال إنه يقوم بإعداد رسالة دكتوراه فى جامعة باريس وإنه يتعين عليه البقاء هناك . وادعى أن وزارة الخارجية

تسيء معاملته بسبب صلاته العائلية ، لكي تبرهن على أن المحسوبية لا تتحكم فى أعمالها ، وأنه لايستطيع الاعتراض بدون استخدام روابطه الأسرية . ولم تعجبنى حجة الدبلوماسى الشاب ورفضت الاستجابة لطلبه . وتحدثت فى الأمر بكل صراحة مع عمه الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء ، ورفض هو الآخر التدخل فى الموضوع . وأخيرا قررنا نقل كامل خليل ، لا إلى باريس ، ولا إلى كوالالمبور ، وإنما إلى برلين الشرقية الشيوعية .

وفى يوم الاثنين ٧ مايو ، تقرر تعليق عضوية مصر فى منظمة المؤتمر الإسلامى ، وكان السبب الرئيسى فى ذلك غياب الدبلوماسيين المصريين ، بفضل تدخل حسن التهامى . ووجدت دول الرفض فى ذلك تشجيعا على المضى فى جهودها لطرد مصر من منظمة الوحدة الإفريقية ومن حركة عدم الانحياز . وبصراحة لم أفهم السبب فى إصرار السادات على تكليف حسن التهامى بمهام حساسة . فإننى لا أشك مطلقا فى وطنية الرجل وشجاعته ، ولكننى أشك فى توازنه .

ويوم ١٠ مايو نشرت جريدة الجمهورية حديثا لى حاولت فيه تبرير موقف مصر فى المفاوضات القادمة للحكم الذاتى الفلسطينى . وقلت إن هذه المفاوضات ستكون أكثر أهمية من مفاوضات معاهدة السلام ، حيث إنها ستتناول مستقبل الشعب الفلسطينى وأراضيه فى مواجهة المخططات الإسرائيلية لتلك الأراضى . ولابد للسلطة الفلسطينية أن تتولى اختصاصاتها الولائية وفقا للقانون الدولى . واستنادا إلى القانون الدولى فإن الحكم الذاتى خطوة مؤقتة نحو تقرير المصير . وتقرير المصير قد ينتهى إلى الاستقلال .

وقلت إن من سخرية الأقدار اللامعقولة أن بعض الدول التى حصلت على استقلالها من خلال الحكم الذاتى أصبحت اليوم رافضة له ، وتدعى أن الحكم الذاتى لايمكن أن يؤدى إلى الاستقلال الفلسطينى . وكمثال لذلك ، ذكرت العراق التى كانت تحت الانتداب البريطانى ، وسوريا التى كانت تحت الانتداب الفرنسى . وقد تقدمتا معا نحو الحكم الذاتى ومنه إلى الاستقلال . وعاشت الجزائر فترة فى ظل الحكم الذاتى تحت اسم « السلطة الإدارية المؤقتة » قبل الاستفتاء العام الذى أدى إلى الاستقلال . ومصر تسعى لتحقيق النتيجة نفسها بالنسبة لفلسطين بعد قيام الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة .

وقلت إن مصر لم تخترع نظام الحكم الذاتى ، بل هو مقرر فى ميثاق الأمم المتحدة فى المادة ٧٦ فقرة (ب) ، التى تنص على أن أحد مقاصد الأمم المتحدة هو « العمل على ترقية أهالى الأقاليم المشمولة بالوصاية فى أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم ، واطراد تقدمها نحو الحكم الذاتى أو الاستقلال حسبما يلائم الظروف الخاصة لكل إقليم وشعوبه ، ويتفق مع رغبات هذه الشعوب التى تعرب عنها بملء حريتها ... » .

وعلمنا يوم الاثنين أن أفغانستان قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر . وجاءت مثل هذه الأنباء بمثابة صفعة على الوجه . وأدركت أننى لو أدليت بأى تعليق للصحفيين ، فإن الصفعة سوف تنشر فى الصفحة الأولى . وإذا امتنعت ، فإن الموضوع سينشر فى الصفحة الثالثة . وقررت عدم التعليق .

وفى تلك الليلة تناولت العشاء بالسفارة البريطانية فى قصر المعتمد البريطانى السابق . وبينما أنا أدخل المبنى العتيق تذكرت فترة الاحتلال حينما كان السفير البريطانى يمثل السلطة السياسية فى مصر ، ويتدخل فى كافة نواحى الحياة المصرية . وعلى العشاء قابلت محمد حسنين هيكل الذى كان موضع ثقة عبد الناصر ومستشاره . وكنت بتشجيع منه قد أصدرت مجلة ربع سنوية متخصصة للدبلوماسية تحت اسم مجلة « السياسة الدولية » ، وهى لاتزال أهم دورية فى هذا الموضوع فى العالم العربى . ولم أكن قد رأيت هيكل منذ أن توليت منصبى الوزارى . وكان – كعادته – عصبيا وطموحا وذكيا وذا دهاء صحفى عظيم . وقال لى بقلق كبير : « رويدا رويدا ! لابد أن تفرمل السادات . فليس هناك ضرورة على الإطلاق لإجراء التطبيع مع إسرائيل بمثل هذه الخطوات السريعة » . وهيكل أحد المفكرين المصريين الراديكاليين الذين لايستطيعون فكريا قبول فكرة الحوار مع إسرائيل .

وبعد ظهر اليوم التالى قابلت فى مكتبى مجموعة من زعماء اليهود الذين يزورون مصر . كنت قد أصبحت خبيرا فى عقد المناقشات مع أولئك الزعماء اليهود القادمين من مختلف أنحاء الشتات . كانوا يستمعون بعناية عندما أتحدث عن معاهدة السلام وتطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل ، ولكن عندما أتكلم عن الشعب الفلسطينى وحقوقه الوطنية ، فإن وجوههم تكفهر ويصمون آذانهم . ثم يبدأ أعضاء المجموعة فى توجيه الأسئلة ، وعادة ما يرأسهم شخص يبدو أنه مكلف بتنظيم إلقاء الأسئلة . وأخيرا يطلب رئيس المجموعة إلى الأعضاء التقاط صور لهم معى . وكان كل منهم يبتسم مبديا مظاهر الود . وكثيرا ماتساءلت عن جدوى هذه الاجتماعات . فهؤلاء الزعماء اليهود أشد تحمسا لإظهار تأييدهم لإسرائيل من الإسرائيليين أنفسهم . وصارت إحدى مهام الدبلوماسية المصرية الاتصال بالجماعات اليهودية لنؤكد لهم نوايانا . وكان السادات مقتنعا بأن هناك مصدرين لقوة إسرائيل السياسية : مناحم بيجن ، والشتات وخاصة جماعات الضغط ، اللوبى اليهودى ، فى أمريكا . واختار السادات التعامل مع بيجن ، وترك الشتات لى .

وفى يوم الجمعة ، أمضينا يوما فى الاسترخاء بمزرعة مجدى وهبة فى دهشور بالقرب من الأهرامات ، إلى الجنوب من القاهرة . منحتنى العودة إلى الريف الذى قضيت

فيه الجانب الأكبر من طفولتى وصباى إحساسا عميقا وقويا بالانتماء لهذه الأرض الطيبة . وبالرغم من تزايد أسفارى ومسئولياتى الدولية ، فقد احتفظنا بأرضنا فى « كفر عمار » على بعد نحو ٢٠ ميلا جنوب دهشور . وعندما هدمت الهزة الأرضية بيتنا القديم هناك عام ١٩٩٢ ، سارعت الأسرة إلى إصلاحه لأننا نجد فيه الرمز الذى يربط بين الأجيال .

وفى يوم السبت تناولت العشاء فى دار الدكتور زهير فريد بمناسبة مغادرة هيرمان ايلتس لمصر . وتحدث ضيف الشرف معى لأول مرة دون اعتبار لمنصبه كسفير للولايات المتحدة ، معلنا أن « اتفاقات كامب ديفيد كارثة » .

وتساءلت : « كارثة لمن ؟ ، هل هى كارثة لمصر أم للفلسطينيين أم للولايات المتحدة أم لإسرائيل ؟ » .

وأجاب ايلتس مراوغا بأن « الرد على سؤالك يحتاج إلى مناقشة أكاديمية طويلة ، واقترح أن تجرى هذه المناقشة عندما نلتقى فى قاعات الجامعة » . وكان ايلتس بقوله هذا يدعونى للعودة أيضا إلى الحياة الأكاديمية . لقد كان دبلوماسيا محترفا أصيلا . كان يفضى إلىّ بمشاعره بصفة شخصية ، ولكنه ما كان ليفعل شيئا ينال مما أنجزه رئيسه .

وفى اليوم التالى نشبت فجأة أزمة قد تؤثر على انسحاب إسرائيل من العريش ، وفقا للجدول الزمنى للمعاهدة . وكلفنى السادات بالذهاب إلى هناك فورا . وفى يوم ٢٣ مايو ١٩٧٩ غادرت مطار ألماظة على متن طائرة ميستير . والعريش مدينة على ساحل البحر المتوسط فى سيناء وقد احتلتها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ . ووجدت مائير روزين المستشار القانونى لوزارة الخارجية الإسرائيلية فى انتظارى . وحملتنا طائرة هليكوبتر إلى وسط المدينة التى كنت أراها للمرة الأولى . وتوجهنا إلى بيت صغير حيث كان موشى ديان فى انتظارى ، ومعه يوسى سيشانوفر المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية ، وإيلى روبنشتين مدير مكتب ديان . وكان يرافقنى اللواء محمد حسين شوكت محافظ شمال سيناء والسفير علاء خيرت مدير مكتبى .

طالب ديان بأن تسمح مصر لسكان المستوطنات الإسرائيلية فى ضواحى العريش بالبقاء لفترة إضافية حتى يتمكنوا من حصاد المحاصيل التى زرعوها . ووفقا للمعاهدة كان يتعين انتقال هذه المستوطنة إلى مصر يوم الأحد الموافق ٢٠ مايو ، ولكن المستوطنين الإسرائيليين رفضوا مغادرة المكان ، الأمر الذى أدى إلى إثارة احتمال نشوب الاشتباكات بينهم وبين السلطات العسكرية الإسرائيلية . تقدم ديان بهذا الطلب غير الطبيعى فى أدب ، وقال : « إن هذا المطلب الودى الإسرائيلى يستند إلى العلاقات الطيبة بين البلدين » .

ولم تكن لدىّ تعليمات من القاهرة ، ولكنه خطر ببالى أنه إذا منحت المستوطنين مزيدا من الوقت ، فإننى أكون بذلك قد أرسيت سابقة قد يستخدمها الإسرائيليون لتأخير الانسحاب من نقاط أخرى فى سيناء . لذلك ، قلت بحسم بأننى آسف لعدم إمكانى الاستجابة لهذا المطلب . ثم اتفقنا بعد ذلك على اعتبار الخط الذى يمر على بعد كيلومترين شرقى العريش هو الخط الفاصل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، وعلى عدم السماح بأى وجود إسرائيلى فى مدينة العريش بعد ذلك اليوم - ٢٥ مايو - كما تقرر عدم السماح للصيادين الإسرائيليين بالصيد فى المياه الإقليمية المصرية .

وانضم إلينا وايزمان . وجاء معه شامويل تامير وزير العدل . كانوا فى المستوطنة فى محاولة غير ناجحة لإقناع سكانها بالانسحاب فى هدوء - وفى محاولة لإقناعى بأهمية تجنب المواجهة .

وعلى مائدة الغداء تحدثنا ، نحن والاسرائيليون ، فى مرح على الرغم من أننى رفضت طلبهم الأساسى . وفى الوقت نفسه كنت أمهد الطريق لدعوة موشى ديان لزيارة القاهرة ، من أجل المحافظة على توازن علاقاتنا مع كل من ديان ووايزمان ، كما أعلنت للصحفيين الإسرائيليين أن لجنة مصرية إسرائيلية من ممثلى وزارة الخارجية فى كل من البلدين سيتم تشكيلها لدراسة موضوع تطبيع العلاقات . وكان هدفى إقامة توازن سياسى آخر ، على ضوء المنافسة التى أحسستها بين وزارة الدفاع الإسرائيلية المسئولة عن أمور التطبيع من الناحية العسكرية ، وبين وزارة الخارجية الإسرائيلية التى لم تلعب حتى ذلك الحين أى دور فى عملية التطبيع . وكان الاحتمال الأكبر أن يرأس يوسف بورج وزير الداخلية ، وليس ديان وزير الخارجية ، الجانب الإسرائيلى فى محادثات الحكم الذاتى . وهكذا ، كان تشكيل اللجنة الجديدة هو الطريق الذى انتهجته لمساعدة ديان .

وفى المساء ، عدت إلى القاهرة بعد أن قمت بجولة فوق العريش بطائرة هليكوبتر . إن الإسرائيليين لم يفعلوا شيئا يذكر لتحسين المدينة الصغيرة طوال الاثنى عشر عاما من احتلالهم لها . إذ يبدو أنهم كانوا يعرفون دائما أنهم لابد أن ينسحبوا منها . وكانت إدارة المدينة يتولاها اثنان من الضباط السياسيين الإسرائيليين من أصل مصرى ، ويتحدثان العربية بطلاقة .

وكنت أعتقد أنه إذا أردنا لهذه المدينة أن تصبح عاصمة لشمال سيناء ، فإن علينا ألا نتردد فى استثمار ملايين الجنيهات لنجعل منها عاصمة جديرة بالمحافظة التى حاربنا وضحينا لاستعادتها .

وفى يوم الجمعة ٢٥ مايو ١٩٧٩ غادرنا القاهرة على متن طائرة الرئاسة للمشاركة فى افتتاح مفاوضات الحكم الذاتى فى بير سبع بصحراء النقب الإسرائيلية . ورفض مصطفى خليل رئاسة الوفد المصرى ، حيث إن المحادثات كانت على المستوى الوزارى ، بينما هو رئيس للوزراء . وأصر على أن يكون نظيره هو بيجن . وهكذا اقنعت كمال حسن على وزير الدفاع برئاسة الوفد . ولم يكن حريصا على المشاركة فى المفاوضات هو أيضا ، ولكننى أوضحت له أنه باعتباره الرجل الذى خاض الحروب المصرية ضد إسرائيل ، فإن وجوده كرئيس للوفد وكأكبر شخصية عسكرية مصرية سيكون له أهمية رمزية .

وفى مبنى كبير بالجامعة ، جلسنا إلى مائدة على شكل حدوة حصان . جلس يوسف بورج فى الوسط ، وإلى يمينه ديان وإلى يساره وايزمان .

وكان الوفد الأمريكى برئاسة سايروس فانس يضم السفير الأمريكى لدى إسرائيل سام لويس ، وفريمان ماثيوس القائم بالأعمال بالسفارة الأمريكية بالقاهرة ، الذى كان يتولى تصريف شئون السفارة بعد رحيل ايلتس .

وبعد أن ألقى كل رئيس وفد خطابا رسميًا أقيم حفل استقبال . وصحبنا وايزمان إلى قاعدة جوية حيث شاهدنا فوق الممرات عشرات الطائرات مصطفة وجاهزة ، وحيث التقينا مع ابنة وايزمان وزوجها الطيار المقاتل اللذين يعملان فى القاعدة . ومرة أخرى وضع وايزمان بصمة دافئة وودية على علاقاتنا به .

وكنت قد أبلغت أجهزة الإعلام بأنه وفقا للمعاهدة فإن التطبيع بين مصر وإسرائيل لن يبدأ قبل نحو تسعة شهور – ليس قبل الانسحاب الإسرائيلى إلى خط رأس محمد / العريش فى سيناء . وقد شن بيجن وهو فى مطار بن جوريون قبل إقلاعه إلى لندن ، هجوما عنيفا على الشخص الذى أدلى بهذا التصريح . وكان بلا شك يوجه ملاحظاته لشخصى . وقال بيجن إنه سوف يستفسر من الرئيس السادات عما إذا كانت الاتفاقية المبرمة بينهما فى ٢ أبريل مازالت قائمة كما سبق أن أكد له السادات مرتين ، أم أنها غير قائمة . وقال بيجن إنه سيسأل الرئيس المصرى : « هل هذه الاتفاقية أصبحت لاغية كما يؤكد الدكتور بطرس غالى فى تصريحاته ؟ » ، ثم كرر قصة « بطرس وبيتر » .

وبعد ذلك بيومين حدثت خطوة جديدة نحو التطبيع بين إسرائيل ومصر ، وذلك حينما طار حسنى مبارك ومصطفى خليل وسايروس فانس وأنا من القاهرة إلى العريش . كان فانس قد طلب مشاهدة مدخل قناة السويس ، فكلف مبارك قائد الطائرة الميستير بأن يدور على ارتفاع منخفض فوق بورسعيد قبل الاتجاه شرقا .

وهبطنا فى العريش حيث التقينا بالرئيس السادات واستقبلنا ضيفه مناحم بيجن . وفى مأدبة الغداء بدار الضيافة الأنيق ، احتفلنا بعودة العريش إلى مصر . وأعرب الإسرائيليون عن بالغ دهشتهم للحالة الجيدة لتلك الدار ، حيث إنهم شاهدوها قبل ثلاثة أيام فقط فى حالة يرثى لها . وقال حسن كامل إن المهندسين المصريين عملوا أربعين ساعة متواصلة لترميم الحجرات لهذه المناسبة . وكانت الترتيبات قد اتخذت لعقد لقاء بين جرحى الحرب من المصريين والإسرائيليين . وكان بعضهم قد فقدوا أطرافهم فى صحراء سيناء . وبينما تحركت كراسى المقعدين المتحركة نحو بعضها البعض ، أثارت تضحيات الماضى الرهيبة فى نفوسنا الانطباع بأهمية مانقوم به من عمل من أجل المستقبل . وشاهدت الانفعال العاطفى على السادات الذى فقد شقيقه الأصغر ، وعلى وايزمان الذى تركت الحرب ابنه وقد تم تدميره من الناحية العقلية نتيجة إصابة فظيعة فى الحرب .

ثم نقلتنا الطائرات من العريش إلى بير سبع لحضور الاحتفال فى الجامعة . وقبل بدء مراسم الحفل ، دلفت إلى حجرة مجاورة حيث وجدت مناحم بيجن وحده يحلق ذقنه . وفى محاولة لتخفيف التوتر بيننا ، سألته : « لماذا تحلق ذقنك مرتين فى اليوم الواحد ؟ » . فاجابنى قائلا : « لأن اليوم يكاد يصبح أهم يوم فى حياتى ، وأريد أن أبدو فى أجمل صورة » . ولكنه سرعان ما تبين لى أن مبادرتى الودية لم تغير من علاقتنا .

ونهض السادات ليعلن قراره فتح الحدود بين مصر وإسرائيل . وشعرت بأن كل الأبصار تتجه نحوى . فقد قلت قبل أقل من ثمانية وأربعين ساعة إننا لن نفتح الحدود بين مصر وإسرائيل لمدة تسعة شهور .

وجلس على المنصة الرئاسية سايروس فانس وحسنى مبارك والرئيس الإسرائيلى إسحق نافون والرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن ومصطفى خليل . وفى آخر الصف جلس ييجال يادين نائب رئيس وزراء إسرائيل .

وجلسنا نحن فى مواجهة المنصة . وقام أحد الإسرائيليين بتوزيع أغطية للرأس « كاب » ذات ألوان زاهية لتقينا من الشمس . وترددت فى وضع « الكاب » على رأسى ، ولكن عندما رأيت اللواء الماحى قائد الحرس الجمهورى يضع « الكاب » على رأسه فعلت مثله . وبعد دقائق قليلة نظرت حولى لأرى الجميع وعلى رؤوسهم الأغطية باللون الأحمر والأخضر والأزرق . وخلعت « الكاب » مفضلا معاناة الشمس الحارقة على لبسه . وبدا منظرنا جميعا وكأننا أطفال .

وتحدث عدد من الزعماء اليهود ومن بينهم المليونير نسيم جاعون . وقال الرئيس

نافون إن إسرائيل تنازلت عن سيناء – وكأن إسرائيل تعطى شيئا تمتلكه . وبدا الغضب على وجه السادات ووقف ليرد على نافون ، ولكن التوتر سرعان ما خفت حدته ، وعادت المشاعر الطيبة الأصلية تسود الاحتفال . وكان الغرض من هذا المهرجان إقناع الشعب الإسرائيلى بأن مصر صادقة فى جهودها من أجل السلام وإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل . ولهذا السبب اعتبر بيجن تلك المناسبة مهمة للغاية . فلقد حمل أكبر الدول العربية على عقد سلام مع إسرائيل .

وفى اليوم التالى عدت إلى وزارة الخارجية لمجابهة مشكلة المستوطنات الإسرائيلية فى المناطق العربية المحتلة . وطلبت إلى الدكتور حافظ غانم – الذى كان نائبا لرئيس الوزراء عام ١٩٧٧ وقت تعيينى فى الوزارة ، وهو الآن رئيس الجمعية المصرية للقانون الدولى – أن يلتقى ولجنة تقصى الحقائق التابعة للأمم المتحدة . فلقد أردت للأمم المتحدة أن تعرف أن قلقنا من المستوطنات الإسرائيلية لايقتصر على الحكومة وحدها ، وإنما تشاركها فى ذلك أيضا القطاعات الأكاديمية وغيرها . فاتفاقية جنيف الموقعة عام ١٩٤٩ تنص على عدم جواز تغيير طبيعة الأراضى المحتلة . وهكذا تعتبر المستوطنات غير قانونية بموجب هذه الوثيقة . وكان كارتر قد قال فى كامب ديفيد إنه حصل على تعهد مكتوب بأن تتوقف إسرائيل عن التوسع فى المستوطنات أثناء المفاوضات ، ولكن بيجن نازعه فى هذا الادعاء ، وأصبح الأمر منذ ذلك الحين ملفوفا فى إطار من الريبة والمرارة .

وبعد انتخاب الدكتور عبد الله العريان قاضيا بالمحكمة الدولية ، خلا مقعده فى لجنة الأمم المتحدة للقانون الدولى . وبصفتى عالما فى القانون الدولى قررت التقدم إلى هذا الموقع . ثم علمت بالحملة التى تشنها الدول العربية لضمان فشلى فى مسعاى . وكان ذلك جانبا من الحملة العربية لعزل مصر . فقد أرادوا منع أى دور مصرى فى المنظمات الدولية . وناقشت مع مصطفى خليل ما ينتابنى من قلق إزاء مناورات الرافضين العرب فى ردهات لجنة القانون الدولى فى جنيف والتى قد تدمر ترشيحى . وأبلغت رئيس الوزراء أنه إذا كتب لهذه الدول العربية النجاح ، فإنها ستكون لطمة لمصر ، حيث إننى أمثل الحكومة المصرية . وقلت إننى على استعداد للانسحاب قبل بدء الانتخابات إذا كان ذلك فى اعتقاده أفضل . ولم يتفق مصطفى خليل معى . ففى حالة نجاحى فى كسب عضوية لجنة القانون الدولى فإن ذلك سيكون بمثابة انتصار ديبلوماسى لمصر . أما إذا فشلت فى ترشيحى ، فإن الصحافة لن تأبه بذلك كثيرا ، وحثنى على عدم الانسحاب .

كان مصطفى خليل على حق . وجاء انتخابى فى نهاية شهر مايو ١٩٧٩ ، فى وقت كانت فيه مصر فى حاجة إلى مؤشر بأن محاولات عزلها لن تنجح .

وفى ٣١ مايو التقيت مع محمد رياض الأمين العام المساعد السابق للجامعة العربية والسفير تحسين بشير لمناقشة الآثار المترتبة على قرار الجامعة العربية بنقل مقرها الرئيسى من القاهرة إلى تونس . وكنت أعتقد بقوة أن الجامعة العربية ينبغى أن تواصل عملها فى القاهرة ، وأن علينا أن نحاول إقناع دول مثل السودان وعمان والصومال بتأييدنا . وكانت فكرتى أن تستمر الجامعة العربية فى القاهرة بعضوية أربع دول ، بينما تقيم دول الرفض الست عشرة جامعتها الخاصة فى تونس . وأن على مصر أن تعلن أن الجامعة الجديدة منظمة منفصلة ومختلفة ، وبناء على هذه السياسة تتمكن مصر من الاحتفاظ بوثائق الجامعة العربية وأموالها فى القاهرة ، الأمر الذى يجعل من اليسير على الرافضين الذين ذهبوا لتونس العودة إلى القاهرة فى المستقبل . وأقنعت محمد رياض بقبول منصب أمين عام الجامعة العربية بالإنابة إلى أن تتضح الأمور . وعلى أى حال فقد حدث ذات مرة أن كان هناك اثنان من الباباوات ، أحدهما فى روما والآخر فى افينيون (مدينة على نهر رون بجنوب فرنسا التى قام كلمنت الخامس بنقل الكرسى البابوى إليها عام ١٣٠٨ – المترجم) .

وفى وقت متأخر من اليوم نفسه أدليت بحديث إلى مراسل « *لو موند* » فى القاهرة . وتضمنت أسئلته استفسارا عن ابن عمى ، إبراهيم أمين غالى ، الذى فصله عبد الناصر من وزارة الخارجية لخدمته الدبلوماسية لنظام الملك فاروق . وكان ابن عمى هذا قد وجد سلواه فى أن يصبح كاتبا فى التاريخ والسياسة ، وكان قد أصدر من توه كتابا فى باريس يناهض فيه معاهدة السلام تحت عنوان « *إسرائيل أو السلام المتمرد* » . وكانت اعتراضات ابن عمى على اتفاق السلام أقل كثيرا فى خطورتها من اعتراضات الأعضاء البارزين للمعارضة المصرية . وشرحت للمراسل كيف أن المعارضة داخل أسرتى شخصيا تقف دليلا على أن المصريين يعيشون فى جو ديمقراطى . وكانت تربطنى بابن عمى صداقة متميزة ، مثلما كنت ارتبط بأصدقاء آخرين يعتقدون بأننى ارتكبت خطأ فادحا .

وفى المطار ، يوم الاثنين ٤ يونيو ١٩٧٩ ، استقبلت موشى ديان الذى وصل مع زوجته على متن طائرة خاصة . وبعد أن التقط الصحفيون عشرات الصور ، نقلتنا طائرة هليكوبتر مباشرة إلى الإسماعيلية للقاء مع السادات .

كان السادات يشعر بعدم الارتياح فى حضرة ديان ويجده شخصية بغيضة . وقلت للسادات إن توقيع الاتفاقيات ليس بنفس القدر من الأهمية مثل تطبيقها . وكان ديان يبحث عن دور مهم فى عملية تطبيع العلاقات ، وعلينا أن نتيح له الفرصة لذلك . إذ أن ديان أكثر زعماء إسرائيل مرونة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية . فهو متحرر تماما من الجمود الدينى الذى يبدو كطابع مميز للكثيرين فى قيادة الليكود . والحقيقة أن ديان لم يحجب عنى

لا مبالاته بالدين . وقد قال لى إن مدير مكتبه إيلى روبنشتين يحترم التقاليد الدينية بحذافيرها ، ولكن كل ما كان ديان يطالبه به ألا تؤثر ممارساته الدينية على عمله .

شرحت كل ذلك للسادات فى محاولة أخرى لإقناعه بالعمل مع ديان . واعتبرت موافقة السادات على قدوم ديان إلى الإسماعيلية للقائه بمثابة انتصار هائل لى .

ولكنه لم يكد يصل إلى مطار القاهرة حتى أعلن للصحفيين أن المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة شرعية ، وأن إسرائيل لن تتوقف عن بنائها . لو أن السادات سمع بذلك لكان قد ألغى اجتماعه مع ديان على الفور . وأجبت مباشرة على تصريح ديان قائلا إننى لا أتفق معه على الإطلاق فيما يتعلق بموضوع المستوطنات .

وبينما نحن متجهون إلى الإسماعيلية ، شعرت بأن الاجتماع بين السادات وديان قد يؤدى إلى مشكلة ، وأسفت على محاولتى التقريب بين الرجلين . وقلت لديان إنه إذا بدأ حديثه بسؤال السادات عما أوحى إليه بالذهاب إلى القدس ، فإن الكيمياء بينهما قد تتحسن . وحدق ديان بعينيه إلى الأمام وكأنه لم يسمع شيئا ، وخشيت أن أكون قد زدت الطين بلة .

وطوال رحلتنا بالهليكوبتر ، كان ديان يتطلع إلى الصحارى والأراضى الزراعية تحتنا . ومع اقترابنا من الإسماعيلية ، قلت له : « هل أنت تفكر فى إقامة مستوطنات هنا ؟ » . ولم يرد علىّ ، وأحسست بأن الجو بيننا وصل إلى نقطة التجمد . وقلت لنفسى لو كان وايزمان معى هنا اليوم ، لاستقبل سؤالى بروح مرحة ولانتقد سياسة حكومته .

وفى الإسماعيلية ، نقلتنا سيارة إلى فيللا الرئيس التى تطل على قناة السويس . وانتظرنا نحو عشرين دقيقة لينتهى السادات من حديثه مع زائر آخر . وانتابنى القلق من أننا إذا جلسنا هناك أكثر من ذلك ، فإن ديان قد يشعر بأن السادات يتعمد امتهانه . ولكن فوزى عبد الحافظ السكرتير الخاص للسادات جاء ليقول إن الرئيس فى انتظارنا . كان السادات مع حسنى مبارك . واستقبل ديان بتحية ودية ، وسأله ما إذا كان يعرف منطقة الإسماعيلية . وضحك ديان قائلا بأنه يعرفها جيدا ، « ولكن من الضفة الشرقية للقناة » . وقلت لنفسى إنه إذا تحدث عن الحرب فإننا مقدمون على مشكلة .

وعاد ديان إلى الحديث ليقول : « لدىّ سؤال ، يا سيادة الرئيس ، كنت أريد توجيهه إليكم منذ وقت طويل . إنه سؤال تاريخى . أريد أن أعرف متى راودتكم الفكرة بالضبط لزيارتكم للقدس ولمبادرتكم التاريخية » .

وابتسم السادات ابتسامة عريضة ، وقال لديان بحرارة إن فكرة الذهاب إلى القدس

جاءته لأول مرة حينما كان مسافرا بالطائرة لزيارة الشاه . فبينما كانت طائرته تعبر تركيا ، أخذ يتساءل كيف يمكنه إثارة « موجة من الصدمات » لحفز عملية السلام إلى المضى فى طريق إيجابى . لقد فكر أولا أن يطلب إلى « الخمسة الكبار » أعضاء مجلس الأمن - الأمريكيين والسوفيت والصينيين والفرنسيين والبريطانيين - الذهاب إلى القدس . واستطرد السادات قائلا إنه بعد طهران طار إلى المملكة العربية السعودية . ثم فى طريق العودة إلى القاهرة جاءته الفكرة فجأة . فليذهب إلى القدس بنفسه ! وبعدها غضب السعوديون لأنه لم يخبرهم بخطته ، ولكن الفكرة لم تخطر على باله إلا بعد مغادرة الرياض إلى القاهرة .

وسأل ديان : لماذا قرر السادات الذهاب ؟ وقال السادات إن ذلك حدث لأن الإسرائيليين دأبوا على استخدام حقيقة أن العرب لن يتفاوضوا معهم مباشرة ، كعذر لقصورهم الذاتى ، وهكذا قرر السادات أن يرد حجتهم لنحرهم .

وخاب أمل ديان . فالقصة الرائجة فى كل مكان تقول بأن زيارات ديان السرية للرباط فى سبتمبر ١٩٧٧ ، التى قام الملك الحسن بترتيبها ، كانت الأصل فى رحلة السادات . ونظرا لأن عقد اجتماع عربى إسرائيلى بصورة علنية كان مستحيلا ، فقد ذهب ديان إلى الرباط متخفيا . لكن السادات قال : « إن ذلك لم يحدث أبدا . لقد أرسلت التهامى إلى هناك لمقابلتك لغرض آخر ، وهو التأكيد لإسرائيل أن مصر ستعمل من أجل الحيلولة دون فشل مؤتمر جنيف - وهو المؤتمر الذى أرادت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى عقده » . لم يسعد ديان سماع السادات وهو يتناول بمثل هذا الاستخفاف حدثا كان ديان يفضل اعتباره من الأحداث التى صنعت التاريخ .

ثم قال ديان ، وكأنه يقرر أنه هو الآخر رجل دولة مفعم بالرؤى ، إنه قبل عام ١٩٧٣ كان يشجع على انسحاب القوات الإسرائيلية من خط بارليف ليسمح لمصر بفتح قناة السويس للملاحة الدولية ، ولكن مجلس الوزراء الإسرائيلى لم يفهم ولم يقبل الفكرة . واجاب السادات : « لقد كان ذلك من شأنه أن يصبح « ضربة معلم » (chef d'oeuvre) ، قالها السادات بالفرنسية وهو ينظر نحوى وكأنه يتأكد من أننى لاحظت عبارته الفرنسية . وانفرجت أسارير ديان لذلك . وفى الختام شد السادات على يد ديان وودعه وداعا حارا . لم تنته المقابلة بتبادل القبلات ، ولكن حالة مزاجية جديدة قد نشأت على الأقل .

وفى طريق العودة إلى مطار القاهرة أبلغنى أحمد الحفناوى بأن ستة وستين من ضباط الأمن قد كلفوا حتى الآن بتأمين سلامة ديان .

وبعد ظهر هذا اليوم التقينا وحدنا - أنا وديان - بوزارة الخارجية . وأبلغته بصراحة

بأن عدد الإسرائيليين القادمين لزيارة مصر فى المرحلة الأولى ينبغى أن يكون محدودا جدا . فلا ينبغى فتح الباب على مصراعيه للسفر إلى مصر إلى أن نتأكد من رد الفعل لدى الشعب المصرى . فكلما زاد عدد الإسرائيليين الزائرين لمصر كانت حمايتهم أصعب . فإذا أقدم متطرف مصرى على قتل أحدهم ، فإن ذلك سيكون ضربة خطيرة للسلام . واعترفت بأن مخاوفى قد تكون متشائمة أكثر من اللازم ، ولكن مصالح مصر وإسرائيل تستلزم الاحتياط الكامل . واتفقنا - ديان وأنا - على قصر الزيارات إبان المرحلة الأولية من التطبيع على الصحفيين والدارسين والكتاب . كما اتفقنا على أن يقتصر دخول مصر على مطار القاهرة الدولى وميناء الاسكندرية ، وعلى أن الوصول بالطريق البرى عبر العريش أو بورسعيد لن يسمح به لحين استكمال تطبيع العلاقات بين الدولتين .

وبعد المحادثات أعلنت أمام الصحفيين أننا اتفقنا على مد خط تليفونى مباشر بين وزارتى الخارجية المصرية والإسرائيلية أسوة بالخط المباشر بين وزارتى الدفاع ، فى خطوة تعكس منافسة ديان الدائبة مع وايزمان وزير الدفاع . فإذا كان لوزير الدفاع خط مباشر إلى القاهرة ، فلماذا لا يكون لوزير الخارجية خط مباشر هو الآخر ؟ وتم تركيب التليفون ولكنه لم يعمل أبدا . وكلما أحدث ضجيجا كنت أرفع السماعة ولكن أحدا لم يرد على تحيتى . ومع ذلك فإن منظر التليفون كان يسرنى . إنه يرمز إلى علاقات مصر وإسرائيل .

وفى المساء أقمنا - « ليا » وأنا - حفل عشاء لديان وزوجته . ومن شرفة بيتنا التى تطل على النيل ، كان الزوار الإسرائيليون يستمتعون بمشاهدة انعكاسات أضواء القاهرة على صفحة النهر . وكان « عبوده » الطباخ لدينا والمسئول عن العشاء قد تم تجنيده عام ١٩٧٣ واشترك فى حرب أكتوبر . وحكى قصته لديان بحرارة وعفوية . وجاءت استجابة ديان بلا دفء - وشعرت بأن ديان ليس فاترا وإنما خجلا .

وتحدث ديان عن مصر الفرعونية ، ورمسيس الثانى ، ومصر فى عصر البطالسة . وتحدث مصطفى خليل عن الأوضاع الاقتصادية فى مصر التى اثارت اهتمام ديان بشكل كبير فيما يبدو .

وفى اليوم التالى - الثلاثاء ٥ يونيو - سافر ديان إلى الأقصر لزيارة الآثار . وبقيت أنا فى القاهرة للاجتماع بالوفد الأمريكى الذى سيشترك فى محادثات الحكم الذاتى يوم الاثنين التالى فى الاسكندرية . كان على رأس الوفد الأمريكى السفير جيمس ليونارد ، وهو دبلوماسى هادىء وجاد يتحدث بتؤدة ورصانة . لقد درس موضوع المفاوضات جيدا .

وشعرت بأنه غير سعيد بما لديه من تعليمات ، ولكنه كدبيلوماسى جيد لم يفصح أبدا عن رأيه . وبعد ذلك بوقت طويل ، حينما أصبح عضوا فى لجنة الخبراء لنزع السلاح ، التقيت به فى جنيف حيث قال لى معلقا إن الوفد الأمريكى لم يكن فى وضع يمكنه من ممارسة أى ضغط حقيقى على إسرائيل .

وفى ذلك المساء أقمت حفل عشاء آخر تكريما لديان فى نادى التحرير . وكان الوزير الإسرائيلى قد عاد من الأقصر وقد أذهله ما شاهده من عظمة الإمبراطورية المصرية ، وتحدث طويلا بانفعال وحماس عن الحضارة المصرية القديمة . وعندما كنت أودع ديان بالمطار ، بدا عليه سلوك من الاحترام العميق نحو مصر أكثر من ذى قبل .

وفى اليوم الذى غادر فيه ديان القاهرة ، وصل يوسف بورج رئيس المفاوضين الإسرائيليين . وكان بورج سياسيا ممتلىء الجسم ، وعقلانيا ومتدينا ، وهو يرأس الحزب الدينى القومى الذى تعتمد عليه حكومة الليكود . وهو من أصل المانى ، ذاعت شهرته من قراءة نشرة الأخبار بلغة اليديش فى إذاعة إسرائيل . واجتمعنا لمدة ساعتين فى مكتبى حيث أفاض بورج فى الحديث عن موضوعات فلسفية وفكرية بعيدة كل البعد عن السياسة والدبلوماسية . وأخبرنى عن دراساته فى جامعة ليبزج ، وكيف كان يعرض فلسفة إيمانويل كانط فى امتحانه الشفوى . وأثناء حديثنا قلت إننى قرأت للفيلسوف اليهودى مارتن بوبر الذى كان يدافع عن دولة مزدوجة القومية فلسطينية إسرائيلية . وقال بورج إن بوبر كان صديقه ومعلمه . ولذا ، سألت الوزير الإسرائيلى : « لماذا لا تتبنى أفكار صديقك ، وهو أحد أعظم فلاسفة القرن العشرين ؟ » . وأجاب بورج متهكما : « لقد أصبحت رجل سياسة وطلقت الفلسفة منذ سنوات مضت » .

وعندما التقينا – مصطفى خليل وأنا – مع بورج فى صباح اليوم التالى فى مبنى رئاسة الوزارة ، توقف بورج فجأة عن الكلام واسود وجهه ثم انقلب لونه إلى صفرة الليمون . ووضع يده على قلبه واشتكى من آلام مبرحة . وفى صوت خفيض قال إن نبضات قلبه زادت بشكل مخيف . وطلب منا إحضار كوب من المياه المعدنية . ونظر خليل نحوى بقلق ، وهمس قائلا : « يبدو أن الرجل يعانى من أزمة قلبية . أخرجه من مكتبى . فإذا كان سيموت هنا معنا بدون أى شهود ، فإنهم قد يتهموننا بفعل ذلك » .

وفى اضطراب بالغ ، دق مصطفى خليل الجرس وطلب من الساعى : « احضر كوبا من ماء الصودا فورا ! » . وعاد الساعى بعد لحظات ليعلن أنه لا يوجد ماء صودا برئاسة الوزارة . وبدا الغضب والقلق جليا على وجه مصطفى خليل . وتدارك الساعى

الموقف واقترح كوبا من « سيفن أب » . وقال رئيس الوزراء : « احضره على الفور ! » .
وكان بورج يزم على شفتيه ، جالسا بلا حراك ، ويتنفس بصعوبة . كانت عيناه مغلقتين ،
ويده اليمنى على قلبه ، وبدا أنه على وشك الموت . وكان خليل يتطلع إليه بقلق متزايد .
وعاد الساعى بعد لحظات يحمل كوبا من « سيفن أب » . وشرب بورج رشفتين أو ثلاثا
منه . وبدأت علامات الانفراج تظهر على محياه . كأنها جرعة من السحر ! ونصح
مصطفى خليل الوزير الإسرائيلى بالعودة فورا إلى غرفته بالفندق ليأخذ قسطا من الراحة .
وغادر بورج ، واسترخى خليل فى ارتياح . وطلب منى رئيس الوزراء تكليف إخصائى
قلب بالذهاب إلى الفندق على الفور ليفحص بورج .

وعدت إلى مكتبى بوزارة الخارجية حيث انشغلت بمهام ومشاكل متعددة ، إلى حد
أننى نسيت مشكلة بورج الصحية ، إلى أن دق جرس التليفون . كان رئيس الوزراء على
الخط يسأل عن الطبيب الذى أوفدته إلى بورج . وعندما اعترفت له بأننى لم أطلب طبيبا ،
غضب وطالبنى بأن أسارع بالاتصال بموظفى فندق شيراتون حيث يقيم بورج . وبعد جهد
جهيد نجحت فى الاتصال بالفندق ، وعلمت أن الضيف الإسرائيلى غادر الفندق قبل نصف
ساعة . وسألت عما إذا كان أحد بالفندق يعرف أين ذهب . لقد تصورت أن حالته ازدادت
سوءا وأنهم حملوه إلى المستشفى . وأبلغنى موظف الفندق بأن الوزير الإسرائيلى ذهب
لزيارة الأهرامات وأبى الهول . وعلى الفور اتصلت بمصطفى خليل تليفونيا لأنهى إليه النبأ
السعيد .

وانتظرت حتى الثانية بعد الظهر ، ثم توجهت إلى فندق شيراتون ، وقرعت باب
الجناح الخاص ببورج . وفتح هو الباب بنفسه ، فى أحسن صحة ، وتحدث عن سعادته
بزيارة الأهرامات . وسألته عن أزمته فى الصباح وما إذا كان قد استشار طبيبا . وقال :
« أنا لست فى حاجة إلى طبيب للكشف على . لقد أكلت كمية كبيرة جدا من الأسماك على
الإفطار » . وكنت أعلم أن احتياجات الوزير من الأطعمة التى تبيحها الشريعة الإسرائيلية
تأتى له خصيصا من هولندا بالطائرة بتعليمات من وزارة خارجيتنا . لقد التهم بورج أسماكا
هولندية كثيرة جدا .

وقال بورج : « لقد جاءت فى التوراه قصة السمكة التى ابتلعت « يونان » . أما أنا ،
فقد بلعت السمكة ولم أكن لأتوانى فى الإجهاز عليها ، كما أجهزت السمكة فى التوراه على
يونان . وبعد أن فعلت ذلك ، وبعد أن عادت المياه إلى مجاريها ، قررت زيارة أهرامات
الجيزة » .

ومع أن بورج هو رئيس الفريق الإسرائيلى المفاوض على الحكم الذاتى للفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة ، إلا أنه كان جليا أنه لا يعرف شيئا عن الفلسطينيين . وكان يتحدث وكأنهم غير موجودين فى الضفة الغربية وغزة والقدس التى تحتلها حكومته منذ اثنى عشر عاما . واستمر بورج الذى أفلت من الاضطهاد النازى وجاء إلى العالم العربى دون أن يعلم شيئا عن العرب أو الشرق الأوسط ، على عدم معرفته بهما بعد سنوات طويلة فى المنطقة .

وأثرت مع بورج للمرة الرابعة موضوع « دير السلطان » ، وهو كنيسة قبطية صغيرة فى قلب كنيسة القيامة المقدسة . وأكدت لبورج ، كما سبق أن أكدت لديان ، أن عودة دير السلطان إلى الكنيسة المصرية سيسهم إلى حد كبير فى التطبيع . وكان بورج بوصفه وزيرا للداخلية صاحب الولاية في هذا المجال . ووعد بالبحث عن طريق لإيجاد حل سريع ، وهو نفس ما وعد به وزراء آخرون ممن أثرت الموضوع معهم . وحتى يومنا هذا ، لم تحل هذه المشكلة .

وكنت قد أبلغت ديان ، أثناء لقائنا فى العريش ، بأن الفندق الوحيد فى الإسكندرية الذى تتوافر فيه الإمكانيات لإجراء « مباحثات الحكم الذاتى » هو فندق فلسطين فى ضاحية المنتزه بالإسكندرية . وأكد لى ديان أن ذلك لن يمثل مشكلة ، وأنه غير معنى بالفنادق أو الإقامة . غير أننى بعد أيام قليلة تلقيت خطابا عاجلا من بورج ، قال فيه إنه من المستحيل عقد مفاوضات حول الحكم الذاتى فى فندق يحمل اسم فلسطين ، لأن هذا سيثير الرأى العام الإسرائيلى ، وطالبنا بالبحث عن مكان آخر .

واتصلت بوزير السياحة على الفور ، وطلبت إليه تجديد بعض الغرف والصالونات فى فندق سان ستيفانو القديم ذى النجوم الخمس ، وأن يتم تركيب أجهزة تكييف فى الغرف التى سيستخدمها الأمريكيون والإسرائيليون .

ولكن فندق سان ستيفانو لا توجد به مائدة مستديرة كبيرة تلائم المحادثات . وكلف الفندق نجارا بصنع مائدة وفقا للمواصفات المطلوبة . وقال إن ذلك يتطلب أسبوعين على الأقل . وأشار علينا أحد الدبلوماسيين الشبان العاملين فى إدارة المراسم بالمائدة التى كنا نجلس حولها لتناول الغداء بنادى التحرير . وهكذا أصبحت المشكلة مجرد نقل تلك المائدة إلى فندق سان ستيفانو فى الإسكندرية .

وقبل مغادرته القاهرة ، سأل بورج ما إذا كنت قد وجدت حلا لمشكلة فلسطين -

وتلك هى طريقته فى المزاح كلما أشار إلى مشكلة الفندق . وأبلغته بأن الاجتماع سوف ينعقد فى فندق سان ستيفانو . وقد أوحى ذلك لبورج بالإشارة إلى اتفاقية ١٨٧٨ بين روسيا وتركيا فى مدينة سان ستيفانو ، ليدلل – كما كان يسعى دائما منذ أن ناقشنا فلسفة بوبر – على أنه درس التاريخ بينما أنا أدرس الفلسفة .

وفى يوم الأحد الموافق ١٠ يونيو بدأت القيادة الإسرائيلية فى الوصول ، وزيرا إسرائيليا بعد الآخر . وتحدثت مع ييجال يادين نائب رئيس الوزراء لمدة ساعتين فى مكتبى حيث تناولت أسباب قلقى بشأن المحادثات ، خاصة أن الإسرائيليين يواجهون البعد الفلسطينى للعملية . كان يادين عالم آثار وأستاذا جامعيا . وفى الوقت الذى كان فيه تفسير « لفائف أوراق البحر الميت » محاطا بالسرية ويحتكره لفيف من العلماء ، اكتشف ييجال يادين فى متجر فى بيت لحم « لفائف أوراق المعبد » ، أطول كشف من نوعه ، وكتب ثلاثة مجلدات حولها ، ونشرها قبل عام واحد من لقائنا . كان أكاديميا من الطراز الأول ، ولكنه سياسى من الدرجة الثالثة ، مستكين إلى حد عدم النضال من أجل آرائه أو حتى الدفاع عنها . وشعرت منذ لقائى الأول معه فى نوفمبر ١٩٧٧ بنوع من التناغم والتفاهم المتبادل بيننا ، ولكننى انتهيت إلى عدم جدوى محاولة تحقيق كسب سياسى من وراء علاقتنا . ويذكرنى يادين بواحد من كبار وزراء جمال عبد الناصر ، قيل عنه منذ سنوات إنه « مثل الساعة السويسرية ، لا يقدم ولا يؤخر » . ولم يكن يادين ليحيد عن إيقاعه الخاص . ولقد قال لى أكثر من مرة إنه يعارض سياسة بناء المستوطنات فى الضفة الغربية ، ولكنه لم يكن ليفعل شيئا دفاعا عن معتقده .

وطرنا – اللواء كمال حسن على وأنا – من القاهرة إلى مطار جناكليس لاستقبال المجموعة الأخيرة من الفريق الإسرائيلى لدى وصولهم ، وكانت تضم بورج ووايزمان وتامير وديان وشارون ونسيم جاعون . ثم انتقلنا بالهليكوبتر إلى مطار النزهة بالإسكندرية حيث كانت السيارات فى انتظارنا لتحملنا فى قافلة طويلة إلى فندق سان ستيفانو . وبدأت المفاوضات حول المائدة المستديرة لنادى التحرير التى وصلت من القاهرة قبل بضع ساعات .

وتحدث الدكتور مصطفى خليل والدكتور بورج والسفير جيمس ليونارد على التوالى . فاشتكى المتحدث المصرى من الأعمال الإسرائيلية ، واقتصر كلام المتحدث الإسرائيلى على الوثائق التى سبق أن وقعناها ، بينما قال المتحدث الأمريكى إن الوقت قد حان للتفاوض بجدية خلف أبواب مغلقة .

وعقب جلسة المراسم ذهبت إلى فندق فلسطين حيث يقيم الوفد المصرى ، وتناولت طعام الغداء فى غرفتى . ثم عدت إلى سان ستيفانو حيث تناقش الوفدان المصرى والإسرائيلى حول كيفية تعريف وجود وفد للولايات المتحدة الأمريكية . هل الولايات المتحدة طرف أو مجرد مراقب ؟ وفيما يدور الجدل حول دورهم فى المحادثات ، كان الأمريكيون صامتين . ووراء هذا الجدال كان هناك اختلاف عميق فى الرأى : مصر تريد إعطاء المفاوضات بعدا دوليا ليعكس نتيجة شاملة محتملة ، والإسرائيليون يريدون لها أن تبدو كمحادثات بين طرفين تمخضت عن السلام المنفرد بين مصر وإسرائيل . وفى المساء أقام الوفد المصرى حفل عشاء للمندوبين فى نادى اليخت الذى يطل على ميناء الاسكندرية . واتصل مصطفى خليل من النادى بالسادات الذى كان فى أمريكا ليبلغه بأن شيئا لم يتم إنجازه فى المباحثات ، وبأن تدخلا آخر من جانب كارتر أصبح ضروريا .

أما الاجتماع الثالث المنعقد صباح الثلاثاء ١٢ يونيو فقد اقتصرت نتيجته على بيان للصحافة واتفاق على الاجتماع مرة أخرى . وأبلغ السفير ليونارد الصحفيين ، فيما يبدو لإرضاء الجانب المصرى ، بأن الأطراف قبلت الولايات المتحدة كشريك كامل فى المفاوضات . وهو بيان تخطى فيه حد المبالغة ، وكاد يدخل فى إطار الكذب الدبلوماسى . فكل ما كان يمكن قوله ، بأمانة ، إن المفاوضات ضاعت فى غالبيتها فى مناقشات سفسطائية حول الدور الأمريكى .

وسألنى أحد الصحفيين ما إذا كان الفلسطينيون سيشتركون فى الجولة القادمة ، وعن اتصالات مصر مع الفلسطينيين . قلت إننا أجرينا اتصالات غير مباشرة مع القيادة الفلسطينية وإننى أفضل ألا أدخل فى مزيد من التفاصيل . والحقيقة أننا لم نتمكن من المحافظة على قناة اتصال مع القيادة الفلسطينية . وما كنا قد أجريناه من اتصالات اقتصر على فلسطينيين غير مؤثرين فى الضفة الغربية وغزة .

وبعد المؤتمر الصحفى انطلقت إلى المطار مع يوسف بورج الذى سخر منى بقوله : « لقد نجح المؤتمر . وليس هناك ما يدعوك أن تستمر فى سلاطة اللسان . إن الإنسان يستطيع أن يحقق إنجازات أكبر بالهدوء واللين عنه بالعنف والإثارة » . ومن مطار النزهة طرنا إلى مطار جناكليس حيث استقل الوفد الإسرائيلى الطائرة إلى تل أبيب ، وحملتنا الطائرة الميستير إلى القاهرة . ووصلت إلى بيتى فى الجيزة مستنزفا تماما .

انتابنى الإحساس بأن هذه المفاوضات لا تؤدى إلى شىء . لماذا نحن نتفاوض ، إذن ؟ ولماذا يتفاوض الإسرائيليون ؟ هل أقدموا على تشكيل مثل هذا الوفد الهائل الذى يضم

خمسة وزراء لكى يؤثروا فى الرأى العام وليسعدوا شريكهم الأمريكى ، بينما إسرائيل فى الواقع يمكنها تطويق وابتلاع وهضم الضفة الغربية وغزة ؟ .

وفيما يتعلق بالموقف الأمريكى كانت هناك عدة تساؤلات . كان الوفد الأمريكى ضعيفا وبدون سلطة . هل التزم المندوب الأمريكى الصمت لأن رئيس الوفد روبرت شتراوس ، الممثل الشخصى للرئيس كارتر ، غائب ؟ هل كان المندوب يتبع تعليمات حكومته ؟ وهل كان هدف واشنطن مقصورا على كسب الوقت وإخفاء ضعف الإدارة الأمريكية ؟ .

وبالرغم من هذه الشكوك بقيت مقتنعا بأنه إذا أظهرت المفاوضات نتائج طيبة ، فإن الفلسطينيين سيقبلون المشاركة ، وإن الدول العربية المعتدلة ستسعى إلى التقارب مع مصر .

ووصلت صباح يوم ١٣ يونيو إلى جنيف للاشتراك فى أول اجتماع للجنة القانون الدولى التابعة للأمم المتحدة . فحينما دخلت الحياة الجامعية لأول مرة ، كانت عضوية هذه اللجنة بمثابة حلم شعرت بأنه بعيد المنال . فهى بالنسبة لى قمة المجد الفكرى لأى خبير فى القانون الدولى . ولكنه بعد انتخابى لعضوية اللجنة والمشاركة فى اجتماعها لم أشعر بمثل ذلك القدر من الفرحة الذى تخيلته من قبل . أمضيت ساعات فى غرفتى بالفندق عاكفا على دراسة تقارير اللجنة التى استغرقت مئات ومئات من الصفحات . ووجدت أننى فقدت القدرة على استيعاب البحث الأكاديمى . إن العملة السيئة تطرد العملة الجيدة ، والعمل الدبلوماسى دفعنى خارج الإطار الأكاديمى والبحثى فى حياتى . وشاركت فى الجلسة الأولى من اجتماع اللجنة ، ولكن المستوى الرفيع للمناقشات حال دون مشاركتى فى المداولات . وتناولت الغداء مع سعد حمزة الذى كان قد قدم أوراق اعتماده سفيرا لمصر إلى رئيس الاتحاد السويسرى قبل يومين فقط . وحثنى على القيام بزيارة رسمية للعاصمة السويسرية برن . وأسر لى بأنه سيكون من الأفضل عقد علاقات طيبة مع القيادة السويسرية ، لأننى قد احتاج قريبا أن أطلب منهم اللجوء السياسى فى سويسرا ! . « إن مستقبل الشخصية السياسية فى هذا الجزء من العالم غير مضمون العواقب » ، هكذا قال سعد حمزة ، مضيفا قوله : « وفيما بين المنفى والسجن ، فإن المنفى فى سويسرا أفضل كثيرا » .

وفى ١٧ يونيو سافرت من جنيف إلى روما حيث أقمت فى جانب لم يتم تحديثه من فندق جراند أوتيل . وذكرنى جناحى فى روما بالشقة التى استأجرتها فى الإسكندرية فى

صيف عام ١٩٤١ حينما كنت متورطا فى قصة حب عظيمة مع قاهرية جميلة . وكنا نعتزم الزواج . ولقد أصر هنرى ماتيس على رسمها ، وفى كل مرة قام فيها بتخطيط المنحنيات الرقيقة لوجهها ، فى عجالة ، كان نفس التعبير المميز يظهر واضحا ، بالرغم من أن كل واحد من أعماله تلك كان فريدا . وفى عام ١٩٤٨ أذعنا الإعلان الكنسى لزيجتنا فى باريس حيث كانت تدرس . ولكن خطبتنا انفسخت . لقد كنا صغارا جدا لتحمل المسئوليات المترتبة على الحياة الزوجية . وّمازلت اعتز برسومات ماتيس .

واستقبلنى البابا يوحنا بولس الثانى فى مكتبته يوم الاثنين ١٨ يونيو ، وكان لقائى الأول مع قداسته . وقد تأثرت بشخصيته الجذابة ونكائه الوقاد وحضور بديهته . تحدث بالفرنسية بلكنة بولندية . وناقشنا مسألة الحكم الذاتى الفلسطينى . وقال مبتسما إنه يعرف جيدا « عقلية الزعماء اليهود الذين تتفاوضون معهم ، لأن غالبية المفاوضين الإسرائيليين تعود أصولهم إلى وطنى » ، ليعنى بالتأكيد أن بولندا هى الوطن الذى قدم منه بيجن ضمن غيره من الزعماء الإسرائيليين . وأضاف بعد لحظة من الصمت : « إن التعاون معهم ليس سهلا ولكنه يتعين عليكم مواصلة التفاوض » .

وتحدثت عن القدس بإسهاب ، وأشرت إلى أهمية دور الفاتيكان فى الدفاع عن المدينة المقدسة فى مواجهة الادعاءات الإسرائيلية . ولكن البابا لم يتابع هذا الاقتراح ، واستمع دون تعليق .

لم يكن هذا هو الحال مع « رئيس وزراء » الفاتيكان ، الكاردينال كاسارولى ، والكاردينال أشيلى سيلفسترينى وزير الخارجية اللذين ناقشت معهما احتمال تدويل الأماكن المقدسة . وكان موقفهما يذكرنى بالمستشرق الصوفى « لوى ماسينيون » الذى أبلغنى ذات مرة بأنه لن يقبل إطلاقا أن يكون « قبر المسيح فى حماية جنود يهود » . كان زعماء السياسة الخارجية للكرسى الرسولى يهتمون بالقدس ، وبمسيحيى لبنان ، وبالفلسطينيين على نفس هذا النحو من الترتيب . ولم أذكر المسيحيين فى مصر كما أنهم لم يذكروا شيئا عنهم ربما لإحساسهم باعتزازى بجنسيتى المصرية .

وفى مطار روما التقيت مع بعض المطارنة الأقباط القادمين للمشاركة فى محادثات دينية مع رجال الكنيسة الكاثوليكية . وطلبت إليهم الصلاة من أجل سلامة عودتنا إلى القاهرة .

وعلى متن الطائرة التى نقلتنا فى رحلة العودة إلى القاهرة ، قابلت الصحفية درية عونى . وحكت لى مرة أخرى القصة الرمزية التى اكتسحت العالم العربى عن أم لعدد كبير

من الأطفال ، قررت فجأة أن تهجر بيتها وأطفالها ومسئولياتها لتهرب مع « الخواجة » (الأجنبى) . ويندب الأطفال حظهم ويتمردون على أمهم ويتهمونها بالغدر والخيانة .

وبالرغم من أننى استمعت إلى هذه القصة مرارا ، فقد أنصت صابرا لدرية عونى وهى تحدثنى عن الأم ، التى ترمز إلى مصر ، والأطفال هم الدول العربية ، و « الخواجة » إسرائيل . وترك الأم أطفالها لتهرب مع غريب هو بمثابة خيانة مزدوجة . ولكن السادات كان يتجاهل هذه الاستعارة . إنه لا يريد لمصر أن تكون أما للعرب ، بل يريد تقاربا مع الغرب حيث كان يعتقد أن الغرب سيفعل أكثر لحل مشكلات مصر ، بدلا من الاستمرار فى التورط مع العالم العربى .

وفى يوم الخميس ٢١ يونيو ١٩٧٩ أقيمت فى قصر عابدين مراسم حلف اليمين لحكومة دكتور مصطفى خليل التى أعيد تشكيلها .

وبعد حلف اليمين منح الرئيس السادات وشاح النيل للدكتور مصطفى خليل ، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى للدكتور أسامة الباز ولى تقديرا لجهودنا فى إنجاز معاهدة السلام مع إسرائيل . وعندما ألقى مصطفى خليل كلمته لم يستطع إخفاء انفعاله . وقال : « أقسم لك يا سيادة الرئيس ، أمام الله ونفسى ، بأن أكرس نفسى لوطنى معك وخلفك » .

ماذا ينبغى أن أقول حينما يحين دورى ؟ . وقبل أن أقرر شيئا ، وجدت نفسى فى مواجهة رئيس الجمهورية الذى بادرنى بالقول : « إننى أهديك هذا الوسام لأنك أديت عملك بتفهم وجهد وبطريقة لا تبارى ، جزاك الله خيرا » .

وأجبت : « شكرا يا سيادة الرئيس على هذا الشرف . إننى أدعو الله أن يوفقنا فى إقامة سلام عادل ودائم وشامل فى المنطقة من أجل تحقيق مطامح وحقوق الشعب الفلسطينى » . إنها طريقة أخرى أنتهجها للمجادلة مع السادات حول القضية الفلسطينية . فقد صار معلوما الآن لدى الكافة بأننى أتحدث جهارا لصالح القضية الفلسطينية كلما أمكننى ذلك . واعتقد الناس بحق بأننى ملتزم عاطفيا إزاء الشعب الفلسطينى . ولكننى كإنسان واقعى ، كنت أتخذ هذا الموقف لسبب آخر أيضا : لأننى أعلم أنه إذا لم تتابع مصر مصالح الفلسطينيين فإننا سنخسر زعامتنا للعالم العربى ، كما أن السلام مع إسرائيل سيحيق به الخطر .

وعلى العشاء مع باربرا سميث مراسلة *« الايكونوميست »* ، وأول صحفية بريطانية تزور مصر بعد عدوان ١٩٥٦ ، أشارت إلى كتاب من تأليف آرثر كوستلر *« الناسك*

المؤمن باليوجا والقوميسار » . وقالت : « لقد كنت أنت رجل اليوجا ، ولكنك صرت الآن القوميسار » . هل سأتوق بعد فترة من ممارسة السلطة إلى العودة لممارسة اليوجا ؟ . وأدركت أن شيئا فى سلوكى أو فى العادات المكتسبة من عملى تدفع الناس إلى الارتياب فى أننى شخصية مجذوبة ، لعلها مفعمة بنوع من السرية والنسك والولع الصوفى – قد تكون النسخة السياسية من لوى ماسينيون . وكان أحد الصحفيين قد سألنى ما إذا كان صحيحا أننى أستشير مرشدا روحانيا . فأجبته : « لا . أنا ليس لى جورو (المرشد الروحانى فى الديانة الهندوكية) » . وكان الملك بودوان أيضا قد سألنى فى بروكسل : « ما الذى يحركك ، هل هو الدين ؟ » . وأجبته مترددا وهو ملك كاثوليكى قح : « لا يامولاى ، إنه ليس الدين ، إنه حُبّ مصر » .

وفى يوم ٢٣ يونيو التقيت بالسفراء الأفارقة المعتمدين فى القاهرة لأؤكد لهم اهتمام مصر بمؤتمر القمة الإفريقى المقرر عقده فى منروفيا بليبريا . وأكدت لهم أن الرئيس السادات سيشترك شخصيا فى المؤتمر ، وأوضحت بجلاء أن مصر تعلم أن بعض الدول العربية الأعضاء فى الجامعة ستحاول ، بالاتفاق مع بعض الأنظمة الإفريقية المتطرفة ، إقصاء مصر من منظمة الوحدة الإفريقية ، كما سبق أن فعلت فى الجامعة العربية وفى منظمة المؤتمر الإسلامى . وقلت إن مصر ستعارض هذه المحاولة بكل عنف .

وفى يوم الاثنين ٢٥ يونيو ١٩٧٩ سافر وفد مفاوضينا برئاسة مصطفى خليل إلى هرتزليا بتيواش ، وهى ضاحية فى تل أبيب تطل على البحر . وكان فندقنا ، دان أكاديا ، فى مستوى الفنادق الأوروبية الفاخرة . لم نتوقع أى تقدم فى هذه الدورة لأن روبرت شتراوس رئيس وفد الولايات المتحدة كان غائبا أيضا ، وكان واضحا أن نائبه جيمس ليونارد لم تكن لديه أى صلاحيات .

وفى وسط الجلسة ، التفت يوسف بورج نحوى متسائلا : « هل أجرى لك الختان ؟ » وأشرت بأن الرد على سؤاله هو بالإيجاب . وقلت : « ولماذا تسأل ؟ » . فقال : « لأنك بعقليتك وبعضوك الذكرى ، واحد منا من الناحيتين ! » .

وكانت مباحثات دان أكاديا تشبه مشهدا من مسرحية بيرانديللو « *ست شخصيات تبحث عن مؤلف* » . الجميع يؤدون أدوارهم فى رواية بلا سيناريو . فالغرض من المسرحية هو كسب الوقت وإخفاء الحقيقة المؤلمة ، وهى أنه لا توجد نية لحل المشكلة الفلسطينية . ولم يقتصر الأمر على غياب روبرت شتراوس ، مما يشير إلى أن الاجتماعات ليست لها أولوية لدى الأمريكيين ، ولكن اثنين من أبطال الفصل الأول كانا قد انسحبا .

فديان يقيم فى مستشفى بعد عملية جراحية ، وعزرا وايزمان ترك الوفد الإسرائيلى لأسباب غير معروفة . وعرفت أخيرا أن وايزمان لم يكن يود القيام بدور فى هذه المسرحية الهزلية .

وانتهت الجلسة فى الواحدة بعد الظهر ، وتناولت الغداء مع مصطفى خليل ويوسف بورج على مائدة فى ركن هادىء ومنعزل بالفندق . وكنت أرجو أن نتمكن من إعداد سيناريو ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بالطبع . لم يكن للمأكولات طعم . فالإسرائيليون يتمتعون بشهرة عالمية فى الموسيقى والمال والعلوم والبراعة العسكرية ، ولكنهم فاشلون فى فن الطهى .

وبعد الغداء طلبت من الإسرائيليين أن يسمحوا لى بزيارة ديان فى المستشفى حيث تم استئصال ورم خبيث فى قولونه . وصحبتنى سيارتا أمن من هرتزليا بتيواش إلى المستشفى العسكرى ذى الدور الواحد فى تل أبيب . وقد فوجئت بمجموعة من الصحفيين والمصورين يتدافعون لتغطية زيارتى لديان فى غرفته بالمستشفى .

وبدا ديان ضعيفا ومتعبا وقد احتبس صوته بسبب الأنابيب فى حلقه . كان لقاؤنا وديا ودافئا . ووسط هذا الجمع داخل الغرفة ، صافحنى أحد حراس ديان وشد على يدى بقوة وهو يلقى علىّ التحية . وتعرفت عليه . فهو نفس الحارس الذى كان مكلفا بحمايتى أثناء زيارة السادات للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ .

وأحسست بمحبة غريبة نحو ديان المريض . فقد رأيت فى شخصينا صورة المصارعين اللذين نازل كل منهما الآخر بشراسة وعانى كل منهما بشدة من الآخر . وغريمى طريح الآن . ولو كان قد سقط بيدى لكنت فى قمة الابتهاج . ولكنه وقع فريسة المرض ، وشعرت نحوه بتضامن المقاتل مع الآخر .

وفى جلسة بعد الظهر فى فندق دان أكاديا ، أثار الوفد المصرى مرة أخرى مشكلة المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة وحق تقرير المصير للفلسطينيين ، بينما ظل الوفد الأمريكى كعادته جالسا فى صمت .

وفى ختام ذلك اليوم اقترح بورج أن نقوم بجولة ليلية فى تل أبيب . ومشينا فى المدينة محاطين بالحراس المصريين والإسرائيليين والأمريكيين . وذكرتنى تل أبيب بالمدن الواقعة فى جنوب فرنسا أو فى الجزائر . وكان بورج يقود الجولة بسعادة بالغة . وكانت جموع الناس تصفق مرحبة بالوفد المصرى .

وسألت بورج : « هل هذه الجولة جزء من حملتك الانتخابية ؟ » . فرد قائلا : « أنا لست فى حاجة إلى مظاهرات كهذه لدعم شعبيتى . إن هدفى هو إتاحة الفرصة لكم لرؤية تل أبيب فى الليل ، بعد أن سمعتكم تشكون أكثر من مرة من أنكم لا ترون من إسرائيل سوى المطار والفندق وقاعة الاجتماعات » . وكان بورج وزملاؤه فخورين للغاية بما لدى إسرائيل من غنى وقوة وبريق ، معتقدين بأن ذلك سوف يبهرنى ، غير أن ذلك لم يحدث . وبالرغم من إنكاره ، فقد كان بورج يستعرض شعبيته ومنصبه الكبير ، واستمتع بالجولة بل كان أكثر تأثرا بها منا .

وانتهى العرض الأخير من مسرحية هرتزليا دون التوصل إلى شىء نافع أو ذى قيمة ، بالرغم من أنها استغرقت ساعات كثيرة ومناقشات حامية لصياغة بيان . كان الغرض الوحيد لهذا العرض هو إقناع إجهزة الإعلام بأن شيئا قد حدث .

وعدنا إلى القاهرة فى يوم أول يوليو ، واستقبلت هنرى كيسنجر فى مكتبى . وراعنى صوته الذى يفرض نفسه ولكنته . جلسنا جنبا إلى جنب على الأريكة وتحدثنا فى مودة . وقال لى كيسنجر إن الخطأ الذى ارتكبه حين كان يبحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط يكمن فى أنه بعد إنجاز اتفاقيات فض الاشتباك بين سوريا وإسرائيل وبين مصر وإسرائيل ، تغاضى عن التركيز على إنجاز اتفاقية بين الأردن وإسرائيل .

وقال كيسنجر : إن تحقيق الانسحاب ، حتى لو كان جزئيا أو رمزيا ، من الضفة الغربية فى ذلك الحين كان من شأنه إرساء سابقة مهمة ، علاوة على إضعاف ادعاءات إسرائيل فى الضفة الغربية . ولكن اللوم يقع على الفلسطينيين وغيرهم من العرب فى هذا الفشل ، لتخوفهم من سيادة الأردن على الضفة الغربية . وبينما كان كيسنجر يتحدث عدت بذاكرتى إلى السنوات الأولى من حياتى ، حينما كنت من أنصار الوحدة الفيدرالية العربية اتطلع إلى اتحاد فيدرالى عربى يضم الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان . إذ كنت أعتقد أن مثل هذا الكيان يمكن أن يكون خطوة نحو إقامة دولة عربية كبرى . كنت أفكر فى دور بسمارك فى خلق الوحدة الألمانية فى أواخر القرن التاسع عشر . كانت الوحدة حلما مشتركا للطلبة العرب الذين تشربوا روحها من الدراسة فى أوروبا .

ولكن الواقع عرقل أحلامى على الدوام . وثارت مشكلة جديدة . ماذا لو اعترضت الأمم المتحدة على المعاهدة المصرية الإسرائيلية ورفضت وضع قواتها من ذوى الخوذات الزرقاء فى سيناء ؟ . إنها ستكون صدمة ، وعلينا أن نستعد لذلك . والتقيت مع الدكتور عصمت عبد المجيد مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة فى نيويورك لدراسة الموقف .

فلو استخدم الاتحاد السوفيتى حق النقض (الفيتو) فإن مجلس الأمن لن يتمكن من توفير قوات حفظ السلام فى سيناء .

وأصدرت بيانا صحفيا قلت فيه إنه فى حالة عدم قبول مجلس الأمن تجديد فترة قوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة ، وهى القوة الدولية فى سيناء ، فإن مصر ستسعى لإنشاء قوة دولية لا تتبع الأمم المتحدة من دول محايدة مثل النمسا والسويد وسويسرا أو الدول الإفريقية لتحل مكان قوات الأمم المتحدة .

كان بوب شتراوس رئيس الوفد الأمريكى سيدا مهيبا ، مرحا وله شخصية قوية . وكان تركيبه الكيميائى جيدا لنا جميعا ، لكنه لم يكن فعالا فى شئون الدبلوماسية . كان سياسيا حقيقيا ، وبفضل ذلك استطاع أن يتشرب بروح رئيسه جيمى كارتر . ولكن كارتر لم يعد نشيطا حينذاك ، كما كان فى كامب ديفيد . لقد وجه له الإسرائيليون صفعة خطيرة بمواصلة بناء المستوطنات فى الأراضى المحتلة ، وبدا أقل رغبة فى التعامل معهم . كما كانت إيران وهى فى مخاض الثورة ، الشغل الشاغل للإدارة الأمريكية .

وباستبدال شتراوس بصول لينوفيتش ، المحامى النشيط الذى تفاوض بنجاح لإنجاز معاهدة قناة بنما ، أصبح الوفد الأمريكى أكثر اتقادا وأكثر نشاطا . ولكن كارتر لم يتغير وبات الوفد الأمريكى يفتقر إلى التوجيه الواضح . وشجع نشاط لينوفيتش رجال الصحافة على الاعتقاد بأن تقدما يحدث فى حين أن شيئا من هذا لم يحدث فى الواقع . كان شغوفا بالتصريح بأن ٨٠ فى المائة من محادثات الحكم الذاتى قد استكملت . وقد يكون ذلك صحيحا ، ولكن الـ ٢٠ فى المائة الأخرى هى لب القضية .

وكان شتراوس ولينوفيتش كلاهما يهوديين ، ولقيت هذه الحقيقة ترحيب السادات . كان يشعر بأنهما أفضل من غير اليهود للحصول على تنازلات لصالح الفلسطينيين ، علاوة على تهدئة المعارضة لعملية السلام من جانب اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة (آيباك) ، ذلك اللوبى اليهودى القوى فى واشنطن . كما شعر السادات بأنهما ، إدراكا منهما برابطتهما مع إسرائيل ، « سيميلان إلى الاتجاه المضاد » ليصبحا منصفين لمصر .

ولكن اختيار الأمريكيين اليهود لرئاسة مفاوضى الولايات المتحدة أثار كراهية الرافضين العرب الذين كانوا يسموننا « أدوات الإمبريالية الصهيونية » . وبدا أن كل أسباب انزعاج العالم العربى لا تنصبّ على المعاهدة المصرية الإسرائيلية ، التى تعنى إعادة الأرض العربية من إسرائيل ، وإنما كان يخشى أن يكون وراء المعاهدة حلف خفى بين إسرائيل ومصر بمساندة الولايات المتحدة ، تصبح مصر بمقتضاه الزعيمة السياسية ،

وإسرائيل الزعيمة التكنولوجية ، والولايات المتحدة السند المالى ، وبذلك يستطيع هذا الثالوث السيطرة على الشرق الأوسط ، فضلا عن أن القوة العسكرية لمصر وإسرائيل معا أكبر من أى تجمع عربى قادر على مجرد التفكير فى المواجهة . لم يكن هناك أى ظل للحقيقة فى هذا الادعاء ، بل هو مثال آخر على النزعة العربية للبحث عن مؤامرة لتفسير الأحداث . فالأمر يتطلب وقتا طويلا لكى يؤمن الإسرائيليون بأن مصر تريد السلام حقا ، كما يتطلب وقتا طويلا لكى يؤمن العرب بأن مصر لم تكن تريد خيانتهم .

الفصل التاسع

صراعات فى منروفيا وهافانا

منروفيا

فى يوم الأربعاء ، ٤ يوليو ١٩٧٩ ، سافرت لحضور مؤتمر القمة الإفريقى فى منروفيا . وكنت أتوقع الأسوأ . فسوف تتعرض فيه مصر لضغوط شديدة من الراديكاليين ويمكن أن تطرد من منظمة الوحدة الإفريقية . وكنت قد أعددت نفسى لمواجهة دبلوماسية .

وفى مطار روبرت فيلد ، وجدت صديقى سيسيل دنيس ، وزير خارجية ليبريا ينتظرنى للترحيب بى فى المطار ، ويرافقنى فى الرحلة من المطار إلى المدينة التى تستغرق ساعة . وقال لى سيسيل إن لديه تعليمات من الرئيس الليبرى وليام تولبرت بتأييد مصر ضد محاولات الرافضين العرب الرامية إلى إلغاء عضوية مصر فى منظمة الوحدة الإفريقية .

وأبلغت سيسيل أننى سأسبق معركة المؤتمر بإعلان ضرورة أن يمثل الجامعة العربية فى منروفيا وفد من مقرها بالقاهرة ، وليس من الذين غادروا القاهرة من أجل إنشاء مقر للجامعة العربية فى تونس . وكانت الدول التى لا تزال ممثلة فى القاهرة هى الصومال ، والسودان ، وعُمان ؛ وهى تشكل بالإضافة إلى مصر ضعف سكان جميع الدول العربية التى انتقلت إلى تونس . وحثنى سيسيل على أن أتخلى عن هذه الفكرة . فقد كان يعتقد أن

السودان والصومال لن يسايرانى فى ذلك . وقال إنه يمكن الاعتماد عليهما فى رفض *إدانة* مصر ، وليس *الدفاع* عنها .

وأنصت إلى كلام سيسيل دنيس بكل الاعتبار ؛ فبالرغم من شبابه فقد كان من أكثر وزراء خارجية إفريقيا خبرة وحذقا . غير أننى لم أتعهد بالأخذ بمشورته . لقد كان أملى ، كما قلت له ، أن يظل مؤتمر القمة الإفريقى محايدا فى هذا النزاع بين الجامعة العربية الموجودة بحكم *القانون* فى القاهرة ، والجامعة العربية الموجودة بحكم *الواقع* فى تونس .

ورد سيسيل دنيس قائلا إنه عندما تصبح المقارنة بين تونس والقاهرة ، سنجد أن مصر متفوقة عدديا . وأضاف أنه فى منروفيا ، ستكون هناك مسألة واحدة : الخلاف حول عضوية مصر فى منظمة الوحدة الإفريقية .

وقد أقنعنى بذلك . وبعثت ببرقية إلى القاهرة أقول فيها إنه ينبغى ألاّ يسافر محمد رياض إلى منروفيا باعتباره ممثلاً للجامعة العربية ، لأن إمكانية اعتراف المؤتمر به على أساس هذا الوضع ، ضئيلة . غير أننى لم أكشف عن ذلك لسيسيل دنيس . كان علىّ أن أنتظر يوما أو يومين ، كيما يؤخذ التغيير فى موقفى على أنه تنازل من الوفد المصرى بغرض إنجاح المؤتمر .

كانت الأمطار تتساقط بغزارة . وكانت السيارة تشق الطريق ببطء وبصعوبة إلى فندق انتركونتيننتال ، الذى يقع على تل فوق مدينة منروفيا . وقد حُجِزت لإقامتى غرفة صغيرة بدلا من جناح فى الفندق . ولم يضايقنى هذا الأمر شخصيا ، غير أنه سيجعل من الصعب عقد اجتماعات فى هذه الغرفة مع وفد بلدى أو مع الوزراء الآخرين .

كانت الحرارة شديدة ، والرطوبة عالية ، وتكييف الهواء ضعيفا . ولم أستطع مقاومة المقارنة بين فخامة فندق انتركونتيننتال فى جنيف وبين عيوب هذا الفندق فى منروفيا ؛ بين الثراء الذى تتميز به المدينة السويسرية والفقر والتخلّف فى العاصمة الليبرية . كانت الفجوة بين الشمال والجنوب هائلة . وذكرنى هذا الوضع بأن الصراع بين الشرق والغرب سوف يحل فى يوم ما ، إلا أن حلّ الصراع بين الشمال والجنوب قد يتطلب أجيالا من العمل المضنى والإبداع السياسى ، والكرم . لأنه إذا كان من الصعب على إنسان غنى أن يعطى إنسانا فقيراً ، فإنه من الأصعب على دولة غنية أن تفعل ذلك . ولقد راودتنى آية فى الإنجيل تقول إن مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات ، إن أولئك الذين يعيشون فى البلدان الغنية فى الشمال لم يعرفوا الجِمال مباشرة كما عرفناها . ولم

يفهموا المعنى الذى ترمز إليه آية الإنجيل . إن الصعوبة ليست مسألة حجم فقط ، بل أيضاً مسألة موقف .

كانت الأمطار تسقط دون توقف . واستقبلت فى غرفتى إيديم كودجو الأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية . وقال لى إنه سيكون هناك هجوم عام على مصر وسياساتها تتزعمه الدول العربية ومجموعة من الدول الإفريقية الراديكالية . وأشار علىّ هو أيضاً بأن مسألة ما إذا كانت تونس أو القاهرة هى مقر الجامعة العربية قد تم حلها وإن مصر قد خسرت . وأضاف أن محاولة الحيلولة دون الاعتراف بوفد الجامعة العربية فى تونس كممثل للجامعة العربية لدى مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية ، ستكون عديمة الجدوى .

وتناولت العشاء فى تلك الليلة بمنزل عادل خير الدين سفير مصر فى منروفيا ، الذى كان واحدا من طلابى فى جامعة القاهرة منذ ثلاثين عاماً مضت . وكان يأمل أن تؤدى علاقتنا الشخصية إلى توليه منصب فى أوروبا . وبأسلوب يتسم بالحذق والتلميح ، استغل كل مناسبة لكى يبين لى مدى صعوبة الحياة فى ليبريا ، وقال إنه إذا لم يُنقل فإنه من الممكن أن يمضى بقية حياته فى هذا المكان الموحش . وبالرغم من شكاواه التى لم تنقطع أبدا ، كان الجو فى العشاء مبهجا ، وساعدت على ذلك عدة دورات من المشروبات ، لأن الحياة فى ليبريا بدون قليل من الشراب لا تحتمل .

وبناء على طلب البروتوكول الليبيرى ، ذهبت إلى قصر رئاسة الجمهورية قبل الساعة التاسعة من صباح يوم ٦ يوليو . وانتظرت مقابلة الرئيس تولبرت لى ثلاث ساعات ، ولم يدم اجتماعنا أكثر من خمس دقائق . فتلك هى الطريقة التى يتبعها زعماء دول العالم الثالث ، والقصد هو إقناع الزوار بأهميتهم . وقد احتفظ تولبرت ، وهو قسيس بروتستانتى ، بأسلوب رجال الكهنوت . فعندما يستقبل زوارا ، يصبح شبيها بالواعظ الذى يمنح بركاته .

وانعقد مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية فى قاعة جديدة . وافتتح الرئيس تولبرت الجلسة العامة بكلمة دعا فيها إفريقيا إلى تقوية وتشجيع الاتجاهات البناءة التى ظهرت فى الشرق الأوسط . وكانت هذه الكلمة خطوة إيجابية بالنسبة لمصر . فلقد كان تولبرت يقدم المشورة للمترددين ويحذر المولعين بالخصام . وكان يقصد أنه ينبغى مساندة مصر وليس إدانتها . وكانت هذه بداية طيبة بالنسبة لنا .

وانتهج وزير خارجية نيجيريا معى مسلك الشقيق الأكبر الذى يدافع عن شقيقه الأصغر ويقدم إليه المشورة والتوجيه . قال لى : « بطرس ، لا تخف . لا يمكن إخراج مصر من منظمة الوحدة الإفريقية . ولسوف أدافع عن موقفكم » . وأجبت ضاحكا :

« ما دام شقيقى يقف إلى جوارى ويساندنى ، فلن يخيفنى شىء » . وابتسم الدبلوماسى النيجيرى ، وطلب مزيدا من مشروب البيرة لنا . غير أنه كانت هناك مخاوف جادة ؛ فقد أخرجت مصر من قبل من منظمتين دوليتين كبيرتين ، وكنت أخشى أن تنقلب علينا حتى الأمم المتحدة ذاتها .

وفى المساء ، حضرت حفل العشاء الذى أقيم لوزراء الخارجية الأفارقة . وبعد العشاء ، عزفت فرقة موسيقية ألحانا راقصة ، وسرعان ما امتلأت ساحة الرقص . وطلبت إلى مدام أولجا وكيلة وزارة الخارجية الأنجولية ، وهى شيوعية جميلة ، أن ترقص معى ، ووجدت نفسى وسط مجموعة من الدبلوماسيين الذين كانوا يرقصون بحماس وسعادة . إن الرقص متطلب أساسى فى العمل الدبلوماسى .

وفى اليوم التالى ، أبلغنى عادل خير الدين أنه تلقى رسالة عاجلة من القائم بالأعمال الأمريكى فى منروفيا يطلب فيها مقابلتى بشأن أمر مهم . وفى مقر إقامة خير الدين ، جاءنى الدبلوماسى الأمريكى برسالة من سايروس فانس تقول إن هناك احتمالا قويا بألاّ تكون هناك قوة لحفظ السلام تابعة للأمم المتحدة فى سيناء ، وإن الأمم المتحدة لن تصادق على معاهدة السلام .

وعدت إلى الفندق الذى أقيم فيه وطلبت من موظف الفندق ألاّ يزعجنى بالمكالمات الهاتفية . وأخذت حبّة دواء منوّمة . غير أنه بعد بضع دقائق فقط أيقظنى رنين الهاتف ، كان المتكلم هو وزير خارجية تشاد ، الذى قال إنه محبوس فى بيت الضيافة الخاص به وطلب منى مساعدته على الخروج منه . فلم تكن ليبريا تعترف بحكومة تشاد ولا تريد اشتراكها فى المؤتمر . وخلافا للقواعد الدبلوماسية ، حددوا إقامته فى المنزل . وحاولت تهدئته ووعدته بإثارة هذه المسألة فى الصباح مع سيسيل دنيس ، الذى كان يتولى ، باعتباره وزيرا لخارجية البلد المضيف ، رئاسة المجلس الوزارى لمنظمة الوحدة الإفريقية .

ولم أكد أرجع لأنام حتى رن جرس الهاتف مرة أخرى . كانت على الخط التليفونى سيدة مصرية صحفية أعرفها جيدا . كانت تتحدث إلىّ من مطار منروفيا حيث هبطت إلى أرض المطار قبل ساعة ولم تجد من يستقبلها . وقبل ذلك بسنوات ، وفى حالة مماثلة ، كانت قد استنجدت بى ، قائلة : « إن الوزارة لن تهتم برعايتى لأننى قبيحة الشكل جدا » . وحينذاك قبّلتها وقلت لها إنها جميلة جدا ، واتخذت التدابير لتساعدها الوزارة . وبعد ذلك ، وعندما رفضت إجراء مقابلة صحفية معها ، صرخت وهى تنوح وقالت إننى لن أتحدث معها لأنها غير جذابة تماما . ولنت ، ووافقت على إجراء مقابلة صحفية معها . والآن ،

وفى منتصف الليل ، تطلب منى مرة أخرى مساعدتها . وأبلغتها أن تستقل سيارة أجرة من المطار إلى الفندق .

واتصلت بعامل التليفون وشكوت بعبارات غير ديبلوماسية من جراء المكالمات الهاتفية . كان العامل الذى تلقى تعليماتى قد أنهى نوبة عمله ولم ينقل طلبى إلى من حل محله . وإذ أيقنت أننى سأحظى الآن بالراحة التى أحتاجها ، فقد رجعت للنوم مرة أخرى .

وفى يوم الاثنين ، ٩ يوليو ، اتجهت من الفندق إلى مقر المؤتمر . واستغرقت الرحلة ٤٠ دقيقة ، وذلك بالرغم من الموكب المرافق بالدراجات البخارية والجهود التى بذلتها سلطات حركة المرور التى كانت تخلى الطريق لركب رؤساء الوفود للسير قدما .

وكان يجلس إلى خلفنا فى القاعة ، وفد منظمة التحرير الفلسطينية . وقد رفض الفلسطينيون أن يتبادلوا التحية معى أو حتى التحدث إلىّ .

وكان السفير المصرى أبو بكر عبد الغفار قد حاول ترتيب اجتماع سرى بينى وبين رئيس وفد منظمة التحرير الفلسطينية ، غير أن المندوب الفلسطينى رفض ذلك قائلا : « لا أستطيع أن أصافح اليد التى صافحت موشى ديان ؛ ولا أستطيع الدخول فى مناقشات مع أى شخص ذهب إلى القدس مع السادات ! » .

كان يوم الأربعاء الموافق ١١ يوليو ١٩٧٩ ، من الأيام التى لا أنساها مادمت حيا . فطوال عشر ساعات ، تعرضت لهجمات شرسة ، وإهانات ، وسباب من جانب الدول العربية الرافضة والدول الإفريقية الراديكالية . وكانت هجماتها تدور حول ثلاث نقاط ، هى : أن مصر أبرمت سلاما منفصلا مع إسرائيل ؛ وأن مصر تتفاوض باسم الشعب الفلسطينى دون تفويض من منظمة التحرير الفلسطينية ؛ وأن تحالفا إمبرياليا قد أقيم بين بريتوريا ، تل أبيب ، والقاهرة .

ومع ذلك ، كنت مصمما على ألاّ تُطرد مصر من موقعها التاريخى بين صفوف الأمم الإفريقية ، التى تربطنا بها روابط وثيقة وقديمة . وقررت أن أركز على دولة واحدة فقط ، الجزائر ، لأسباب مختلفة . أولها ، أن رئيس الوفد الجزائرى الدكتور البجاوى ، هو ممن يتكلمون الفرنسية ببلاغة وقوة ، وسوف يصبح فى وقت لاحق رئيسا لمحكمة العدل الدولية . وثانيها ، أن الجزائر كانت من بين أشد الدول فعالية ونفوذا فى العالم العربى ، والإفريقى ، والثالث . وآخر هذه الأسباب أن قصر المبارزة الكلامية على مصر والجزائر يمكن أن يجعل الدول الإفريقية تدرك أن المسألة ليست سوى نزاع عربى ، نزاع لا ينبغى اتخاذ قرار بشأنه فى مؤتمر إفريقى .

وقررت ألا أتكلم باللغة العربية ، لأن المترجمين كانوا معينين من قبل الدول الرافضة ، وبدأت باللغة الفرنسية بقولى : « لقد استمعت إلى ممثل الجزائر وهو يندب مصر ، ويعزّيها ، ويذرف الدمع عليها . ولكننى أود أن أقول له إن مصر لم تمت . بل إنها حيّة وقوية بشعبها ، ومبادئها ، وشجاعتها ، وسوف تواصل مسيرتها على طريق السلام بالرغم من الرافضين وصيحاتهم الحقودة » .

وقلت : « إن الجزائر تريد محاربة إسرائيل حتى آخر جندى مصرى » . وأضفت « إن حماس الأشقاء الجزائريين للمسألة الفلسطينية يتناسب مع المسافة التى تفصل الجزائر عن إسرائيل » . وأوضحت قائلا إنه كلما ابتعدت المسافة زادت الحماسة . ورددت عبارات أخرى لاذعة ، جعلت عددا من الوفود الإفريقية تبتسم ، أو حتى تضحك على حساب زميلى العربى .

ودعوت المؤتمر ألا يصدر حكما متعجلا . إننا قد بدأنا لتوّنا السير على طريق السلام . وقلت إن مصر قد اتفقت مع الفلسطينيين على الهدف المنشود ؛ والاختلاف هو أن الفلسطينيين يستخدمون النضال المسلح ، فى حين تستخدم مصر النضال الدبلوماسى . إن الطريقين يكمل أحدهما الآخر .

وأعلنت فى إصرار أن مصر لم تخن القضية العربية . إن أولئك الذين غدروا بالقضية هم أولئك الذين يعملون على عزل مصر فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى التضامن من أجل دعم موقفنا التفاوضى .

وبينما كانت المبارزة الكلامية مستمرة بينى وبين البجاوى ، لاحظت أنه يشير إلى الرئيس السادات بكلمة « السادات » . وأثرت نقطة نظام ، وطلبت من رئيس المؤتمر الإذن بالتدخل . وقلت : « إن هناك تقاليد إفريقية لابد من اتباعها فى هذه المنظمة . إذ لا يسمح لوزير خارجية أن يتكلم عن رئيس دولة بهذه الطريقة . ولابد لنا جميعا أن نحترم شخص كل رئيس دولة مهما كانت خلافاتنا » .

والواقع أن ذلك كان فيه تحامل . فكلمات البجاوى لم تكن غير لائقة فعلا ؛ ولكننى تلقفتها كمبرر لى . غير أننى عندما اعترضت عليه ، فقد توازنه . وصاح فى صوت حاد ، قائلا : « إننى لا أهاجم شخص رئيس الجمهورية المصرى ! إن قول « السادات » لا يقصد به أن يكون إهانة ! » . بيد أن رئيس المؤتمر ، الذى كان يتكلم مع شخص آخر ولم يستمع إلى البجاوى ، أعلن فى غضب أنه يتفق تماماً معى ، وطالب بامتثال جميع الأعضاء لقواعد ومبادىء منظمة الوحدة الإفريقية .

واستشاط صديقى البجاوى غضبا . وجدد استنكاره للسياسة المصرية ، غير أن انفعاله أضعف هجومه . وتسبب التكتيك الذى اتبعته فى اهتياج هذا الصوت العربى واختلاط الأمر عليه ، إلا أنه لم يردع الهجوم المشترك الذى تعرضت له مصر من تونس ، ليبيا ، ومنظمة التحرير الفلسطينية - ومن بين الدول الإفريقية ، أنجولا ، موزمبيق ، والكونغو .

ولعل ما أثار قلقى بقدر أكبر ، هو أن صوتا واحدا لم يرتفع دفاعاً عن مصر . فقد كان كل هجوم يشجع الآخرين ، لدرجة أن بعض الدول البعيدة تماما عن المشكلة ، مثل مالى وبنن ، قد تدخلت ، وحاول وزراء خارجيتها أن يعلّمونى كيف أحسن السلوك ، وإلى أى مدى يجب على مصر أن تؤيد الفلسطينيين .

ومع خروج البجاوى ممثل الجزائر عن صوابه ، أخذت منظمة التحرير الفلسطينية حينذاك زمام المبادرة فى إدانة مصر ، غير أن العرض كان ضعيفا . فقد تكلم مندوب منظمة التحرير الفلسطينية باللغة العربية ، وضاع قدر كبير مما قاله أثناء عملية الترجمة . ولو كانت الإدانة الفلسطينية أكثر إحكاما ، لربما كان عدد أكبر من الدول الإفريقية قد ندد بمصر .

وكان ضباط الأمن المصريون الذين يرافقوننى يتابعون هذه المعركة بحماس مشوب بالجزع ، كما لو كانت مباراة فى كرة القدم . وقد تملكتهم الدهشة من مدى الهجوم واللغة غير الدبلوماسية التى يسمعونها . وكان يحزّ فى نفوسهم ألا تنهض دولة واحدة للدفاع عن مصر أو الرئيس السادات ، أو معاهدة السلام .

ورجعت إلى الفندق بعد منتصف الليل منهوك القوى ، وإن كنت فخورا لوقوفى بمفردى متصديا لعشرين دولة لفترة امتدت عشر ساعات دون أن أفقد هدوئى مرة واحدة ، أو على الأقل أكثر من مرة واحدة ، وذلك بالرغم من ضراوة الهجمات والعبارات الجارحة . والواقع ، إننى لا أستطيع القول على وجه التأكيد إنه فى إحدى المناسبات التى تملكنى فيها الغضب ، كان هياجى الشخصى حقيقيا ، أو سلاحا تستلزمه المناقشة .

وفى الصباح لم أتوجه إلى قاعة المؤتمر بل طلبت من السفير أحمد توفيق خليل أن يتولى رئاسة الوفد فى غيابى .

وعوضا عن ذلك ، قمت بزيارة العديد من وزراء الخارجية فى أجنحتهم بالفندق ، غير أننى سرعان ما أدركت أنهم غير مستعدين لأن يقدموا لمصر أى مساعدة فى المعركة الدبلوماسية .

وأخيرا ، اتجهت إلى رشيد الطاهر ، وزير خارجية السودان ، وقلت له : « أين كان وفد السودان الشقيق أمس ، عندما كانت مصر تواجه هجوما ، وافتراءات ، واتهامات زائفة ! وكيف يمكن لوزير الخارجية السودانى ألا يبادر بالدفاع عن مصر إزاء الاتهامات الموجهة من نحو ٢٠ دولة إفريقية وعربية ضدنا ؟ كيف يمكن لرشيد الطاهر أن يقبل هذا الهجوم ويظل صامتا ؟ إننى لأخجل من امتناع وفدكم عن القيام بأى شىء لتأييدنا . إن رجال الأمن المصريين والديبلوماسيين المصريين الشباب يريدون معرفة سبب هذا الصمت . فهل التضامن المصرى / السودانى هو طريق ذو اتجاه واحد ؟ » . ولم يبد رشيد الطاهر أى استجابة ، كما لو كان لم يسمعنى . وغادرت المكان .

وبعد المعركة الديبلوماسية ، جاءت معركة الغرف ، والتى كانت تحدث فى كل مرة يحضر فيها الرئيس السادات مؤتمرا . ذلك أن وفد رئيس الجمهورية يتضمن العشرات من المساعدين ، ومساعدى المساعدين ، ورجال الأمن ، ومسئولى البروتوكول ، وآخرين . وفى حين كان عدد الغرف فى الفندق محدودا ، لم يكن عدد أعضاء الوفد هكذا . ولذلك ، فقد طلب إلى المندوبين الموجودين من قبل فى منروفيا الانتقال إلى فنادق أخرى أو أن يتقاسموا غرفهم مع آخرين من أجل إيواء وفد الرئاسة المتقدم . والأسوأ من ذلك حتى ، أن بعض أعضاء الوفد قد تم نفيهم فى كبائن بسفينة قديمة كانت راسية فى الميناء وتنفع كمهجع للنوم . وكان صراع شرس قد حدث فى السنة الماضية فى فندق هيلتون الخرطوم . وتفاديا لتكرار ذلك ، كلفت السفير أحمد توفيق خليل بالإشراف على تخصيص الغرف وتسوية هذه الأزمات التى كانت على وشك الانفجار بين وزارة الخارجية المصرية ورئاسة الجمهورية المصرية .

ولم يحقق بحثى عن المساندة بين رؤساء الوفود شيئا ، ولذلك فقد قررت أن أتكلم بشأن كل بند مدرج فى جدول أعمال المؤتمر ، وذلك بغية إظهار أن وجود مصر لا يرتبط بمصالحها وحدها ، بل إن مصر زعيمة بين الأمم ، وأن لديها القوة الكافية لأن تُعنى فى هذه اللحظة ليس فقط بأزمة الشرق الأوسط بل أيضا بالمسائل الإفريقية . وقد أوضحت المرة تلو المرة أن مصر من جميع الوجوه دولة إفريقية بقدر ما هى دولة عربية .

وفى الجلسة الصباحية ، تكلمت عن التكامل الاقتصادى المصرى / السودانى . وتوقعت أن يتكلم وزير خارجية السودان بدوره ويؤيد ما قلت . غير أنه التزم الصمت . ويتعين علىّ أن أعترف بأن التكامل بين مصر والسودان كان مجرد وهم ونادرا ما كان يجده أى بلد منهما مفيدا ، ولم تكن تسانده إرادة سياسية فى أى من البلدين .

وبعد الظهر عقدت مؤتمرا صحفيا فى الفندق للصحفيين من جميع أنحاء العالم . وسألنى أحدهم ما إذا كان سفير مصر فى تركيا كمال عُلَما ، صديقا لى . وجدت أن هذا السؤال غريبا إلى أن علمت أن الإرهابيين الفلسطينيين قد استولوا على سفارتنا فى أنقرة واحتجزوا السفير كرهينة . وبعثت ببرقية عاجلة إلى القاهرة للتعرف على الحالة .

وفى المساء ، شاركت فى حفل العشاء الذى أقامه سيمون آكى وزير خارجية كوت ديفوار . وكان حاضرا أيضا محمد بن يحيى وزير خارجية الجزائر ، ومحمد بوسته وزير خارجية المغرب ، وباولو جورج وزير خارجية أنجولا ، ورشيد الطاهر وزير خارجية السودان . وكان جو الحفل وديا ، فقد كان المؤتمر شيئا وحفل العشاء شيئا آخر .

وقد استمرت جلسة السبت ، ١٤ يوليو ، طوال النهار وامتدت إلى ما بعد منتصف الليل . وعندما كنت عائدا إلى الفندق ، كانت الأمطار تسقط بغزارة لدرجة أن سائقى اضطر إلى القيادة ببطء شديد وكانت الرحلة طويلة ممضة . وعندما وصلت إلى غرفتى ، وجدت برقية من مصطفى خليل : إن تقارير المخابرات تبعث على القلق بشأن سلامة السادات فى منروفيا . فهل اعتبر وجود الرئيس ضروريا ؟ وقد صيغت هذه الرسالة كيما تشجعنى على الرد بإلغاء حضور السادات لمؤتمر القمة الإفريقى . وبدلا من ذلك ، أرسلت برقية تقول : « بدون وجود السادات ، قد نفقد كل شىء هنا فى منروفيا ، وقد تُطرد مصر من منظمة الوحدة الإفريقية » . وقال السادات : « كنت أعرف أن بطرس سيفعل ذلك ! » . والتزم بجدول زيارته . وقد أرسلت حمولات أربع طائرات من المظليين المصريين إلى ليبريا قبل وصول السادات . وكانت قد ترددت شائعات بأن فريقا من الفدائيين الفلسطينيين موجود فى منروفيا لقتل السادات . وكانت هذه الشائعة منتشرة إلى حد كبير لدرجة أن قرينته وابنته أصرتا على السفر مع الرئيس إلى منروفيا .

وفى يوم الأحد ، وصلت طليعة الفريق المصاحب للرئيس . ولم تكن هناك غرف فى فندق إنتركونتيننتال لإيواء رجال الأمن والإداريين العديدين . وقد اعترت الليبريين الدهشة لقرار مصر إرسال فريق من قوات الصاعقة المجهزين تماما إلى منروفيا ، ويقيمون فى مبنى السفارة المصرية . وواجه السفير عادل خير الدين صفوفا من الأسرّة النقّالى أقيمت فى مقر السفارة .

وبعد ظهر الاثنين ، هبط بالطائرة ثمانون من رجال الصاعقة فى مطار روبرت فيلد . وبعد فترة قصيرة ، وصلت طائرة السادات . وإضافة إلى قرينته وابنته ، كان يصاحبه عرّافه ، حسن التهامى ، والذى كان يعتقد بإخلاص أن وجوده سيحمى السادات من الخطر .

فهل كان السادات يعتقد بذلك ؟ ربما ، وربما لا ، ولكن لماذا لا يأخذ حيطته بإحضار التهامى معه ؟ غير أن آخرين عديدين ممن يصاحبون السادات عادة لم يعثر لهم على أثر .

وحالما تمت احتفالات الاستقبال الرسمى ، وعزف السلام الجمهورى ، واستعراض حرس الشرف ، نشب نزاع حامى بين حاشية الرئيس حول ما إذا كان السادات يتجه إلى استراحته بالطائرة المروحية التى كانت قد نقلت خصيصا له من القاهرة لهذا الغرض ، أو بواسطة عربة مصفحة استقدمت من مصر أيضا . وقد تدخلت مقترحا على الرئيس أن يستخدم العربة لأن الظلام كان قد بدأ يغطى المدينة ، وربما يكون الطيارون المصريون لا يألفون المنطقة التى تهبط فيها الطائرة - ومن حسن الطالع أن رأيى قد أقنعهم .

وفى ساعة مبكرة من صباح الثلاثاء فى المدينة الخاصة برؤساء الدول ، والتى كانت قد شيّدت بالقرب من الشاطىء خصيصاً لهذا المؤتمر ، اجتمعت مع حسن كامل لمناقشة القائمة التى كنت قد أعددتها لرؤساء الجمهورية الأفارقة الذين يجب على السادات أن يجتمع بهم . وقال حسن كامل بعجرفة : « إن رئيس الجمهورية لن يقوم بطبيعة الحال بأى زيارات . وبوسع أى شخص يريد الاجتماع به أن يقدم طلبا ، وأن يأتى إلى الاستراحة التى يقيم بها الرئيس » . ورددت عليه بغضب : « إن الحال مختلف تماما عما كان عليه فى العام الماضى فى الخرطوم . إننا نحتاج إلى رؤساء جمهوريات الدول الإفريقية أكثر من احتياجهم لنا . ويجب على الرئيس أن يقوم بزيارتهم فى مقار إقامتهم » . وقال حسن كامل : « يتعين عليك أن تقنع الرئيس بذلك شخصيا » .

وعندما استقبلنى السادات ، أوضحت له المحاولات التى تجرى من أجل طرد مصر من المنظمة . قال السادات بهدوء : « وما هو المطلوب منى ؟ » . وأبلغته بما هو مطلوب ، ووافق على الفور على زيارة رؤساء الدول الآخرين . وسلمته القائمة التى كنت قد أعددتها ، والتى تضمنت أوجستين نيتو رئيس أنجولا ، وهو مفكر إفريقى كبير وشخصية سياسية بارزة . وانفجر السادات قائلا : « بطرس ، لن اجتمع مع شيوعى » . وبعد أن هدأت مشاعره ، اتجهنا - السادات وأنا - إلى استراحات رؤساء الدول الآخرين المدرجة أسماؤهم فى قائمتى . وبدأنا بالرئيس عمر بونجو رئيس الجابون ، الذى طلب تقديم هدية له من الأسلحة . ووافق السادات . وتساءل بونجو ما إذا كان من الممكن إرسال جنرالاته إلى القاهرة للترتيب لذلك . فرد السادات : « نعم » . وتساءل بونجو : « قوات جوية ، جيش ، مشاة بحرية ؟ » . وأجاب السادات : « نعم » . وأضاف : « وسوف اصطحبهم معى فى طائرتى عند عودتى إلى القاهرة » . وهو أمر أرضى بونجو على ما يبدو .

وبعد ذلك قمنا بزيارة الرئيس جوليوس نيريرى رئيس جمهورية تنزانيا ، والذى يعرف باسم « المُعلّم » . وهو زعيم مبجل فى العالم الثالث يجمع بين الحكيم ، والمنظّر ، والمدرس العادى . وكان معروفا عنه أنه معادٍ لكامب ديفيد . وقد أنصت نيريرى ، ذو الشعر الأبيض والنحيف ، بهدوء تام وتكلم قليلا . ثم اتجهنا بعد ذلك إلى الرئيس جان - بابتيست باجازا ، رئيس بوروندى ، وهو ضابط شاب ، بدا عليه التأثر لمجرد وجود السادات ، وأنصت إليه بكل الاحترام . ثم جاء الدور على أحمدو أهيدجو رئيس الكاميرون والذى كان يرتدى الزى الوطنى . وقد أنصت إلى السادات بكل الود ، غير أنه أعطى انطباعا بالوقوف على الحياد التام . وكنت أقوم بالترجمة من العربية إلى الفرنسية ، مفصّلا فى أماكن متفرقة كلمات السادات - وذلك بالموافقة الصريحة من جانب الرئيس ، الذى كان يهز رأسه بالموافقة عند كل نقطة عندما كان يلاحظ إسهاماتى فى بلورة كلماته .

أما الرئيس ليوبولد سنغور رئيس السنغال ، الشاعر العظيم ، والمـبشر « بالزنوجة » ، فلم ينتظر حتى يتكلم السادات بل ألقى علينا محاضِرة عن أجناس إفريقيا ، وكيف أنها امتزجت مع غير الإفريقيين . وقال إن : « التهجين » سوف يقوى من قدرة إفريقيا ، ويتغلب على مشكلة الفصل بين الأسود والأبيض . وقد أنصت الرئيس السادات له بكل الاحترام ، ثم غادرنا .

وفى البيت الصغير الذى يقيم فيه رئيس جمهورية غينيا ، سيكوتورى ، والذى يعرفه السادات جيدا ويعتبره ماركسيا مسلما ولكنه ليس شيوعيا ، شن سيكوتورى هجوما فوريا . قال : « إنت الشقيق الأكبر ، مسئول عن المصاعب التى نشأت بين الدول العربية . لأنه عندما ينشأ نزاع بين الأشقاء ، يقع على الشقيق الكبير واجب حل هذا النزاع . وكان يتعين عليك أن تبذل الجهود من أجل شرح سياساتك للدول العربية الشقيقة ، إلا أنك لم تفعل ذلك » . وأنصت السادات دون تعقيب ، غير أنه كان واضحا أن السادات فى حالة هياج شديد . لقد كان سيكوتورى يبدو متفضّلا . إلا أننا عندما مضينا على الطريق ، أشاد السادات ببلاغته ووصفه بأنه محاور من الدرجة الأولى . ثم توقف وأضاف قائلا : « بطرس احترس من جَدَل الماركسيين الذى يتسم بحدة الطبع ! » .

وفى استراحته ، بدأ رئيس جمهورية نيجيريا جنرال أوباسانجو على الفور فى انتقاد السادات . وقال إن لديه معلومات من « شخصية عربية كبيرة ، تفيد بأن حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، لم تكن حربا حقيقية . لقد كانت عرضا مدبرا . وأن السادات قد وافق على تفاصيلها مقدما مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية . وقد وافق السادات على أن يستولى جيش مصر على خط بارليف ثم يتبع ذلك ابرام اتفاقات كامب ديفيد المعادية للعرب . ولم يقل

السادات شيئا ، غير أن خلجات وجهه عَبَّرت عن امتعاضه . وكنت استشعره وهو يسأل نفسه : « لماذا جئت إلى هنا ؟ لماذا أحضرنى بطرس إلى هؤلاء الناس الذى يتجرأون على توجيه الإهانة لى ، ويتهموننى ويستنكرون ما قمت به ؟ » . لقد أحسست بالذنب والحرج ، وانتابنى حتى الخوف مما يحدث ، لقد كان على نقيض ما كنت أبغيه تماماً ـ حواراً متمدينا بين رؤساء الدول يستطيع فيه السادات أن يشرح سياساته ـ وبدلا من ذلك ، جعلت رئيسى عرضة لاتهامات ادعائية تتعلق بالخيانة التآمرية .

وقد فاقمت سمات الغضب التى بدت على ملامح السادات من شعورى بعدم الارتياح . وبعد فترة من الصمت استمرت دقيقة ، بدت كما لو كانت سنة بكاملها ، بدأ السادات يتحدث فى هدوء . وارتفع صوته تدريجيا كما لو كان يلقى خطابا أمام الجماهير . قال : « في مصر ترسخت لدينا تقاليد عائلية تشبه إلى حد كبير التقاليد العائلية الإفريقية . فالشقيق الأكبر مسئول عن الأشقاء الأصغر ، ويعتبر الأكبر نفسه فى مركز الوالد لو مات الأب . ولدى شقيق أصغر يدعى عاطف . كان عاطف ضابطا فى السلاح الجوى المصرى ، ولقى حتفه فى الساعات الأولى من حرب أكتوبر . فهل تعتقد أنه لو كانت حرب أكتوبر المجيدة مجرد أداء مظهرى ، كنت سأسمح بقتل شقيقى وابنى عاطف بينما كان يقاتل ؟ هل تتخيل أننى كنت أقوم بتوزيع الأدوار فى عملية مظهرية كاذبة يموت فيها مئات الضحايا ؟ » .

كان الرئيس النيجيرى جنرال أوباسانجو صامتاً مثلما كان حال المسئولين النيجيريين الآخرين الذين كانوا ينصتون للسادات . وبعد ذلك نهض الرئيس السادات واقفا للمغادرة مودّعا دون إبداء مشاعر ودية . ورجعنا إلى مقر إقامة السادات . وأثناء سيرنا لاحظ السادات علامات الحزن على وجهى وقال وهو يبتسم : « إن هذه الاجتماعات مفيدة » .

وقبل أن يتهيأ السادات لإلقاء كلمته أمام الجلسة العامة للمؤتمر ، توجهت إلى بيته الصغير لأتبين ما إذا كان بوسعى مساعدته فى إعداد كلمته . وقد شجعتنى ابتسامته لكى أخبره بالحقيقة غير السارة . وأبلغته بالجو المعادى السائد ، وشرحت بالتفصيل الانتقادات الموجهة إلى اتفاقات كامب ديفيد . إلا أنه يبدو أننى تسببت فقط فى جعله مهتاجا وعصبيا مرة أخرى .

وعند دخولنا القاعة الكبرى ، وبالرغم من محاولاته عدم إظهار ذلك ، كان يبدو على السادات القلق . أما حسن كامل ، والتهامى ، وفوزى فقد تصرفوا كما لو كانوا فى حفل شاى . واتخذ الرئيس مقعده . واقتربت منه وقدمت له مذكرة جديدة عما كان قد حدث فى

المؤتمر حتى الآن . كانت مذكرتى صريحة ، وبدون مجاملات ديبلوماسية . وعندما قرأها السادات أصبح أشد غضبا . وسألنى : « لماذا لم ترد يا بطرس على هذه الاتهامات الغبيّة ؟ » . وقلت له إننى قمت بالرد على كل اتهام ورددت على كل هجوم . غير أن السادات لم يستمع إلى إجابتى . وطرح مذكرتى جانبا وسرح فى الخيال كما لو كان فى مكان آخر غير هذا المؤتمر الكئيب .

وبدعوة من رئيس جمهورية ليبريا ، اتجه الرئيس السادات إلى المنصة وبدأ فى قراءة نص الخطبة التى أعدها أسامة الباز له استنادا إلى المعلومات المرسلة من الفريق الذى يعمل معى ومنى ، من منروفيا . غير أنه بعد بضع دقائق طرح السادات النص المكتوب جانبا قائلا إنه لن يلقى الخطاب الذى كان مزمعا إلقاءه أمام المؤتمر . وأضاف أنه دهش صباح اليوم مما قاله له رئيس إفريقى صديق من أن شخصية عربية كبيرة قد أكدت له أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ لم تكن حربا حقيقية بل كانت طبخة ملفّقة ومؤامرة . ثم أبلغ السادات الجلسة العامة ما سبق أن قاله للجنرال أوباسانجو عن استشهاد شقيقه الأصغر عاطف السادات . وقد روى الرئيس هذه القصة بتأثّر درامى قوى .

وبعد ذلك ، جدد السادات دعوته إلى جميع أطراف الصراع العربى الإسرائيلى للاشتراك فى مؤتمر دولى يعقد فى العريش ، وتحضره أيضاً الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى . وأكد ، باسم الشعب المصرى ، الذى قال نعم للسلام ، أنه مستعد للجلوس مع أى طرف فى نزاع معه بغية إيجاد حل لهذا النزاع .

وتكهربت مشاعر القاعة بكلمات السادات . وعندما اختتم كلمته ، نهض المندوبون يصفقون له تصفيقا مدويا استمر بضع دقائق . ونزل السادات من المنصة والعرق يتصبب من وجهه . وقلت له مهنئا : « سيدى الرئيس ، بعد إذنك ، بوسعى الآن أن أطلب الطائرة لإعادتك إلى القاهرة دون تأخير ، فلم تعد هناك حاجة لأن تحضر بقية جلسات المؤتمر لأنك أنت المنتصر ! لقد حوّلت المؤتمر لصالح مصر » .

وابتسم السادات ابتسامة عريضة ، ثم طلب من فوزى عبد الحافظ أن يبلغ ابنة السادات ، التى كانت تجلس فى الشرفة المخصصة للضيوف ، بأن تستعد للسفر معه فورا .

وقال السادات : « بوسعك الآن يا بطرس أن تثبت على المقاومة » . وغادر المكان ، وتبعه مرافقوه ، وعاد إلى استراحته . وبعد ظهر ذلك اليوم ، اجتمع هو وكورت فالدهايم لبحث تصويت مجلس الأمن على المشروع الخاص بإرسال قوة طوارىء تابعة للأمم المتحدة إلى سيناء ، والذى سيجرى فى الأيام القليلة القادمة .

وقد قام عدد كبير من الزعماء الأفارقة بزيارة السادات فى مقره لينقلوا إليه إعجابهم . وعندما انتهت هذه الزيارات ، دعانى السادات لتناول فنجان شاى معه . وانضمت إلينا جيهان السادات . وقال الرئيس السادات : « برافو يا بطرس ، لقد بذلت جهودا هائلة ولابد لك أن تستريح ، لأن الإرهاق باد على وجهك » . ثم نهض السادات فجأة ، وبدون إنذار ، وأعلن أنه سيغادر منروفيا مساء ذلك اليوم كيما يكون فى القاهرة فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى . واستأذنته فى عدم مرافقته إلى المطار ، وهى رحلة تستغرق ساعة بالسيارة من منروفيا ، وذلك كيما أتمكن من مواصلة العمل فى المؤتمر . إذ أن بلاغة السادات المقنعة لن تجدى إذا لم نكن موجودين عندما تدور المناقشة حول النتيجة الفعلية للمؤتمر .

وقد أعفانى السادات فورا من حضور مراسم الوداع ، غير أن أعضاء الوفد المرافق - ولاسيما حسن كامل والتهامى - اعتبروا سلوكى أمرا لا يغتفر . وفى الساعة التاسعة مساء كانت طائرة السادات تحلّق فى الجو دون تقديم أى إخطار للمشتركين فى المؤتمر . ومع استعجاله للسفر ، نسى السادات وعده للرئيس بونجو باصطحاب ثلاثة من الجنرالات الجابونيين إلى القاهرة ، مما خلّف لى مشكلة دامت سنوات . ففى كل مرة كنت اجتمع فيها مع بونجو ، كان يعاتبنى بسبب وعد السادات الذى لم يتحقق . وكنت أعتذر فى كل مرة مستشهدا بالمشاكل المالية كمبرر لإخفاقنا فى تنفيذ ما وعدنا به .

وتحول اهتمام المؤتمر حينذاك إلى مجالات أخرى ، وهى علامة طيبة بالنسبة لمصر . وبكل الارتياح ، شاركت فى المناقشة حول طلب الجزائر وغيرها من الدول الراديكالية بضم الجمهورية الصحراوية (الصحراء الغربية) إلى عضوية منظمة الوحدة الإفريقية . وقد عارضت المغرب ومجموعة من الدول المعتدلة هذا الطلب . وتملكنى شعور بالاغتباط ؛ لأن الأعداء الذين اتحدوا ضد مصر ، بدأوا الآن الاقتتال فيما بينهم .

كانت المناورات والمكائد ملحوظة . ففى أى وقت كان الأمر يتطلب فيه إجراء تصويت آخر أو إعادة عقد جلسة ، كان ذلك يؤدى إلى جولة جديدة من الكلمات ، وتتصاعد المساومة فى الخفاء ، وهى عملية دفعت المندوبين إلى المضى فى المناقشة لأقصى حدود الطاقة البشرية . وقد استمرت المعركة الدبلوماسية المتعلقة بالصحراء الغربية حتى الساعة الثانية من فجر السبت ٢١ يوليو ١٩٧٩ .

وتركت منروفيا فى اليوم التالى واتجهت إلى جنيف . وكان معى على متن الطائرة ذاتها ، باولو جورج ، وزير خارجية أنجولا ، وهو أحد زعماء معسكر الرفض . ونظر إلىّ فى حنق وتحدث عن مؤتمر القمة لدول عدم الانحياز الذى سيعقد بعد فترة قصيرة فى

كوبا ، وقال : « المعركة القادمة ، فى هافانا ، ستكون أشد صعوبة بالنسبة لمصر . فسوف تواجهون عشرين دولة عربية وعشرين دولة تقدمية ستكشف إلى أى مدى خانت سياساتكم المتعلقة بكامب ديفيد دول العالم الثالث » .

وعقدت مؤتمرا صحفيا فى جنيف بأمل تعزيز موقف مصر فى منروفيا . غير أن الاهتمام كان مركزا حينذاك على أزمة جديدة . فقد بدأ مجلس الأمن فى نيويورك مناقشاته ، واستنتج الصحفيون أن الأمم المتحدة لن تشرف على انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء ، ولن توفر قوات حفظ السلام كما تصورت معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية .

وعند عودتى إلى القاهرة ، وجدت جمهرة كبيرة من وزارة الخارجية ووسائط الإعلام فى انتظارى فى مطار القاهرة . وبالرغم من الأنباء المثيرة للقلق الواردة من الأمم المتحدة ، فقد حظيت باستقبال أقرب ما يكون إلى استقبال الفاتحين وفره لى ديوان وزارة الخارجية .

عودة إلى محادثات الحكم الذاتى

انعقد الاجتماع التالى للمحادثات المتعلقة بالحكم الذاتى الفلسطينى فى حيفا . ووصلنا إلى هناك على متن طائرة إسرائيلية ، وأقمنا فى فندق يقع على جبل الكرمل الذى يطل على البحر . كانت مدينة حيفا التى تعلو كثيرا فوق سطح البحر ، مدينة رائعة ، بأشجارها وحدائقها الكثيرة . وعقدنا جلسة عمل بعد الظهر ، ثم تناولنا طعام الغداء فى الفندق . ولاحظت أن زملائى حريصون على عدم تناول أى مشروبات كحولية ، وتذكرت أن شهر رمضان قد بدأ .

وفى الصباح ، وقعت مواجهة حادة بين مصطفى خليل وشامويل تامير ، وزير العدل الإسرائيلى ، بشأن مسألة القدس . قال خليل إن القدس العربية هى جزء لا ينفصم عن الضفة الغربية ، وإن ما ينطبق على الضفة الغربية لابد أن ينطبق أيضا على القدس العربية . وأكدّ شامويل تامير أن توحيد مدينة القدس قد تم ولا يمكن إدراجه فى المناقشة حول الضفة الغربية ، ولم يستطع أى من الطرفين تفهم موقف الطرف الآخر .

وفى المساء ، نقلتنا عربة ليموزين مصفَّحة ، تتقدمها عربة مليئة بحراس الأمن ، وتتبعها عربة حراسة مماثلة ، من حيفا إلى تل أبيب . وتناولنا العشاء فى حديقة منزل موشى ديان ، الذى كان قد شيّد ليضم متحفه الخاص من التحف القديمة . وكان من بين ضيوف حفل العشاء ، أبا إيبان وقرينته ، والبروفيسور يادين ، نائب رئيس الوزراء .

وقدمت إلى ديان هدية ، أزرارا ذهبية لأكمام القميص منقوشا عليها اسم « موشى ديان » باللغة الهيروغليفية . وقامت قرينة ديان فى سعادة بعرض الهدية على جميع الحاضرين ولاسيما يادين ، عالم الآثار القديمة . وقرأ يادين النقوش بصوت مرتفع وعلق بقوله إن هناك خطأ فى « الهجاء » باللغة الهيروغليفية لاسم « ديان » . وزعم إنه كان ينبغى كتابة الحرف الأخير بطريقة مختلفة ، وبدأ يكتب على قطعة ورق لكى يشرح ذلك لنا . غير أن تصحيح يادين لم يقلل من الاغتباط بالهدية .

وبعد العشاء ، عرض ديان علينا الآثار القديمة التى لديه . وتحدثنا عن الحضارة الفرعونية ومؤتمر القمة الإفريقى فى منروفيا . ولم يشر أى واحد منا أبدا إلى المفاوضات الجارية فى حيفا ؛ كما لو كانت غير موجودة . وعندما غادرنا منزل ديان ، قابلنا الصحفيون فى الشارع ؛ وقلت لهم إن الزيارة كانت خاصة وإنه لم تكن هناك أى إشارة إلى مفاوضات الحكم الذاتى .

وفى نهاية إقامتنا فى حيفا ، وعندما كنا نتجه إلى الطائرة المروحية المنتظرة على أرض المطار ، اكتشفنا أن أحد أعضاء الوفد المصرى غائب ، واضطررنا إلى تأخير إقلاع الطائرة . وبدأت مشاعر القلق تتزايد حول مصير سيد المصرى ، وهو أحد الدبلوماسيين الذين يعملون فى مكتبى ، وكان قبل سنوات واحدا من ألمع طلابى . وبعد فترة قصيرة من الوقت ، تم العثور عليه ؛ فقد كان نائما فى غرفته ، ولم يكن قد اشترك فى الجلسة الختامية ، ولذلك فلم يعرف أن الوفد المصرى قد غادر الفندق .

ووصل الدبلوماسى المفقود ، وأقلعت الطائرة . واستأنف سيد المصرى نومه فورا بعد إقلاع الطائرة ، مما دعا مصطفى خليل إلى معاتبتى لاختياره ضمن أعضاء الوفد . وشرحت لرئيس الوزراء أن سيد المصرى متديّن جدا ، وأنه عندما كان فى إسرائيل أحس أنه من اللازم أن يؤدى الصلاة حتى ساعة متأخرة من الليل ، مما اضطره إلى النوم أثناء النهار .

وأكدت اجتماعات حيفا أننا نقف فى طريق مسدود . فلقد كانت المفاوضات علاقات عامة أكثر منها عملا دبلوماسيا . وأصبح بوسع الشعب الإسرائيلى أن يرى رئيس وزراء مصر ومجموعة من المسئولين العرب يتجولون فى شوارع المدن الإسرائيلية كل أسبوعين . غير أننى شعرت بأن الشعب الإسرائيلى لا يزال غير واثق فى نوايا مصر . ووددت أن تطمئنه هذه المحادثات على رغبة مصر المخلصة من أجل السلام ، وأن تطمئن العالم العربى على أن مصر تتفاوض بنجاح بالنيابة عن الفلسطينيين ، وذلك كيما تنضم الدول العربية الأخرى إلى عملية السلام . بيد أن أيا من هذين الهدفين لم يتحقق .

إلى هافانا

فى مؤتمر صحفى عقد يوم ١٢ أغسطس ، سألنى الصحفيون ما إذا كان مؤتمر هافانا سوف يطرد مصر من حركة عدم الانحياز . وأجبت بأن الدول العربية قد اتخذت من قبل قرارا فى مؤتمر بغداد يطالب بتعليق عضوية مصر فى حركة عدم الانحياز . وقلت إننى لا أتصور أن دول عدم الانحياز تريد أن يتخذ الرافضون العرب هذا القرار بدلاً منها .

كان الوفد الذى تم اختياره لمرافقتى إلى هافانا مماثلا لوفد منروفيا : أحمد توفيق خليل ، أحمد صدقى ، أحمد ماهر السيد ، وفيق حسنى ، علاء خيرت ، عمرو موسى . وقد أضيف إلى الوفد ممثلنا الدائم فى نيويورك ، عصمت عبد المجيد . وكانوا فريقا نشيطا وممتازا وقادرا على التعاون معا أثناء العمل المتواصل ليلاً ونهاراً .

ومن أجل الإعداد لهافانا ، كنت قد سافرت إلى الهند التماسا لمساندتها لموقف مصر . وبالرغم من أننى قد لقيت استقبالا حارا ، إلا أنه كان واضحا أنه يجب ألا أتوقع الكثير من ذلك البلد . فقد كانت الهند تمر بمرحلة انتقالية . إذ أن حزب « المؤتمر » ، الذى ساعد فى إنشاء حركة عدم الانحياز ، لم يَعُد فى السلطة ، وذلك لأول مرة منذ حصول الهند على استقلالها .

وفى مؤتمر صحفى عقدته قبل سفرى إلى هافانا ، أشرت إلى المحاولات التى تقوم بها كوبا وغيرها من الدول الراديكالية من أجل جر حركة عدم الانحياز ناحية الكتلة الشيوعية ، وبذلك تنتهك الالتزام الأساسى للحركة . واستنكرت الأنشطة الكوبية والسوفيتية فى إفريقيا . وقلت إن الدور الذى تقوم به كوبا فى خدمة الأهداف السوفيتية فى القارة الإفريقية يتنافى مع مبدأ عدم الانحياز .

ومع اقتراب موعد سفرى إلى كوبا ، أبلغتنى إدارة الأمن أن فريقا من ستة فلسطينيين جاهز للسفر إلى هافانا من أجل اغتيالى . وقررت وزارة الداخلية تعزيز الحراسة المرافقة لى . وأبلغت رئيس الوزراء أننى لا أريد جمهرة من ضباط الأمن حولى ، فقد يعرقل ذلك عملنا الدبلوماسى . وإلى جانب ذلك ، فإنه لم يسبق لرجال الأمن زيارة هافانا ولا يتكلم أحد منهم الأسبانية . وأبلغنى مصطفى خليل فى غضب بألاّ اعترض أبدا على ما تتخذه وزارة الداخلية من إجراءات أمنية .

وعشية سفرى ، أعرب الرئيس السادات عن تمنياته لى بالنجاح ، قائلاً : « لابد أن تأخذ زمام المبادرة كما فعلت فى منروفيا ، لأنه ليست هناك أية فائدة من اتخاذ موقف دفاعى - أبدا - أبدا » .

وغادرت القاهرة صباح يوم ٢٢ أغسطس وبصحبتى الضباط وأعضاء الوفد المصرى . وعند توقفى فى جنيف ، لاحظت أن السلطات السويسرية قد ضاعفت من ترتيبات الأمن الخاصة بها من أجل حمايتى . وصحبنى مسئولو الأمن بسرعة إلى الفندق .

لقد ظللنا طوال عام نحاول إقناع غالبية دول عدم الانحياز تحاشى مؤتمر هافانا بغية ضمان فشله منذ البداية . وعندما بات واضحا أن محاولاتنا لم تحقق النجاح ، حاولنا إقناع الدول بأن وجودها فى هافانا يعتبر أمرا حيويا بغية منع استيلاء الماركسيين والراديكاليين على حركة عدم الانحياز .

وقمت بزيارة فيلكس هوفييه - بوانييه رئيس كوت ديفوار ، الذى كان يقيم فى فيللا فى جنيف . وكان المرض قد أقعده عن حضور اجتماع منروفيا . وصحبنى رجال الشرطة السويسريون إلى منزل رئيس جمهورية كوت ديفوار الذى استقبلنى بابتسامة عريضة عند الباب . وقد بدا فى صحة جيدة ، غير أننى كنت أعرف أنه مريض . ونقلت إليه التحيات الحارة من الرئيس السادات ، ووصفت له الهجوم الشرس الذى تعرضت له مصر فى منروفيا . وقال هوفييه - بوانييه إن عددا كبيرا من رؤساء الجمهوريات الأفارقة لا تتجاوز مدة توليهم للسلطة أكثر من بضعة شهور أو بضع سنوات ، وإنهم لذلك غير قادرين بعد على فهم أهمية مبادرة السادات . وإنه كلما طال وقت توليهم للسلطة ، أصبحوا قادرين على تفهم موقف مصر ، وإن أولئك الذين يتولون مناصب رفيعة حديثا ، يحتمل أن تدفعهم الانفعالات العاطفية والضغوط . وأعلن هوفييه - بوانييه أن غالبية الدول المشاركة فى مؤتمر هافانا منحازة فى واقع الأمر . وأن دول عدم الانحياز الحقيقية ، مثل مصر ، والهند ، ويوغوسلافيا ، ستشكل استثناء هناك . وأضاف أنه لهذا السبب ، كان مقتنعا بأنه لا جدوى من وراء مشاركة كوت ديفوار فى مؤتمر هافانا . وقد أصابنى ما قاله بالصدمة ، لأننى كنت آمل أن يحضر المؤتمر وأن يساعد مصر بما يتمتع به من مكانة .

وقبل أن أشرع فى التعليق ، مضى قائلاً : « وبالرغم من ذلك ، فقد قررت الاستجابة لطلب أنور السادات بإرسال وزير خارجيتى ، سيمون آكى إلى هافانا . وسوف أعطيه توجيهات للتعاون بصورة كاملة مع الوفد المصرى ومعارضة أية محاولة للانتقاص من قدر مصر » . وتوجهت بالشكر إلى هوفييه - بوانييه باسم الرئيس السادات ، ولكننى كنت على يقين من أن سيمون آكى ، مثل أى وزير خارجية سوف يتفادى المواجهة فى غياب رئيس جمهوريته . ولم أتصور أن آكى سيدافع عن مصر بنفس الحماس مثلما كان يمكن أن يفعل لو كان رئيس جمهوريته موجوداً . وتركت جنيف وأنا أشعر بالتشاؤم مثلما كانت حالتى بعد زيارة نيودلهى .

واستقبلنى فى نيويورك يوم ٢٤ أغسطس ، الدكتور عصمت عبد المجيد ، وطلبت منه أن يساعدنى فورا بشأن تقديم اقتراح بتنقيح قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لكيلا يشار إلى الفلسطينيين على أنهم لاجئون فحسب ، ولكن كشعب له حق تقرير المصير . وكنت قد بحثت من قبل هذه المبادرة بإسهاب مع روى آثرتون وغيره من المسئولين الأمريكيين ، الذين كانوا يؤيدون فكرتى على ما يبدو . غير أنه عندما عرف الإسرائيليون بهذه الفكرة ، عارضوها بعنف . وكان السادات نفسه يخشى من أن يؤدى تعديل القرار ٢٤٢ إلى إضعاف اتفاقات كامب ديفيد ، لأنها تستند إلى نص القرار كما صدر فى نوفمبر ١٩٦٧ . ولو ضعفت كامب ديفيد ، فإن معاهدة السلام سينالها الضعف هى الأخرى ، وبالتالى يمكن أن تتوقف المفاوضات بشأن الحكم الذاتى ، وهو أمر قد يسفر عن تأجيل الانسحاب الإسرائيلى من سيناء . وقد أبلغ السادات بوب شتراوس بهذه المخاوف ، ونتيجة لذلك ، حاول شتراوس بكل نشاط أن يقتل مبادرتنا .

ومع ذلك ، فقد طلبت من السفير عصمت عبد المجيد أن يتكلم أمام مجلس الأمن لصالح هذا الاقتراح . واتصل الدكتور مصطفى خليل بى هاتفياً من القاهرة ليقول إن معارضة السادات لتغيير القرار ٢٤٢ قاطعة ، وإنه يجب علىّ أن التزم بذلك . وقلت إنه من الخطأ لمصر أن تتخذ نفس موقف إسرائيل بالنسبة للقرار ٢٤٢ . وأضفت أنه إلى جانب ذلك ، فإن عصمت عبد المجيد قد سجل فعلا طلبا رسميا لإلقاء كلمة أمام مجلس الأمن . وأنه من المهانة الرجوع عن هذا الطلب ، وأنه لو تكلم فعلا ، فإنه من غير المتصور ألا يؤيد اقتراحا يصف الفلسطينيين باعتبارهم شعبا له حق تقرير المصير ، وليسوا لاجئين . وقلت لقد أصبح الوضع الآن مسألة تتعلق بالمبدأ ، وبشرف مصر ومصداقيتها .

كان مصطفى خليل صامتا ، وأبلغته أننى سأحاول العثور على طريقة ما من أجل سد الثغرة بين معارضة السادات لتغيير القرار ٢٤٢ وبين التزام مصر بالسعى من أجل تعديل القرار .

وبعد ذلك بوقت قصير ، علمت أن مصطفى خليل ، لعدم ثقته فى طريقة تناولى لهذه المسألة ، قد أصدر تعليمات إلى عصمت عبد المجيد بعدم المشاركة فى جلسة مجلس الأمن . بيد أن عصمت أقنع رئيس الوزراء بأنه ما دام قد أدرج اسمه فى قائمة المتكلمين فى مجلس الأمن ، فيجب ألا ينسحب .

كان السفير آندرو يونج الممثل الدائم للولايات المتحدة الأمريكية لدى الأمم المتحدة ، قد عرف بمبادرتى وأيدها ، غير أنه أبلغنا أن حكومته تعارض ذلك بشدة . وكان عبد المجيد

هو أول المتكلمين فى المجلس ، وأوضح أن مصر تؤيد إجراء تغيير فى القرار ٢٤٢ . وقدمت السنغال اقتراحا باتخاذ قرار جديد . غير أن أحدا من أعضاء مجلس الأمن لم يؤيد هذا الاقتراح ، ولم يجر تصويت عليه . وكان السادات ، وكارتر ، وبيجن يعارضون جميعا مسعاى لتغيير القرار ٢٤٢ . وقد حاولت إجراء تعديل ولكننى فشلت ، ولكننى ، على الأقل ، قد نجحت فى الإعلان رسميا فى الأمم المتحدة أن مصر لن تعارض أى محاولة لإعطاء اعتراف أكبر بالحقوق الفلسطينية .

ومن جناحى الذى أقيم فيه بفندق والدورف أستوريا ، كنت أشاهد التغطية التليفزيونية الحية لكلمة الوداع التى ألقاها يونج . وكان قد أجبر على التخلى عن منصبه عندما تم اكتشاف أنه كان قد اجتمع بأحد أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية ، خلافا للسياسة الأمريكية . لقد كانت كلمته رائعة ، وانتقد فيها يونج حكومته لعدم اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية .

وبعد إلقاء كلمته ، ترك يونج مجلس الأمن وجاء إلى جناحى بالفندق حفاظا منه على ارتباط سابق . واستقبلته بحرارة وأشدت بدفاعه عن الحقوق الفلسطينية . وقال لى يونج إنه استلهم شجاعة السادات فى مواجهة أزمة الشرق الأوسط ، وأبلغنى أنه سيصبح الآن مبعوث كارتر غير الرسمى للدول الإفريقية . وقال إن الرئيس كارتر وعددا من اليهود الأمريكيين المستنيرين ، يسعدهم التأييد المتنامى من جانب الأمريكيين السود للفلسطينيين ؛ إذ أن ذلك يمثل تغييرا فى الرأى العام الأمريكى يمكن أن يحقق التوازن مع النفوذ الصهيونى .

وأوضح يونج أن عمله فى إفريقيا هو مساعدة الرئيس كارتر على استعادة العلاقات الدبلوماسية بين إسرائيل وبعض الدول الإفريقية ، مما يعزز مركز كارتر فى مواجهة اللوبى المؤيد لإسرائيل فى واشنطن . وانتابتنى الدهشة من هذا التناقض المتمثل فى أن يونج ، الذى يُعتبر بطلا بالنسبة للفلسطينيين لاجتماعه مع منظمة التحرير الفلسطينية ، يخطط فى الوقت الحاضر للقيام بمهمة من شأنها إضعاف القضية الفلسطينية بمحاولة إخراج إسرائيل من عزلتها الدبلوماسية .

هافانا

وتركت نيويورك يوم الأحد ، ٢٦ أغسطس ١٩٧٩ ، متوجها إلى هافانا ، محاطا بفصيل قوى من رجال الأمن . وكنت أخشى أن يكون طرد مصر من حركة عدم الانحياز

قد أصبح في المتناول . والواقع ، أنه من بين كل همومي ، كانت هذه المخاوف هي أعظمها ، لأن حركة عدم الانحياز قد أتاحت لمصر أن تلعب دورا دوليا حقيقيا . ولو أن مصر طردت منها ، فلن يكون أمامنا من سبيل آخر سوى التوجه إلى المعسكر الأمريكي ، وبذلك نصبح جزءا من الحرب الباردة ، ونفقد إشعاعنا العالمي . وهنا ، اختلف السادات معي ، مرة أخرى . فقد كان يعتقد أن المعسكر الشيوعي يتهاوى ، وكان مستعدا لأن يربط مصيره بالغرب .

وعندما نزلت في هافانا ، اقترب وزير الخارجية الكوبي إزيدورو مالميركا ، مني بجفاء ورحب بي في فتور . وطلبت أن اجتمع به حالا . وصحبني إلى جناح يقع في الطابق الثالث عشر من فندق على الشاطيء حيث وجدت مختارات من النبيذ والمشروبات الكحولية وكمية من السيجار الممتاز في انتظاري .

واستجاب مالميركا لطلبي بسرعة واجتمعنا في فندق « هافانا ليبر » ، الذي كان الجميع ما زالوا يسمونه « هيلتون » . وقلت له إنه لما كانت ظروف الرئيس السادات لا تسمح له بحضور القمة ، فإنه قد كلّفني بأن أبلغ القيادة الكوبية بمجرد وصولي بأن مصر تتمنى للمؤتمر النجاح في الحفاظ على وحدة حركة عدم الانحياز . وأن مصر على ثقة من أن كوبا ، في ظل رئاستها للحركة ، سوف تتفادى تعريض الحركة لأخطار التقسيم ، والانفصال ، والاستقطاب . وأضفت أن الخلافات السياسية بين مصر وكوبا ، والتي تتعلق بإفريقيا أساسا ، يجب ألا تتسبب في حدوث مواجهة بين دولتينا .

وقال مالميركا إن كوبا تختلف بصورة أساسية مع مصر بشأن عدم الانحياز . وأضاف أن كوبا ترفض فكرة وضع الحركة في موضع وسط بين الإمبريالية والاشتراكية . ومضى قائلا : إن حركة عدم الانحياز قد وقفت منذ تأسيسها ضد الإمبريالية والاستعمار ومؤامراتهما وتهديداتهما ، وإن الحكومة الكوبية قد أحاطت علما بعدم ارتياح مصر للبيان الختامي المقترح لمؤتمر هافانا والذي سيعكس هذا الرأى . وقال إنه يود أن يوضح أن هذا البيان هو نتيجة لاتصالات ومشاورات عديدة أجرتها كوبا ؛ وأنه يحظى بتأييد واسع .

وعندما أطلعت الوفد المصري على ما دار في هذا الاجتماع ، كان الشعور العام هو أننا نواجه خطرا ، غير أن الرئيس السادات لم يعبأ بذلك . فلم تكن حركة عدم الانحياز تهمّه . فهو يعتزم تحقيق الانسحاب الإسرائيلي من سيناء مهما كان الثمن الدبلوماسي بالنسبة لمصر .

وبينما كان المجلس الوزاري مجتمعا ، مكثت في غرفتي لأكتب خطبتي التي سألقيها

أمام مؤتمر القمة القادم . وتجاوزا لمعارضة الأعضاء الأصغر سنا فى وفدى ، الذين كانوا مصممين على أن استخدم اللغة العربية ، قررت أن أتكلم باللغة الفرنسية . إذ أننى ، مرة أخرى ، لا أثق فى المترجمين العرب الذين يعملون مع المؤتمر ، ومعظمهم قادمون من دول الرفض العربية . وكنت قد أُبلغت أنه لم يتم استدعاء مصرى للعمل فى أمانة المؤتمر ، ولم يسمح لأحد منهم بأن يعمل كمترجم .

وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء ، طرق السفير محمود أبو النصر ، المصرى المعار إلى سلطنة عمان ليعمل ممثلا لها لدى الأمم المتحدة ، باب غرفتى ، وقال إن سوريا قد طلبت من المجموعة العربية أن تشجب وترفض اتفاقات كامب ديفيد ، وأن العراق اقترح تعليق عضوية مصر فى حركة عدم الانحياز . وكانت المغرب وحدها ، التى طلبت فترة من الوقت لدراسة الأمر ، هى التى عارضت هذه المبادرات . وطلب منى محمود أبو النصر أن أبقى على اجتماعنا سرا .

وبحلول يوم الأربعاء ، ٢٩ أغسطس ، كان اتجاه المؤتمر واضحا . فقد كانت الدول المرشحة للجنة التنسيق الخاصة بغرب آسيا ، هى العراق ، سوريا ، اليمن الجنوبية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية - وجميعها من دول الرفض . وطلبت من أعضاء وفدى أن يقوموا بحملة دعائية لصالح سلطنة عمان ، وأبرقت إلى سفارتنا فى مسقط لكى تحث الحكومة العمانية على إصدار تعليمات إلى الوفد العمانى فى هافانا كى يتقدم جديا للترشيح لعضوية اللجنة . واتصلت هاتفياً بالسفارة المصرية فى واشنطن ووجدت الخط التليفونى واضحا ، إنه بلاشك من بقايا الاتصالات القديمة التى كانت تربط العاصمتين الأمريكية والكوبية فى الأيام التى سبقت كاسترو . وأفادنى السفير أشرف غربال بالتطورات الجارية فى العالم الخارجى ، وذلك لأن تدفق المعلومات على جزيرة كوبا كان مقيّدا بشدة .

وقمت بعد ذلك بزيارة صديقى سيسيل دنيس ، وزير خارجية ليبريا ورئيس المجموعة الإفريقية . فلو استطاع إقناع المجموعة الإفريقية بالتمسّك بالقرارات التى اتخذها مؤتمر منروفيا ، الذى كان قد رفض شجب مصر ، فقد نستطيع درء هجوم دول الرفض . فمن الناحية المنطقية ، لا ينبغى للدول الإفريقية الآن أن تُلغى القرارات المتخذة منذ بضعة أسابيع فى منروفيا . وقلت لدنيس إن طرد مصر سيكون بمثابة إهانة للمجموعة الإفريقية .

كانت جلسات مؤتمر القمة فى هافانا تبدأ فى التاسعة صباحا وتنتهى فى التاسعة مساء ، دون فترة راحة ، وذلك باستثناء الوقت المخصص للغداء فى مقر إقامة السفير نبيل حمدى ، الذى كان يعيش فى منزل أنيق كانت السلطات الكوبية قد صادرته من رجل أعمال

غنى . وكان مقر الإقامة يقع وسط حديقة شاسعة ملحق بها حمام سباحة غير مستعمل لأن أجهزة تنقية المياه كانت معطلة .

وأثناء جلسة بعد الظهر الأولى ، أبلغنى مسئولو البروتوكول الكوبى أن كارلوس رافائيل رودريجويز نائب الرئيس الكوبى ، استجابة لطلبى ، سوف يجتمع بى فى أحد المكاتب الملحقة بالقاعة . وتحدث رودريجويز ، وهو رجل تقدمت به السن وذو لحية بيضاء وتعلو وجهه ابتسامة جذابة ، وذاعت شهرته باعتباره المفكر السياسى الرئيسى فى التسلسل الهرمى للقيادة الكوبية ، عن التعاون الاقتصادى بين كوبا ومصر - فنحن نشترى السكر الكوبى - وعن الصلة التاريخية بين ثورتينا . وقلت له إن الدهشة قد اعترتنى عندما سمعت وزير الخارجية الكوبى ، فى بيانه الافتتاحى ، وهو يشير إلى مصر بطريقة غير لائقة وغير مقبولة . فقد زعم على سبيل المثال ، أن هناك تحالفا عسكريا قائما بين مصر والولايات المتحدة . وأكدت أن مصر تتمسك بمبادىء عدم الانحياز بدرجة تفوق امتثال أى بلد آخر . وأضفت أنه إذا تطلبت الظروف السياسية التماس المساعدة الأمريكية فى إيجاد حل شامل ، وعادل ، ودائم لنزاع الشرق الأوسط ، فإن ذلك لا يعنى إطلاقا أن مصر قد تخلّت عن عدم الانحياز . وأوضحت أنه ، فى مارس ، رفضت مصر إبرام اتفاق للدفاع المشترك مع الولايات المتحدة على غرار نموذج الاتفاق الذى وقعته إسرائيل مع الولايات المتحدة الأمريكية . وقلت إنه « بدلاً من أن توجهوا التهنئة إلى مصر من أجل ذلك ، ومن أجل العمل على استعادة أراضيها ، فإنكم تدينوننا » .

وقال رودريجويز ، بتواضع زائف ، إن كوبا بلد صغير قوته العسكرية والاقتصادية محدودة ، غير أنه يتمسك بمبادئه ويعبّر عن آرائه دون تردد . وإنه لهذا السبب ، لم تُخفِ كوبا معارضتها لموقف مصر ، وإن محاولة أى بلد عربى التوصل إلى سلام وحده ، سوف تضعف الصف العربى وتضعفه هو نفسه أيضا . وأشار إلى الجنود الكوبيين الذين كانوا قد أرسلوا للقتال مع سوريا ضد إسرائيل عام ١٩٧٣ ، وذلك على سبيل تأكيد حق كوبا فى إبداء رأيها تجاه مثل هذه المسائل . وقال إن المحاولة لابد أن تكون جماعية ، والنتيجة لابد أن تكون شاملة . ولابد أنه لاحظ من تعبيرات وجهى أننى لم أقتنع بذلك . ولذا فقد واصل كلامه فى بطء وهدوء قائلا إن كوبا تتزعم الحملة ضد الإمبريالية الأمريكية والتحريفية الصينية ، ولكنها لا تتزعم حملة ضد مصر .

وقد حاولت الرد بأدب مماثل ، وذلك لأن المُناظر الماهر يعطى لخصمه الفرصة لكى يستعرض مهارته وأن يتابع الحوار على ذات المستوى المهذّب .

غير أن رودريجويز قاطعنى قائلا إن « كوبا تؤيد السلام . وكوبا تؤمن بالحوار والتفاوض » . وأضاف أنه على سبيل المثال « لا يمكن للمواجهة بين كوبا والولايات المتحدة أن تحل بطريقة عسكرية . ولو كانت الولايات المتحدة تريد حلا ، فلابد لها أن تدخل فى حوار » .

وقلت إننى دُهشت لأن كوبا ، التى تعتبر السلام جزءا لا يتجزأ من فلسفتها السياسية ، تعارض جهود مصر السلمية . ورفعت صوتى إلى حد ما ، وقلت إنه « حتى هذه اللحظة ، لا تزال مصر بمبادئها ، وجنودها ، وعُمّالها ، وخبرائها ، ومدرسيها ، الدعامة الأساسية للدول العربية فى المجتمع ، والثقافة ، والحضارة ، والاقتصاد ، والعلم ، والسياسة . وهى تقوم بدور لا غنى عنه لصالح رفاهية الشعوب العربية . وحتى الدول العربية التى تتزعم الحملة الدنيئة من الهجوم على مصر لا تستطيع أن تنهض بدون المصريين الذين يعملون فيها » .

وإذ اعترته الدهشة من جراء حماستى ، فقد حاول رودريجويز تهدئتى ، قائلا : لقد كانت مصر هى قلب العالم العربى . وأضاف أن صديقه هوارى بومدين قد ذكر له أكثر من مرة أنه ، بالرغم من أى خلافات ، يجب ألا ينسى المرء أبدا أن مصر هى أهم دولة فى العالم العربى .

وفى نهاية اجتماعنا ، أشار رودريجويز إلى التقارير التى أفادت أن الفلسطينيين المتطرفين سوف يحاولون اغتيال رئيس الوفد المصرى . وأضاف أن الحكومة الكوبية تعتبر نفسها مسئولة عن سلامتى ، وأنها اتخذت كل التدابير من أجل حمايتى أنا والوفد المرافق .

وتوجهت إليه بالشكر ، ولكنى قلت إننى أومن بأن أجل الإنسان مكتوب ، ومن ثم ، فإننى لا أستطيع تغيير قدرى . وتركت الاجتماع وأنا أشد اعتقادا بأنه لا مفر من حدوث صدام بين كوبا ومصر .

وفى اليوم التالى ، اتصل بى وزير كوبى وسألنى لماذا ، خلافا لما فعله رؤساء الدول ورؤساء الوفود الآخرون ، رفضت أن أنتقل من الفندق الذى أقيم فيه إلى المقر المخصص لى كرئيس للوفد المصرى . فهل هذا الموقف ناجم عن أى انزعاج من الضيافة الكوبية ؟ وأكدت له أن الأمر ليس كذلك ، ولكننى بقيت فى جناحى بالفندق لكى أكون على مقربة من زملائى المصريين .

والتمست المساندة من الوزراء الأفارقة ضد محاولة الدول الراديكالية ، بزعامة

كوبا ، الاستيلاء على حركة عدم الانحياز . ووسط هذا الجهد ، جاء أحد أعضاء الوفد المصرى ، وهو مرتاع جدا ، إلى غرفتى . فقد قرأ لتوّه مشروع البيان الختامى الجديد المقترح لكوبا ، والذى كان أسوأ كثيرا من البيان الأول . إذ أن هذا البيان لم يشجب فقط اتفاقات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية - الإسرائيلية ، ولكنه وصفهما بأنهما مؤامرة ضد الشعب الفلسطينى . وأعلن البيان أن مصر قد تخلّت عن مبادىء عدم الانحياز .

ودعوت الوفد المصرى إلى غرفتى . وكانت معنوياتهم مرتفعة واتفقنا على مقاومة الهيمنة الماركسية على حركة عدم الانحياز . وأوعزت إليهم بصياغة بدائل متعددة للنص الكوبى .

وبدأ حينذاك رؤساء الدول والحكومات ، بمن فيهم صدام حسين ، فى الوصول إلى هافانا ، مما حملنى على توقع زيادة الضغوط ضد مصر .

وفى المساء ، أرسلت برقية مشفَّرة إلى مصطفى خليل أحذره فيها من أن الرافضين يبذلون أقصى ما فى وسعهم من أجل تعليق عضوية مصر ، فى حين أن العديد من البلدان التى أدخلناها فى حسابنا لا تزال مترددة . وحتى ليبريا بدأت تنأى عنا فى وجه التهديدات المتزايدة .

وبدلا من تناول العشاء ، تناولت مهدئا وتوجهت إلى سريرى ، غير أن التليفون بدأ فى الرنين . وكان المتكلم سيسيل دنيس ، وكان فى حالة هستيرية تقريبا . وقال إنه يريد مقابلتى فورا . ورددت عليه قائلاً : إننى فى سريرى الآن ، وإن سيارتى قد ذهبت ، وإن أفراد الأمن قد غادروا المكان ، وكل هذه الأمور تجعل من الصعب علىّ التوجه إلى فندق « هافانا ليبر » حيث كان يقيم . وقلت فلنتقابل معا غدا صباحا .

ورد قائلا : « لا » ، إن الأمر مستعجل ولا يمكن الانتظار حتى الصباح . وفكّرت فى أن أطلب إليه الحضور إلى الفندق الذى أقيم فيه ، غير أننى بسرعة عدلت عن ذلك ، مدركا أن زميلى الليبرى هو رئيس المجموعة الإفريقية ، وأنه لابد لى من أن التزم بقواعد البروتوكول . وهكذا ، فقد قمت بارتداء ملابسى ؛ واتصلت بالرائد الحفناوى ، وطلبت منه أن يجهز سيارة تنقلنى إلى فندق « هافانا ليبر » . ووصلت إلى جناح سيسيل عند منتصف الليل . وقال وهو يكاد يصرخ : « بطرس أخى ، صديقى ، كيف يمكن لى أن أدافع عن مصر وسياساتها فى الوقت الذى يحرض فيه الرئيس السادات الرأى العام العالمى ضد مصر ؟ » . وقال إن السادات قد توجّه لتوّه إلى إسرائيل فى زيارة رسمية ، وعلى مسمع ومرأى العالم - وفى الوقت الذى كان ينبغى له أن يشترك فى مؤتمر هافانا !

وأضاف أن « منظر السادات على شاشة التليفزيون وهو يقف جنبا إلى جنب مع مناحم بيجن على ظهر سفينة بحرية إسرائيلية فى ميناء حيفا ، يُعدُّ استفزازا لجميع رؤساء الدول الموجودة فى هافانا » . وأضاف أن الأكثر من ذلك أن « السادات قال فى تصريح نقلته جميع وكالات الأنباء ، إن مصر سوف ترسل جنودا إلى المغرب لمساعدة الملك الحسن فى حرب الصحراء الغربية » .

وصاح قائلاً : « أخى بطرس ، أنت تعرف أن غالبية دول عدم الانحياز لا توافق على سياسة المغرب ! ومع ذلك ، فقد اختار رئيس جمهورية مصر أن يؤيدها ! فكيف يمكن لأصدقاء مصر أن يساعدوها فى مثل هذه الظروف ؟ » .

وتصرفت بسرعة لكى أهدىء من روع سيسيل ، حتى لو كان ذلك يتطلب حيلة ديبلوماسية ، مهما كلفنى ذلك . وقلت دون تردد إن التصريح المنسوب إلى السادات خارج عن النص والسياق ومغلوط . وأضفت أن الأيام القادمة ستشهد الكثير من المؤامرات والاتهامات من جانب دول الرفض من أجل تعميق الانقسام بين مصر وأصدقائها الإفريقيين . وقلت إنه يتعين علينا جميعا أن نلتزم الحرص ، وأن نقف فى وجه هذه الأكاذيب وألا نشترك فى نشرها .

وقاطعنى وزير خارجية ليبريا متسائلاً : « هل أنت مستعد لتوضيح موقف مصر أمام المؤتمر ؟ ورددت فورا بأننى سأبلغ مؤتمر القمة أن مصر لم تعرض جنودا أو أسلحة على المغرب ، وأن مصر تقوم بدراسة الأمر فحسب . وقلت أيضا لسيسيل إننى مستعد لأن أعقد مؤتمراً صحفيا لكى أؤكد لكل شخص أن التصريحات المنسوبة إلى الرئيس السادات غير صحيحة . ووجهت برقية عاجلة إلى مصطفى خليل رئيس الوزراء ، ورويت له هذه القصة . لقد أردت أن يعرف السادات لماذا يتعين علىّ أن أتنصل من تصريحاته ، آملا ألاّ يغضبه ذلك .

وشيئا فشيئا ، استطعت أن أهدىء سيسيل دنيس ، الذى قال فى نهاية المطاف بهدوء : « بطرس ، إن الدفاع عن موقف مصر فى هذا المؤتمر ليس أمرا سهلا » . وخشيت أن يكون على وشك التخلى عن هذه المهمة . فقلت : « ولكنك أنت يا سيسيل تشعر بالاقتناع الكامل بصحة موقف مصر . والواقع ، أن الرئيس تولبرت قد وعد الرئيس السادات بأن المجموعة الإفريقية ، فى ظل قيادتك ، سوف تقف بحزم ضد أى محاولة لتعليق عضوية مصر » .

وقال دنيس إن « الوقت متأخر . وأنت مجهد مثلى تماما . وسوف تتضح الأمور أكثر

غدا . وبعد ذلك نستطيع أن نتفق على استراتيجية لحشد أكبر عدد ممكن من الدول الإفريقية لتقف وراء مصر » .

وبعد ثمانية أشهر ، استولى انقلاب حكومى بقيادة الرقيب أول صمويل ك . دو على الحكم فى ليبريا . وقتل الرئيس وليام تولبرت وتم اعتقال أعضاء مجلس الوزراء . واستأذنت السادات فى أن ألتمس باسمه وباسم مصر أن يتم العفو عن صديقى سيسيل دنيس وأعضاء مجلس الوزراء الآخرين . ووافق السادات ، غير أن زملائى ألحوا علّى بعدم الاتصال بالثوار الليبريين ، بدعوى أن من شأن ذلك استثارتهم لقتل سيسيل دنيس . وبقيت طوال الليل مترددا . هل أتصرف أم لا ؟ وفى صبيحة يوم ٢٢ أبريل ١٩٨٠ ، علمت من وكالة رويتر أن سيسيل دنيس وغيره من الشخصيات المرموقة قد جردوا من ملابسهم تماما ، ونقلوا إلى شاطىء منروفيا ، وتم اغتيالهم هناك . وبحكم البروتوكول الدبلوماسى ، اضطررت فى وقت لاحق إلى استقبال الرقيب أول دو ، ومصافحة قاتل صديقى . أما صمويل دو نفسه ، فقد قتل هو الآخر فى وقت لاحق فى ظروف مروّعة .

وفى يوم الاثنين ، ٣ سبتمبر ١٩٧٩ ، كنت أتناول طعام الإفطار مع وزير خارجية إندونيسيا فى جناحه بالفندق . وأشار بيده بصورة غريبة لكى يبين أن هناك أجهزة تنصت وتسجيل حولنا فى الغرفة . وكانت الدول الرافضة تضغط على إندونيسيا وغيرها من الدول الإسلامية باسم التضامن الإسلامى . وفى كل مرة كنت أحاول فيها دحض موقفهم ، يضع الوزير الإندونيسى يده على فمه ، ويلوّح بيده بسرعة إلى الحائط ، طالبا منى السكوت .

واتجهت من هذا الاجتماع إلى قاعة المؤتمر للاشتراك فى الافتتاح الرسمى لمؤتمر القمة . وكان من بين الحاضرين زعماء دول العالم الثالث : فيدل كاسترو ، جوزيب بروز تيتو ، جوليوس نيريرى ، كينيث كاوندا ، صدام حسين ، حافظ الأسد ، ياسر عرفات ، والملك حسين عاهل الأردن .

وشن فيدل كاسترو هجوما عنيفا على الإمبريالية مؤكدا الصداقة الخاصة التى تربط كوبا والاتحاد السوفيتى . وبالنسبة للمسألة الفلسطينية ، قال كاسترو إنه « بأسلوب يتسم بالغدر وإشاعة الانقسام ، والتشجيع على التفكك ، حاولت الإمبريالية فرض سلام زائف بأساليبها الخاصة . غير أنه سلام مسلح مقزز ، إنه سلام معيب ، وظالم ، وملطخ بالدماء . إن سلاما مثل هذا لا يمكن أن يكون سلاما دائما » . ووصف اتفاقات كامب ديفيد بأنها خيانة للعالم العربى ، والشعب الفلسطينى ، وشعب لبنان ، وشعب سوريا ، وشعب الأردن ؛ وأنها فى الواقع خيانة لكل شخص ، بمن فى ذلك المصريون أنفسهم .

وأعلن كاسترو أنه « لهذه الأسباب ، تشجب حركة عدم الانحياز تماما اتفاقات كامب ديفيد بشكل قوى وقاطع لا يترك مجالا للشك » .

واشتعلت غضبا . وقلت لعصمت عبد المجيد إنه لابد لى أن أرد على وقاحة هذا الرجل فورا . ووافق عصمت فى تردد ، ولكنه أصر على أن يكون ردى هادئا ، ومترويا ، وموجزا .

وعندما بدأت أكتب ردى لدحض ما قاله كانت أعصابى مهتاجة . وكان الرئيس كينيث كاوندا يتكلم بالنيابة عن إفريقيا ، وتكلم آخر عن آسيا ، وآخر عن أمريكا اللاتينية . وأعطانى رئيس جمهورية سرى لانكا ، الذى كان يترأس الجلسة الكلمة ، فقلت : « لقد استمعت إلى الهجوم الموجّه إلى بلدى من جانب الرئيس كاسترو . ومن حقى أن أرد على انعدام اللياقة وانعدام الاحترام للعرف الدبلوماسى فى هذا الخطاب ، وعلى ما احتواه من افتئات على كرامة مصر ، ومن توجيه اتهامات وادعاءات زائفة ضد مصر . وإننى أطلب حق الرد الآن » .

وقد بدا على رئيس الجلسة الاضطراب . وتردد بعض الشيء ، ثم قال إنه سجل حقى فى الرد ، ولكن الوقت لا يسمح بذلك أثناء الجلسة الافتتاحية . ورددت فى غضب إننى أقبل موقف الرئيس ، ولكن بشرط أن تتاح لى فرصة الرد خلال فترة قصيرة من الزمن وفى جلسة علنية .

وانتهت المسألة عند هذا الحد . وفى حين أن كاسترو أدان العديد من الدول فى خطابه ، إلا أن مصر كانت هى الدولة الوحيدة التى لم تتردد فى الرد علنا على هجومه . وبينما كانت الوفود خارجة من القاعة ، أعرب عدد منها عن تقديره الضمنى لما فعلته . فلم تكن هذه الوفود تشعر بالسعادة تجاه هذا الإرهاب اليسارى الذى أحسوا أنه يُفرض عليهم فى المؤتمر .

وعدت إلى غرفتى من أجل إعداد كلمة أرد بها على كاسترو ، وانتهيت من كتابة نص فيما لا يزيد على صفحتين . وبعد ظهر ذلك اليوم ، كان كاسترو هو الذى يترأس الجلسة . وقد افتتح الجلسة قائلا بابتسامة عريضة : « باعتبارى رئيسا للمؤتمر ، أعطى الكلمة لممثل مصر كيما يستطيع ممارسة حقه فى الرد » . وبدأت فى إلقاء كلمتى بهدوء . غير أننى لم أكن قرأت أكثر من بضعة كلمات عندما قاطعنى على التريكى وزير خارجية ليبيا ، وهو يلوّح بيده ويصيح ، « نقطة نظام ، نقطة نظام » .

وتوقفت عن الإلقاء . وأعطى الرئيس كاسترو الكلمة للممثل الليبى ، الذى أعلن أنه

ليس من المعهود الرد على خطاب رئيس جمهورية الدولة المضيفة ، وأن ممثل مصر باستطاعته أن يعرب عما بنفسه أثناء مناقشة مسألة الشرق الأوسط . ورد كاسترو على « التريكى » قائلا إنه ، بالرغم من تقديره لما قاله الممثل الليبى ، فإنه لا يزال راغبا فى إعطاء الفرصة لممثل مصر كى يتكلم الآن .

واستأنفت إلقاء كلمتى وسط صمت تام . وبينما كنت أقرأ كلمتى لم أكن أسمع شيئا سوى همس عصمت عبد المجيد فى أذنى بالفرنسية : « تكلم ببطء ... ببطء » . وأعلنت أمام الوفود أننى قد صُدمت نتيجة للهجوم الذى شنته كوبا ضد مصر . وأضفت : « إن السادات ثورى أصيل ، ولقد واجه العدو فى عقر داره فى شهر نوفمبر ١٩٧٧ . لقد ذهبت مصر إلى القدس من أجل تحرير فلسطين من الإمبريالية الإسرائيلية ، وذهبت إلى القدس من أجل تحرير الأراضى العربية من الاحتلال العسكرى » .

وبينما كنت أتكلم ، تسارعت كلماتى فى حين كان عصمت يواصل همسه : « ابطىء ، ابطىء » . وحاولت اتباع نصيحته . غير إنى كلما تباطأت فى الكلام ارتفع صوتى . وقلت إننى « أقول لكم بكل الموضوعية إن الدولة العربية الوحيدة التى تناضل حقيقة بالنيابة عن الفلسطينيين ، هى مصر ! » .

قال لى عصمت عبد المجيد هامسا : « توقف عن الصياح » . وكان همسه عاليا كما لو كان صياحا هو نفسه . وكانت ضربات قلبى مرتفعة جدا لدرجة أننى لم أكن أعرف ممن أخاف بدرجة أكبر ، الأزمة القلبية أو سماع الوفود لضربات قلبى التى تدق فى صدرى .

ومضيت قائلاً إننى « باسم الرئيس السادات ، أعلن أن مصر مستعدة لتأييد أى قرار ، تصدره حركة عدم الانحياز ، أو الأمم المتحدة ، أو أى منظمة أخرى ، يمكن أن يساعد الشعب الفلسطينى على استعادة وطنه ! » .

وساد القاعة الكبرى صمت تام . كيف يجرؤ هذا المنشق على إلقاء محاضرة على فيدل كاسترو ، رئيس جمهورية كوبا ، ورئيس مؤتمر القمة ، الماركسى وإله عدم الانحياز ، بهذه الطريقة ؟

ولم يدل كاسترو بأى تعقيب على ما قلته ، وواصل فى هدوء إدارة الجلسة . وأعطى الكلمة لممثل كوبا ، وتبعه ممثل مدغشقر ، ثم ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، وتلاه الرئيس الإثيوبى منجستو ثم ممثلو إيران ، وأنجولا ، وفيتنام ، والكونغو . وقد وجه كل واحد منهم إهانة إلى السادات ، ووصفوه بأنه خائن ، وغدر ببلده من أجل الإمبريالية والصهيونية ، وطعن الشعب الفلسطينى من الخلف . واحتفظ

باولو جورج وزير خارجية أنجولا بأفضل ما عنده من إهانات لى . كيف يمكن لهذا الشخص الحقير أن يهاجم عملاق الثورة الكوبية ، فيدل كاسترو ؟. إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بتعليمات من أسياده الإمبرياليين ! ثم تحدث عن الثورة والتقدم فى مواجهة الرجعية والاستعمار كما لو كان هو لينين نفسه .

وعلى عكس اهتياج أعصابى بينما كنت ألقى كلمتى ، فقد كنت هادئا تماما أثناء استماعى إلى سيل الإهانات الموجهة من هذه الدول « التقدمية الثورية » ، (والتى تعتبر غالبيتها من أتباع السوفيت) .

وبعد ذلك ، طلب الرئيس ماثيو كيريكو رئيس جمهورية بنن الكلمة . ووقف يلوّح بيديه بطريقة مسرحية ، وطالب بأن تشطب كلمتى من محاضر الجلسة . وضجت القاعة بالتصفيق . وشعرت بأن مصر على وشك أن تُطرد ليس فقط من المؤتمر بل أيضاً من حركة عدم الانحياز فى هذه اللحظة ذاتها ! وأقسمت لنفسى أنه إذا ما صدر قرار بطرد مصر ، فسوف أبقى فى مقعدى حتى لو كان معنى ذلك استخدام القوة لنقلى من القاعة .

وبينما كانت هذه الأفكار تلوح فى خاطرى ، اعترتنى الدهشة حينما وجدت رئيس جمهورية تنزانيا جوليوس نيريرى ينهض واقفاً ويقول : « لو أن المؤتمر قرر حذف تعليقات ممثل مصر من محاضر المؤتمر ، فما الذى سيحدث للتعليقات والكلمات التى ألقيت عقب كلمته ، وردا عليها ؟ إن الأمر سيصبح غير مفهوم » .

وأحدثت كلمات نيريرى حالة أخرى من الصمت الغريب فى القاعة . فلم يكن هناك أحد يؤيد نيريرى ، وكان جو الرعب الفكرى قد انتشر فى القاعة بدرجة أقوى .

وبعد ذلك ، أعلن كاسترو أن المؤتمر وافق على شطب نص كلمة ممثل مصر من محاضر الجلسة ، وضجت القاعة بالتصفيق المدوِّى . وتعالت صيحات النصر بين الدول الرافضة واليسارية . أما الوفود التى اختارت عدم التعبير عن الاستحسان فقد انكمشت على نفسها بأمل أن تمر العاصفة دون أن تؤذيها .

واستمرت الجلسة ، مع موجة تلو الموجة من الإهانات والكلمات الفاحشة الموجهة ضد مصر ، والسادات ، والوزير الصغير بطرس غالى .

وفى ذلك المساء ، أقام كاسترو حفلا لرؤساء الوفود ووقف عند المدخل ليستقبل ضيوفه . وعندما كنت أصافحه ، قال : « لقد سمعت قبل وصولك أنك خصم خطير ، ولقد تَجلّت لى حقيقة ذلك اليوم » . وأضاف مبتسما أنه يتمنى لى إقامة سعيدة فى هافانا . ولم

تؤد روح المودة التى أبداها إلا لزيادة اهتياجى ، لأنها نقلت إلىّ ثقة كاسترو بأن مصر قد خسرت قضيتها .

وفى حفل الاستقبال حيتنى بضعة وفود بسعادة باعتبارى الفارس الذى حارب عدوا شريرا عملاقا ، غير أن كثيرين نبذونى بسبب عدم التروى تجاه الزعيم الكوبى . وباعتبارى ممثل مصر ، كنت قد طردت من الجامعة العربية ومن المؤتمر الإسلامى ، وسوف أطرد حالاً من حركة عدم الانحياز .

غير أنني عندما وجدت نفسى وجها لوجه مع ياسر عرفات ، فتح ذراعيه واحتضننى ، وقبّلنى قبل أن أتمكن من نطق كلمة واحدة . فلم يتعرف عَلَىَّ وسط هذا الازدحام وتصرف بصورة تلقائية . وبعد القبلات والأعناق ، قلت له ، « هل تعرف من الذى تقبّله وتحييه بهذه الحرارة ؟ » . وتردد عرفات ، ونظر إلىّ فى استغراب . وقلت : « إننى رئيس وفد مصر » . وانسحب عرفات بسرعة ، صائحا : « آه ، بطرس ! آه ، بطرس ! » .

وفى صبيحة يوم الثلاثاء ، تكلم أمام المؤتمر كورت فالدهايم ، الأمين العام للأمم المتحدة ، وتيتو الأب الروحى لحركة عدم الانحياز . وتحدث تيتو ، الذى كان مريضا وخائر القوة بصوت منخفض من مقعده . وكان واضحاً أن أيامه أصبحت معدودة ؛ ولم أكن آمل أن أحظى بتأييد الوفد اليوغوسلافى من أجل قضية عدم الانحياز الحقيقى .

وبعد الظهر ، قمت بزيارة كورت فالدهايم فى استراحته . وأشار إلى كلمتى ، وقال إنه ربما يكون الوقت قد حان لعقد مؤتمر دولى بشأن أزمة الشرق الأوسط . وأضاف أنه يعتزم انتهاز فرصة وجود حافظ الأسد ، والملك حسين ، وياسر عرفات فى هافانا ليبحث ذلك معهم . ومضى قائلا إن أندريه جروميكو وزير الخارجية الروسى قد أوضح له أن الاتحاد السوفيتى يعارض انعقاد مؤتمر دولى لأن ذلك يعنى الاعتراف ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، باتفاقات كامب ديفيد . وقال فالدهايم إنه مقتنع رغم ذلك أنه لو وافق العرب على عقد مثل هذا المؤتمر ، فسوف يعيد السوفيت النظر فى موقفهم .

واستمعت إلى فالدهايم دون أن أفصح عن رأيى بأن السادات لن يقبل عقد مؤتمر دولى فى هذه المرحلة ، وأنه سوف يعارض الفكرة ما دام الانسحاب الكامل من سيناء لم يتم . وبالرغم مما كنت قد قلته فى كلمتى ، فإننى كنت أعرف أن فكرة عقد مؤتمر دولى فى غزة أو العريش ، والتى ذكرها السادات فى منروفيا قبل شهر ، لم تكن سوى مناورة دپلوماسية لإرباك الرافضين العرب . وأنصت إلى فالدهايم ولم أقل شيئاً .

وفى ذلك المساء ، رجعت إلى فندقى لانتظار رئيس وزراء المغرب ، الذى كان قد طلب أن يجتمع بى فى غرفتى فى تكتم . ووصل المسئول المغربى حوالى الساعة العاشرة مساء ، مرتديا عباءة بيضاء طويلة ، ونظارة سوداء ، كما لو كان متوجها إلى حفل أزياء . ودخل هو والسفير المغربى لدى الأمم المتحدة عبد اللطيف الفيلالى إلى غرفتى بعد أن ألقيا نظرات شمالا ويمينا خشية أن يراهما أحد .

ودعوت المغاربة إلى المشاركة فى تناول المشروبات الكحولية والسيجار الفاخر الموضوع فى غرفتى بسخاء من المضيفين الكوبيين ، ونحّيت الدبلوماسية جانبا ، وتكلمت بصراحة . وقلت إن كل شخص يعرف الآن أن أول اتصالات بين مصر وإسرائيل قد جرت فى الرباط بمباركة الملك الحسن . ومن ثم ، فإن الموقف العلنى للمغرب وملكها كان بمثابة صدمة كبيرة لمصر .

وبعد مناقشات كثيرة ، اتفقنا على ثلاث نقاط : الأولى ، أن الدول التى تحاول عزل مصر تختلف عن الدول التى تحاول عزل المغرب بسبب نزاع الصحراء الغربية . وليست هناك جدوى من وراء الإعلان عن تقارب مصرى ـ مغربى ، لأن من شأن ذلك ببساطة جمع المجموعات المختلفة معا فى كتلة ضدنا نحن الاثنين . والثانية ، أن المغرب سيعلن بوضوح أنه لا يحاول الحصول على مساعدة القوات المصرية فى الحرب الدائرة فى الصحراء الغربية . غير أن المغاربة رفضوا طلبى بأن يعلنوا أنه لا صحة للرواية التى تقول إن مصر سوف ترسل جنودا إلى المغرب بناء على طلب من الرباط . والنقطة الثالثة ، أن نواصل تشاورنا من خلال ممثلينا فى نيويورك . وقد فهمت من ذلك أن رئيس الوزراء يريد أن يبقى وزير خارجيته محمد بوسته ، بعيدا عن الصورة . وكان واضحا لى أن اجتماع هذا المساء قد عقد بدون علم بوسته .

وعندما غادر رئيس الوزراء غرفتى ، وضع على عينيه النظارة السوداء مرة أخرى ، وهرع خارجا خلسة .

وصبيحة اليوم التالى ، قمت بزيارة الرئيس موسى تراورى رئيس جمهورية مالى . وكنت برفقة أحمد ماهر الذى كان يحمل معه صينية فضية كبيرة عليها توقيع السادات . وتسلم الرئيس تراورى هديته بابتسامة عريضة .

كان الجو وديا وباعثا على البهجة . وجلسنا إلى جوار نافذة واسعة تطل على أشجار كثيفة تحوط بالفيلا . كانت مئات الطيور تغرد فوق هذه الأشجار . وبدأ تراورى بقوله : « لقد ارتكب الرئيس السادات خطأ » . لقد أتى ممثلو دول الرفض مرات عديدة إلى باماكو

وهم يقومون بجولات الآن فى إفريقيا ، يحثون على إدانة مصر ، ويشرحون مبرراتهم لمعارضة سياسة مصر . غير أن مصر لم تقم باتصالات مماثلة .

وقاطعته قائلا : « يبدو أن فخامة الرئيس لم يتابع الإيضاح الذى قدمته عن أهداف الدبيلوماسية المصرية » . وقاطعنى تراورى بدوره ، وقال فى غيظ : « إذا كان أعداء مصر لا يفهمون السياسة المصرية ، وأصدقاء مصر لا يفهمون السياسة المصرية ، فهل لا تتفق معى على أن هناك شيئا خطأ يتعلق بالسياسة المصرية ؟ » . ومع ذلك فقد أوضح أنه يرفض تماما طرد مصر من مجموعة عدم الانحياز .

وتركت الاجتماع غاضبا من نفسى لأننى فقدت السيطرة على انفعالاتى وقاطعت رئيس دولة بطريقة كانت غير سليمة إلى حد ما . واستمر الموقف المصرى فى التدهور فى المؤتمر ، ولم أجد طريقة لوقف هذا التدهور . وأثناء حفل غداء فى سفارة نيجيريا مع معظم رؤساء الوفود ، كان هناك توافق فى الآراء على أن كوبا تدير المؤتمر بطريقة استبدادية ، بعيدا عن روح الديمقراطية المناسبة لاجتماعات من هذا القبيل . واعترف وزير خارجية الهند بأن الجو الذى يتسم بالإكراه قد جعله يحجم عن التعبير عن نفسه صراحة بالنسبة لأى موضوع .

واستمرت الجلسة المسائية حتى الساعة الواحدة صباحا . وتكلم رؤساء الجمهورية الواحد تلو الآخر عن الخيانة المصرية والانتهاكات المصرية لمبادىء عدم الانحياز . ثم تحدث جوليوس نيريرى وعرض تعريفاً لحركة عدم الانحياز :

إننا لا نشكل كتلة ، وتجمعنا ليس إلا دفاعا عن حق الدول الصغيرة فى البقاء متحررة من التكتلات . وحركتنا حركة تقدمية ولكنها ليست تجمعا لدول تقدمية . وتضم صفوفنا بلدانا اشتراكية ، ولكن حركتنا ليست حركة لبلدان اشتراكية . ولو أردنا أن تتحول حركتنا إلى كتلة أو تضم كتلة من الكتل ، فإن ذلك يعنى انتهاء وجودها وضياع أى تأثير لها على أحداث العالم ، وضياع أى فعالية فى العمل لمصلحة السلم ...

وقد أحسست بالابتهاج وأنا استمع إلى هذا التعريف ، وابتسمت .

لابد أن تبقى حركة عدم الانحياز مجموعة من الدول غيورة على استقلالها ، وفخورة بعدم انحيازها ، وتتمسك بمبدأ العدالة بين الشعوب والأمم ، وترفض دون تردد فكرة التحالفات مع أى كتلة أو أى دول كبرى .

وقد برزت خطبة نيريرى ، فى صفائها وجوهرها ، متميزة بصورة حادة من بين عشرات الخطب التى شغلت ساعات طويلة من وقت هذا المؤتمر .

وكان السفير عصمت كيتانى بوزارة الخارجية العراقية رئيسا للجنة المكلفة بمراجعة الاقتراح الخاص باستنكار سياسة مصر . وقد اجتمعت بأعضاء اللجنة جميعا طوال ليلة ٦ سبتمبر ١٩٧٩ ، وحتى الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالى . وقد اشترك أعمدة الرفض العربى : عبد الحليم خدام من سوريا ، وسعدون حمادى من العراق ، وفاروق قدومى من فلسطين ، والبجاوى من الجزائر ، ناهيك عن الراديكاليين الأفارقة .

وقد تحدث خدام أولا ، وبصورة مطوّلة ، وبصفة أساسية عن الحروب الصليبية . وقال إن سيناء ليست أرضا مصرية ولكنها جزء من فلسطين . وقد أغاظت كلماته الكثيرين من الحاضرين ، واحتج بعضهم لأنه بذلك يلحق ضررا بقضية الرافضين .

وتدخلت مرتين ، الأولى بعد منتصف الليل بوقت قصير ، والمرة الثانية قبل الفجر مباشرة بينما كان ضوء النهار الجديد قد أخذ فى الظهور . قلت إن « الجزائر قد اتهمت مصر ببيع ضميرها لأمريكا ، وذلك فى نفس الوقت الذى تبيع فيه الجزائر نفطها للبلد نفسه . وأضفت أن الجميع يعرفون أن الأيدى السورية مخضبة بدماء الفلسطينيين الذين قُتلوا فى تل الزعتر . ولا تزال الأيدى الأردنية مخضبة بدماء الآلاف من الفلسطينيين الذين قتلوا فى شهر سبتمبر (أيلول) الأسود عام ١٩٧٠ » .

وطوال الجلسة ، تركت قاعة المؤتمر مرات عديدة من أجل الاجتماع بالزملاء الأفارقة والإلحاح عليهم لتأييد موقفى . وقد اجتمعت سرا مع ممثل الإمبراطور بوكاسا ، إمبراطور جمهورية إفريقيا الوسطى ، فى مرحاض للرجال ، وفى هذا المكان المستبعد حصلت على تعهد منه بالدفاع عن مصر . كانت اتصالاتى مثمرة وأفضت بمجموعة عريضة من الوفود الإفريقية إلى إعلان معارضتها لمبادرة دول الرفض ، ومساندتها لمصر . لقد كانت زائير ، توجو ، ليبريا ، زامبيا ، كوت ديفوار ، وكينيا جميعها مؤيدة ، وانضمت إليها بعض الدول الآسيوية مثل نيبال وسنغافوره والدول اللاتينية مثل بيرو والأرجنتين . غير أن السودان والصومال ويوغوسلافيا والهند بقيت صامتة مما أثار غيظى .

وفى الساعة السادسة صباحا ، أعلن عصمت كيتانى رئيس الجلسة ، والذى كان يتكلم بطريقة هادئة ، وموضوعية ، وتتسم بالخبرة ، أنه من بين ٤٩ متكلما ، اعترض ٢٤ متكلما على الاقتراح الخاص بإدانة مصر وتعليق عضويتها ، فى حين أن ٢٣ متكلما أيدوا هذا الاقتراح . وإذ لاحظ أن قرارات القمة تتخذ بتوافق الآراء ، فقد أعلن بهدوء أن اللجنة لم تستطع الموافقة على موقف موحّد . ولهذا السبب ، فقد قرر أن يعرض المسألة على مؤتمر القمة نفسه . وقد أبلغنى كيتانى ، الذى عينته بعد مضى ستة عشر عاما ، كبيرا لمستشارى

أمين عام الأمم المتحدة ، أن صدام حسين قد وبّخه بعنف لفشله فى الحصول على توافق الآراء ضد مصر .

وطلب عبد الحليم خدام إعطاءه الكلمة ، وعند هذه اللحظة قلت بصوت مرتفع حتى يسمعنى كل شخص : « علشان خاطر النبى ، لماذا لا تنام وتترك الآخرينليناموا أيضاً ؟ » . فضحك الجميع وغادرت القاعة .

وصبيحة اليوم التالى ، علمت أنه أثناء اجتماعنا حتى الفجر على المستوى الوزارى ، جرى اجتماع ثان ضم ياسر عرفات ، وفيدل كاسترو ، وعددا من الزعماء الأفارقة . وقد توصل هذا الاجتماع إلى اتفاق يقضى بـ : (١) شجب اتفاقات كامب ديفيد ؛ (٢) وضع مصر تحت الاختبار من قبل لجنة خاصة أنشئت لمراقبة الإجراءات التى تتخذها مصر بشأن المسألة الفلسطينية ؛ (٣) المطالبة بإعداد تقرير بشأن طرد مصر من حركة عدم الانحياز .

وفى ذلك اليوم ، اجتمعت أنا والرئيس كينيث كاوندا رئيس جمهورية زامبيا ، الذى اعتاد أثناء حديثه أن يعبث بعصبية بمنديل أبيض . قال كاوندا إنه ليس هناك من ينازع حق السادات فى استرداد الأرض المصرية بالطريقة التى يراها مناسبة ، إلا أنها ستكون كارثة لو أن السادات خسر صداقة الزعماء الإفريقيين مثل نيريرى وهو نفسه . وأضاف أن ما أثار غيظه بقوة هو اختيار السادات للوقت الذى يجتمع فيه مؤتمر هافانا ـ وهو موعد محدد من شهور عديدة ـ للقيام بزيارة لإسرائيل والاجتماع مع بيجن فى حيفا بدلا من الاجتماع مع كاسترو فى هافانا . ولو كان السادات قد جاء إلى هافانا ، مثلما ذهب إلى منروفيا ، لاستطاع أن يزيل أى سوء فهم يتعلق بالسياسة المصرية . وأضاف وهو يعبث بمنديله الأبيض ، أن محنة الفلسطينيين لها حساسية خاصة لدى جميع الأفارقة بسبب التشابه بين ما يفعله المستوطنون الإسرائيليون فى فلسطين وما فعله المستوطنون البيض فى جنوب إفريقيا . والواقع ، أن التعاون الوطيد بين نظام الحكم الإسرائيلى ونظام الحكم العنصرى فى جنوب إفريقيا يعتبر سببا إضافيا لمشاعر الغضب بين الأفارقة .

وقال كاوندا ، مشيرا إلى تصريح السادات عن المساعدة العسكرية المصرية للملك الحسن فى نزاع الصحراء الغربية : « أود ، أود ، وأطلب بإصرار من شقيقى السادات ألا يضع مصر فى مواقف تتعارض مع القارة الإفريقية بكاملها » . ولفّ كاوندا منديله على شكل عقدة ، وأصبح صوته كما لو كان نحيبا . والحقيقة أن كاوندا قد أطلعنى على أنباء طيبة : وهى أنه ساعد فى صياغة قرار هافانا المقترح ، وأنه سوف يكون مستندا إلى القرارات التى اتخذها من قبل مؤتمر منروفيا .

وعندما بدأت الجلسة المسائية ، لم تنسحب الوفود العربية من القاعة عندما تكلمت . وفى كلمتى ، ذكرت اسم أنور السادات مرات متكررة ، ولكن غرضى الأساسى كان هو أن أعيد إلى ذاكرة المستمعين إلىّ المبادىء التأسيسية لحركة عدم الانحياز . وإذ وجهت كلماتى إلى الرئيس كاسترو ، فقد أبرزت أن كوبا قد شاركت فى وضع المبادىء التوجيهية الخمسة لعدم الانحياز : انتهاج سياسة مستقلة قائمة على أساس التعايش السلمى ؛ وتأييد حركات التحرير الوطنى ؛ وعدم الاشتراك فى الأحلاف العسكرية للدول الكبرى ؛ وعدم الاشتراك فى احلاف عسكرية ثنائية مع أى من الدول الكبرى ؛ وعدم السماح بإقامة القواعد العسكرية للدول الكبرى فى أراضى دولة من دول عدم الانحياز .

ومع إيراد قائمة المبادىء التوجيهية ، أكدت لجميع الحاضرين أن بعض الحكومات الممثلة فى هافانا لم تحترم هذه المبادىء التوجيهية . وأن أبرزها هى كوبا ، مضيفة المؤتمر ، والتى تحالفت مع الاتحاد السوفيتى ، وسمحت له بإقامة قواعد عسكرية فى أراضيها . وقلت إن مصر قد رفضت ضغط الاتحاد السوفيتى الرامى إلى إبرام اتفاق دفاع سوفيتى - مصرى . وأعلنت أننا كمصريين نفخر بتراثنا المصرى ، وكأفارقة نفخر بتراثنا الإفريقى ، ونحن كدولة من دول عدم الانحياز نفخر برفضنا الانحياز لأى كتلة عظمى . وشددت على ضرورة تمسك حركة عدم الانحياز بالقرار الصادر عن منظمة الوحدة الإفريقية فى كل شىء يتعلق بإفريقيا . وقلت إن هذا يتطلب أن يمتثل مؤتمر هافانا للقرارات التى أصدرها مؤتمر منروفيا بشأن مسألة سياسة مصر وكامب ديفيد .

ومضيت قائلا إن مصر أصبحت قادرة بمقتضى معاهدة السلام مع إسرائيل ، على استعادة أراضيها المحتلة والحفاظ على سلامتها الإقليمية . وإن ذلك ينبغى اعتباره انتصارا للعرب ، وللدول العربية ، وانتصارا لإفريقيا وأبناء إفريقيا ، وأيضاً انتصارا لدول عدم الانحياز ولمبادىء عدم الانحياز .

وتمهلت للحظة ، ثم وجهت كلماتى إلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ياسر عرفات . « من فوق المنصة ، وبمناسبة انعقاد قمة هافانا ، وفى حضور هذا الجمع الموقر من رؤساء الجمهوريات والزعماء ، أمد يدى بكل الإخلاص والأمانة إلى منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها . وأعلن رسميا وبدون تردد أو تحفظ أن مصر المقاتلة ، سوف تواصل القتال لمصلحة أشقائها الفلسطينيين إلى أن تولد الدولة الفلسطينية . ومصر مستعدة لأن تمد يد التعاون إلى أى دولة عربية لفتح حوار أخوى من أجل التوصل إلى حل شامل وعادل للصراع فى الشرق الأوسط » .

وعند انتهاء كلمتى ، اتجهت إلى مقعدى . وعند مرورى بجانب الوفد الزامبى ، وجدت الرئيس كاوندا جالسا هناك . وفى تحلل كامل من قواعد البروتوكول ، جلست على مقعد بجانبه ، وقلت : « سيدى الرئيس ، لقد قلت لى منذ بضع ساعات مضت إن القرار الذى ستصدره قمة هافانا سوف يستند إلى قرارات منروفيا ، غير أننى عرفت الآن أن القرار المقترح الذى سيعرض على رؤساء الجمهوريات سيكون متناقضا تماما مع قرارات منروفيا » .

وقاطعنى الرئيس كاوندا فى غضب وقال بصوت عال : « هل تعنى أننى قد كذبت عليك ؟ » . وأجبت : « لا يا سيدى الرئيس . إن فخامتكم رئيس دولة وأنا لست سوى وزير . وأنا أعرف حدودى . وأكنُّ كل الاحترام لكم . لقد جئت إليك فقط راجيا مساعدتكم . لقد أبلغنى الرئيس أنور السادات أن ألجأ إليكم إذا ما صادفت مصاعب أو عقبات . إن « كينيث كاوندا » ، وهذا ما قاله السادات ، « مثل شقيقى وبوسعه أن يرشدك إلى الطريق الصحيح » .

وشعرت بمدى حرج الرئيس كاوندا عندما اكتفى بمجرد الابتسام . وفى هذه اللحظة ، مر سامورا ميتشل رئيس جمهورية موزمبيق أمامنا ، ودعاه كاوندا . وانضم إلينا ميتشل ، وقال : « سيادة الوزير المصرى ، إننا نحن الأفارقة قد ضاق صدرنا بمشاجراتكم العربية . أرجو أن تترك مقعدك لى كيما أستطيع بحث المسائل الإفريقية مع شقيقى كاوندا ! » . ونهضت واقفا من مكانى ، فى غضب وفاقدا الأمل . ولم أجد أى جدوى فى بذل المزيد من الجهد .

وفى يوم السبت ، ٨ سبتمبر ١٩٧٩ ، صدر قرار المؤتمر الذى يدين مصر . ونهض فيدل كاسترو من أجل إعلان الحكم بالإدانة . وأوضح أن كوبا ، بنجلاديش ، الكونغو ، جرينادا ، غيانا ، الهند ، ليبيا ، وحركة سوابو (منظمة شعب جنوب غرب إفريقيا) ، بنما ، كوريا ، سنغافوره ، أوغندا ، يوغوسلافيا ، زامبيا ، العراق ، موزمبيق ، سرى لانكا ، وسورينام ، قد وافقت كلها على الاقتراح . وقد بدأت المناقشة حوالى العاشرة مساء وانتهت فى الرابعة صباحا بإصدار إدانة اتفاقات كامب ديفيد . وقد أيدت الإدانة ٢٢ دولة ، ولم تعترض عليها غير ست دول من بينها مصر . أما الدول المتبقية الحاضرة ، والتى كانت تشكل الغالبية ، فقد فضلت أن تنأى بنفسها عن هذه المعركة . واعتبرت رئاسة المؤتمر هذا الصمت موافقة .

وعندئذ تكلم وزير خارجية ليبريا ، باعتباره رئيسا للمجموعة الإفريقية ، وقال إن القرار المقترح يتناقض مع قرارات منروفيا . ونهض وزير خارجية السنغال ، مصطفى

نياسى ، وهاجم الأساليب « الإرهابية » المستخدمة فى المؤتمر ، وأعلن رفض حكومته لهذا القرار . وأدان بطريقة مقذعة تلك الدول الإفريقية التى كان موقفها فى هافانا متعارضاً مع موقفها فى منروفيا .

وتمخض عنف كلمة مصطفى نياسى عن نتيجة عكسية بالنسبة لنا . ورد كاوندا قائلا إن الوزير السنغالى قد أظهر عدم احترام للتقاليد الإفريقية باحترام رؤساء الدول واحترام السن . ولمس بيده شعر رأسه الأبيض ليدلل على أنه هو من هذا القبيل . وقال كاوندا إنه عندما يتكلم كينيث كاوندا فإنه يتحدث باسم إفريقيا لأنه زعيم إفريقى ، غير أنه عندما يتكلم مصطفى نياسى فإنه ليس سوى وزير يتجاوز اختصاصه . وهكذا لو كان هناك أى مسئول آخر يفكر فى التكلّم دفاعا عن مصر ، فإن كلمة كاوندا قد أسكتته . واستنتاجا مما قاله ، بات واضحا أن كاوندا يؤيد بوضوح الرافضين فى المؤتمر .

وفى الساعة الرابعة صباحاً ، أعلن كاسترو انتهاء أعمال المؤتمر . ورجعت إلى الفندق والتجأت إلى سريرى ، ولكننى لم أنم . فقد كانت كل الصراعات التى أحاطت بهذه الجلسة تدور فى رأسى ، والصور تتلاحق الواحدة بعد الأخرى . وبالرغم من أننى قد خسرت المعركة ، فإن ما كان يريحنى هو اعتقادى بأننى قد اضطلعت بمسئوليتى بصورة سليمة .

وفى صباح اليوم التالى ، أوجزت أفكارى فى تقريرى عن هذه الجلسة :

كان بين الحاضرين فى هافانا توافق كامل تقريبا فى الآراء إزاء معارضة اتفاقات كامب ديفيد . وكانت الحجة فى ذلك هى أن حركة عدم الانحياز قد اعترفت بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى ؛ وأن المنظمة قد شجبت هذه الاتفاقات ، ومن ثم فإنه لابد للمؤتمر أن يشجب هذه الاتفاقات أيضا .

وكان أعضاء المؤتمر على اقتناع بأنه ليس لمصر الحق فى التفاوض بشأن المسائل الفلسطينية فى غياب منظمة التحرير الفلسطينية .

وكان الاعتقاد العام هو أن معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية ليست سوى سلام منفصل . وحتى لو كانت بعض الدول قد أعربت عن الرأى بأن لمصر الحق فى أن توقع أى اتفاق مع إسرائيل ترى أنه مناسب لاستعادة أرضها ، فإن دولة واحدة لم تتصد للدفاع عن معاهدة السلام .

وبالمثل ، كان هناك اقتناع بين العديد من الدول بأن إسرائيل أصبحت أكثر عدوانية

منذ توقيع اتفاقات كامب ديفيد ، كما لو كانت قد حصلت بمقتضى هذه الاتفاقات على حرية أكبر بالتدخل فى الأراضى العربية المجاورة .

وكان مؤكدا أن الحملة ضد مصر سوف تستمر ، وأن المعركة سوف تنتقل إلى الأمم المتحدة حيث يسعى أعداء مصر إلى استصدار قرار من الجمعية العامة يدين مصر .

غير أننى أشرت أيضا إلى بعض النقاط الإيجابية :

لقد استطاعت مصر ، فى هافانا ، أن تتصدى للمحاولات التى تزعم بوجود تحالف طبيعى بين دول عدم الانحياز والدول الاشتراكية . وأنه بالرغم من الجهود الكبيرة التى بذلتها دول الرفض ، لم يتم إصدار قرار بتعليق عضوية مصر فى حركة عدم الانحياز . كذلك ، تم ترسيخ وجود تيار إفريقى قوى وعميق مؤيد لمصر .

ومع أن الدول الراديكالية ، وكوبا فى مقدمتها ، تعاونت مع دول الرفض العربية ، إلا أنها رفضت أن تتبع العرب حتى نهاية الطريق . ولاريب أن كاسترو لم يكن يريد أن يُتخذ قرار فى هافانا من أجل تعليق عضوية مصر . وكان شعوره على ما يبدو هو فليحدث ذلك فيما بعد وفى مكان آخر .

وكان بوسعى شرح معاهدة السلام واتفاقيتى كامب ديفيد لعدد من الدول الصديقة مزيلا الشكوك والهواجس بينها .

كان هناك شيء واحد لا مجال فيه للشك وأبرقت به إلى القاهرة ، وهو أن السلبيات تفوق الإيجابيات فى الحساب الأخير . غير أن ذلك يجب ألا يقلل من عزيمتنا . فسوف يتحقق النصر لمصر عندما يتم انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء وبعد أن يفضى إجراء الانتخابات فى الضفة الغربية وغزة إلى إقامة حكم ذاتى فلسطينى كامل .

وفى تلك الليلة هبت عاصفة عاتية ، وظلت جميع الطائرات قابعة فى أرض المطار . وإننى لمدين لهذه العاصفة التى أتاحت لى ساعات للراحة وإعداد الإعلان الذى كان يتعين علّى إلقاؤه أمام البرلمان الأوروبى فى ستراسبورج خلال بضعة أيام . وقد جاءنى مراسل مجلة « نوفيل *أوبزرفاتور* » الأسبوعية ، وقال : « لقد كنت الهدف الرئيسى للنقد فى مؤتمر هافانا » ، وتساءل عما إذا كنت أتوقع أن يتم فصل مصر من حركة عدم الانحياز أثناء مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الانحياز المقرر عقده بعد عام ونصف العام من الآن ؟.

ورددت عليه مشيرا إلى قصة جحا ، والحمار ، والسلطان . فقد طلب السلطان من وزيره أن يجد له شخصا ما يستطيع تعليم حماره القراءة والكتابة ، وقال إنه سيكافىء من ينجح فى هذه المهمة ويعاقب من يفشلون فيها . ولم يستطع الوزير العثور على أى شخص

يقبل هذه المهمة سوى جحا ، الذى طلب منه عشرة آلاف دينار وفترة زمنية مدتها خمس سنوات . وعندما جاء أصدقاء جحا إليه ليسألوه عن السبب فى قبوله هذه المهمة والتى سيفشل فيها حتما مما يؤدى إلى شنقه ، قال لهم فى هدوء : « من يعرف ؟ بعد خمس سنوات قد يكون السلطان قد مات . وبعد خمس سنوات قد يكون الحمار قد مات . أو قد يكون جحا قد مات » . وفى المجال الدبلوماسى ، يمكن لفترة ٢٤ ساعة أن تكون زمنا طويلا .

جولة جديدة فى الاسكندرية

وفى طريق عودتى إلى الوطن من هافانا عن طريق باريس ، تقابلت مع وزير الخارجية الفرنسى الجديد جان فرانسوا - بونسيه . قال وهو يعدّل ياقة معطفه ويتكىء إلى الخلف بمقعده : « موشى ديان كان يجلس فى هذا المكتب ، الذى تجلس فيه ، منذ فترة قصيرة . وقال لى ديان دون مواربة أن ما تم إبرامه بين مصر وإسرائيل ليس سوى سلام منفصل ، وإنه عندما تتفاوض إسرائيل حول الضفة الغربية وقطاع غزة ، فلن يكون الموضوع هو السيادة على هذه المناطق بل فقط إعطاء الحكم الإدارى للفلسطينيين ، ولا شىء غير ذلك » . وأضاف فرانسوا - بونسيه قائلا إنه بذلك ، يكون ديان قد أكد نية إسرائيل فى الاحتفاظ بالضفة الغربية . وأن الدبلوماسية الأمريكية قد أخطأت ، لأنه بينما كان انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة أمرا مفترضا فيما مضى ، فإنه أصبح الآن موضوعا للتفاوض .

وكدت أسرُّ لوزير الخارجية الفرنسى أننى ربما أشاركه رأيه ، غير أننى كبحت جماح نفسى ودافعت بحماس عن دبلوماسيتنا . وبعد ذلك فى مؤتمر صحفى عُقد فى إحدى القاعات الكبرى فى فندق « كريون » ، صادفت صحافة معادية . لماذا تختلف تصريحاتكم عن التصريحات التى يدلى بها الرئيس السادات ؟. ألم تخلق معاهدة مصر مع إسرائيل الأزمة اللبنانية ؟. وكيف شعرت عندما مددت يدى لمصافحة ياسر عرفات فى هافانا ، ورفض الزعيم الفلسطينى مصافحتى ؟. ورددت على هذه الأسئلة بقوة .

وعند عودتى إلى القاهرة ، تلقيت محادثة تليفونية من الرئيس السادات يوم ٢١ سبتمبر ، قال فيها بغضب : « لا أريد منك أن تخشى من شن أى معركة سياسية . فسوف نستمر على هذا المسار ونمضى فى عملنا بغض النظر عن الرفض العربى أو الرفض غير العربى » . وأدركت من محادثته أنه قد قرأ البرقيات التى كنت قد أرسلتها من هافانا . وتحدث السادات بصورة مطوّلة فى حين أننى اكتفيت بالإنصات أو هممت بالموافقة .

وبعد مضى يومين ، استدعانى الرئيس للاجتماع به فى الاسماعيلية ظهرا . ووصلت متأخرا بضع دقائق وأسرعت إلى استراحة الرئيس الخاصة التى تطل على قناة السويس .

كان السادات يرتدى بدلة تدريب زرقاء اللون وحذاء أبيض ، وفكرت بينى وبين نفسى أن هذا الحذاء لا يتناسب أبدا مع ملابسه . وكان مع الرئيس عند استقباله لى ، المهندس عثمان أحمد عثمان ، الذى لم ينطق بكلمة إلاّ بعد أن كان الاجتماع قد دام بضع ساعات ، محاولا إقناع السادات بأن يقوما برياضتهما اليومية بالسير على الأقدام معا ، ولكن دون جدوى .

وأبلغت السادات بمخاوفى من أن مصر أخذت تصبح معزولة دبلوماسيا . وأنصت السادات إلى حديثى بهدوء لبعض الوقت ثم قاطعنى قائلا : « أريد منك نقل مقعدك » . ولم أفهم ما يقصده . فإن أفكارى كانت بعيدة تماما عن مقعدى . وعندما استفسرت منه ، كرر العبارة ذاتها : « أريد منك يا بطرس أن تنقل مقعدك من مكانه حتى تستطيع أن ترى الضفة الشرقية لقناة السويس » .

ونفّذت تعليمات الرئيس . ومن موقعى الجديد ، استطعت رؤية صحراء سيناء المجيدة على الضفة المواجهة لنا . وأمامى ، كانت هناك أشجار خضراء وحدائق تحوط باستراحة الرئيس الخاصة ، ووراء ذلك ، كانت المياه فى القناة تلمع وتعكس ضوء الشمس . ومن بعدها ، كانت تبدو رمال الصحراء الصفراء .

وقال الرئيس ، وهو ينطق كلماته فى تباطؤ متعمد : « إننى لا أرغب فى الاستهانة بحجم المشاكل والهموم التى تواجهها الدبلوماسية المصرية . غير أن كل هذه المشاكل والهموم تتضاءل بالنسبة للأرض التى استعدناها . إنها لا تساوى مترا مربعا واحدا من هذه الأرض التى استرددناها دون إسالة دماء أبنائنا . بطرس ، إننى لا أريد أن أنتقص من الجهود التى تبذلها . ولكننى أؤكد لك أن مترا مربعا واحداً من هذه الأرض المصرية أهم كثيرا من الصعاب الدبلوماسية التى تواجهها . إننى لا أخشى الإدانات . وأنا لا أخشى البلدان التى تقطع علاقاتها الدبلوماسية معنا . وأنا لا أخاف من استفزازات وسفاسف البلدان العربية » . وظل السادات يتكلم طوال الساعات التالية وأنا أنصت إليه ؛ ولم يترك لى فرصة للرد أو التعليق على ما قاله . وهاجم بشراسة « الدول فى الخليج وإفريقيا التى ليست سوى زمرة صغيرة لا قيمة لها سياسيا أو ثقافيا أو اقتصاديا » .

والحقيقة ، إنه عندما انتهى الاجتماع ، كنت على اقتناع كامل برأى السادات : إذ

ليس هناك مجال للمقارنة بين طرفى المعادلة ؛ إذ إن العزلة السياسية سوف تنتهى بعد فترة ، ولكن الأرض المستعادة ستظل أرضنا إلى الأبد .

وبدأت الجولة السادسة من مفاوضات الحكم الذاتى يوم الأربعاء ، ٢٦ سبتمبر ١٩٧٩ ، فى الإسكندرية . وظلّ القادة المصريون ، من رئيس الجمهورية إلى رئيس الوزراء ، فى الاسكندرية لمدة أسبوع تقريبا . كان السادات قد قرر ترتيب استعراض كبير ليبيّن أن فترة مفاوضات الحكم الذاتى ، التى كانت قد استمرت عشرة شهور ، قد حققت تقدما . إلا أن الحقيقة كانت على خلاف ذلك .

وسافرت إلى الاسكندرية مع الفريق أحمد بدوى على متن طائرة « ميستير » أقلتنا من ألماظة إلى مطار النزهة فى أقل من ٢٠ دقيقة . ولاحظت أن الفريق بدوى قد تقدمنى دون تردد عندما وصلنا إلى الطائرة . ومع أننى لا أهتم عادة بمثل هذه الأمور ، إلا أن افتقاره للمجاملة وتقاعسه عن دعوتى إلى دخول الطائرة قد لفت انتباهى ، ولا سيما أننى كنت ضيفه . غير أنه بعد أن وصلنا إلى مطار النزهة ، وأبديت ملاحظة عابرة لأحد مسئولى البروتوكول ، أبلغت - ولم أكن أدرك ذلك من قبل - أن رئيس أركان الجيش يتقدم ، حسب قواعد البروتوكول ، الوزراء .

وبدأت المفاوضات فى الساعة الحادية عشرة والنصف فى قاعة فندق سان ستيفانو . وفى كلمته الافتتاحية ، قال الدكتور مصطفى خليل إنه منذ الجولة الخامسة من المحادثات ، وقع حادثان على جانب من الأهمية : الأول ، هو زيارة الرئيس السادات إلى حيفا ، والتى خلقت جوا إيجابيا فى العلاقات المصرية - الإسرائيلية . والحادث الثانى هو محاولتى تعديل قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى الأمم المتحدة فى نيويورك ، أو استصدار قرار جديد محله . وأضاف الدكتور مصطفى أن مصر رفضت هذه المحاولات لأنها أرادت إتاحة فرصة كافية من الوقت لمفاوضات الحكم الذاتى ، وذلك من أجل إيجاد حل لهذه المشكلة . وقد ضايقنى هذا التعليق من جانب مصطفى خليل . فلقد أعلنت دائما ترحيب مصر بإصدار قرار جديد لمجلس الأمن يتم به تعديل القرار ٢٤٢ ، وذلك بالنص على منح حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى . ولم أكن أعتبر ذلك متناقضا مع اتفاقات كامب ديفيد أو المفاوضات المتعلقة بالحكم الذاتى . وواقع الأمر ، أن قرارا جديدا كان سيدعم المركز التفاوضى المصرى داخل إطار كامب ديفيد .

ولم يتخذ مجلس الأمن إجراءً ما ، والواقع أنه رفض مناقشة الأمر . ولذلك ، فإنه لم يكن هناك داع لمصطفى خليل لكى يسجل رسميا وعلنيا ، أن مصر ترفض تعديل القرار ٢٤٢ . فهو بعمله هذا ، قد قيّد حركة الدبلوماسية المصرية مستقبلا .

وأعرب الدكتور مصطفى خليل بعد ذلك عن استيائه لإعلان إسرائيل فى الذكرى الأولى لتوقيع اتفاقات كامب ديفيد ، أنه سيُسمح للإسرائيليين بشراء الأراضى فى الضفة الغربية وغزة . وأضاف السفير الأمريكى جيمس ليونارد أن الولايات المتحدة الأمريكية تعارض ، بصورة علنية ورسمية ، هذا القرار الإسرائيلى .

وعندما أعلن ليونارد ذلك ، أصبح الجو متوترا . وبدأ أعضاء الوفد الإسرائيلى يتهامسون كل منهم مع الآخر ، فى حين كان آريل شارون يقوم ويقعد بحركات مفاجئة على مقعده ويلوح بيديه طالباً الإنصات إليه . واكفهرّ وجه وزير العدل الإسرائيلى شامويل تامير . غير أن يوسف بورج تدخل فى أدب . وباعتباره رئيسا للوفد ، تكلم فى هدوء ردا على مصطفى خليل وليونارد . وقال إن القانون الأردنى كان معمولا به فى الضفة الغربية ، وإنه كان يميّز بين العرب واليهود ، لأنه لم يكن يسمح لليهود بشراء الأرض . وأثناء الاحتلال البريطانى ، تعرض اليهود لاضطهاد دينى وعنصرى منعهم من شراء الأرض . ولذلك ، فإن الحكومة الإسرائيلية قررت تصحيح هذا الوضع . وإن توقيت إصدار قانون مجلس الوزراء فى الذكرى الأولى لتوقيع اتفاقات كامب ديفيد ، هو تزامن غير مقصود . وبعد ذلك ، قدَّم وزير العدل ، تامير ، إيضاحات مماثلة للقرار الإسرائيلى .

وبينما كنت أنصت إلى هذه الأكاذيب ، كدت أفقد تحكمى فى نفسى . فأولاً ، فوّض مصطفى خليل الدبلوماسية المصرية ؛ وبعد ذلك كشف بورج وتامير عن ازدواجية إسرائيل . لقد كانت هذه هى القطرة التى جعلت المياه تفيض من الكوب . وطلبت الإنصات إلى ما سأقوله : « أرجو أن تسمحوا لى بأن اختلف مع ما قاله وزيرا الداخلية والعدل الإسرائيليان . إن الهدف من المفاوضات التى نجريها فى الوقت الحاضر هو ، فى نهاية الأمر ، تحقيق مشاركة الفلسطينيين فى هذه المفاوضات . إذ أنه بدون مشاركة الفلسطينيين لا أتصور أنه سيكون ممكنا التوصل إلى أى نتيجة . ولاريب أن قرار الحكومة الإسرائيلية بالسماح للإسرائيليين بشراء الأراضى العربية فى الضفة الغربية وغزة لن يشجع الفلسطينيين على الاشتراك معنا فى التفاوض أو فى عملية السلام . إن هذا الموقف الإسرائيلى قد خلق أزمة ثقة جديدة فى ذكرى توقيع اتفاقات كامب ديفيد » .

ورفعت صوتى ـ كما لو كنت ما زلت فى مؤتمر هافانا ـ وأشرت إلى شامويل تامير : « أرجو أن تسمح لى بتوجيه سؤال إليك يا سيادة وزير العدل . ألم يكن القرار الصادر فى عام ١٩٦٧ والذى يحظر على الإسرائيليين شراء الأراضى العربية فى الأقاليم المحتلة ـ قرارا إسرائيليا صادرا عن الحكومة الإسرائيلية ذاتها ؟ فلماذا تراجعت إسرائيل عن هذا الموقف ؟. ولما تتخذون الآن قرارا ضد ما كنتم قد قررتموه فى عام ١٩٦٧ ؟.

هل تستطيع الرد على هذا التساؤل ؟. وهل تعتقد بإخلاص أن هذا القرار يساعد عملية السلام ؟. إنه بدون مشاركة الفلسطينيين ، سوف تظل مفاوضاتنا مجرد ممارسة نظرية تماما لا صلة لها بالواقع ، ولن يشجع قراركم الفلسطينيين على الاشتراك فى محادثاتنا ! » .

وبينما كنت ألقى كلمتى ، لاحظت نسيم وزير الدولة الإسرائيلى ، الذى لم يتكلم أبدا فى الجلسة ، يهمس بعصبية فى أذن شارون . وحالما انتهيت من كلمتى ، قفز وزير الدفاع الإسرائيلى من مقعده وطلب إعطاءه الكلمة فى حين كان شامويل تامير يتململ فى مقعده بعصبية . ولم يلتزم بالهدوء إلا يوسف بورج . وبدون إظهار أى غضب ، تكلم بورج كما لو كان كبير الأساقفة الذى يصدر كل يوم فتاوى لا يقبل إزاءها أى مناقشة : « إننى أعترض تماما على ما قاله الدكتور غالى الآن . إن قرارات الأمم المتحدة التى يتكلم عنها الوزير المصرى تحظر حيازة الأراضى بالقوة ، غير أنه حسب علمى لا تحظر هذه القرارات حيازة الأراضى عن طريق الشراء » . وابتسم بورج بخبث . فلقد كان مغتبطا إلى حد كبير بعبارته ومقتنعا تماما أنه بهذه العبارة قد أسقط جميع الحجج التى قدمتها . ثم أضاف بورج وهو يفيض بالثقة فى نفسه : « هل من المنطقى أن يكون لليهود الحق فى شراء الأراضى فى أى مكان فى الولايات المتحدة الأمريكية ولكن لا يسمح لهم بشراء الأراضى فى بلدهم ؟ » .

وقلت والغضب يشوب صوتى : « إننى لأتساءل عما تكون بواعثنا ، نحن جميعا ، فى هذه المفاوضات ؟. أليس هدفنا هو إقامة سلطة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة ؟. وإننى لأتصور أنه عندما تُقام هذه السلطة ، سوف تكون مسئولة عن تقرير بيع وشراء الأراضى . وليس من المنطقى أو من المقبول أن تواجهنا الحكومة الإسرائيلية كل أسبوع بقرار جديد يستهدف فرض أمر واقع جديد أمامنا . ولو أن إسرائيل استمرت فى اتباع هذه السياسة ، فماذا ستكون واجبات السلطة الفلسطينية التى نجتمع الآن للاتفاق على تشكيلها ؟ » .

وتدخل بورج بسرعة ليطلب من الدكتور مصطفى خليل أن ينهى هذه المناقشة لأننا نجتمع من أجل مناقشة الحكم الذاتى وليس قرار الحكومة الإسرائيلية بالسماح للإسرائيليين بشراء الأرض .

ورد مصطفى خليل قائلا إن قرار إسرائيل بالسماح بشراء الأراضى صدر فى ظل حكومة عسكرية تسيطر على الأراضى المحتلة ، وهى سلطة لديها الطرق التى تُرغم بها العرب على بيع أراضيهم . ولقد سمعنا جميعا عن شكاوى العمد الفلسطينيين من أن السلطة

العسكرية الإسرائيلية فى الضفة الغربية قد أجبرتهم على بيع أراضيهم . وعند هذه المرحلة ، أعلن مصطفى خليل تعليق الجلسة كيما يتمكن كل شخص من استعادة هدوئه .

وبينما كنا نغادر القاعة ، توقف بورج ليهمس فى أذنى قائلا : « لماذا بدأت هذه المعركة الجانبية ؟ » . ورددت عليه بصوت مرتفع : « لأن هذه المسألة هى جوهر الموضوع ، ولأنه لا داعى لمواصلة المفاوضات لو أنكم ستواجهوننا فى كل جلسة جديدة « بإملاء » جديد ! » .

وكانت الجلسة المسائية أشد ضراوة . إذ أن شارون الذى كان قد منع من التكلم فى الصباح ، أعطى الكلمة وألقى خطبة استعرض فيها عضلاته الخطابية . وقد أعلن ، بغطرسته المعهودة عنه ، أن إسرائيل قد أعطت سيناء إلى مصر وأهدتها نفط سيناء ، غير أنها حتى الآن لم تتلق شيئا مقابل ذلك .

واعترى مصطفى خليل الآن غضب جامح ، وقال : « إن سيناء ما برحت مصرية طوال عشرات الآلاف من السنين ، وسوف تظل مصرية . دكتور شارون ، إن سيناء أرضنا » . وانفجر شارون صائحا أنه ليس هو الذى يخاطب بكلمة « دكتور » . « إننى لست سوى مزارع بسيط ولا أحمل أى ألقاب أو شهادات أكاديمية مميزة ! » . وسأله مصطفى خليل عما إذا كان يفضل أن يوجه إليه الكلام على أنه « السيد المزارع » . وقال شارون إن الشعب الإسرائيلى يتساءل ما الذى قدمته مصر لإسرائيل مقابل سيناء ونفط سيناء . ورد مصطفى خليل ببساطة : « لقد أعطت مصر لإسرائيل السلام » .

وقرر الدكتور مصطفى تعليق الجلسة المسائية . وبينما كنا نجمع أوراقنا قبل مغادرة الغرفة ، قال لى إنه لا يعتقد أن بإمكانه احتمال « هؤلاء الناس » أكثر من ذلك ، ومن ثم فلن يكون باستطاعته حضور حفل العشاء الذى يقام فى تلك الليلة . وقلت له إنه لابد من حضوره ، لأنه هو المضيف ورئيس الوفد المصرى . ولكنه رفض قائلا : « إننى لا أريد رؤيتهم مرة أخرى اليوم ! » .

ووصلت إلى مطعم سان جيوفانى الذى يطل على البحر فى الساعة التاسعة مساء ، وذلك لاستقبال الضيوف بدلا من مصطفى خليل . وحول المائدة ، كان بورج يجلس إلى يمينى ، وشارون إلى يسارى . وكانت المواجهات التى حدثت أثناء النهار قد تركت آثارها علينا جميعا .

وحاول السفير ليونارد ، بأسلوبه الأنجلو ـ ساكسونى ، أن يدخل البهجة على الجو

السائد عن طريق رواية بعض المغامرات الدبلوماسية ، إلا أن النجاح لم يحالفه فى ذلك . إذ أن غياب مصطفى خليل زاد من درجة التوتر .

وقد عالج بورج وشارون سماجة الموقف عن طريق تكديس الطعام فى اطباقهما . وقد أصابتنى الكميات الضخمة التى اغترفاها فى أطباقهم بالحيرة . وكان سلوكى على النقيض من ذلك تماما . لقد تناولت الشراب ولكننى لم أتناول طعاما أبدا .

وأثناء العشاء ، اقترب منى السفير محسن الديوانى ، رئيس البروتوكول ، ليبلغنى أنه تم ترتيب عرض فنى ، وأنه سوف يبدأ بعد دقائق . وبالفعل ، دخلت القاعة فرقة موسيقى عربية ، وبدأت العزف ، ثم ظهرت راقصة شرقية وبدأت تؤدى رقصاتها بطريقة إيقاعية . وتوقف جارى حول المائدة ، آريل شارون ، عن تناول الطعام ، وعكست أسارير وجهه مشاعر الاغتباط والسعادة . والتفت إلىّ وتكلم بمودة : « يا دكتور غالى لو أنك أرسلت ثلاث راقصات مثل تلك الراقصة إلى إسرائيل ، فلن تحتاج إلى أى سلاح آخر أو دبابات لغزو بلدى » . وضحك ، وضحكت أنا ، وفعل مثلنا جميع الحاضرين . وأصبحت الراقصة هى موضوع الحديث ، وأصلحت ما بَيْن الوفود فى اللحظة الراهنة .

وعندما كان يحدث ذلك وجدت أن الدكتور بورج قد اختفى . وطلبت من السفير محسن الديوانى أن يحاول العثور عليه . وسرعان ما رجع وهمس فى أذنى : « لقد ترك بورج القاعة فزعا ، وهو موجود الآن فى الطابق الأرضى بالمطعم » . وتوجهت فورا بحثا عن بورج ووجدته جالسا بمفرده فى ركن هادىء . وكان يجلس إلى جواره أحد حراس الأمن الإسرائيليين . « دكتور بورج ، ماذا حدث ؟ لماذا تركت الحفل ؟ » . ونظر إلىّ نظرة مرتاعة ، وقال : « ألا تعرف أننى رئيس لحزب دينى ، وأن وجود راقصات نصف عاريات تقمن بإيحاءات جنسية ينتهك التعاليم الدينية ؟. ومع وجود الصحفيين والمصورين فى القاعة لا أستطيع المخاطرة بجعلهم يلتقطون صورا لى وأنا أتطلع إلى الراقصة » .

واعتذرت له ، وقلت إننى لم أفكر أنه من الممكن أن تتسبب هذه الراقصة فى حرج له . وقال : « دكتور غالى ، إنك تحاول وأد مستقبلى السياسى » . ونفيت ذلك وتساءلت عما يمكن عمله . ورد قائلا فى هدوء : « لا شىء » ، وطلب منى أن أعود إلى العشاء وأن أبعث برسول لكى يبلغه متى انتهى هذا العرض . ووافقت ، وفكرت وأنا أصعد درجات السلم أن ذلك كان هو الاتفاق الوحيد الذى أمكننا التوصل إليه أثناء الجولة السادسة من مفاوضات الحكم الذاتى الفلسطينى . وعندما رجعت إلى المائدة الرئيسية ، كانت الراقصة

لا تزال تهز أجزاء مختلفة من جسدها بحماس ، بينما كان شارون يشاهدها ويصفق لها بتحمس مماثل .

وحالما انتهت الراقصة من أداء دورها ، أقنعت محسن الديوانى بإصدار تعليمات بعدم تقديم عروض أخرى ، وأن يذهب لدعوة بورج إلى العودة والانضمام إلينا . وقد فعل ذلك ، واستمر حفل العشاء حتى ساعة متأخرة من الليل . وقد ساد التصالح ، وترددت الضحكات من حولنا .

وفى الصباح ، كانت المناقشة تدور حول نص الإعلان المشترك . واتفقنا على أن أفضل طريقة لإخفاء فشل هذه الجولة هو إعلان مواعيد الاجتماعات التالية . وسوف نعلن أن هذه الجولة قد تناولت تقارير اللجان الفرعية وقررت أن تجتمع هذه اللجان فى الفترة من ١٥ إلى ١٨ أكتوبر فى الإسكندرية ، ثم من ٢٤ إلى ٢٦ أكتوبر فى هرتزليا ، ثم من ١١ إلى ١٥ نوفمبر فى الإسكندرية ، ومن ٢٥ إلى ٢٩ نوفمبر فى هرتزليا . وكان كل ذلك من أجل إخفاء عدم تحقيق أى تقدم ، وطمأنة الرأى العام على توافر الإرادة والزخم لدى الجانبين من أجل مواصلة المفاوضات .

ورافقت الوفد الإسرائيلى إلى مطار النزهة ، حيث استقل طائرة عسكرية إلى تل أبيب . وأثناء الرحلة بالسيارة إلى المطار ، أسرّ إلىّ يوسف بورج بالمتاعب التى يواجهها مع زملائه من الوزراء مشيرا إلى طموحاتهم الحزبية والخلافات الشخصية القائمة بينهم . وكنت مقتنعا بأن الإسرائيليين لا يسعون أبدا من أجل إيجاد حل للمسألة الفلسطينية . فقد كانوا يستخدمون المفاوضات لكسب الوقت بينما يحققون السيطرة الكاملة على الضفة الغربية وغزة من خلال سلسلة المستوطنات التى يقومون ببنائها .

عودة إلى نيويورك

واستقللت طائرة كونكورد إلى نيويورك ، وفى أول أكتوبر تكلمت أمام الأمم المتحدة فى افتتاح الدورة الرابعة والثلاثين للجمعية العامة . وطلبت من منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل أن يتفقا على الاعتراف المتبادل ، وذلك بغية البدء فى حوار من أجل السلام بينهما . وعندما عدت إلى مقعدى ، لم يتقدم لتوجيه التهنئة لى سوى بضعة وزراء ودبيلوماسيين .

وكان على رأس أولئك الذين صافحونى ، المندوب البريطانى سير أنطونى بارسونز . وإذ كان ضليعا فى اللغة العربية ، فقد استمع إلى إلقائى للكلمة بدون مترجم فورى . وقال :

« لقد كانت خطبة عظيمة تليق بمركز مصر » . ولقد تأثرت بهذا المديح من جانب السفير ، والذى عوَّضنى إلى حد ما عن النبذ الذى كنت أشعر به .

ووصل البابا إلى نيويورك فى ٢ أكتوبر ١٩٧٩ ، وفى مقر الأمم المتحدة ، وقفت فى صف فى احتفال ضخم حيث قُدمّ إليه الوزراء والسفراء المقيمون . وقد بدت عليه علامات التعب بينما كان واقفا لمصافحة كبار الشخصيات . وكان السفير على تيمور ، نائب رئيس البروتوكول فى الأمم المتحدة ، يقدم الدبلوماسيين إلى البابا ، الذى بدا مجهدا بدرجة لا تمكنه من التعرّف وحده عليهم . وعندما جاء دورى ، قال على تيمور بأعلى صوته بالفرنسية ، وفى لهجة مسرحية غير عادية : « دكتور بطرس بطرس غالى ، وزير خارجية مصر » . وكان لصوت على تيمور تأثيره فى إيقاظ رئيس الكنيسة الكاثوليكية من شرود ذهنه . ونظر إلىّ وابتسم . وقال إنه ذكر مصر فى الخطبة التى ألقاها صباح اليوم ، وأضاف قائلا إن « لمصر مكانة خاصة فى قلبى » . ورددت عليه بعبارات الشكر والتحية ، وقد اجتذب هذا الحديث انتباه الصحفيين لأن البابا لم يتكلم مع أى رئيس وفد آخر . وقد سألنى ممثلو وسائط الإعلام عن مضمون هذا الحديث ، والسر فى اهتمام البابا بالوزير المصرى . وبطبيعة الحال ، رفضت التعليق ، مما عمل على زيادة اهتمام الصحفيين .

واجتمعت مع العديد من وزراء الخارجية الذين كانوا موجودين فى نيويورك لحضور جلسات الجمعية العامة . ولم يكن تدبير الوقت هو المشكلة ، بل كانت المشكلة فى أن عدد الغرف والقاعات الموجودة حول قاعة الجمعية العامة لا يزيد على خمسة أو ستة أماكن يمكن أن تعقد فيها الاجتماعات مع توافر بضعة مقاعد فقط . وكانت بلدان عديدة تلجأ إلى إرسال أعضاء الوفد فى ساعة مبكرة لشغل المقاعد فى هذه الغرف إلى أن يحين وقت اجتماع الوزير الذى يتبعونه مع وزير آخر . وكان يتعين على أعضاء الوفد أن يحموا المقاعد ضد محاولات الدبلوماسيين التابعين لوفود أخرى توفير المقاعد لرؤسائهم . إن العدد المحدود من المقاعد فى مبنى الأمم المتحدة يشكل سببا للصراع الدبلوماسى المتواصل .

وفى إحدى غرف الأمم المتحدة ، كان وزراء خارجية بلدان عدم الانحياز مجتمعين . وأحسست كما لو كنت قد رجعت إلى هافانا . وكان يترأس الاجتماع وزير خارجية كوبا إزيدورو مالميركا ، ويشارك فيه على التريكى وزير خارجية ليبيا وآخرون من الرافضين .

وقررت تفادى هذا الاجتماع ، مع أنه كان يتعلق بالتصويت على مشروع قرار بإدانة مصر وكامب ديفيد . ولا أعرف إذا كان السبب فى الابتعاد عن الاجتماع يرجع إلى إرهاق

ذهنى أو جسدى ، ولكننى بقيت فى غرفتى حيث جاءت الوفود لتقدم إلىّ تهنئتها بعد أن فشلت الدول العربية الراديكالية فى تأمين الأغلبية اللازمة للموافقة على مشروع القرار العراقى . لقد تجاسرت البلدان ، التى التزمت الصمت من قبل ، على الكلام ، وتجاسرت البلدان ، التى كانت مترددة من قبل ، على توضيح مواقفها . وتلاشى جو الترهيب الذى كان سائدا فى مؤتمر هافانا .

وفى يوم الثلاثاء ، ٩ أكتوبر ، فى مطار شارل ديجول حيث كنت أعتزم السفر إلى ستراسبورج ، أبلغنى أحد المرافقين أن القاعتين المخصصتين لكبار الزوار فى المطار مشغولتان : إحداهما من قِبَل موشى ديان ، والأخرى من قِبَل الأمير حسن ولى عهد الأردن . وقد تساءل المرافق الفرنسى فى خبث ما إذا كنت أرغب فى اقتسام القاعة مع الزعيم الإسرائيلى أو مع الزعيم العربى . وقلت دون تردد إننى أود أن يتخذ المرافق قرارا بالنيابة عنى لأنه هو المسئول عن البروتوكول . وبعد مضى عدة دقائق ، كان موشى ديان وأنا على متن الطائرة ذاتها المتجهة إلى ستراسبورج ، حيث كان يعقد اجتماع لمجلس أوروبا .

وبدا على ديان الإرهاق ، غير أنه جرى بيننا حديث ودى أثناء الرحلة الجوية القصيرة . وعند الوصول ، كان هناك جمهور من المجتمع اليهودى فى ستراسبورج حاضرا لاستقبال ديان ؛ ولم يكن هناك سوى رجال الشرطة الفرنسيين لاستقبالى ومصاحبتى إلى فندق آمن خارج المدينة . وكان الإرهابيون قد قرروا نسف الفندق الذى كنا نعتزم الإقامة فيه فى المدينة ، وأن ينسفوا مقر مجلس أوروبا أيضا . وكانت تدابير الأمن مشددة بصورة لم يسبق لها نظير .

وفى جناحى بالفندق ، وجدت باقات من الزهور وإنجيلا به شريط أبيض يستخدم كإشارة لموضع مُعيّن . وعندما فتحت الكتاب فى الصفحة المعلّمة ، وجدت عبارة « طوبى لصانعى السلام » .

وقد أُبلغنا بأن العشاء سيكون فى مطعم فى المدينة ، وأن الملابس الرسمية ليست ضرورية . وقد أزعج ذلك « ليا » ، حيث إنها كانت قد أُبلغت أن ترتدى ثوبا طويلا لهذه المناسبة فتشت عنه فى متاجر باريس لكى تمتثل لذلك . وقد انتقدت المرافقين لى لأنهم لم يوفروا لنا متطلبات البروتوكول الخاصة بزيارتنا لستراسبورج .

كان العشاء الذى أقامه الأمين العام لمجلس أوروبا وقرينته مقصوراً على ديان وأنا وقرينتينا . وفى كلمته للترحيب بنا ، قال إننا نعيش لحظة تاريخية ، فهذه هى المرة الأولى التى يدعو فيها مجلس أوروبا وزيرين من أجل أن يعرضا وجهات نظرهما المختلفة بشأن قضية عالمية رئيسية ، هى مسألة السلام فى الشرق الأوسط . وقد بدا ديان سعيدا . وقد شعرنا نحن الاثنان بالاطمئنان والسعادة ، على الأقل للحظات .

الفصل العاشر

جـدل مـع الإسـرائيلـيين

مناظرة مع ديان فى ستراسبورج

كان يوم الأربعاء يوما له أهمية خاصة فى حياتى . فقد أصدرت هيئة البريد الفرنسية مظروفا خاصا بمناسبة المناظرة المصرية - الإسرائيلية فى ستراسبورج . وكان هذا المظروف يحمل على حد سواء صورتى مطبوعة تحت العلم المصرى ، وصورة ديان تحت العلم الإسرائيلى . وبين الصورتين ، يظهر مبنى مجلس أوروبا ، وتحت الصورة ، عبارة « البلاغان الصادران عن موشى ديان وبطرس غالى - ستراسبورج ١٠/١٠/١٩٧٩ » .

وقد وجه رئيس الجمعية البرلمانية لمجلس أوروبا الدعوة لى لزيارته فى المكتب . وهناك ، تقابلت مع ديان . واتخذ رئيس الجمعية لنفسه وضعا مسرحيا بيننا ، ثم صحبنا إلى قاعة الجمعية .

وقد لاحظت صحفية فرنسية أننى وديان يرتدى كلانا بذلة رمادية اللون . فقالت لى : « إن بذلتيكما من نفس اللون ، غير أن الفرق فى التفصيل هائل » . والواقع ، أن بذلتى كان قد تم تفصيلها لدى خياط إيطالى مكلف ، فى حين كانت بذلة الوزير الإسرائيلى ، كما ذكر لى ، قد تم تفصيلها فى محلّ إسرائيلى صغير .

وقررت أن أتكلم باللغة الفرنسية لأن لغتى الفرنسية أفضل من لغتى الإنجليزية ، كما أننى شعرت بأن اللغة الفرنسية سوف تحظى بقبول أفضل فى ستراسبورج من إنجليزية ديان .

وقد شدد المتكلمون البرلمانيون جميعا على أهمية الصراع العربى - الإسرائيلى للسلام العالمى ، وكم هو مهم أن تستمع الدول الإحدى والعشرون الممثلة فى البرلمان إلى هذه المحاورة التاريخية .

وأعلن رئيس البرلمان : « إننى أوجه الآن الدعوة إلى وزير الدولة للشئون الخارجية فى مصر ، السيد بطرس بطرس غالى ، للتوجه إلى المنصة لإلقاء البيان الأول » .

وأخذت نص البيان الذى كنت قد أمضيت فى إعداده فى القاهرة وهافانا ساعات كثيرة جدا وقمت بتنقيحه عشرات المرات .

وعندما بدأت التكلم لم أكن فى حاجة إلى الرجوع إلى هذا النص - فقد أعدت كتابته مرات كثيرة وفكرت فيه بدرجة كبيرة لدرجة أن الكلمات كانت تنساب من نفسها . قلت : « إن زيارة الرئيس السادات التاريخية للقدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ ، لم تكن هى المبادرة الأولى التى يتخذها » . وأضفت : « فمنذ عهد بعيد فى ٤ فبراير ١٩٧١ ، اقترح الرئيس على الإسرائيليين رفع الحصار عن قناة السويس ووضع جدول زمنى من أجل التفاوض بشأن القرار رقم ٢٤٢ . وبعد مضى عامين ، وفى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، بينما كان القتال لا يزال دائرا بعد انهيار خط بارليف ، اقترح الرئيس السادات عقد مؤتمر دولى فى جنيف من أجل وضع حد للمجابهة العسكرية . غير أن مبادرات أخرى ، لم تقدر تقديرا كاملا فى ذلك الوقت ، لم تنجح فى هدم جدار الشك ، وسوء الفهم ، بل وأقول الكراهية ، التى كانت قائمة بين القاهرة وتل أبيب » .

وتمهلت لأستعرض بنظرى جمهور المستمعين إلىّ . كانوا يتطلعون إلى فى صمت ، منتظرين منى مواصلة الكلام . وشعرت أنه يتعين علىّ أن أستعرض مع هذه الجمعية كل خطوة من خطوات المفاوضات . فبهذه الطريقة وحدها ، سيدرك أعضاؤها ما الذى تفعله الدبلوماسية المصرية . وقلت إنه طوال هذه المفاوضات ، كان النهج الجماعى هو الذى يميز أنشطتنا السياسية ، فى حين كانت دولة إسرائيل تصر على الاتصالات المباشرة وتريد إجراء مفاوضات ثنائية بصورة قاطعة . وأضفت أن « الدبلوماسية المصرية تعلق أهمية خاصة على وجود الأمم المتحدة أثناء المفاوضات وأثناء تنفيذ أى اتفاقات ومعاهدات قد تنتج عنها سواء بسواء . ذلك إن ارتباط مصر بالأمم المتحدة ما برح يشكل واحدة من السمات

الدائمة لسياسة مصر الخارجية منذ أن أسهمت فى تأسيس المنظمة فى سان فرانسيسكو فى عام ١٩٤٥ . وسواء أكان ذلك صوابا أم خطأ ، فإن مصر اعتبرت الأمم المتحدة دائما الضامن الوحيد للشرعية الدولية ، والإطار المؤسسى الذى لا مثيل له من أجل تسوية النزاعات بين الدول . وقد قوبل إصرارنا على مشاركة الأمم المتحدة أثناء المفاوضات المختلفة ، دوما بالتوجّس ـ وحتى بالعداء ـ من جانب الإسرائيليين . وفى هذا الصدد ، فإنهم يشاركون الدول العربية الرافضة موقفها ، تلك الدول التى تريد لأسباب مختلفة ، الإبقاء على الأمم المتحدة ، خارج مفاوضاتنا ، وذلك كيما تؤكد طبيعتها الثنائية ، وبذلك يكون بوسعها اتهامنا بأننا قد أبرمنا سلاما منفصلا » . وقلت إن مصر بإيجاز تسعى لسلام عالمى يشمل أكبر عدد ممكن من الدول العربية وغير العربية كشركاء ، أو شهود أو ضامنين ؛ سلام عالمى تؤيده الدولتان العظميان والمنظمة الدولية ، فى حين يريد الإسرائيليون سلاما منفصلا وحلا ثنائيا لهذا الصراع .

وجاء إلقائى لهذه الكلمات ، بصورة متعمدة ، بغير انفعال وبحرص . فقد كنت أريد الاستحواذ عليهم بسرد تفصيلات ما حدث . وعندما انتقلت من استعراضى لما حدث حتى الآن ، بدأ صوتى يعلو ويصبح أكثر انفعالا حينما تكلمت عن أولئك الذين يعارضون سعى مصر من أجل تحقيق السلام .

وأضفت : « وهكذا يُحدق بالعمل الذى تقوم به مصر من أجل تعزيز السلم نوعان من الرفض ـ الرفض الإسرائيلى للاعتراف بكيان فلسطينى ، والرفض العربى للاعتراف بمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل .... إن سياستنا كلها وجميع أعمالنا الدبلوماسية تستهدف التغلب على هذه الأزمة فى الثقة ذات الشقين ، والتى تعرّض للخطر عملية السلام بكاملها التى تهيأت بفضل الزيارة التاريخية التى قام بها الرئيس السادات للقدس » . واستشهدت من ناحية بالتصريحات غير الملائمة التى يدلى بها رئيس الوزراء الإسرائيلى وزملاؤه ، وإقامة مستوطنات إسرائيلية جديدة فى الضفة الغربية ، والترخيص بشراء الأراضى العربية (والذى كانت الحكومة الإسرائيلية قد أصدرته بمناسبة الذكرى الأولى لتوقيع اتفاقات كامب ديفيد) ، والأعمال العدوانية الإسرائيلية المتواصلة ضد جنوب لبنان . ومن ناحية أخرى ، أوردت البيانات غير الملائمة التى يدلى بها الزعماء العرب ، والأنشطة العسكرية التى تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية فى الأراضى الإسرائيلية ـ جميع الأفعال وردود الأفعال التى تعزز التحالف الموضوعى بين الإسرائيليين والرافضين العرب .

وطالبت المستمعين إلىّ بتقديم المساندة .

« ما الذى تستطيعون عمله من أجل مساعدتنا ؟ ما الذى يمكن أن يكون عليه دور أوروبا بالنسبة لهذه المشكلة المتعددة الوجوه ؟ » . وقلت إنه لا بد أن يحصل الفلسطينيون على المواطنة التى حُرموا منها ، فى بادىء الأمر من جانب الاستعمار الأوروبى ، وبعد ذلك من جانب الاستعمار الصهيونى . ولا بد للشعب الإسرائيلى أن يحصل على الأمن والكرامة ، والتى كان قد حرم منها أولا وقبل كل شىء نتيجة لتقاليد أوروبية معينة ، وفيما بعد نتيجة للحالة فى الشرق الأوسط . وأعلنت أن « مهمة أوروبا ومجلس أوروبا هى مساعدة الرجال من أصحاب النوايا الحسنة على تحقيق هذا الهدف المزدوج واستعادة حقوق الإنسان فى هذه الأرض المقدسة من الأديان الثلاثة . إن السلام معرض للخطر فى الشواطىء الجنوبية والشمالية للبحر المتوسط على حد سواء ، البحر الذى يجمع بيننا فضلا عن أنه يوحد مصائرنا ! » .

وبعد ذلك ، دعا رئيس الجلسة ، موشى ديان إلى القاء كلمته . وقد شن هجوما على الحكومات الأوروبية التى لم تعلن عن تأييدها علنا لمعاهدة السلام . وتحدى مستمعيه الأوروبيين مباشرة بأن أعاد إلى الأذهان كيف كانت أوروبا مسرحا لإبادة الشعب اليهودى . وكانت كلمات ديان قوية . وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، اتخذ ديان موقفا رافضا . وقال إن حق تقرير المصير الفلسطينى يتم التعبير عنه من خلال الأردن ، التى منحت ، بعد عام ١٩٤٨ ، المواطنة لعرب « يهودا والسامرا » . وأضاف أن منظمة التحرير الفلسطينية تستخدم الإرهاب والاغتيال من أجل تدمير إسرائيل ، ولذلك فإن إسرائيل لن تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية . ومضى قائلا إن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين يجب أن تحلها البلدان العربية التى لديها مساحات شاسعة من الأرض وعدد قليل من السكان .

وعندما انتهى وزير الخارجية الإسرائيلى من إلقاء كلمته ، كنا قد وصلنا إلى منتصف النهار ، ورفعت الجلسة ، وانتقلنا إلى قاعة جانبية ، حيث عقدت أنا وديان مؤتمرا صحفيا مشتركا . ورددت على أسئلة الصحفيين مرة بالفرنسية ومرة بالإنجليزية ، بينما كانت ردود ديان كلها بالإنجليزية . وقد أعطانى ذلك ميزة واضحة ، لم يرض عنها ديان أبدا .

وبعد لقاء الصحافة ، اتجه الوفدان المصرى والإسرائيلى إلى قاعة الطعام حيث تناول كل وفد غداءه على حدة . وانضم إلى الفريق المصرى صديق قديم هو البروفيسور جان ديبوى الذى كان زميل دراسة لى فى الأربعينات فى كلية الحقوق بجامعة باريس . وقد أصبح واحدا من أبرز علماء القانون الدولى ، وتولى منصب الأمين العام لأكاديمية القانون الدولى فى لاهاى . وأفاد وجود جان ديبوى على المائدة فى إبعادى إلى حد ما عن

الجو السياسى المنكود الذى كان سائدا فى الصباح . فقد أعاد سمو الحوار الأكاديمى بيننا الهدوء إلى نفسى .

وعدت إلى قاعة اجتماع الجمعية حيث كان مقررا أن أرد أنا وديان على أسئلة الأعضاء . وقد وُجّه إلينا ٧١ سؤالا ، ٣٥ منها وجهت إلى ديان ، و٢٠ وجهت لى ، و١٦ سؤالا كانت موجهة بصورة مشتركة لنا كلينا .

وكانت المجموعة الأولى من الأسئلة تتعلق بمعاهدة السلام . وكانت ردود ديان تحمل طابع التفاؤل . وقد شددت على أن مصر لا تلتمس سلاما جزئيا أو منفصلا . وقلت « إن ما نلتمس تحقيقه ليس « صيانة السلم » بل « بناء السلم » . ويتعين علينا أن ننتقل من الحلول الجزئية غير الكاملة إلى حل شامل يجعل من الممكن إرساء أسس السلام الذى له طابع مؤسسى » .

وكانت المجموعة الثانية من الأسئلة تتناول الانسحاب . وقد رفض ديان مبدأ الانسحاب إلى الحدود التى كانت قائمة قبل يونيو ١٩٦٧ على جميع الجبهات العربية . ورفض أن يعتبر انسحاب إسرائيل من سيناء سابقة لانسحابها من الجبهات الأخرى .

لقد اعتاد بعض الإسرائيليين الاستشهاد بحقيقة أن القرار رقم ٢٤٢ يطالب بالانسحاب من « أراض » ، وليس من « الأراضى » على أنها تعنى أن الانسحاب من سيناء يعتبر كافيا ، وأنه ليس مطلوبا إجراء انسحابات أخرى . وقد هاجمت هذا التفسير بعنف ، وقلت : « إننى اختلف كلية مع ديان . إذ أن المبادىء لا تختلف لأن هناك صحراء بين مصر وإسرائيل فى حين لا توجد صحراء بين إسرائيل والضفة الغربية . وفى رأينا ، أن القرار ٢٤٢ قد طُبّق وفقا للنصوص الفرنسية والأسبانية ، والروسية . وحقيقة أن هناك غموضا طفيفا فى النص الإنجليزى ، لا أهمية لها » .

وأدى ردى إلى زيادة التوتر فى الجمعية . فعندما يكون الرد قويا ومقنعا ، يكون التصفيق طويلا وعاليا . وعندما يكون الرد ضعيفا يصبح التصفيق خفيفا وهادئا . والحقيقة ، أن ردودى كانت تجلب تصفيقا أقوى مما كان يحصل عليه ديان . وكان هذا الأمر واضحا للوزير الإسرائيلى . وبدا مخذولا ، وحتى غاضبا .

وتناولت المجموعة التالية من الأسئلة كيف يمكن للبلدان الأوروبية أن تسهم فى الجهود الرامية إلى حل أزمة الشرق الأوسط . وقلت : « إنه فى مرات متكررة جدا تتذرع أوروبا بحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تتصرف كشريك كامل ، وأنه من

المتوقع أن تحل هذه المشكلة ؛ وتقوم أوروبا بمجرد دور ثانوى . غير أن الدور الذى تقوم به أوروبا يتعين ألاّ يكون دورا ثانويا ؛ لأنه دور حيوى » .

أما ديان ، الذى كان مستثارا بشكل واضح ، فقال : « إننا نسمع مرارا عن الفكرة التى تقول إن إسرائيل سوف تحصل على نوع ما من الضمان الدولى . ويقال لنا ، ما الذى يهُم إذا ما كان يتعين عليكم الرجوع كل هذه المسافة وألاّ تحتفظوا سوى بخمسة عشر كيلو مترا ؟ وسوف تحصلون بدلا من ذلك على ضمان دولى لأمنكم » .

وأضاف : « إننى لأسأل هذه الجمعية الموقرة - هل بوسع أى واحد منكم أن ينهض ويقول إنه إذا ما واجهت إسرائيل حربا ، وهوجمت من جانب العرب ، سوف يرسل بلده جنودا للقتال مع إسرائيل ؟ وهل فعلتم ذلك فى الماضى ؟ وهل ستفعلونه فى المستقبل ؟ هل بوسعكم ذلك ؟ لا أحد منكم يستطيع ذلك ! » .

وطلبت إعطائى الكلمة وقلت : « لقد ذكر السيد ديان أنه لا يهتم بالضمانات الدولية لأنه لا يثق فى أى دولة ، ولأنه لا يضع ثقته إلا فى القوات المسلحة الإسرائيلية . وهو ينظر إلى الأمور دائما من زاوية تركز على إسرائيل وحدها ، غير أنه يجب أن يأخذ فى اعتباره كيف يشعر الناس فى الجانب الآخر من الحدود ... إن ما نريده عندما نفكر فى الضمانات الدولية ليس هو ضمان حدود إسرائيل أو تأمين دولة إسرائيل بقدر ما هو ضمان دولة فلسطين التى نأمل فى قيامها . إذ أن دولة فلسطين تلك تحتاج إلى الضمانات الدولية بدرجة تفوق احتياج إسرائيل لها » .

وانفجرت القاعة بالتصفيق الحاد بعد الاستماع إلى ملاحظاتى . وطلب ديان أن يُسمح له بالرد علىّ . وأعاد إلى الذاكرة أن إسرائيل كانت قد عرضت التخلى عن جميع الأراضى التى تحتلها على الرئيس عبد الناصر مقابل إبرام معاهدة سلام . غير أن عبد الناصر توجه إلى مؤتمر القمة العربية فى الخرطوم . وأضاف : « واستجابة للعرض الذى تقدمنا به بإعادة جميع الأراضى بموجب معاهدة سلام ، تلقينا ثلاثة « لاءات » ، لا اعتراف ، ولا سلام ، ولا تفاوض . وأبلغنا فقط بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة » .

وأحسست أن ديان قد رد بمهارة فائقة . فقد كان التصفيق له قويا . وكسب هذه الجولة .

وعقب ذلك ، جاءت مجموعة جديدة من الأسئلة بشأن الاستيلاء على الأراضى العربية لبناء مستوطنات يهودية . وطلب رئيس الجمعية من ديان أن يجيب . فقال : « إننا

نتكلم عن أمور تافهة ، عن مناسبات استثنائية ، ونادرة ، لم تسوّغها المحكمة العليا إلا بعد أن بررتها الحاجة العسكرية وفقا لاتفاقية جنيف » . ومضى ديان قائلا إن اتفاقات كامب ديفيد لا بد أن تنتهى بإبرام معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن تقرر الحدود بينهما . وأعلن أن « اتفاقات كامب ديفيد لا تتضمن إمكانية قيام دولة فلسطينية » . وأضاف : « إنه لو كان المصريون يعتقدون أنه يجب أن يكون للفلسطينيين حق تقرير المصير ، لما كانوا قد وقعوا هذه الاتفاقية ، والتى لا تتضمن مصطلح « تقرير المصير » . »

وفى حالة من الاستثارة ، طلبت إعطائى فرصة الرد . قلت : « نعم ، إن السيد ديان على حق تماما : فليس هناك أى إشارة إلى قيام دولة فلسطينية فى اتفاقات كامب ديفيد . غير أنه لم يذكر أى شىء يحظر إقامة دولة فلسطينية . إن روح كامب ديفيد كلها تتطلب إقامة دولة فلسطينية » .

ثم هاجمت سياسة إسرائيل الخاصة بإقامة مستوطنات باعتبار أنها مناقضة لاتفاقية جنيف ، وللقانون الدولى ، ولقرارات الأمم المتحدة ، وللتفاهم الذى تم التوصل إليه بين مصر وإسرائيل . وأعلنت ، بأعلى صوتى ، أن « إقامة مستوطنات جديدة ، والبيانات التى يصدرها مجلس وزراء إسرائيل من جانب واحد ، تشكل عقبات رئيسية أمام عملية السلام » .

وانفجرت القاعة بالتصفيق . واستمر التصفيق لفترة من الوقت إلى أن تعين على رئيس الجمعية أن يتدخل ليكبح حماس المندوبين . وقال : « لقد كنت متساهلا حتى الآن ، ولكنى أذكركم أن النظام الداخلى للجمعية ينص على أنه « يجب على أعضاء الجمهور الذين يُسمح لهم بدخول القاعة أن يظلوا جالسين فى مقاعدهم فى صمت » . »

ومع حلاوة طعم النصر ، تطلعت إلى ديان . ورأيت أن الرجل أصبح فى وضع ضعيف . غير أنه ظل صارما وثابت العزم فى وجه الإدانة العامة للسياسة التى يدافع عنها .

وأجاب ديان عن الأسئلة التالية بصورة عاطفية وهادئة : « نحن نعتبر يهودا والسامرا ـ الضفة الغربية ـ وأريحا وشيلوه ، وبيت إيل وغزة ، وطننا القديم . ونحن لا نعنى بذلك أن لدينا حق الملكية العقارية فيها ، وأنه بوسعنا أن نقول للناس الذين يعيشون هناك إنه نظرا لأن هذه الأراضى كانت منذ ألفى عام مضت هى إسرائيل ، مملكة داوود ، فإنها تعتبر أرضنا وأنهم يجب أن يخرجوا منها . فلن يحدث ذلك إطلاقا ؛ لأنه سيكون أمرا منافيا للعقل .... إن السؤال الحقيقى الذى لا يمكن لأحد أن يتفاداه ، هو كيف نعيش مع العرب ؟ إن المدرسة الفكرية التى أنتمى إليها تقضى بأن نعيش معا على قدم المساواة ، وبالاتفاق ،

جنبا إلى جنب ، نعيش مع العرب فى الضفة الغربية ، وفى قطاع غزة ، والقدس . هكذا ببساطة وبصورة مباشرة . وليست هناك طريقة أخرى » .

وقال ديان إنه بمعنى آخر « فإن بناء مستوطنة إسرائيلية أخرى لا يشكل عقبة فى طريق السلام . إنه حالة مستمرة فى إطار نظام يمثل فى نهاية المطاف الحل للضفة الغربية وغزة . وسوف يعيش اليهود والعرب جنبا إلى جنب دون أن يُطرد عربى واحد » .

وكان للهجة ديان العاطفية وإن كانت هادئة بعد ذلك تأثيرها . فقد لاحظت بدايات التعاطف من جانب عدد من المندوبين الأوروبيين ، وقررت شن هجوم جديد بهدف استفزازه للتخلى عن طريقته الهادئة . ونهضت صائحا : « عندما يقول ديان إن من حقه شراء الأرض فى الضفة الغربية ، لا أرى أن هناك سببا يمنعه من ذلك بشرط أن يكون الفلسطينيون هم الذين يمنحون له هذا الحق ، ولا يكون أمرا مفروضا من جانبه . ويبدو أنه ينسى السنوات الإحدى عشرة من الاحتلال العسكرى بكل ما صحبه من إذلال وشقاء لشعب محروم من حق التعبير عن رأيه السياسى أو أن يكون له أى شكل كان من أشكال الحرية » .

وأضفت رافعا صوتى بدرجة أكبر : « هنا نجد شعبا ، هم الفلسطينيون ، الذين يطالبون ، مثل الإسرائيليين ، بالحق فى تقرير المصير ، ويريدون مثلهم أيضا ، تحقيقه . وقد خرجت دولة إسرائيل إلى حيز الوجود . وبطريقة مماثلة ، فإن للفلسطينيين أيضا الحق فى إقامة دولتهم ... ولو لم يحصلوا عليه ، فلن يكون هناك سلام فى الشرق الأوسط ! » .

وعندما توقفت عن الكلام ، دوىّ التصفيق القوى مرة أخرى ، واستمر لفترة تزيد على دقيقة كاملة ، بالغا مستوى لم أعهده من قبل . وأدركت أننى قد كسبت هذه الجولة .

ومع أن التيار كان قد تحول بصورة قاطعة لصالحى ، إلا أن الحاضرين لم يكونوا مستعدين لإخلاء سبيل ديان أو إخلاء سبيلى .

واستمر ديان فى القراءة من اتفاقات كامب ديفيد ، التى قال إنها موقعة « ليس من قِبَل رئيس الوزراء بيجن وحده وإنما من قِبَل الرئيس السادات ، والذى يُعدُّ ، وأنا على ثقة من ذلك ، فى موقف يتيح له التعهّد باسم مصر . فلم يكن بوسعه أن يوقع على شىء ما لم يكن مستعدا لتنفيذه » . وأضاف ديان أن نص اتفاقية كامب ديفيد قد أوضح أن الطرف الآخر مع إسرائيل ، فيما يتعلق بالمفاوضات الخاصة بالحدود ومعاهدة السلام ، هو الأردن . « ولو أن زميلى الموقر جال فى خاطره دولة أخرى ، دولة فلسطينية ، أو احتمال قيام دولة فلسطينية ، لما كان قد وقع على وثيقة نتفاوض بشأنها الآن » .

وعلقت على ذلك بتهكم ، وقلت : « إن السيد ديان قد نسب إلى الرئيس السادات أقوالا كثيرة . وعندما ينسب ديان إلى الرئيس السادات الرأى القائل بأنه لا يؤيد قيام دولة فلسطينية ، فأرجو أن يسمح لى بالشك فى ذلك . إن موقف مصر واضح تماما ، وتم التعبير عنه فى بيانات مختلفة ، رسمية وغير رسمية . إن فكرة إقامة دولة فلسطينية ما برحت عاملا ثابتا فى سياسة مصر الخارجية حتى قبل قيام دولة إسرائيل . ففى مارس ١٩٤٥ ، قاتل المفاوض المصرى من أجل وضع نص يعطى وعدا صريحا بمنح الاستقلال لفلسطين ، مع أن فلسطين ، فى ذلك الوقت ، كانت لا تزال تحت الانتداب » .

وركزت المجموعة الأخيرة من الأسئلة على مستقبل القدس . وقلت إن « الموقف المصرى واضح تماما ، ففى رأينا ، ووفقا لاتفاقات كامب ديفيد ، لابد من تطبيق القرار ٢٤٢ بكامله ، مما يعنى الانسحاب الإسرائيلى من جميع الأراضى التى احتلت بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ . ولما كان الجزء العربى من القدس قد احتل بعد ذلك التاريخ ، فيجب أن ينسحب الإسرائيليون من القطاع الشرقى . إن هذا هو موقفنا ، موقف أرساه الرئيس السادات من خلال تبادل الرسائل مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، التى صادقت على وجهة النظر هذه . وحالما يصبح الجزء العربى من القدس مرة أخرى جزءا من الضفة الغربية ، من الأراضى الفلسطينية ، سيكون بوسعه التفاوض مع الجزء الإسرائيلى من القدس من أجل التوصل إلى تدابير « تحدد طريقة العيش » وتمكّن من قيام علاقة خاصة بين جزءى العاصمة » .

وأعطى رئيس الجمعية الكلمة الأخيرة لموشى ديان . ومما أثار الدهشة ، أن ديان لم يؤكد الموقف الإسرائيلى المعتاد بأن القدس ستظل إلى الأبد عاصمة ذات سيادة وموحدة لإسرائيل . وكانت لهجته ليّنة وتتسم بالإذعان بصورة غريبة : « إن هناك مسألتين تنبغى إثارتهما فيما يتعلق بالقدس ، ويجب ألا نخلط واحدة بالأخرى . الأولى تتعلق بالسيادة ، والأخرى تتعلق بالأماكن المقدسة .... وقد اتفقنا جميعا فى كامب ديفيد على أنه يجب ألاّ نتخذ قرارا بشأن السيادة فى الوقت الحاضر ، ولكن يجب أن نفعل ذلك فى نهاية الفترة الانتقالية التى تستمر خمس سنوات . وذلك يشمل القدس . ويجوز أن يطلب الأردن أن ننسحب كلية إلى غرب القدس . غير أن الوقت المتعلق بذلك سوف يحين عندما تناقش المسائل المتعلقة بالسيادة والحدود فى مختلف أرجاء البلد .

« بيد أن موقف إسرائيل بشأن الأماكن المقدسة قد أعلنه رئيس الوزراء بيجن : « إننا نؤيد أن يكون لكل عقيدة ، لكل دين ، السيطرة الكاملة على مزاراته المقدسة وأماكنه

المقدسة » ـ أن يسيطر المسيحيون على ما يخصهم والمسلمون على ما يخصهم وكذلك اليهود . يجب أن تدير كل طائفة أو عقيدة أماكنها المقدسة ، ويجب أن يتقرر ذلك بمقتضى القانون » .

وأعلن رئيس البرلمان الأوروبى أن ذلك اليوم « كان يوما تاريخيا » ، واختتم الجلسة . وتصافحت مع ديان ، ومع عدد من البرلمانيين الأوروبيين . وبينما كنت أغادر القاعة ، تجمع حشد من الصحفيين حولى ليقدموا إلىّ تهنئة حارة ، وليقولوا إننى قد كسبت المناظرة . وقال أحدهم : « لقد استمرت المعركة تسع جولات . وقد فزت فى سبع منها ، وخسرت اثنتين فقط » . أما الصحفيون الذين تكلموا مع ديان فربما كانوا يقولون له العبارات نفسها .

وبعد ذلك ، جاء حفل الاستقبال . كنت مبتهجا بالنصر الذى حققته . وتدفق النبيذ ، وتصرفت كما لو كنت شابا مدللا منغمسا فى ملذاته . واقترب ديان منى ، وقال : « توقف عن السلوك بهذه الطريقة . إن القدر قد أرخى لك العنان » . ولم يقل ذلك بحدة بل فى مودة . وأضاف : « إننى لم أتلق دراساتى فى جامعات كبرى ، ولم تتح لى الفرصة لقراءة كتب مهمة ، وكان علىّ أن أتعلم من قسوة الحياة والحرب . ولقد تعلمت الإنجليزية فى سجن الانتداب البريطانى » . وكان انطباعى الأول هو أن أرد بأن الرجل العصامى مثله تتاح له فرصة أفضل للنجاح من الشخص الذى شق طريقه فى يسر . وبهذه العبارة ، قصدت أن أوضح أننى ، أيضا ، قد علمت نفسى . ولكننى لم أقل شيئا ، لأننى فى الحقيقة ، شعرت بالخجل من كلماته . وقالت زوجتى لى « إنك لم تتصرف كشخص كريم الأخلاق ! » .

وعندما رجعت إلى الفندق الذى أقيم فيه كان السفير التركى ، وهو صديق منذ الأيام التى عُيّن فيها فى القاهرة ، فى انتظارى . وقال : « لقد شعرت بالأسف لديان . فقد كان طوال المناظرة يتخذ موقفا دفاعيا بسبب هجماتك الشرسة . لقد كانت ضرباتك قاسية » .

وبعد ذلك بعشرة أيام ، حضرت حفلا أقامه السفير الأمريكى فى مقر إقامته بالقاهرة . وكان على رأس المدعوين عزرا وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلى . وفى إحدى مراحل الحفل ، انفردت مع الوزير الإسرائيلى ، ودارت بيننا مناقشة صريحة . كان وايزمان ، المتفائل دائما ، أكثر تفاؤلا من المعتاد . وقال إنه على اقتناع الآن بأن المفاوضات سوف تنجح . وفى الليلة التالية ، تناولت العشاء فى مقر إقامة الفريق كمال حسن على فى الزيتون ، وهى فيللا مخصصة لوزير الدفاع . وكان هذا الحفل الكبير تكريما لعزرا وايزمان مرة أخرى . وكانت فرقة موسيقى عمر خورشيد تعزف ألحانا خفيفة . وهمس

كمال حسن على إلىّ بأن خورشيد رفض قبول أى أجر ، وقال إنه يهب موسيقاه إلى عملية السلام .

وكان من بين المدعوين بعض المليونيرات اليهود ، ومن بينهم إدموند دى روتشيلد ونسيم جاعون . وأثناء الحفل ، جاءت مكالمة هاتفية من الدكتور مصطفى خليل ، من فيينا . وطلب التحدث إلى وايزمان ورحب بزيارته للقاهرة ، ثم طلب التحدث إلىّ .

وأبلغنى مصطفى خليل أن ديان استقال من منصبه كوزير للخارجية . وسألنى عن أصداء هذه الأنباء فى القاهرة . ولم يكن لدىّ أى تعليق ، غير أنه بدا لى أن التفاؤل الذى يشعر به وايزمان قد يكون ناجما إلى حد ما عن رحيل ديان . واستمر الحفل حتى الساعة الثانية صباحا . وقد عم جو مفعم بالبهجة بين جميع الحاضرين .

وبعد أقل من عامين ، فى ١٦ أكتوبر ١٩٨١ ، توفى ديان نتيجة لمرضه بالسرطان . وعندما علمت بوفاته ، تذكرت أيام كامب ديفيد عندما كنا نشاهد الملاكم محمد على يفوز فى مباراته . وأعلن « على » وقتها أنه « أشهر رجل فى العالم - باستثناء موشى ديان » . أما ديان ، الذى كان أيضا مقاتلا ، فقد خسر معركته .

عاصفة فى فنجان بيجن

« يطلب السفير السوفيتى عقد اجتماع عاجل لنقل رسالة مهمة جدا » . حدث ذلك صباح يوم الجمعة ، ٢٨ ديسمبر ١٩٧٩ ؛ وكانت القاهرة فى منتصف يوم عطلتها الأسبوعية . وقد وافقت على مقابلة السفير بعد الظهر فى مكتبى . وبينما كنت أغادر منزلى تساءلت فى نفسى عما إذا كان وزير الداخلية قد تسبب فى مشكلة مرة أخرى . هل اعتقل « خبير » سوفيتى ؟ هل تم تفتيش المنازل الخاضعة للحصانة الدبلوماسية ؟ وقد انتابتنى الدهشة عندما أبلغنى السفير بولياكوف أنه جاء لكى يوضح لى الأسباب المتعلقة بالتدخل السوفيتى فى أفغانستان . وزعم أن الاستيلاء السوفيتى على كابول يستند إلى حق الدفاع عن النفس المنصوص عليه فى المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة .

وسواء كان ذلك بسبب إزعاجى يوم الجمعة ، أو بسبب الإيضاح المسهب ، فقد عاتبت السفير السوفيتى بعنف وقلت : « إنكم أسوأ من الدول الاستعمارية القديمة . ما الذى يسمح لكم بالتدخل ؟ إن الاتهامات الصينية الموجهة ضدكم لها ما يبررها » . وإذ شعر السفير السوفيتى بالحرج ، فقد رحل مسرعا . وأصدرت بلاغا رسميا عن وزارة الشئون الخارجية يدين بشدة العدوان السوفيتى على أفغانستان .

وبعد مضى يومين ، طلب الرئيس السادات من أعضاء مجلس وزرائه المصغر أن يجتمعوا به فى أسوان . كانت فيللا السادات ، التى تطل على سد أسوان القديم ، تحتوى على أساس متواضع ، بدون ستائر ، ودون لوخات أو نقوش على الجدران . كانت كصومعة الناسك ، وشديدة البرودة . وكانت هناك بعض أجهزة التدفئة الكهربية الصغيرة تحاول ، دون جدوى ، مكافحة البرودة . وجلسنا حول مائدة وضعت عليها فناجين شاى صغيرة . وبعد مناقشة القضايا الداخلية المصرية ، التفت إلىّ السادات وقال : « لقد أعجبنى البلاغ الصادر عنك ، ولكننى أريد خطة عمل من أجل وقف العدوان السوفيتى فى أفغانستان » .

وعندما رجعنا إلى القاهرة ، اتصلت هاتفيا بمندوبنا الدائم لدى الأمم المتحدة لكى يقترح مشروع قرار على مجلس الأمن يدين العدوان السوفيتى . وعندما يستخدم السوفيت حق النقض ضد هذا القرار ، كما هو مؤكد من جانبهم ، يصبح الخيار الوحيد هو السعى إلى إصدار قرار من الجمعية العامة ، مما يتطلب تعبئة الدول العربية والدول الإسلامية الأخرى .

وفى يوم الأحد التالى ، رجعت إلى أسوان لحضور اجتماع للمكتب السياسى للحزب الوطنى الديمقراطى ، مع أننى لم أكن بعد عضوا فى المكتب السياسى . ونشب جدال بين السادات ورئيس وزرائه مصطفى خليل حول قرار الجامعة العربية بنقل مقرها من القاهرة إلى تونس . فقد أراد السادات أن يرد على ذلك بإنشاء جامعة الشعوب العربية . وكان السادات يشير بذلك إلى أحزاب وحركات المعارضة العربية التى يمكن أن تجتمع فى القاهرة . واعترض خليل ، قائلا إن مثل هذا المشروع من الصعب تحقيقه وسيكون خطيرا . وإذ استثارت هذه المعارضة السادات ، فقد بدأ يتكلم معنا كما لو كان مصطفى خليل غير موجود . وأخبرنا أنه كان يعرف مصطفى خليل عندما كان وزيرا شابا يعمل تحت قيادة جمال عبد الناصر . وقال : « إننى أحترمه لنزاهته ولكنه عنيد للغاية » . ورد مصطفى خليل قائلا إنه يكن الاحترام والإعجاب لقائده السادات باعتباره رجل دولة ورجلا ذا بصيرة ، غير أن واجبه يحتم عليه أن يعبّر عن نفسه عندما يختلف مع قائده . وأضاف أن السادات يستطيع قبول النقد إذا ما وجه إليه بصورة خاصة ، ولكنه لا يتسامح إزاء المعارضة العلنية .

وقد توقف هذا النزاع بوصول طعام الغداء ، الذى قدمته فى بساطة ممتعة جيهان السادات . وبعد الغداء ، عاد السادات إلى مسألة العدوان السوفيتى فى أفغانستان . وبدا كما لو كان يستحوذ عليه هاجس الشيوعية الدولية بدرجة تفوق انشغاله بوضعه فى العالم

العربى . غير أن الزيارة المقبلة لرئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن ، حملته على التركيز عليها .

كان السادات يعتقد أن بيجن وحده هو الذى يستطيع أن يصنع السلم و« يقدمه » ، ولذلك فقد ركز السادات كل اهتمامه على بيجن . فلو قدم بيجن المتشدد تنازلات إلى العرب ، فإن الشعب الإسرائيلى سيلتزم بها . ولم أكن مقتنعا بما قاله . صحيح ، بوسع بيجن أن يحقق السلام ، غير أنه لم يكن قادرا من الناحية الأيديولوجية على الموافقة على الحقوق الكاملة للفلسطينيين بشأن الضفة الغربية ، ومادام إنكار هذه الحقوق قائما ، فلن يكون هناك سلام حقيقى أو شامل فى الشرق الأوسط . وقد كررت فى كل مناسبة أنه لا بد أن يرتبط السلام بين مصر وإسرائيل بإحراز تقدم بالنسبة للفلسطينيين فى غزة والضفة الغربية . غير أن مثل هذا الارتباط كان ، لأسباب مختلفة ، شيئا يفضل بيجن والسادات كلاهما أن يتركاه حتى يتلاشى . ولقد كنت دوما أثير هذه المسألة الباعثة على التوتر ، وكان صبر بيجن علىّ قد بدأ ينفد بشكل متزايد .

ووصل بيجن إلى مطار أسوان صباح الاثنين ، ٧ يناير ١٩٨٠ . وعزفت الموسيقى العسكرية السلام الوطنى الإسرائيلى . واستعرض بيجن حرس الشرف ، ثم اختفى مع الرئيس السادات . وامضينا وقتنا فى مطاعم وقاعات جلوس فندق أوبروى فى الجزيرة . وكنت مهتاجا لاستبعادى من المحادثات . وساعدنى على الاحتفاظ بصبرى الفريق كمال حسن على . واقترح القيام بجولة بالزوارق مع قرينتينا إلى الحدائق النباتية فى جزيرة أخرى ، ولكنى فضلت التحدث مع الصحفيين الإسرائيليين ، الذين أجريت معهم أحاديث صريحة للغاية . وفى ذلك المساء ، وفى حفل العشاء الرسمى الذى أقيم تكريما لبيجن ، جاء مكان جلوسى إلى جانب ابنة بيجن وهى سيدة صغيرة خجولة وغير لبقة . وقد وَقَّعت ، بيدها اليسرى ، على قائمة الطعام ، التى تم توزيعها للتوقيع عليها ، والتى سينتهى بها الأمر فى سجلات الوفد الإسرائيلى . وبعد العشاء ، تسلَّينا باستعراضات فرقة الفنون الشعبية فى أسوان ، وهى تجربة بشعة عانينا منها من قبل مع شاه إيران .

وصباح اليوم التالى ، وافقت على القيام بجولة بالزورق إلى الحدائق النباتية مع الفريق كمال حسن على وقرينتينا ، غير أننى بعد الظهر عدت إلى حوارى المستمر مع الصحفيين الإسرائيليين . وشرحت وجهة نظرى مثلما فعلت ذلك منذ توقيع اتفاقات كامب ديفيد : إن تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل لا بد أن يحدث بالترادف مع تطبيع العلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين . وكان رد فعل الإسرائيليين لكلماتى مماثلا إلى حد كبير لرد فعل السادات ، الازدراء الشديد .

بيد أن قمة السادات ـ بيجن كانت ناجحة على ما يبدو . فقد أفادت التقارير الصحفية أن « الفظاظة الشخصية التى مَيّزت إلى درجة كبيرة علاقتهما فى الفترة بين أول اجتماع فى القدس ، فى نوفمبر ١٩٧٧ ، وأثناء مفاوضات كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨ ، وحتى بعد ذلك ، قد تلاشت على ما يبدو وأصبح لا أثر لها هناك . لقد أصبحا الآن صديقين حقيقيين ، والأكثر أهمية حتى أنهما يريدان من العالم كله أن يعرف ذلك . وبدا كل شيء يفعله أحدهما كما لو كان يستهدف إرضاء الآخر » .

وفى يوم الأربعاء ، كنت لا أزال أقاسى فى قاعات فندق أوبروى ، وعرضة لتهجّم الصحفيين الإسرائيليين ، والفرنسيين ، والإنجليز ، والأمريكيين . وشاركت الغداء ، ابنة السادات الصغرى نانا ، والفريق كمال حسن على وقرينته ، وحسن كامل وقرينته ، وقدرية صادق ، التى كانت وصيفة قرينة السادات . كانت مجموعة لطيفة ، تشعر بالارتياح تجاه مفاوضات السلام .

وعندما رجعت إلى الصحفيين ، سألوا : « إنك تُعتبر خائنا من جانب العرب وجبهة الرفض ، وعامل تصدّع لعملية السلام من جانب الإسرائيليين . فكيف تظل مفعما بالحماس ؟. وكنت على وشك الرد عندما تلقيت مكالمة هاتفية من إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام ، الذى أبلغنى أن السادات غاضب جدا من التصريح الذى كنت قد أدليت به لإذاعة مونت كارلو والذى استنكرت فيه موقف الإسرائيليين السلبى من الفلسطينيين . وكانت إذاعة مونت كارلو قد التقطت تصريحى من حديث صحفى مسجل كنت قد أدليت به لصحيفة « *جيروزاليم بوست* » . وكنت قد قلت فيه إن معاهدة السلام ستكون « طلقة فشنك » ما لم تُحل المشكلة الفلسطينية . ووجهت اتهاما بأن محادثات الحكم الذاتى يتم تحطيمها نتيجة للمناقشات التى لا نهاية لها مع الدكتور بورج وأنها ليست سوى « بيلبول » (وقد استخدمت هذه الكلمة العبرية الواردة فى التلمود التى تعنى الإسفاف) . وقد ذكرنى ذلك ، كما قلت للصحافة ، بالمسيحيين فى عهد بيزنطة الذين كانوا يتجادلون حول جنس الملائكة بينما كان الأتراك يحاصرون القسطنطينية . ودعوت إسرائيل بإلحاح أن تستفيد من السادات ، « لأنه لن يكون هناك زعيم مصرى يضاهيه فى العقود القادمة » .

وطلب الصحفيون الإسرائيليون عقد اجتماع عاجل معى . وأبلغونى أن السيد بيجن طلب من السادات أن يتخلص من الوزير بطرس غالى ، الذى تعتبر سياسته التى تتسم بالعرقلة ، عقبة رئيسية أمام عملية السلام . وقالوا إن السادات وعد بشد أذن الوزير وإبعاده عن عملية السلام . وأضاف الصحفيون أنه سيتم استبعادى فى التعديل الوزارى الذى

سيجرى خلال بضعة أيام . وفى المطار ، بدا أن تصريحات الصحفيين لها أساس يبررها - فلم يوجّه بيجن إلىّ التحية . والتفت السادات بعيدا وتظاهر بأنه لا يرانى . وقد لاحظ ذلك زملائى ومرافقو السادات . وفى قاعة المطار ، جلست بمفردى ، يحوطنى الصمت ، حتى العاملون فى خدمة المسافرين بدوا كما لو كانوا يقاطعوننى ، ولم يقدموا لى القهوة . فقد اعتُبرت نجسا ، ومنبوذا فى عزلة تامة . لقد تحققت تنبؤات الصحفيين الإسرائيليين .

ولاحظت جيهان السادات أننى جالس وحدى . ودعتنى بعطف إلى الجلوس بجوارها ، وسألتنى : « دكتور غالى لماذا تتباعد عنا بدرجة كبيرة ؟ » . ولما كنت سوف استبعد من منصبى ، فقد فكرت أيضا فى أن أنقل إلى السادات ما أبلغنى به الصحفيون . واقتربت من الرئيس وقلت بهدوء : « لقد أحاط بيجن الصحافة علما بأنك قدمت تنازلات جديدة من أجل الإسراع بعملية التطبيع بين مصر وإسرائيل ، وأن الخطوط الجوية سوف تبدأ رحلاتها بين البلدين .... غير أننا لم نحقق أى تقدم فيما يتعلق بالمشكلة الفلسطينية » . وقاطعنى السادات بصوت غاضب وعال : « لقد تعيّن علىّ أن أقدم هذه التنازلات لكى أحدّ من الأضرار الناجمة عن تصريحاتك الأخيرة للصحافة الدولية . لقد جاء بيجن لمقابلتى صباحا . ولم يكن قد نام طوال الليل ، وهو متكدر للغاية ، وشاحب الوجه جدا . وهو يشعر بالإساءة نتيجة لتصريحاتك الغبية . وقد اضطررت إلى تهدئته وتقديم تنازلات للتعجيل بعملية التطبيع . توقف عن الإدلاء بتصريحات للصحافة . إننى أطلب منك التوقف عن إعطاء أحاديث صحفية والإدلاء بتصريحات » .

وبسرعة ، غيرت موضوع الحديث ، وسألت الرئيس : « هل انتهيت من قراءة تقريرى الطويل عن الموقف بشأن « مصر والموقف العربى الجديد » ؟ » . وتغيَّر مسلك السادات فورا . فقد ابتسم ؛ واختفى غضبه . « نعم انتهيت من قراءة التقرير . وأهنئك ، إنه ممتاز . إنك عَلاّمة حقيقى . لقد عرفت أنه من المفروض أن تسافر إلى القاهرة مع زملائك ، إلا أن بوسعهم الانتظار . تعال معى ، ولنبحث تقرير الموقف معا » .

وطوال الساعتين التاليتين ، بحثنا - السادات وأنا - تقريرى صفحة صفحة . لقد كان نصا أمضينا فى إعداده - مساعدىَّ المقربين لى وأنا - ثلاثة أشهر . ففى ٦٠ صفحة ، حلل التقرير إسهامات مصر فى العالم العربى ، والأزمة التى نجمت عن عملية السلام ، وموقف مصر تجاه هذا الموقف الجديد . وقد علق السادات على التقرير بتذييلات وشروح كثيرة ، وقام حتى بتصحيح الأخطاء المطبعية والأخطاء النحوية . وقال مبتهجا : « لقد نسيت قواعد النحو يابطرس » . وأصبح المزاج هادئا ووديا . وبدا السادات كما لو كان قد نسى لومه لى ، ووعده لبيجن ، بإبعادى عن عملية السلام . غير أننى كنت أعرف السادات جيدا .

فإن هذا الاجتماع الودى لايعنى شيئا . وأعرف أنه عندما تتطلب مصالحه ذلك ، لن يتردد فى استبعادى من الوزارة ، أو على الأقل من فريق التفاوض .

وبعد الرجوع إلى المطار ، سألنى زملائى من الوزراء عن السبب فى هذا التأخير الطويل . وأبلغتهم أننى تخلفت مع الرئيس السادات لبحث الحالة فى أفغانستان . وكانت تلك هى نصف الحقيقة ؛ فقد استنكر السادات أثناء المناقشة التدخل السوفيتى أكثر من مرة .

وفى القاهرة ، أبلغت رئيس الوزراء بما حدث لى فى أسوان . وقد حاول طمأنتى : « أنت تعرف إلى أى مدى يقدّر الرئيس السادات عملك . وسوف يزول هذا الغضب . وبالنسبة لمشكلة التطبيع ، يتوقف الأمر على رئيس الوزراء . فنحن لدينا دائما إمكانية تأجيل هذه العملية ، حتى لو طلبها الملوك أو رؤساء الدول ، أو إذا ما ظل الإسرائيليون يتخذون موقفا عنيدا بشأن المسألة الفلسطينية » . ولم أعرف ما إذا كان رئيس الوزراء يحاول مجرد رفع معنوياتى أو أنه من الصحيح فعلا أن مكتب رئيس الوزراء يمكن أن يمارس هذه السلطة .

وصباح اليوم التالى ، اتصل مصطفى خليل بى هاتفيا ، وقال إن السادات قد أصدر أوامره بأن تتخذ ورقة الموقف كسياسة للحزب الوطنى الديمقراطى ، ومن ثم تصبح سياسة لمصر . وشعرت بارتياح كبير ، وقلت له ذلك .

وعلى متن طائرة السلاح الجوى الإسرائيلى العائدة من أسوان ، أبلغ بيجن الصحفيين أننى قد تعرضت للتوبيخ من جانب السادات لتشديدى على الترابط بين التطبيع والحكم الذاتى . وبعد العودة إلى إسرائيل ، شن بيجن هجوما شخصيا علىّ . وقال : « إن بطرس غالى يريد أن يكون مسلما أكثر من المسلمين » . بيد أن كاتب افتتاحية العدد فى صحيفة « *جيروزاليم بوست* » وصف كلماتى بأنها قدمت خدمة نافعة لإسرائيل لا تقل عما قدمته لمصر . ولاحظت الصحيفة أن تصريحاتى لا تدخل السرور على من يسمعونها من الإسرائيليين ؛ فهم لا يستطيعون استيعاب حقيقة أن العالم العربى مهم جدا بالنسبة لمستقبل مصر بدرجة تفوق أهمية إسرائيل ، وأنه « لأسباب أيديولوجية وعملية ، لا يمكن لمصر أن تترك الفلسطينيين دون اهتمام بهم » .

ولقد استطاع السادات ، باعتباره صاحب بصيرة ، أن ينظر إلى أبعد ، وأن يكون صبورا مع شريك صعب المراس . أما أنا ، كما لاحظت الصحيفة ، فصاحب خبرة مهنية وتِقَنى . ويتعين علَىَّ أن أباشر برعايتى التنفيذ اليومى للسياسات ، وأننى فى قيامى بدورى ، لا بد أن أكون قادرا على المجابهة أكثر من السادات .

وقالت « *الجيروزاليم بوست* » : « على هذه الصورة كان غالى ، الذى تعيَّن عليه أن يردّ الهجمات الشرسة التى تعرضت لها سياسة مصر الخاصة بالسلام فى المؤتمر الإفريقى ومؤتمر العالم الثالث المعقودين منذ عهد قريب فى منروفيا وهافانا . وأضافت أن هذه التجارب ، مع أنها لا تبعث على الاستقرار ، قد عززت اقتناع غالى بأن ما يراه كمماطلة من جانب إسرائيل بشأن الحكم الذاتى يكلف سياسة مصر كل مصداقيتها فى عيون معظم حلفائها الطبيعيين » .

وكان واضحا بعد فترة قصيرة أن السادات لم ينس تصريحاتى فى أسوان التى أثارت غضب مناحم بيجن . وقد رأى السادات « ليا » عندما كانت ترافق السيدة صول لينوفيتش أثناء قيامها بزيارة لقرينة الرئيس ، وقال : « قولى لبطرس اقفل بقك وتوقف عن الإدلاء بتصريحات » .

وبهذه التعليمات التى كانت ترن فى أذنى ، سافرت يوم الأربعاء ٣٠ يناير ١٩٨٠ ، إلى تل أبيب لبدء الدورة الثامنة من المفاوضات المتعلقة بالحكم الذاتى الفلسطينى . وتوجهنا عائدين إلى نفس الفندق فى هرتزليا . وفى الصيف كان هذا الفندق يبدو كما لو كان فندقا أوروبيا خمسة نجوم ، أما فى الشتاء فكان سيىء التدفئة . لقد كان الطقس باردا جدا حيث تدفع الرياح بالأمواج على شاطىء البحر المتوسط . وقدم لنا سفيرنا سعد مرتضى الويسكى للمساعدة فى درء هذا الصقيع . وبينما كنت أرتشف الويسكى الاسكتلندى ، قرأت الصحف الإسرائيلية التى وصفتنى بأننى « بعبع » الوفد المصرى .

وقد عُقد اجتماع عام فى قاعة الرقص فى الفندق صباحا ، وكانت مشحونة بالكلمات الشعائرية المعتادة . وعندما انتقلنا إلى غرفنا للتفاوض مع صول لينوفيتش ويوسف بورج ، وآريل شارون ، تركنا للشباب منا مهمة وضع البيان الختامى . وباستثناء الاتفاق على اتباع جدول زمنى مكثف ، والتعبير عن التقدم الذى تحقق حتى الآن ، لم يتضمن البيان أى شىء على الإطلاق .

وبينما كنت أغادر إسرائيل ، كانت أسئلة الصحفيين تعنى ضمنا أن الشجار الذى حدث فى أسوان لم ينته بعد ، وأن انتقام بيجن سوف يلاحقنى .

وفى كل يوم يمر ، كان الإسرائيليون يواجهوننا بتطور جديد . فهم يدمرون المنازل الفلسطينية ، ويصادرون المزيد من الأراضى الفلسطينية ، ويزجون فى السجون بالزعماء الفلسطينيين أو يطرودنهم . وقد اغتيل طالب إسرائيلى ، وكرد فعل لذلك ، أعلن مجلس الوزراء الإسرائيلى أنه من حق اليهود التوطين مجددا فى الخليل ، وهى خطوة خطيرة .

وقد وجه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، بموجب قراره ٤٦٥ الذى اتخذه بالإجماع ، اللوم إلى إقامة المستوطنات الإسرائيلية ، ثم تنصّل جيمى كارتر من التصويت الأمريكى . وكان موقفنا لا يمكن الدفاع عنه ، وسخيفا بصورة متزايدة . وقد حاول الأمريكيون التستر على سلبيتهم بادعاء الحاجة إلى الحفاظ على حيادهم إزاء الشركاء المتفاوضين . ولم يكن لدى صول لينوفيتش ووفده الأمريكى النية لممارسة أى ضغط على الإسرائيليين . وكانت منظمة التحرير الفلسطينية تشجب بصورة منتظمة المفاوضات التى تجريها مصر دون موافقة المنظمة والتى كانت تتعارض مع مصلحتها .

وبالرغم من عوامل الإحباط هذه ، لم يكن لدينا خيار سوى مواصلة المحاولة . لقد كان الحكم الذاتى الفلسطينى هو الدعامة التى لا غنى عنها للتوصل إلى حل شامل فى نهاية المطاف . ولو فشلنا ، فسيعنى ذلك نشوب أزمة بين مصر وإسرائيل تؤدى إلى وقف الانسحاب الإسرائيلى من سيناء . وسوف يكون ذلك انتصارا للرافضين ، لأنهم كرروا دون هوادة أن مصر سوف تفشل فى تحقيق أى شىء لصالح الفلسطينيين . فكيف يمكن مقاومة إغواء إبرام سلام منفصل يدفعنا تجاهه الإسرائيليون والفلسطينيون على حد سواء بعنادهم - وهو عناد محسوب ورشيد من جانب الإسرائيليين ، ولكنه انفعالى وغير رشيد من جانب الفلسطينيين ؟ .

وفى مارس ١٩٨٠ ، عُين إسحق شامير ليحل محل موشى ديان ، وكان عضوا سابقا فى المنظمات اليهودية السرية وعمل فيما بعد فى المخابرات الإسرائيلية ، وكان يُعتقد أيضا أنه إرهابى سابق . وقد أدى تعيينه إلى جعل الجو مكفهرا .

وقد فهمت إسحق شامير ، إذ كنا نتكلم دائما باللغة الفرنسية . وكان مستمعا جيدا ، وعندما يتكلم كان يوحى بالرغبة فى إنجاح مفاوضات الحكم الذاتى . وعندما كان يشكونى إلى السادات ، كان يفعل ذلك فى حضورى . وقد أفضت شكوى شامير إلى مبادرة السادات بالدفاع عنى لأول مرة ، قال السادات : « إننى أنصت إلى وجهات نظر عديدة ، ولذلك فإننى أنصت إلى بطرس » . وأضاف : « ومع كل ذلك ، لقد عارضت أنت كامب ديفيد ، ولكننى لا أزال أنصت إليك ! » .

وحدث عمل إرهابى من الجانب العربى . فقد دخل فلسطينيون إلى إسرائيل من لبنان لمهاجمة أحد الكيبوتزات واحتجاز رهائن من مهجع للأطفال . وأفضى ذلك إلى القيام بهجوم عسكرى إسرائيلى على لبنان .

ودارت محادثات الحكم الذاتى فى هرتزليا فى مايو ١٩٨٠ ، فى إطار من الإرهاب ،

والغزو وتبادل الاتهامات . وبينما كانت هذه المحادثات جارية ، قُتل ستة من المستوطنين الإسرائيليين وأصيب ١٦ آخرون فى هجوم وقع فى الخليل . وقامت إسرائيل بترحيل زعماء فلسطينيين انتقاما ، وهو عمل وصفته الولايات المتحدة الأمريكية بأنه يتناقض مع اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ .

وفى هرتزليا ، جاءنى الدكتور مصطفى خليل سرا ليقول لى إنه بسبب مجموعة متنوعة من الدسائس ، فقد طلب إليه السادات أن يستقيل . وقلت : « رئيس الوزراء ، ألا تعتقد أنه قد حان الوقت أيضا بالنسبة لى كى أستقيل ؟ إن محادثات الحكم الذاتى وصلت إلى طريق مسدود ، ويوجه الإسرائيليون اللوم إلىَّ باعتبارى عقبة فى طريق إحراز تقدم » . وقال مصطفى خليل : « إنه فى نظامنا السياسى لا يستقيل المرء أبدا ، بل يُطْلَب إليه تقديم استقالته . إنك تمثل الاستمرارية فى وزارة الخارجية . ولا تزال لديك القوة لمقاومة ضغوط هذه المحادثات » . وأضاف : إن السادات فى حاجة إليك .

وكان كل ذلك باعثا على الكآبة . فقد كنا نشكل فريقا جيدا : مصطفى خليل كرئيس للوزراء ، كمال حسن على وزيرا للدفاع ، وأنا للخارجية . ولو ترك مصطفى خليل منصبه ، فسوف يتعين علَىّ أن أبدأ من الصفر ، وماذا سيكون عليه موقفى فى أى تعديل وزارى ؟ .

لقد كان اجتماعنا مع شارون يوم ٥ مايو موجعا للقلب . فلم يكن باستطاعة شارون أن يخفى غضبه ، وكان يوقع الرعب فى نفوس زملائه ، بورج ، ونسيم ، وتامير . وكانوا قد اتفقوا فى وقت سابق على أن تكون مسألة الأمن فى الأراضى بندا فى المناقشة . غير أن شارون قال : « لا » . وأضاف أن « مسألة أمن إسرائيل [والتى يعنى بها شارون الأراضى المحتلة فضلا عن إسرائيل ذاتها] ليست مفتوحة للتفاوض ، لأنها جزء من السيادة الإسرائيلية . ويجب ألا تناقش فى محادثات الحكم الذاتى » .

وفى هدوء ، أوضح الفريق كمال حسن على لشارون أن اتفاقات كامب ديفيد نصت على أن تُستبدل الإدارة العسكرية الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة بإدارة مدنية ، وأنه سيتعين إعادة توزيع القوات الإسرائيلية فى بعض القواعد العسكرية المعينة . ولذلك ، فإنه من الطبيعى أن يتم تشكيل لجنة لمعالجة هذه المسائل . ولم يكن شارون يستمع . فقد كان وجهه محتقنا ، وبدا كما لو كان على وشك الإصابة بسكتة فى دماغه .

وتدخل بورج بالسلوك المهذب للأسقف . أما نسيم فلم يظهر أى أثر من آثار

الانفعال . وعمد شامير إلى إخفاء مشاعره أيضا ، وبدا تامير كما لو كان فى مكان آخر . وتقرر رفع الجلسة .

ونظرا لتأجيل الجلسة العامة إلى صباح اليوم التالى ، فقد قررت القيام بنزهة على الأقدام على الشاطىء مع هيربرت هانزيل ، المستشار القانونى لوزارة الخارجية الأمريكية . وقلت له إن الوقت قد حان لتعليق المفاوضات ، وإن الحفاظ على المصداقية العامة لمحادثات الحكم الذاتى ، وحتى مصداقيتنا نحن ، تعتبر مهمة صعبة بصورة تفوق المفاوضات ذاتها .

وفى ختام الجلسة العامة ، كنا جميعا منهوكى القوى وفى حالة اكتئاب . وقد تُلى البيان الختامى . وبالرغم من لهجته المتفائلة ، فإن شيئا لم يتحقق . وأثناء رحلة العودة بالطائرة إلى القاهرة ، بذلت قرينة مصطفى خليل ، « مَلَك » ، كل ما فى وسعها لرفع معنويات مجموعتنا المكتئبة .

وقد تأكدت « استقالة » مصطفى خليل . وطلب منى أن أعد له جواز سفر دبلوماسيا جديدا ، مسجلا فيه أن وظيفته هى « رئيس وزراء سابق » . وكان يرغب فى السفر إلى باريس فى صباح اليوم الذى يشكل فيه مجلس وزراء جديد . وقلت له : « إننى لو وافقت على إصدار جواز سفر من هذا القبيل ، فسوف تعرف الوزارة كلها أنك قد استقلت » . وأجاب : « دكتور بطرس ، إن القاهرة كلها تعرف أننى قدمت استقالتى » .

وبعد مضى يومين ، يوم السبت الموافق ١٠ مايو ، استدعانى حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية . فقد اختاره السادات ليكون رئيس الوزراء الجديد ، علاوة على احتفاظه بمنصبه كنائب لرئيس الجمهورية . وأبلغنى مبارك أننى سأكون عضوا فى مجلس الوزراء الجديد ، وأننى سوف احتفظ بمهامى الحالية . وسألت : « ومن سيكون وزير الخارجية الجديد ؟ » . فأجاب : « الفريق كمال حسن على ، الذى سيترك وزارة الدفاع » . ومرة أخرى أصابنى الإحباط ، مع أننى أعرف تماما قائمة الأسباب التى لا تجعلنى وزيرا للخارجية .

وقال مبارك : « دَعْك من هذا ، دكتور بطرس ، لا تجعل هذه التفصيلات تضايقك . أنت تعرف جيدا أنك أنت الشخص المسئول عن الوزارة بكاملها . لا تتعجل ، وسوف تحصل على كل شىء تريده عندما يحين الوقت المناسب ». وعندما قابلت الفريق كمال حسن على ، كانت صداقتى معه من القوة لدرجة أنها سمحت لى بأن أقول له بمنتهى الصراحة إننى أصبت بالإحباط . وأجاب : « إننى حتى أكثر منك إحباطا » . واستطرد قائلا : « إنك

لم تفقد شيئا ، لقد احتفظت بمنصبك القديم ، ولكننى إلى حد ما ، قد نزلت مرتبتى . فطوال السنوات الأربعين الماضية ، خدمت فى جميع مستويات إمبراطورية ، وجئت فى نهاية المطاف لأتولى توجيهها . والآن ، أعطيت وزارة لها ميزانية تساوى عُشر الميزانية التى كنت أديرها فى وزارة الدفاع » .

وفى مساء ذلك اليوم ، وفى حفل عشاء أقيم بالسفارة البريطانية ، تلاشت حالة الإحباط مع بخار النبيذ ودخان السيجار .

وكان يوم ١٥ مايو ، هو المرة الرابعة خلال ثلاث سنوات التى قام فيها السادات بتغيير الحكومة ، والمرة الرابعة التى أؤدى فيها اليمين الخاصة بتولى منصبى فى قصر عابدين . وكان السادات فى حالة نفسية سيئة جدا . إذ أنه انتقد جميع الوزراء الذين أدوا اليمين لتوّهم . والتفت ناحيتى قائلا : « وأنت لم تصلح بعد الوزارة والتى لا تزال تضم موظفين من « الأولاد المدللين » . » وأثناء خروجنا ، حاول الفريق كمال حسن على إغاظتى بقوله : « كيف يمكنك إصلاح الوزارة ؟ إنك أنت نفسك من الأولاد المدللين ! » . لقد كان هذا الوصف خاطئا وظالما . ففى خلال ثلاث سنوات ، أجريت إصلاحات كثيرة ، من قبيل تغيير اشتراطات التعيين فى الوزارة ، وتنظيم التعيين فى المناصب الخارجية ، ونشر سلسلة من الورقات البيضاء ، وتنظيم الإدارات .

غير أن الحالة النفسية سرعان ما تحولت إلى أزمة . فقد استقال وايزمان . وعلمت فى وقت لاحق أنه أبلغ السادات بعزمه على الاستقالة قبل ذلك ببضعة شهور . وقد أعلن بيجن أن رئاسة الوزارة الإسرائيلية سوف تنقل إلى القدس العربية الشرقية . وكان الكنيست الإسرائيلى قد اقترع رسميا يوم ٣٠ يوليو على ضم القدس . وفى اجتماع عُقد فى إحدى قاعات قصر عابدين ، أقنعت السادات بأن يسمح لى بإعلان تعليق محادثات الحكم الذاتى . وأعددت بلاغا ، قرأته فى مؤتمر صحفى عقد فى مقر وزارة الخارجية . وفى مساء ذلك اليوم أجريت حديثا هاتفيا طويلا مع السادات . وبحثنا كيف ندير سياستنا الخارجية فى عالم بدون محادثات الحكم الذاتى .

ومع رحيل مصطفى خليل ، بدأ فصل جديد من قصتى البطولية فى المجال السياسى . فلن أكون بعد الآن بمفردى فى وزارة الخارجية . ولن يكون لدىّ بعد الآن تأييد وصداقة الجهتين الفاعلتين الرئيسيتين فى سياستنا الخارجية ، وهما : رئيس الوزراء ، ووزير الدفاع . ولسوف تتعقد مهمتى . وقد جعل الاقتراع فى الكنيست علاقتنا مع الدولة اليهودية عويصة . وأصبحت سنة ١٩٨٠ تشكل نكبة لمصر .

فتح حوار مع حزب العمل

وبحلول شهر أكتوبر ، نجحت الولايات المتحدة فى إعادة عقد محادثات الحكم الذاتى ، ولكنها كانت عارا ـ لقد كانت ستارا لعدوان إسرائيلى . وقد أعلن بيجن أن إسرائيل لن تترك أبدا مرتفعات الجولان . ورفضت الجامعة العربية فى اجتماع للقمة عملية السلام المصرية ـ الإسرائيلية بكاملها . لقد دعمت تجربتى مع بيجن اقتناعى بأن السادات كان على حق فى اعتقاده بأن حزب الليكود بزعامة بيجن هو وحده الذى يمكنه أن يتوصل إلى معاهدة سلام مع مصر ، غير أنه كان مخطئا فى عجزه عن فهم أن حزب العمل الإسرائيلى وحده هو الذى يستطيع التوصل إلى سلام مع الفلسطينيين .

ومنذ الزيارة التى قام بها السادات للقدس عام ١٩٧٧ ، أدرك تحالف العمل الإسرائيلى انحياز السادات ناحية بيجن ، وشكا ، استنادا إلى مبرر سليم ، من أنه يتعرض إلى التجاهل من جانب الحكومة المصرية .

وكان البروفيسور ستيف كوهين ، وهو أستاذ كندى فى العلوم السياسية ، ينقل إلىّ بصورة منتظمة شكاوى أعضاء حزب العمل الإسرائيلى . وكان البروفيسور كوهين يضيف آراءه : يجب ألا تتباعد مصر عن القطاعات السياسية الأخرى ذات النفوذ فى إسرائيل ؛ إن حزب العمل يمثل غالبية الإسرائيليين وهو أقرب إلى الموقف الفلسطينى من الليكود ؛ وإنه باستطاعة حزب العمل أن يفوز فى الانتخابات الإسرائيلية القادمة ، وإنه بالتعامل مع الليكود وحده ، تخلق مصر انطباعا بأنها تهتم بإخراج الجنود الإسرائيليين من سيناء أكثر من اهتمامها بتطبيع العلاقات مع إسرائيل بصورة كاملة .

كانت آراء كوهين قريبة من آرائى . وأردت مساعدة حزب العمل على الفوز فى الانتخابات الإسرائيلية التالية . وكنت قد حاولت مرارا الحصول على تأييد السادات لتحقيق التقارب مع العمل . وفى الأسبوع الأول من أغسطس عام ١٩٨٠ ، أتيحت لى الفرصة للاجتماع منفردا مع الرئيس ، وحاولت مرة أخرى : « إننى أريد توجيه دعوة رسمية إلى حزب العمل الإسرائيلى لزيارة القاهرة » .

ونظر السادات إلىّ فى دهشة ، وبعد لحظة من الصمت قال : « إننى لا أثق فى حزب العمل الإسرائيلى ، ولكننى أثق فى التزام بيجن بكلمته فيما يتعلق بإعطاء الحكم الذاتى للضفة الغربية وغزة . فقبل نهاية العام التالى ، سيكون الأمر قد تم تسويته . ولسوف ينضم الفلسطينيون والأردنيون إلى عملية السلام ، والتى سيتحقق لها النجاح . ولو أننى عقدت اجتماعا مع العمل ، فسوف يؤدى ذلك إلى تعكير صفو علاقاتى مع بيجن » .

ولم أصر على موقفى . لقد فشلت من قبل فى محاولتى دعوة فرانسوا ميتران لزيارة مصر ، لأن السادات لم يرد تعكير صفو علاقاته مع صديقه جيسكار . وقد ارتكبت خطأ التصميم ، حيث حاولت أن أوضح للسادات أن قواعد الشئون السياسية الفرنسية تتيح عقد اجتماعات مع زعماء المعارضة . فقد أجاب قائلا إنه يتبع قواعد الشئون السياسية المصرية ، وليس الفرنسية . وأصبح الاتصال مع المعارضة أمرا غير وارد .

وبعد ذلك ، حاولت تنظيم اجتماع غير رسمى بين الحزبين السياسيين : الحزب الوطنى الديمقراطى (الذى يرأسه السادات) وحزب العمل الإسرائيلى . وقررت أن أتصرف من خلال مصطفى خليل ، الذى كان قد عُيّن نائبا لرئيس الحزب بعد استقالته والذى كان يشاركنى الرأى ، ومن خلال أنيس منصور . فقد كان منصور وموسى صبرى هما أقرب الصحفيين إلى السادات . واقترحت على أنيس منصور أن يُعقد الاجتماع على شكل ندوة يتم تنظيمها فى مكتبه من جانب مجلة « أكتوبر » الأسبوعية التى يرأس تحريرها ، والتى تنشر بصورة منتظمة أحاديث صحفية خاصة مع السادات .

ومما يبعث على الدهشة ، أن المحاولة قد نجحت على ما يبدو . فقد وافق السادات على الاجتماع والوفد الإسرائيلى فى نهاية الندوة . وقد لجأ الإسرائيليون إلى تعقيد الأمور بإصرارهم على أن يعقد الاجتماع فى مكاتب الحزب الوطنى الديمقراطى . غير أننى رفضت تغيير المكان ، حيث كنت أعرف أن ذلك سوف يفقدنا موافقة السادات .

وسيكون الوفد الإسرائيلى برئاسة شيمون بيريز ، ويضم أبا إيبان ، وحاييم بارليف ، ويوسى بيلين ؛ وفى الجانب المصرى ، سيكون مصطفى خليل ، وابراهيم حلمى عبد الرحمن ، (وزير التخطيط سابقا) ، وأنيس منصور ، وأنا .

وفى ٤ نوفمبر ١٩٨٠ ، انتخب رونالد ريجان رئيسا للولايات المتحدة . وشعر السادات بخيبة أمل ، حيث كان يأمل فى إعادة انتخاب صديقه جيمى كارتر . وكنت قبل بضعة أسابيع قد اتصلت بالسادات وقلت له إنه من المحتمل ألا يعاد انتخاب كارتر . وغضب السادات وقال : « يابطرس ! إنك تنصت دائما إلى الشائعات ، وتعتقد أنها حقيقة » . والآن ، ومع الفوز الكاسح لريجان ، اتصل بى السادات هاتفيا طالبا إعداد برقيتين ، الأولى لريجان والثانية لكارتر . وقال : « تعرف يا بطرس ، كنت أعلم أنه لن يعاد انتخابه » . وبطبيعة الحال ، لم أذكره بتحذيراتى السابقة . لقد كان نص البرقية الموجهة إلى كارتر وديا وعاطفيا ؛ وكانت البرقية الموجهة إلى ريجان رسمية .

وأثناء مفاوضات كامب ديفيد ، وفى مرات عديدة بعد ذلك ، كان السادات يقول لى :

« عندما يعاد انتخاب كارتر ، سيحصل على تنازلات من الإسرائيليين ويحل جميع مشكلاتنا . لابد لك أن تتعلم كيف تنتظر. يا بطرس » . والآن ، فعلا ، يتعين علينا أن نتعلم كيف ننتظر، ننتظر تشكيل الحكومة الأمريكية الجديدة ، وننتظر نتيجة الانتخابات الإسرائيلية . ولقد كنت آمل سرا أن يؤدى فوز حزب العمل إلى « حل جميع مشاكلنا » .

وفى اليوم التالى لانتخاب ريجان ، ذهبت إلى أنيس منصور لاستقبال وفد حزب العمل الإسرائيلى . كان شيمون بيريز فى قمة أناقته ومفعما بالأمل . أما أبا إيبان فقد كان ممتلىء الجسم ويشبه إلى حد كبير أستاذا بالجامعة . لقد كانت هذه هى أول مقابلة لى مع جيل حزب العمل الجديد فى شخص يوسى بيلين ، والذى بدت عليه نضارة الشباب بصورة لا تصدق .

إن يوم الجمعة هو يوم العطلة فى مصر . ومع ذلك ، فقد كنا جميعا موجودين فى التاسعة من صباح ٧ نوفمبر فى « دار المعارف » ، وهى دار للنشر تم تأميمها ويديرها أنيس منصور حيث تصدر مجلة « أكتوبر » الأسبوعية . وفى شرفة الدور المقام فوق سطح المبنى ، ومع المنظر البانورامى للنيل والجزيرة ، كانت الحالة النفسية هادئة وودية . فقد جعل مصطفى خليل كل شخص يشعر براحته . لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يجتمع فيها حلمى عبد الرحمن بالإسرائيليين ، وكان يشعر بالخجل .

ومثل عاشقين فى مرحلة اختبار وعلى أعتاب مرحلة طويلة الأجل من الرومانسية ، بدأ كل جانب يحكى عن أحواله الكثيرة فى الماضى : التحالفات ، والخيانات ، والانهيارات ، والأحلام التى تحطمت والتى جرت ملاحقتها ، وهيكل حياتهم الحالية . وكان كل ذلك ، بطبيعة الحال مصاغا بصورة تناسب غرض بناء الثقة فى الجانب الآخر الذى يتم الالتقاء معه حديثا . وكان الإسرائيليون يعرفون أن لديهم منافسا يسعى للحصول على ود المصريين ، وهو حزب الليكود بزعامة بيجن . وقد صَوّر شيمون بيريز حزب الليكود فى عبارات تستهدف تنفيرنا منه .

وتساءل بيريز : « ماهو مصير الليكود ؟ » . وأضاف : « إن حزب العمل حزب منظم . ولدينا تاريخ متَّصل . ويتألف حزب الليكود من حزبين مختلفين [الأحرار ذى الوجهة الاقتصادية ، والليكود ذى الوجهة السياسية] . وأقول إنه من الممكن التنبوء بمصير هذا الحزب على غرار المحصلة التى يمكن أن تنتج عن زواج « جورج برنارد شو » و « مارلين ديتريتش » : فسوف يحمل طفلهما جمال شو وذهن ديتريتش » .

بيد أن أبا إيبان قد كشف عن أن تحالف حزب العمل الأخير له مشاكله من جراء

اعتماده الإحصائى على الأغلبية البرلمانية للحزب الدينى الوطنى ، « المفدال » . وقال : « لقد أبرمنا اتفاقا مؤقتا مع مصر فى عام ١٩٧٤ ، يقوم على أساس الانسحاب من على طول قناة السويس . وأبرمنا اتفاقا مؤقتا مع سوريا فى عام ١٩٧٤ يقوم على أساس الانسحاب من القنيطرة فى مرتفعات الجولان . وكان المفروض أن تكون الخطوة الطبيعية التالية هى إبرام اتفاق مماثل مع الأردن يقوم على أساس الانسحاب من أريحا » .

غير أن إيبان قال إن الالتزام السياسى لحزب العمل أمام حزب « المفدال » يتطلب إما موافقة الحزب الدينى « على التخلى عن أى أرض من « ارتيز إزرائيل » (أرض إسرائيل) غرب نهر الأردن » ، أو عرض المسألة فى استفتاء عام . وأضاف إيبان أنه لهذا السبب يكون من المهم جدا لحزب العمل ليس فقط الفوز فى الانتخابات ، بل ايضا تحقيق الفوز بفارق يحرره من الاعتماد على أحزاب ذات أيديولوجيات مختلفة . ووافقت وشاركت إيبان الأمل فى أن يفوز العمل فى الانتخابات الإسرائيلية القادمة .

وتكلم بيريز ، بعبارات بليغة ، تنبئية ، مفعمة بالمشاعر فى الواقع ، عن مستقبل بعيد يتسم بثراء لا حدود له وتقدم اقتصادى قائم على التعاون يربط بين العرب والإسرائيليين إلى الأبد فى مسعى مشترك لتحقيق الازدهار . وقال إن مشروعات إقامة المستشفيات ، وحفظ المياه ، وإقامة سوق مشتركة ـ ستكون جميعها مستقبلنا المشترك . وقال ، على سبيل المثال ، ليس لدى إسرائيل صناعة سيارات ، ولذلك ، « فقد توافق على أن تكون مصر هى المنتج للسيارات لنا » ، وتحصل على معاملة تفضيلية عندما تفعل ذلك .

ثم ألقى أبا إيبان ، الذى اعتقد على ما يبدو أن زعيم حزبه قد هام بعيدا فى المستقبل ، خطابا مسهبا مهما تناول فيه ماضى الشعب اليهودى والأثر الذى لا يُمحى الذى تركه على الحاضر الإسرائيلى . وسعى إلى أن يعود بنا إلى الواقع .

وقال إيبان : « إنه لمَّا كانت الانتخابات ستجرى لدينا فى العام المقبل ، فإن تفكيرنا فى السياسة الخارجية هو تفكير عملى براجماتى ، وليس مجرد تفكير يتعلق بالمفاهيم . إن هناك إحساسا حادا بالمأساة لا يمكن تفسيره إلا بتاريخنا ـ تجارب الشعب والدولة ؛ والموضوع الغالب هو هشاشة الحياة . إنه الإحساس بأن الحياة الطبيعية ما برحت أقل أمنا لشعبنا منها للشعوب الأخرى ، وأقل أمنا لدولتنا منها للدول الأخرى . ولعل هذا هو السبب فى أن أسوأ مخطط للأمن سوف ينقض عليك عندما تبحث أى اقتراح جديد مع الإسرائيليين . إن بعض الناس يرون أن لدينا وسواسا يتعلق بالأمن يستحوذ علينا . ونحن لم نعترض أبدا على ذلك التعريف . إننا دولة ذات سيادة ويحق لنا أن تكون لدينا وساوسنا

السيادية . ونحن ننتقد بعض أقراننا من المواطنين لكونهم مشدودين بدرجة كبيرة للتاريخ . ويبدو أن حكومات إسرائيلية كثيرة كانت تهتم للغاية بالتاريخ . ونحن نعتقد فى حزبنا أنه يتعين علينا أن نبنى جسرا بين تجاربنا ورؤيتنا ، بين ماضينا وحاضرنا » .

وبعد أن تناول ما يتفق عليه الإسرائيليون ، تكلم إيبان عما يختلفون بشأنه : « إذا كنا نتفق مع الحزب الآخر ، فلماذا نحاول أن نحل محلّهم ؟ وإذا كنا نختلف معهم ، فينبغى لنا أن نوضح حول ماذا نختلف » .

وبدأ إيبان يحدد تفصيلا نقاط الخلاف الخمس بين العمل والليكود . قال : أولا ، إن حزب العمل يرى أن الفلسطينيين هم شعب حقيقى له الحق فى أن يحدد مصيره السياسى . وبينما كانت كلمات إيبان تتتابع ، كان مصطفى ينصت إليه فى حرص . وكان وجه أنيس منصور يكشف عن رد فعله إزاء كل نقطة إسرائيلية . أما حلمى عبد الرحمن فكان شارد الذهن على ما يبدو ، كما لو كان لا يسمع شيئا . وكان رأسى منحنيا على المائدة بينما كنت أحاول تدوين كل شيء .

وقال إيبان : ثانيا ، إن العمل يريد أن يتقاسم الأرض ويتقاسم السيادة مع الفلسطينيين . كان إيبان يتكلم دون مذكرات ، ودون أى بادرة تدل على أنه يوجه خطابا إلى مجموعة من المستمعين ، وبدا كما لو كان يتكلم أمام كاميرا تليفزيونية . واستمر لفترة طويلة حتى وصل إلى نقطة الخلاف الثالثة ، والتى تتمثل فى أن العمل لديه رؤية محددة للغاية عن الليكود إزاء المستوطنات الإسرائيلية . والنقطة الرابعة ، هى إن العمل يعتبر الحكم الذاتى الفلسطينى وضعا مؤقتا وليس دائما .

وكنا جميعا نأمل بشغف أن ينتقل إيبان الآن إلى نقطته الخامسة والأخيرة من نقاط الخلاف بين العمل والليكود ، ولكنه لم يفعل ذلك .

ونظرت إلى حلمى عبد الرحمن الذى كان جالسا فى شرفة داخلية إلى أعلى . كان وجهه لا تعلوه أى علامات للتأثر مما يدل على أنه كان شارد الذهن .

وقال إيبان : « وإلى هنا ، تكون لدينا أربعة أمور نتخذ إزاءها نهجا مميزا عن نهج الليكود . وأود أن أقول إن بين الحزبين الرئيسيين في إسرائيل ربما يوجد خلاف أشد حدة من الخلاف القائم بين الديموقراطيين والجمهوريين الأمريكيين ، أو بين المحافظين والعمال البريطانيين » .

وأخيرا جاء إيبان إلى النقطة الخامسة . إن العمل يختلف مع الليكود حول الأردن . « فلم نعد نقول إن بوسعكم حل المشكلة مع الأردن وبدون الفلسطينيين ، ولكننا نعتقد أنه من غير المعقول القول إنه باستطاعتكم حلها مع الفلسطينيين وبدون الأردن . فلو استبعدت الأردن ، فسيتخلف لديك رد فعل كيميائى لا ينفع » .

وقال إيبان إنه حتى داخل حزب العمل يوجد « صقور » و« حمائم » . وإنه يجىء ضمن فئة الحمائم . وأضاف أنه : « فى الأدب العبرى ، لدينا قصة سفينة نوح . وإن الكائن الوحيد الذى عرف ما أراده هو الحمامة » .

لقد كانت تجربة صعبة لنا ، الجلوس فى صمت لفترة طويلة جدا بينما كان إيبان يواصل حديثه دون انقطاع . غير أن ما قاله كان مقبولا ، وأثبت صحة اقتناعى بأن القضية العربية لا يمكن استيفاؤها إلا بعد أن يلحق العمل الهزيمة بالليكود فى صناديق الاقتراع . وعندما تمهل إيبان لفترة قصيرة لالتقاط أنفاسه ، تساءل مصطفى خليل عن معنى الأمن لدى حزب العمل ، وهب شيمون بيريز للإجابة بالتشديد على خطر الإرهاب الذى يعتبر « صفة مميزة لمنظمة التحرير الفلسطينية » ، خطر الغزو ، خطر التخلف تكنولوجيا ، وخطر وضع أمن إسرائيل فى أيدى أمريكا ، أو الأمم المتحدة ، أو الروس . وأعلن أن « إسرائيل لابد أن تكون معتمدة على نفسها عندما يكون الأمر متعلقا بالدفاع عن بلدنا » .

وكان بيريز منتعشا جدا . وكانت صورته آسرة . وقال : « إن هناك هيئتين رئيسيتين : الأولى هى شعب الضفة الغربية ، والأخرى هى الشعب فى قطاع غزة . وهما مختلفان ، كما تعرفون .... كنت فى يوم ما مسئولا عن هذه المناطق ، ومن أجل جعل الحالة أقل توترا وإجهادا ، عرضنا على بعض اللاجئين فرصة التوجه إلى الضفة للعيش هناك . وقد لقيت هذه الفكرة فشلا كاملا . فإن الناس فى الضفة الغربية لم يتقبلوهم ، ولم يستوعبوهم ، وشعر أهل غزة أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ؛ ولم يعجبهم هذا الوضع . إننى لا أريد القول إنهم لا يستطيعون العيش تحت نفس الهيكل ، تحت المظلة ذاتها ، ولكنهم أناس مختلفون » .

كان بيريز ، على خلاف الزعماء الإسرائيليين الآخرين مثل شارون ، وبورج ، يدرك أن الفلسطينيين موجودون . وكان يفكر بعمق فيهم ، غير أننا لم يعجبنا ما كان يقوله ، لأنه كان يتعارض مع إمكانية التضامن الفلسطينى تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية . والأسوأ من ذلك ، أن بيريز قد عارض بقوة قيام دولة فلسطينية . وقال إنه مهما كان الوضع الذى قد يوافق عليه عرفات ، فإنه لن يرضى أبدا الراديكاليين الفلسطينيين . وأضاف أن

منظمة التحرير الفلسطينية ليس بمقدورها أن تتفق بطريقة موحدة . ومضى قائلا : « إنك لا تستطيع أن تتناول كوبا من النبيذ فى كوب مكسور » . واستطرد : « إنه لو قامت دولة فلسطينية منفصلة ، فسوف تستمر الحرب ؛ ولن تتوقف بالرغم من كل القبلات » .

وفى الساعة الواحد والنصف بعد الظهر ، أصبح الحديث ، الذى سيطر عليه كلية تقريبا بيريز وإيبان ، متنافرا وغير مركز . وحان وقت تناول الغداء .

وفى فندق الميريديان ، تم حجز قاعة ذات منظر فريد للنيل ، لحفل الغداء ، وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، عدنا إلى مناقشاتنا . وبعد مزيد من الحديث حول أوجه الاختلاف والتشابه بين الحزبين السياسيين ، وُجهت إلىّ الدعوة للتحدث عن الشئون الخارجية وعملية السلام .

ولما كان إيبان وبيريز هما المتحدثين بلسان إسرائيل ، فقد شعرت الآن أننى لا بد أن أجاريهما وأزيد ، بتناول النقطة تلو النقطة تأييدا لمصر والفلسطينيين . وقلت إنه لا بد لنا أن نحافظ على الزخم . لقد بدأ فى الانفلات . وأضفت : « سيكون هناك نوع من الفراغ ابتداء من نوفمبر ١٩٨٠ ، وهو موعد الانتخابات الأمريكية ، إلى نوفمبر ١٩٨١ ، موعد الانتخابات الإسرائيلية . ومن ثم كيف يمكن لنا أن نحافظ على الزخم فى عملية السلام ؟ » .

وقلت إنه من المهم أن نبنى الثقة بين السكان الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والسكان الفلسطينيين فى الشتات ؛ الفلسطينيين فى لبنان والفلسطينيين فى الأردن وسوريا - لماذا ؟ لأنه مادام الفلسطينيون باقين فى الشتات لاجئين ، فسوف يظلون خاضعين لتأثير الراديكاليين . غير أنه عندما يجىء الوقت الذى يكون لديهم فيه جواز سفر ، فسوف تتغير الحالة كلها . سوف يكونون مواطنين تابعين لاتحاد أو دولة ، أو أيّما كان الكيان ، وستتوافر لهم الحماية التى تتوافر الآن فى القانون الدولى . أما حالتهم فى الشتات فسوف تكون مختلفة تماما . إن هناك ما يقرب من ثلاثمائة ألف سورى وثلاثمائة ألف فلسطينى يعيشون فى لبنان ؛ وكلاهما يعتبران بطريقة ما ، من المستضعفين فى المجتمع اللبنانى . غير أنه حينما يشعر السوريون بالشقاء ، فإنهم يستقلون ببساطة عربة أجرة على الفور تتجه بهم من بيروت إلى دمشق ، وبذلك تُحل مشكلتهم . ولكن الفلسطينيين لاجئون ، والحل الوحيد المتاح لهم هو أن يصبحوا راديكاليين أو يتحولوا إلى إرهابيين. وعندما يجىء اليوم الذين يكون لديهم فيه جواز سفر ، سيكون وضعهم كأجانب مختلفا ، سوف يكونون مواطنين يحملون جوازات سفر أجنبية ، وليسوا لاجئين .

وقلت لأبا إيبان : « إنك كنت تتكلم عن الهاجس الإسرائيلى المتعلق بالأمن ، ولا بد

أن تعرف أن الجانب الآخر لديه هاجس رهيب يتعلق بالأمن . فبعد ثلاثة عشر عاما من الاحتلال العسكرى ، لا يمكن أن تتصور عُقدهم وحالتهم المرضية » .

لقد شعرت بأن هؤلاء الإسرائيليين ليس لديهم فهم للموقف الذى تجد مصر نفسها فيه . وأنهم عندما يفهمون ذلك فقط ، سوف يدركون الأضرار التى يمكن أن يحدثها إصرار إسرائيل على شروط متشددة ، أو حتى قصوى . وما يفعله هذا الإصرار فعلا . وقلت إن « الثمن الحقيقى الذى دفعته مصر مقابل معاهدة السلام ليس هو عزلة مصر عن العالم الثالث بقدر ما هو عجزها عن القيام بالدور الذى كانت تقوم به أثناء السنوات العشر الأخيرة . إن مصر كانت هى الوسيط ، ومصدر الأفكار الحديثة من باندونج إلى عدم الانحياز إلى الوحدة الإفريقية . والآن ، نرى التسلل السوفيتى فى المنطقة ، وليس ذلك بسبب فشل المفاوضات ولكن بسبب معاهدة السلام . إن توافق آراء العالم الثالث ، وحتى البلدان العربية ، يتمثل فى أنه من حقنا إبرام معاهدة سلام . غير أنهم يهاجموننا لأننا نتكلم باسم الفلسطينيين دون تفويض ؛ ولأننا لم نحصل على شىء ، والحقيقة أن حالة الفلسطينيين أصبحت أسوأ بعد معاهدة السلام مما كانت عليه قبلها » .

وقد حاول شيمون بيريز دحض أقوالى : « إنكم تداومون على سؤالنا عن مدى ما نعطيه . فهل أنتم مستعدون للعطاء ؟ وهل تتفقون معنا على النقاط التالية : أنه لم توجد أبدا حدود محددة دولية على الضفة الغربية ، وأن مسألة الحدود على الضفة الغربية هى مسألة مفتوحة ؟ إنكم لا تستطيعون اتخاذ موقف يتعارض تماما مع موقفنا . وليس بوسعكم الإصرار على أنه مادامت حرب عام ١٩٦٧ قد انتهت على طول خط معين ، فإن هذا الخط قد أصبح فجأة مقدسا . إن ذلك لا معنى له . ومن ثم ، نود أن نعرف إذا ما كنتم تظهرون أيضا درجة بسيطة من المرونة ، وليس نحن فقط » .

وفى نهاية ثمانى ساعات من المناقشات ، قال أبا إيبان إنه يريد العودة إلى بيان الدكتور بطرس غالى عن المستقبل القريب ، كيف نعيش فى السنة المقبلة مع وجود نوع ما من الحركة . وأضاف أنه لا يكاد يكون هناك ما يستطيع حزب العمل أن يفعله من أجل بناء الثقة بين الفلسطينيين . « غير أننى أتساءل عما إذا كنت لم تبالغ فى تدابير بناء الثقة . إنك لا تقيم وزنا بالدرجة الكافية للآثار الباعثة على الرهبة والتى تخلفها منظمة التحرير الفلسطينية على المقيمين فى فلسطين . إنها تهدد باغتيال أولئك الذين يختارون خلاف ما يكون فى مصلحتها . إن منظمة التحرير الفلسطينية تمارس الترهيب ولا يستطيع أى شخص التصدى للترهيب من جانب المنظمة . وإننى لأتساءل عما إذا كان لا بد من أن

يكون الرد على ذلك هو اتخاذ موقف أشد عنادا وقسوة تجاه هذه المنظمة وذلك بُغية تشجيع السكان فى الضفة الغربية وغزة على المضى فيما يكون فى مصلحتهم فعلا ، وهو التوصل إلى منظمة تعبر عن هويتهم فعلا » .

وقلت : « إننى اختلف معك تماما ، لأن ما جاء فى اتفاقات كامب ديفيد لا يزال كما هو فى اتفاقات كامب ديفيد . إن الفلسطينيين لا يرون فيها قليلا ولا كثيرا ـ حتى المعتدلين بين أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية والذين أبدوا استعدادهم إعطاء الضوء الأخضر للفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة للاشتراك فى عملية السلام . ولو أنك كنت فلسطينيا ، لكان بوسعك أن ترى أن الحالة أصبحت أسوأ مما كانت عليه بعد معاهدة السلام بدرجة تفوق ما كانت عليه قبلها . إننى لا أريد أن أقلل من أهمية نشاط الجهاد الذى تقوم به المنظمة . ومع ذلك ، فإن الإجراءات التى أُتخذت طوال الشهور الستة عشر الأخيرة من جانب الإدارة العسكرية الإسرائيلية ، هى بالتأكيد السبب الرئيسى لهذه الأزمة » .

وكانت لشيمون بيريز الكلمة الأخيرة : « أعتقد أنه لا معنى من وراء الحديث بيننا لإثارة جميع نقاط الخلاف . فمن ذا الذى يتفق بنسبة مائة فى المائة ؟ ليس هناك من يفعل ذلك . ولكننى أعتقد أن لدينا أرضية مشتركة كافية .... ويجب أن نفعل كما لو كنا نقوم برص الطوب ، واحدة فوق الأخرى . ولا أظن أنه باستطاعتنا الانتهاء من تشييد البناء كله بين يوم وليلة ، ولو انتظرنا ، فلن يتم بناء شىء . أنتم تختلفون . ونحن نختلف . وبوسعنا أن نتناقش حول ذلك . ولكن فلنحاول فعلا وندعم الأجزاء المتفق عليها ونستخدمها كزخم من أجل السلام ؛ إن هذا هو ما أقترحه فعلا » .

وقد استقبل السادات الوفد الإسرائيلى فى مقر إقامته فى القناطر الخيرية وكان الحديث وديا . وقال السادات إن محادثات الحكم الذاتى سوف تنتهى إلى اتفاق ، وإن الأردن والفلسطينيين سوف ينضمون إلى هذه العملية أثناء عام ١٩٨١ . وصحبت الإسرائيليين أثناء العودة إلى المطار . وكانت تبدو عليهم السعادة . وكان التعبير الذى استخدمه أبا إيبان فى الكثير من المقابلات الصحفية التى أعقبت ذلك ، هو أن « السلام لا رجعة فيه » . وكان ذلك يعبّر عن الهدف الأول من ندوتنا . أما الهدف الثانى فكان أكثر طموحا : أننا نريد أن نُسهم فى فوز العمل فى الانتخابات القادمة .

وعندما عاد بيريز وإيبان إلى إسرائيل ، تردد كلام بين الصحافة عن أنهم قد أبلغوا السادات بتفصيل أكبر عن « الخيار الأردنى » مما كانوا يطلعون عليه الرأى العام الإسرائيلى . وقد أعلن إيبان أنه فى الواقع تعتبر المسألة الأردنية هى إحدى المسائل التى

يتفق فيها حزب العمل بأكبر قدر ممكن مع مصر ، وأن « السادات ومساعديه لا يعتقدون أنه من الممكن حل المشكلة بدون الأردن » . وأضاف إيبان أنه فى الواقع ، بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ، أصبح أعضاء الليكود « أسرى الخيار الأردنى » ، لأنه ليست هناك وثيقة أردنية أخرى غير إطار كامب ديفيد : لقد بدا الأردن فى محادثات الحكم الذاتى باعتباره البلد الذى لا بد لإسرائيل أن تبرم معه معاهدة سلام ، وكأحد الأطراف التى ستقوم بتحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة .

الفصل الحادى عشر

نهـــاية قصـــة بطـــولـة

الاستعلاء على مصدر النيل

اشتدت هواجس السادات تجاه الشيوعية . وكان قد اعترض على محاولتى إعادة السفير المصرى إلى موسكو ، ورفض مقابلة « نيتو » زعيم أنجولا فى منروفيا عندما كنا فى حاجة إلى مساندته . وقام بإغلاق قنصليات الاتحاد السوفيتى وبلدان أوروبا الشرقية دون إخطار. وكان ما يعقّد حياتى حينذاك هو أن عداءه للشيوعية قد امتد أيضا ليشمل منجستو هيلى ماريام الذى كان قد قام بإقصاء الإمبراطور هيلاسلاسى إمبراطور إثيوبيا . ومن أجل المضى قدما فى سياستى الإفريقية ، كان يتعين علىَّ التعامل مع منجستو ، الزعيم الماركسى اللينينى الإثيوبى . كان عداء السادات تجاه منجستو لا يعادله إلا عداء منجستو للسادات . وكانت مصر توفر الدعم المالى والعسكرى للصومال ، عدو إثيوبيا ، فضلا عن الثوار الإريتريين الذين كانوا يسعون إلى الحصول على الاستقلال من الحكم الإثيوبى . ولم تكن أى من السياستين تساعد على تحسين علاقات السادات مع منجستو .

وقد حاولت مرارا أن أقنع السادات بوجهات نظرى ، وكنت أرى أن مصلحة مصر القومية تتطلب منا أن نقيم علاقات مع إثيوبيا ، حيث تنبع أصلا نسبة ٨٥ فى المائة من مياه النيل . ومن أجل ضمان تدفق النيل ، فإنه لا بديل عن التعاون مع إثيوبيا ، ولا سيما

بالنظر إلى مشروع الرى الإثيوبى المقام فى بحيرة تانا ، والذى يمكن أن يقلل من مياه النيل التى تصل إلى مصر . ومادامت العلاقات بين القاهرة وأديس أبابا متوترة أو عدائية ، فإننا نكون عرضة لمشاكل خطيرة . إن المحافظة على مياه النيل لصالح مصر ليست مجرد مسألة اقتصادية أو هيدرولوجية ، بل إنها مسألة تتعلق بالبقاء الوطنى . وكما أعلن هيرودوت ، فإن « مصر هبة النيل » ، كما أن أمننا يعتمد على الجنوب بقدر أكبر من اعتماده على الشرق ، وذلك بالرغم من القوة العسكرية لإسرائيل .

وفى مساء يوم ما ، وبعد حديث هاتفى طويل ، وافق السادات على الكتابة إلى منجستو ، وأذن لى بالسفر إلى أديس أبابا فى زيارة رسمية ، وذلك لمحاولة إحداث تقارب . كان منجستو يعرفنى ، فقد تقابلنا مرات عديدة . وكنت على يقين من أنه يمكننى ان اشترك معه فى حوار مثمر . وكانت الرسالة التى أعددتها ودية ومهذبة . ولم أتناول قضايا بعينها ، بل أشرت إلى الأهمية التاريخية ، والسياسية ، والاقتصادية للعلاقات المصرية ـ الإثيوبية . ولدهشتى وسرورى ، أن السادات وقَّع الرسالة دون تعديل .

وقد وافق السادات على طلبى باصطحاب أنيس منصور معى ـ وهو كاتب ، وصحفى ، ومحاضر سابق فى الفلسفة بجامعة القاهرة . وكان أنيس قريب الصلة جدا بالسادات ، حيث كان يعمل معه كمستشار فكرى ومتحدث رسمى . وقد كنت فى حاجة إلى مساندة أنيس منصور لخطتى الرامية إلى إقامة تضامن بين دول حوض نهر النيل ، يضم كمرحلة أولى مصر ، والسودان ، وإثيوبيا ، وفى وقت لاحق الدول الواقعة على ضفاف النهر ـ كينيا ، وتنزانيا ، وأوغندا ، وبوروندى ، ورواندا ، وزائير ـ وذلك كيما ننشىء معا هيئة للنيل يمكن أن توفر المياه والطاقة والاتصالات لجميع شعوب ضفاف النيل . وكيما يشعر السادات بالارتياح ، فقد وعدته بموازنة الزيارة إلي أديس أبابا بزيارة للصومال . وقد اقترح أن أتوقف أيضا فى نيروبى ، وذلك لمقابلة دانييل آراب موى ، رئيس جمهورية كينيا ، التى تستضيف مؤتمر القمة القادم لمنظمة الوحدة الإفريقية .

وقد سافرت إلى أديس أبابا فى ساعة مبكرة من صباح يوم ٢٨ مارس . وفى مطار الأقصر ، توقفت الطائرة للتزود بالوقود . كان المطار خاليا ، ومشيت مع أنيس منصور على طول الطريق المرصوف من المهبط ، فى جو جاف ، ومنعش ، بعيدا عن الاكتئاب الذى تسببه غرف الاجتماعات المليئة بميكروفونات التسجيل السرية . وشرحت له فى تفصيل مطوّل خطتى الرامية إلى جمع كل الدول المطلة على النيل فى هيئة فوق وطنية . وسوف تعمل على إنشاء طريق سريع من الاسكندرية إلى قلب القارة ، وشبكة كهرباء تستفيد من جميع السدود الجديدة المقامة على النهر . وسوف يكون باستطاعتنا حتى تصدير

الكهرباء إلى الجماعة الاقتصادية الأوروبية . ومن الممكن أن تكون ، بهذه الطريقة ، بمثابة مبادرة من السادات ، لها من الأهمية ما كان لرحلته إلى القدس. وقد ألححت على أنيس منصور ، باعتباره أحد المستشارين المفضلين لدى السادات ، أن يؤيد مشروعي وأن يقنع السادات بأن يعتبره مشروعه هو . وقلت إن محاولتي الرامية إلى التقارب مع منجستو ، « الإمبراطور الأحمر لإثيوبيا » ، تشكل المرحلة الأولى من المشروع .

وقد استمع أنيس منصور إلىّ بعناية ، ولكنه قال :« إن السادات في أوج مجده . وليس مستعدا لأن يتحمس إزاء مشروع جديد قد ينتهي بالفشل ومن ثم يقلل مجده » . وأضاف أن السادات لايهتم بالنيل ، لأن أولئك المسئولين عن المياه والري لم يخبروه أبدا بمدى أهمية هذه المشكلة . وكان السادات ، من أجل إقناع الإسرائيليين بإعادة الضفة الغربية وغزة ، قد عرض عليهم تزويدهم بمياه النيل من أجل مشاريع الري الخاصة بهم . وقد أثار ذلك ضجة في مصر ، فضلا عن الدول المطلة على النيل ، التي استشاطت غضبا لأن السادات عرض مياه النيل دون موافقتها . وقال أنيس منصور إن هذه المحاولة ستجعل من قبول السادات لمشروعي أمرا صعبا للغاية . وأضاف أنه : « مثل جميع السياسيين ، يهتم بمشاكل اليوم أكثر من اهتمامه بمشاكل الغد » .

وبعد مضي عشرين دقيقة من إقلاع الطائرة ، كنا فوق بحيرة ناصر ، البحيرة الاصطناعية التي شكّلها النيل خلف خزان أسوان . وواصلت التأمل في مخططي الكبير . وتصورت أن تصبح بحيرة ناصر ، بأبي سمبل ومعبده ، الذي قامت منظمة اليونسكو بإنقاذه ، عاصمة جديدة لهذا الإقليم ، ومركزا سكانيا به حقول ومدن ومشاريع سياحية جديدة على ضفافه . إنها الآن تشكل حاجزا بين مصر والسودان ، غير أنه من الممكن أن تصبح قطبا جاذبا يوحد المنطقة معا ويمتد لما وراء مدينة القاهرة المتضخمة . ولسوف نغزو الصحراء . كان أنيس منصور ينصت في تشكك غير أنه تركني أواصل تأملي . وبعد فترة قصيرة ، أصبحت بحيرة ناصر خلفنا ، وأصبحنا نحلق بالطائرة مرة أخرى فوق الصحراء ، ثم فوق الخرطوم . واستطعت أن أرى في وضوح مكان التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، حيث يتحدان ليشكلا النهر الإلهي ، الذي بعث أقدم حضارات العالم .

وأخيرا أصبحنا فوق أديس أبابا . ومما بعث هلعنا أن المطار رفض التصريح لنا بالهبوط . وقد سألت قائد الطائرة : « هل تستطيع الهبوط في جيبوتي أو نيروبي ؟ » . فقال إنه ليس لديه وقود كاف . وأخذت الطائرة تحوّم فوق أديس أبابا . وأصاب أنيس منصور الرعب . وصاح قائلا : « افعل أي شيء وإلا سنموت ! » . وانتابت الوفد حالة من الهلع .

وكان الجو فى الطائرة مكهربا . وأصدرت تعليماتى إلى قائدى الطائرة : « أبلغوا المطار بأن الوقود بدأ ينفد وأننا سنهبط هبوطا اضطراريا » .

وهبطنا سالمين . فما الذى كان يحدث ؟ لقد وجدنا فى صالة كبار الزوار السفير المصرى ، محمود قاسم ، وعددا قليلا من المسئولين الإثيوبيين . وكان السفير يبدو قلقا ، أو حتى خجلان . وهمس إلىّ باللغة العربية : « إنه أمر غير مفهوم . إن منجستو يرفض مقابلتك . ففى بادىء الأمر قالوا إنه خارج المدينة يتفقد قواته ، ثم قالوا إنه يترأس اجتماعا لمجلس الوزراء . إن الحالة السياسية تبدو خطيرة ، ولكن المدينة هادئة » .

وإذ انتابنى الغضب من السفير ، قلت له : « كان يجب عليك أن تحذّرنى ياسيدى . إنك أنت الذى حملتنى على الاعتقاد بأن العلاقات قد تحسنت . وأنت الذى اقترحت هذه الزيارة . وأنت الذى اقترحت بعث رسالة من الرئيس السادات ، وهى رسالة حصلت عليها بصعوبة بالغة . والآن بسبب عدم تقديرك ، فإننا نتجه صوب علاقات أسوأ بين مصر وإثيوبيا » .

والتفت ناحية أحد المسئولين الإثيوبيين ، الذى كان يرافقنى بالرياء المتملق المعهود فى رئيس الديوان : « ألا يعرف الرئيس منجستو أننى أحمل رسالة من الرئيس السادات ؟ » .

وفى احترام مغالى فيه ، اقترح الإثيوبى أن أسلمه هو الرسالة لينقلها إلى وزير الخارجية ، الذى يقدمها بعد ذلك إلى الرئيس منجستو . واتجهت إلى قائدى الطائرة ، وتأكدت منهما من أننا قد أخذنا وقودا كافيا يسمح بالرحلة الجوية إلى نيروبى . ثم قلت للمسئول ، بدون أن أخفى غضبى : « أرجو أن تتصل هاتفيا فورا بالقصر الجمهورى . إن لدىّ تعليمات محددة من الرئيس السادات بأن أسلم الرسالة إلى الرئيس منجستو هيلى ماريام شخصيا . ولو كان ذلك غير ممكن ، فسوف أغادر فورا دون نقل الرسالة » .

ولم يكد المسئول يختفى حتى عاد بعد بضع دقائق ليبلغنى أنه لم يستطع الاتصال برئاسة الجمهورية . وكرر عرضه بأن يأخذ الرسالة هو نفسه . وأعلنت رحيلنا فورا . ورفضت تناول فنجان القهوة الذى قدم إلىّ . وتركت صالة كبار الزوار ومقاعدها المخملية ، وأقلعنا إلى نيروبى .

أما أنيس منصور ، الذى شهد كل شىء ، فقد قال لى فى سخرية : « لقد التزمت رباطة الجأش عندما رفضوا التصريح لنا بالهبوط ، ولكنك فقدت هدوءك عندما رفضوا

اجتماعنا ومنجستو » . ولم أستطع إيجاد تفسير لهذا الحادث الدبلوماسى . وكيف سيأخذ السادات هذا السلوك المتعجرف ؟ هل اكتشف الإثيوبيون أننا قد أرسلنا شحنة سلاح جديدة إلى الصوماليين ؟ هل هناك قوى خارجية تعارض أى تقارب بين القاهرة وأديس أبابا ؟ وكيف يمكن لسفيرنا أن يكون مخطئا لهذا الحد ؟ كانت أغرب الأفكار تمر بخاطرى . لقد تم تدمير شهور وشهور من العمل الشاق ، ولم أعرف حتى السبب فى ذلك . وقلت إنه يجب ألا تعرف الصحافة بهذه الحادثة أبدا . ورد أنيس منصور بسرعة : « إننى لست هنا كصحفى ، ولكن كعضو فى وفد الوزير » .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر هبطنا فى نيروبى . وسرعان ما عدت إلى جناحى القديم فى فندق إنتركونتيننتال . وفى صباح اليوم التالى ، استقللت طائرة مروحية صغيرة إلى ناكورو حيث اجتمعت أنا والرئيس دانييل آراب موى فى أحد مقار إقامته . كان موى ، طويل القامة رمادى الشعر ، ويتحدث فى لطف وهوادة . وكان يحمل عصا السلطة فى يده ، وتبدو عليه فى كل حركاته لمحات التمهل الذى يتسم بالوقار ، بأسلوب الزعيم الإفريقى التقليدى . وأبلغته بأننى فى طريقى إلى مقديشيو . وأننى مستعد للقيام بمهمة المساعى الحميدة مع الرئيس سياد برى رئيس جمهورية الصومال . فقد كانت العلاقات بين نيروبى ومقديشيو متوترة ، رغم أن مقديشيو كانت قد تخلّت عن مطالبها الإقليمية بشأن شمالى كينيا ، وهي منطقة شبه جافة تسكنها قبائل صومالية . ولم يرد آراب موى على عرضى القيام بالمساعى الحميدة . غير أنه أعرب عن أمله فى أن يحقق مؤتمر القمة القادم لمنظمة الوحدة الإفريقية ، فى نيروبى ، المصالحة . وفى مطار نيروبى ، عندما كنا على وشك الإقلاع بالطائرة إلى مقديشيو ، ظهر أسقف الأقباط فى نيروبى وبرفقته عشرة قساوسة ، اصطحبونى حتى سلم الطائرة ، وهم يصلّون ويرتلون من أجل نجاح مهمتى . وقال أنيس منصور : « إنه مع كل هذه الدعوات إلى الله ، آمل أن تسير الأمور بصورة أفضل فى محاولة الهبوط فى مقديشيو مما كان عليه حالنا فى أديس أبابا » .

وقد أسفرت الصلوات عن نتائج فورية . فقد كان فى انتظارنا فى مطار مقديشيو حشد ضخم : الخبراء الفنيون المصريون ، والوزراء الصوماليون ، واصطف جمهور متحمس على طول الطريق من المطار . وتساءلت : لماذا كان هذا الاستقبال الضخم ؟ هل هو بسبب عدم قيام مسئول مصرى بزيارة الصومال طوال سنوات ؟ وقد أقمنا فى بيت من طابق واحد فى المجمع السكنى لرئيس الجمهورية . وكانت ثلاثة أرباع مساحة غرفة نومى مشغولة بسرير من الحجم الكبير . وكان دولاب ضخم من طراز الركوك المتميز بالزخرفة البالغة ، اختفى أحد أبوابه ، يشغل بقية المساحة . وفى غرفة الحمام ، كانت

زجاجات العطر تتزاحم فى المساحة المخصصة لها مع فرش الأسنان ومستحضرات التجميل ، غير أننى عندما فتحت الصنبور لم تنزل المياه . وقال أنيس منصور إن هذه الاستراحة تذكره بمعبد فرعونى قديم له نوافذ وأبواب زائفة . وأبلغنا وزير الشئون الخارجية ، وهو أخ غير شقيق للرئيس سياد برى ، بأن رئيس الجمهورية سوف يجتمع بنا مساء اليوم التالى .

وفى اليوم التالى ، قمت بزيارة مخيم للاجئين يقع على مسافة ٤٠ ميلا شمال مقديشيو . وكان أنيس منصور ، الذى يصيبه الرعب من « الجراثيم » ، يغسل يديه بصورة قهرية ، ويكتب عن المشاكل الصحية مرارا فى عموده اليومى الصحفى . وأثار المنظر المتوقع لمخيم للاجئين انزعاجه ، ورفض مصاحبتى . وصممت ، مذكرا إياه بأنه عضو فى الوفد الرسمى وأن غيابه سوف يساء تفسيره . كان المخيم ضخما . حارا ، ورطبا ، ومتربا ، ومزدحما بالحشرات الطائرة ، وكان يتكون من مئات من الأكواخ المستديرة الصغيرة ، المغطاة بالألواح البلاستيكية ، الشبيهة بأكواخ الاسكيمو . وعندما دخلت إلى مدرسة ، بدأ الأطفال ينشدون أغنية حماسية : « نحن نقاتل ، نقاتل من أجل استعادة أرضنا ! وسوف نبيد أعداءنا ! » ، وهم يقصدون الإثيوبيين . وقد وجِّهت إلينا الدعوة لتناول الغداء مع الحاكم ، الذى تكلم دون توقف عن الفظائع الإثيوبية ضد الصوماليين .

وعند عودتنا إلى مقديشيو ، بدأت فى الإعداد لاجتماعى مع رئيس الجمهورية . كان سياد برى لطيفا ظاهريا غير أنه قاسى القلب فى الواقع ولديه الاستعداد لقتل خصومه دون تردد . كانت علاقاتى معه دائما صعبة بعض الشىء . فقد اعتبرنى مؤيدا للإثيوبيين ، وكان يخشى أن يكون تحسن علاقات مصر مع إثيوبيا على حساب الصومال . وقد حاولت إيضاح أننى مع مصر ، ولست من أنصار الصومال أو إثيوبيا ، وأن مصالح مصر هى أن تكون لديها علاقات طيبة مع البلد الذى يسيطر على ٨٥ فى المائة من النيل الذى يتدفق إلى مصر . غير أنه بالنسبة لسياد برى ، إما أن يكون المرء مناصرا أو معاديا ، لم يكن يفهم الحياد ، ولم تكن للأسباب الاستراتيجية أى وزن لديه . كان سياد برى مقتنعا بأننى ، كقبطى ، لابد أن أؤيد إثيوبيا ، وهى بلد عقيدته هى القبطية فى الغالب . وكان لا يثق بى . وقد تصرفت وفقا لذلك . وفى عام ١٩٩١ ، أطاح انقلاب حضرى بسياد برى ، وبعد مضى عام ، عندما كنت أمينا عاما للأمم المتحدة ، أصبحت متورطا فى أزمة الصومال باعتبارها « دولة انهارت أحوالها » ، وقد اتُّهمت من جانب الفصائل الصومالية بأننى كنت مواليا لسياد برى لفترة تزيد على عشر سنوات من قبل .

وبالرغم من تشككه فىّ ، وبالرغم من ضغوط الدول العربية ، كان سياد برى مؤيدا لمصر ولاتفاقيات كامب ديفيد . ومقابل ذلك ، كان يتوقع زيادة المساعدات العسكرية والمالية من مصر . وكانت إثيوبيا وكينيا متحالفتين ضد الصومال ، وحتى جيبوتى ، جارة الصومال الأخرى ، كانت تربطها علاقات صعبة مع مقديشيو . وكان الصوماليون يرون فى مصر الشقيقة الكبرى التى يمكن أن تساند مطالبهم فى قيام الصومال الكبرى التى تضم جيبوتى ، والأوجادين الإثيوبية ، وجزءا من كينيا .

وقد استقبلنى سياد برى فى الحادية عشرة مساء . وكان برفقته شقيقه سيمانتار ، الرجل القوى فى نظام الحكم . وقد سيطرت على محادثاتنا ، التى استمرت حتى الساعة الواحدة صباحا ، طلبات الصومال من المساعدات . « إن الصومال يمكن أن تصبح مخزن حبوب لمصر . لماذا لاترسلون الفلاحين والفنيين لديكم لزراعة أرضنا ؟ » . وعندما أصبح الوقت متأخرا ، استأذنت فى الانصراف ، واعدا بنقل طلبه إلى الرئيس السادات . وذكرت لسياد برى أهمية حضوره لمؤتمر قمة منظمة الوحدة الإفريقية . وقال إنه لن يكون فى نيروبى عاصمة كينيا ، بل فى نيروبى مقر مؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الإفريقية . وأكدت له أن السادات سيكون هناك . وكنت آمل أن يكون هذا هو الحال ، إلا أننى لم أكن متيقنا .

وعند عودتى إلى القاهرة ، علمت أن محمود قاسم سفيرنا فى إثيوبيا ، لم يكن مسئولا عن إساءة فهم الحالة الداخلية فى إثيوبيا . فقد كان منجستو يريد بدء حوار مع مصر وكان مستعدا لاستقبالى كمبعوث خاص للرئيس السادات . غير أنه عشية سفرى إلى إثيوبيا ، أصدر السادات بيانا صحفيا انتقد فيه منجستو ونظام حكمه الفاسد ، إلى الدرجة التى هدده فيها بالتدخل العسكرى إذا ما تجرأ على المساس بمياه النيل . وقد وصل نص هذا الهجوم إلى منجستو قبل بضع ساعات من وصولى . وثار منجستو مهتاجا وأصدر أوامره بمنع طائرتى من الهبوط .

ولكن لماذا أصدر السادات هذا البيان ؟ وهل كان ذلك مقصودا ، باعتبارها طريقة لإبطال مفعول الرسالة الودية ؟ هل كان السادات قد نسى أنه قد بعث بى إلى أديس أبابا لمقابلة منجستو ؟ غير أن إهانة منجستو لمبعوث السادات لم يرد ذكرها لا فى الصحف المصرية ولا الاثيوبية . كما لم يذكر السادات نفسه أبدا هذه الحادثة ، مع أن أنيس منصور ، بما يتمتع به من موهبة لا تضاهى كقصاص ، لم يضيع فرصة وصف ما حدث بكل تفاصيله . ومهما كانت بواعثه ، فقد ألحق السادات نكسة بمخططى الكبير .

إن أسطورة سيسيفوس تلازمنى . فهى ترد فى خاطرى كلما فكرت فى مخططى الأساسى المتعلق بالنيل . تحقق الازدهار فى منطقة من أشد مناطق كوكب الأرض عوزا .

تحويل حاجز ضخم إلى خط اتصال هائل بين البحر المتوسط وقلب إفريقيا . وسوف يكون النيل هو محور الازدهار . لقد كنت أشعر بأننى أدفع بصخرة كبيرة بلا انقطاع إلى أعلى تل تغذى مياهه النيل .

الرفض من جانب الأمم المتحدة

دعت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ، الموقعة فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ ، الطرفين إلى مطالبة الأمم المتحدة بأن توفر قوات ومراقبين من أجل الإشراف على تنفيذ عودة سيناء إلى السيادة المصرية من خلال سلسلة من عمليات الانسحاب الإسرائيلية التى تتم على مراحل . وكان المفروض أن تصبح عملية صيانة السلم التابعة للأمم المتحدة نافذة اعتبارا من ٢٦ يناير ١٩٨٠ .

بيد أنه الآن ، بعد مضى عام ، أدت المعارضة القوية من جانب الدول العربية ، والاتحاد السوفيتى ، ودول أخرى لاتفاقيات كامب ديفيد إلى إعاقة إنشاء قوة تابعة للأمم المتحدة . وكتب الرئيس كارتر إلى السادات وبيجن ليقول لهما إن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تبذل قصارى جهدها للحصول على موافقة مجلس الأمن ، غير أنه إذا لم توافق الأمم المتحدة ، فإن كارتر « سوف يتخذ الخطوات اللازمة لضمان إنشاء قوة متعددة الجنسيات مقبولة ، والحفاظ عليها » .

وفى مواجهة المعارضة التى صادفتها اتفاقيات كامب ديفيد ، لم تجدد الأمم المتحدة ولاية قوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة عندما حل موعد انتهائها فى يوليو ١٩٧٩ . واستجابة لطلب مكتوب من مصر ، أبلغ رئيس مجلس الأمن مصر فى ١٨ مايو ١٩٨١ ، أنه لم يكن هناك تأييد كاف بين أعضاء المجلس لتوفير قوة تابعة للأمم المتحدة . وكان مؤكدا استخدام حق الفيتو من جانب الاتحاد السوفيتى إذا ما طرحت المسألة للتصويت عليها فى المجلس . وكان من المخزى أن تلقى المعاهدة الإسرائيلية - المصرية ، وهى أعظم إسهام للسلم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، الازدراء من جانب الأمم المتحدة . ولم يكن أمام الولايات المتحدة الأمريكية ومصر من خيار سوى أن يحاولا معا القيام بشىء لم يتحقق أبدا من قبل : إنشاء قوة لصيانة السلم غير تابعة للأمم المتحدة .

وقد سألنى موشى ديان ، الذى كان دائما يستعد لمواجهة ما هو أسوأ ، فى أحد الأيام الكثيرة التى توقفت فيها المفاوضات : « ماذا سنفعل فى حالة استخدام السوفيت لحق الفيتو لمعارضة إرسال قوات الخوذات الزرقاء إلى سيناء ؟ » . وكان أحد الأمريكيين قد اقترح إنشاء قوة مخصصة لصيانة السلم ، بمشاركة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن بدون أن

يكون لها صلة بالأمم المتحدة . وكان الإسرائيليون متحمسين لهذه الفكرة ؛ فقد كانوا يريدون بشدة وجود أمريكيين على أرض سيناء . ولم أكن سعيدا بذلك بهذا القدر ، وكنت مقتنعا بأن واشنطن سوف تستخدم نفوذها من أجل أن تحظى المعاهدة وقوات حفظ السلم على موافقة مجلس الأمن . وثبت خطئى على نحو اثار جزعى .

وأبلغنا روى آثرتون بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف ترسل ألف رجل إلى سيناء ، وأنها أقنعت فيجى بالموافقة على إضافة بضع مئات من الجنود كيما تكون القوة « متعددة الجنسيات » . وكان هذا أمرا مضحكا !

وقد أعربت للسفير الأمريكي عن احتجاجي بأقوى العبارات ، وقلت : « إنه سيكون لدى الرأى العام المصرى مبرر لأن يقول إن الاحتلال الإسرائيلى لسيناء قد استبدل بقوة احتلال أمريكية . وسوف نُتَّهم بأننا قد سمحنا بإقامة قاعدة عسكرية أمريكية فى سيناء ، مما يعد انتهاكا صارخا لسياسة عدم الانحياز التى تنتهجها مصر » .

وقد أيد مصطفى خليل رئيس الوزراء والفريق كمال حسن على ، موقفى بقوة .

ورد آثرتون : « لو أردتم تشكيلا مختلفا للقوة المتعددة الجنسيات ، فإنه يتعين عليكم أن تضطلعوا بالمسئولية عن العملية بكاملها ؛ لقد أوفت الولايات المتحدة الأمريكية بالتزامها » . وأضاف : « ولكن احصلوا على موافقة إسرائيل بالنسبة لجنسية الوحدات المختلفة . فسوف ترفض إسرائيل قبول أى دولة تكون قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل بسبب كامب ديفيد - وهو عدد كبير من الدول » .

وتم اطلاع الرئيس السادات على ماقلته لآثرتون . وقال السادات إنه « مادام بطرس هو الذى أثار المشكلة فلندعه يحاول حلها » . ولم يكن حل المشكلة سهلا . لقد كان آثرتون على حق . فإن إسرائيل لن تقبل أى قوات من دولة لا تقيم معها علاقات دبلوماسية . وكانت غالبية الدول الإفريقية والآسيوية قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل ، ومن ثم فقد استُبعدت من القوة المتعددة الجنسيات . أما الدول الأوروبية ، التى ظلت بمنأى عن عملية السلام ، فقد أصدرت « إعلان فينيسيا » ، الذى ركز على منظمة التحرير الفلسطينية ، مما أدى إلى زوال أهلية هذه الدول ليس فقط فى نظر إسرائيل ، بل أيضا فى نظر الأمريكيين . ولذلك ، فقد كان أملى الوحيد هو دول أمريكا اللاتينية .

التماس التأييد اللاتينى

قبل نحو ١٢ شهرا من هذا الوقت ، كنت قد حاولت إقناع السادات بأن أتوجه إلى أمريكا اللاتينية لمحاولة تعزيز مساندتها لسياسات مصر .

وكانت العادة هى أنه فى أى وقت تتجه النية إلى إقالة وزير الخارجية ، أو أى مسئول كبير فى وزارة الخارجية ، أو إحالته إلى تقاعد مبكر ، أن يُوفَد فى مهمة رسمية إلى أمريكا اللاتينية . وكانت المسافة التى تستلزمها هذه المهمة تتيح للسلطات المصرية الوقت المطلوب لإنهاء خدمات الدبلوماسى . ولا يكون باستطاعة الدبلوماسى الغائب أن يفعل شيئا للحيلولة دون فصله ، ويعود ليواجه أمرا واقعا . ولذلك ، فإنه عندما بحثت مع زملائى إمكانية القيام بجولة فى دول أمريكا اللاتينية ، ذكرونى ، على الفور على سبيل التفكّه والقلق على حد سواء ، بأن ذلك قد يعتبر جولة وداع . وتجاهلت مخاوفهم وقدمت الاقتراح للسادات . وقد شرحت له أهمية العلاقات الدبلوماسية مع أمريكا اللاتينية ، وبينت عدد الزيارات الرسمية التى استقبلناها من جانب الحكومات اللاتينية . وكنت قد سعيت منذ فترة طويلة إلى دعم العلاقات الأمريكية اللاتينية مع مصر بكل طريقة ، بما فى ذلك الإشراف على إقامة تمثال سيمون بوليفار فى أحد ميادين القاهرة . وأخبرت السادات بمدى أهمية الدول اللاتينية فى مجموعة الـ ٧٧ ، وفى حركة عدم الانحياز ، وفى منظمة الأوبك (منظمة البلدان المصدرة للنفط) . وفى التشديد على أهمية هذه الدول لمصر ، تفاديت الحديث عن « عزلة مصر » التى كانت دائما تجعل السادات يغتاظ بشدة .

وقاطعنى الرئيس الذى كان ينصت إلىّ دون إيلاء قدر كبير من الانتباه ، وقال : « هل تريد السفر مرة أخرى ؟ ثم صحح كلامه وقال : « أنت على حق . يجب ألا نتجاهل أمريكا اللاتينية . هل ذهبت إلى هناك من قبل ؟ » . وأجبت : « لا يا سيادة الرئيس ، إنها ستكون زيارتى الأولى » . وأبدى ملاحظة بقوله : « إننى أنا الآخر لم أسافر إلى هناك » . وانتهى الحديث بذلك .

وبدأت جولتى فى بوينس أيرس ، واتجهت منها إلى سانتياجو عاصمة شيلى ، ليما ، كويتو ، لاباز ، ثم إلى مكسيكوسيتى . وفى العاصمة الأخيرة ، استقبلنى خوسيه لوبيز دى بورتيللو فى الفيللا الخاصة به والمقامة وسط حديقة كبيرة . كان هناك أيضا وزير الشئون الخارجية جورجى كاستانيدا ، وهو أكاديمى نابه وعالم قانون ، عرفته عندما كان سفيرا للمكسيك فى القاهرة . وأثناء هذا الاجتماع ، أعددنا مشروعا بعنوان « حلقة التدارس الإفريقية ـ الأمريكية اللاتينية » ، والتى ستجمع معا ، لبضعة أيام كل عام ، الدبلوماسيين والأكاديميين ورجال الأعمال فى أمريكا اللاتينية ممن يهتمون بشئون إفريقيا والعالم

العربى ، مع دبلوماسيين وخبراء أفارقة ممن لديهم اهتمام بشئون أمريكا اللاتينية . وبذلك ، وضعت الأساس لبنية أساسية من العلاقات الدبلوماسية والثقافية بين مصر وأمريكا اللاتينية .

وهكذا ، فى مطلع شهر يوليو ١٩٨١ ، توجهت مرة ثانية وبصحبتى « ليا » إلى أمريكا اللاتينية بهدف واضح ، هو : الحصول على وحدات من أمريكا اللاتينية تشترك فى قوة متعددة الجنسيات غير تابعة للأمم المتحدة ، ويتم نشرها على طول الحدود المصرية - الإسرائيلية فى سيناء بعد انسحاب القوات الإسرائيلية . وهذه مهمة صعبة للغاية . ذلك أن سيناء كانت تبدو للمسئولين الأمريكيين اللاتينيين أرضا مجهولة . وعلاوة على ذلك ، فإنه سيكون من الصعب شرح لماذا نريد إقامة قوة لصيانة السلم خارج سلطة الأمم المتحدة ، وهى التى ابتكرت هذه الفكرة . وسوف يتعين أن نثبت للأمريكيين اللاتينيين أن مجلس الأمن لن يناقش حتى طلبنا المتعلق بتشكيل قوة صيانة سلم تابعة للأمم المتحدة . وأخيرا ، فإن مجرد وجود جنود أمريكيين فى القوة المتعددة الجنسيات سوف يصرف عددا كبيرا من دول أمريكا اللاتينية عن المشاركة .

وقد بدأت بأوروجواى ، وذلك بسبب العلاقة الاقتصادية التى تربط بين القاهرة ومونتفيديو . فقد كانت مصر هى أكبر مستورد للحوم الأبقار من أوروجواى فى ذاك الوقت . ووصلت إلى مونتفيديو بعد ظهر يوم ١٣ يوليو ١٩٨١ . واتجهنا مباشرة إلى وزارة الخارجية لتوقيع اتفاق ثقافى بين بلدينا . كانت هناك خطب ، وصحفيون ، وتليفزيون - وكان الترحيب حماسيا ؛ فلم تكن أوروجواى قد استقبلت وزيرا مصريا منذ فترة طويلة . وفى هذا المساء ، وأثناء حفل استقبال ضخم ، استقبلنى الجنرالات الذين يتولون حكم البلد استقبالا حارا .

وفى صباح اليوم التالى ، استُقبلت لدى القصر الجمهورى الذى يقع فى ميدان قُبالة الفندق . كان رئيس الجمهورية ، وهو رجل نبيل وضئيل الحجم بعض الشىء ، يجلس فى مقعد فى الوسط . وكان عن يمينه ثلاثة جنرالات فى الزى الرسمى يجلسون على مقاعد متشابهة . وقدمت رسالة الرئيس السادات ، التى قرأها الرئيس ببطء وبحرص . وقد أخذ الجنرال الأول عن يمينه الرسالة دون تأن ، وقرأها كل واحد بدوره . وقد احتوت الرسالة على عبارات عن الصداقة بين مصر وأوروجواى ، لكنها لم تتضمن شيئا عن القوة المتعددة الجنسيات أو إمكانية مشاركة أوروجواى فيها ، فقد ترك هذا الموضوع الحساس للرسول .

وقد شرحت أسباب مهمتى وأهمية القوة المتعددة الجنسيات . وقلت إنها سوف تدعم

الروابط السياسية والاقتصادية بيننا . وكان الجنرالات يشعرون بالسأم . وقالوا إنهم سوف يقومون بدراسة طلب الرئيس السادات بعناية . وانتهى الاجتماع . وفى احتفال أحاط به جنود أوروجواى ، وضعت باقة من الزهور على قبر الجندى المجهول .

وفى مساء ذلك اليوم ، ألقيت محاضرة فى جامعة مونتفيديو . كان الجو رسميا : فقد عزف السلام الوطنى وتبعته كلمة تقديم من رئيس الجامعة . وكانت هذه هى المرة الأولى ، وربما الأخيرة ، التى تستضيف فيها جامعة مونتفيديو وزير خارجية مصرى ليحاضر بالفرنسية عن التأثير الإفريقى والأمريكى اللاتينى على القانون الدولى . وقد تحدثت عن مغزى مبدأ ''uti possidetis'' ،أى قرار زعماء إفريقيا والزعماء اللاتينيين بعد إنهاء الاستعمار ، ليس فقط باستمرار الحدود التى فرضت من جانب الإمبرياليين الأوروبيين كما هى ، بل إعلان عدم انتهاك حرمتها . وقد ساعد هذا القرار القارتين على أن تظلا خاليتين نسبيا من نوع النزاعات على الحدود التى ألحقت الدمار بأوروبا .

وعند عودتى إلى الفندق ، تقابلت مع القائم بالأعمال الأمريكى ، والذى كان أحد طلابى الحاصلين على منحة فولبرايت ويدرسون فى القاهرة فى نهاية الخمسينات . وقال إنه قد تلقى تعليمات من واشنطن لتقديم المساعدة لى ، غير أن العلاقات بين واشنطن ومونتفيديو لم تكن على ما يرام فى ذلك الوقت . ولم يكن يتوقع لى الحصول على وحداتى العسكرية ، بغض النظر عن مقدار ما تستورده مصر من اللحم البقرى من أوروجواى .

وفى وقت لاحق ، أقيم حفل كوكتيل « لكل أهل مونتفيديو » فى السفارة المصرية . وقد حاولت أن أجعل ظهورى لفترة قصيرة ، غير أن السفير المصرى أصر على بقائى ؛ وكان يأمل فى استقبال الجنرال الرابع ، وهو الرئيس الحقيقى ، فى تلك الليلة ؛ وكان يرى أننى إذا تمكنت من إقناعه ، فإن أوروجواى سوف تنضم بالتأكيد إلى قوة صيانة السلم . وبالرغم من إصرار السفير ، كنت فى طريقى إلى الخارج ، عندما لاذت القاعة كلها فجأة بالصمت . فقد وصلت السلطة الأعلى . ووصل رجل ظريف تعلو وجهه ابتسامة ويرتدى ملابس مدنية إلى صالون الاستقبال . وكان الجميع يبتسمون وينحنون أثناء مروره أمامهم . وكان واضحا أن هذا الرجل هو الحاكم الأوحد لأوروجواى . ولم أضيع أى وقت فى اقتراح إجراء حديث خاص معه ، واتجهنا معا إلى مكتب صغير . وكان معنا إلياس إبراهيم المليونير المصرى الصغير الممتلىء الجسم ، والذى كان يعتبر أكبر مصدّر للحوم فى أوروجواى . وقد قدم ملك اللحوم إلى الجنرال سيجار هافانا فاخرا جدا . وابتسم الجنرال ، وأشعل السيجار بحرص ، وأنصت . وتكلمت بلغتين متحولا من الفرنسية إلى العربية لسبب

غير واضح . فقد كنت أبحث بالفطرة عن أفضل طريقة لإقناع الجنرال . وكان ملك اللحوم مترجما ممتازا من الفرنسية والعربية إلى الأسبانية .

وتكلم الجنرال ، فقال : « أولا ، إنها مشكلة أمريكية وليست مصرية . ولو أننا اشتركنا فى القوة المتعددة الجنسيات ، فسوف نكون بذلك نسدى معروفا لأمريكا ، وليس لمصر . ثانيا ، لماذا نكون نحن الأوائل ؟ » . ونظرت إلى ملك اللحوم ، الذى كان يدخن أيضا سيجار هافانا ، وأجبت بأننى قد بدأت جولتى فى مونتفيديو بسبب الروابط الاقتصادية الوثيقة بين مصر وأوروجواى . وتجاهل الجنرال ملاحظاتى ، وسأل : « ماذا ستكون المخاطر التى يتعرض لها جنودى لو أننى أرسلتهم إلى سيناء ؟ » .

وأجبت : « من الناحية العملية ، ليست هناك مخاطر إطلاقا ، ياسيدى الجنرال . إن مصر وإسرائيل فى حالة سلام . وهؤلاء الجنود سيكونون مراقبين عسكريين لفترة محدودة . وعندما تتغير الحالة الدولية ، سوف يحل محلهم أصحاب الخوذات الزرقاء » .

وكان ينصت إلىّ باهتمام ، وهو يستمتع بدخان سيجار . وقال : « أنت تعرف الإدارة الأمريكية ؛ ما الذى تستطيع أن تفعله من أجل تحسين علاقات أوروجواى مع الولايات المتحدة ؟ » . وأجبت على الفور : « إن اشتراككم فى القوة المتعددة الجنسيات سوف ينفع فى حدوث تقارب » .

وأثناء سحبه لأنفاس سيجاره ، تساءل فى خبث : « لوكنت مستشارى السياسى ، ماهى المشورة التى تقدمها لى ؟ » . ولم أتردد ، وقلت : « لا أشترك فى القوة المتعددة الجنسيات لو كانت أوروجواى هى الدولة الأمريكية اللاتينية الوحيدة التى سترسل جنودا إضافة إلى الولايات المتحدة ، غير أنه لو كان هناك بلد آخر من بلدان أمريكا اللاتينية سوف يرسل جنوده ، فإننى كنت أنصح بمشاركة أوروجواى . فسوف يعمل ذلك على تعزيز العلاقات بين مصر وأوروجواى . كما أنه يفيد فى التقريب بين أوروجواى والولايات المتحدة بصورة أوثق » .

ويبدو أن الجنرال قد أرضته الإجابة . فقد قال : « اصغ إلىّ ، ياسيادة الوزير . إننى أقدر صراحتك . وإذا شاركت دول أمريكية لاتينية أخرى فى القوة المتعددة الجنسيات ، فسوف يكون بوسعى إقناع زملائى بإرسال وحدة إلى سيناء » . ووجهت الشكر إلى الجنرال لمساندته ، واستأذنت فى الانصراف .

وفى صباح اليوم التالى ، وعندما كنت أستعد للسفر إلى بوينس أيرس ، رأيت البيان المشترك الصادر فى ختام زيارتى : « لقد شرح الوزير بطرس غالى لوزير أوروجواى

بالتفصيل الأمور المتعلقة بالقوة والمراقبين المتعددى الجنسيات الذين سيرابطون على طول الجبهة المصرية - الإسرائيلية . وقد وجه وزير الدولة للشئون الخارجية فى مصر دعوة رسمية إلى حكومة أوروجواى للمشاركة فى القوة المتعددة الجنسيات . وقد أوضح وزير خارجية أوروجواى أن حكومته سوف تنظر باهتمام فى الدعوة المذكورة » .

وفى بوينس أيرس ، وهى مدينة جميلة ذكرتنى بمدينة مدريد ، استقبلنى الرئيس جورجى رافائيل فيديلا . وقد حملت الصحيفة التى صدرت صباح اليوم التالى رسما كاريكاتوريا يبيّن اثنين من جنود الأرجنتين يذرفان الدمع ، وتحت الرسم ، تعليق يقول « لا أريد الذهاب إلى سيناء » . وفى المساء ، كان هناك حفل رسمى حضره وزير الخارجية من أجل التوقيع على بيان مشترك أشار إلى الطلب المصرى . وفى مؤتمر صحفى ، سئلت عن رد فعلى إزاء قيام إسرائيل بقصف مدينة بيروت . واعترتنى الدهشة ، حيث إننى لم أكن قد سمعت عن هذا القصف ، وأعطيت ردا مبهما مربكا . وكان رد الأرجنتين على القوة المتعددة الجنسيات والمراقبين هو الرفض . وفشلت فى بوينس أيرس .

وفى كاراكاس ، تقابلت مع المؤلف المسرحى آرثر ميللر وقرينته ، إنجى موراث ، وهى مصورة كنت أعرفها من مقابلة سابقة فى القاهرة . وقد اصطحبانى لمقابلة السفير الأمريكى وليام لويرز وقرينته لتناول الشراب فى مقر إقامتهما الفاخر الذى يطل على المدينة . كانت اللوحات الزيتية العصرية المستعارة من المتاحف الأمريكية تزين الجدران . ثم اصطُحبت لتناول العشاء فى فيللا فاخرة خاصة بمليونير فنزويلى راع للفنون ، حيث دارت المناقشات حول الصور الزيتية والموسيقى . وكان مما يبعث على سعادتى أن أعود إلى هذا النوع من الجو الفكرى الذى كنت قد هجرته من أجل الشئون الخارجية .

وفى ٢٠ يوليو ، استقبلنى الرئيس لويس هيريرا كامبان فى غرفة وصلت حرارتها إلى درجة التجمد بسبب تكييف الهواء . وكان رئيس الجمهورية متعاطفا تجاه طلبى إلا أنه لم يلتزم بشىء . وبعد ذلك ذهبت لأضع باقة من الزهور على قبر سيمون بوليفار ، مشيرا إلى أننى كنت قد خصصت تمثالا لهذا المحرر العظيم مقاما فى وسط أحد ميادين القاهرة الرئيسية . لقد كان هذا التمثال من وحى فكرتى ، ولم يكن من السهل الحصول على موافقة سلطات البلدية فى القاهرة ، التى لا تهتم أبدا ببوليفار ، إن كانوا حتى يعرفون من هو أصلا . ففى ذلك الوقت ، صممت على ما تمثله هذه اللمحة من أهمية لعلاقات مصر الخارجية مع أمريكا اللاتينية ، وتَعين علىّ أن أتوجه إلى السادات نفسه للحصول على موافقته . وفى ذلك اليوم ، كنت سعيدا بالنجاح الذى حققته .

وفشلت مرة أخرى فى فنزويلا ، ومن ثم مضيت قدما إلى بوجوتا . هناك ، بعد أن تركت باقة من الزهور فى منزل بوليفار ، استقبلنى رئيس الجمهورية خوليو تورباى أيالا . وقد تابع رئيس الجمهورية ، الذى كان ينحدر من أصل سورى - لبنانى ، باهتمام الحالة فى الشرق الأوسط . وكان منصتا بشكل ودى ، وتعهد بتأييد طلبى . وفى ذلك المساء ، مُنحت وساما كولومبيا . وقد جاءنى سفير الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى كنت قد قابلته من قبل فى أواجادوجو ، لكى يهمس فى أذنى ، بأن موقف الحكومة الكولومبية إيجابى جدا بالنسبة لمهمتى ، غير أننى لم أحصل على أى التزام .

وفى مدينة بنما سيتى ، وجدت وزير الخارجية جورجى إللويكا ، وهو محام نابه طويل القامة وذو بشرة سمراء وكان بارزا جدا فى حركة عدم الانحياز ، يتفجر غيظا من الوجود الأمريكى فى بنما . وفى صبيحة الأحد ، قمت بزيارة قناة بنما لمشاهدة فتح هويس القناة ومرور سفينة فيها . وكان مدير قناة بنما ، وهو مواطن أمريكى ، مُعتد بنفسه ، يكن مشاعر الاحتقار لمواطنى بنما . وكنت أحس بمصدر حنق إللويكا . وقد أقلّتنا طائرة صغيرة لتمضية اليوم معه فى مصيف كونتادورا البنمى الذى يقع على المحيط الهادى ، حيث سبحنا ، وقمنا ، ونحن نرتدى الزى البنمى « الجويابيرا » ، بجولة فى الجزيرة الصغيرة . وقد أشار الوزير إللويكا وقرينته ، إلى الفيللا التى كان يعيش فيها شاه إيران لبضعة أسابيع . وكانت درجة الرطوبة المدارية شديدة جدا . وقد أبلغتنى الشاهبانو فرح ديبا أنها أمضت أسوأ شهور فى حياتها على هذه الجزيرة عندما كان قرينها مشرفا على الموت بسبب مرض السرطان .

وقد بدأت زيارتى الرسمية لبنما يوم الاثنين ، عندما وضعت باقة من الزهور عند النصب التذكارى الوطنى . وعزفت فرقة الموسيقى العسكرية السلام الوطنى المصرى القديم والذى كان يرجع إلى أيام الملك فاروق . ولقد كان من المستغرب أن أستمع فى مدينة بنما ، وفى يوم قائظ ، وأثناء حفل رسمى ، عزفا موسيقيا يعود بى إلى الوراء أربعين عاما . فعندما كنت كشافا ، كنت أقف منتصب القامة عندما يعزف هذا السلام ، وتخيلت ، مثل ميشيل ستروجوف ، أننى قد كُلِّفت بمهام خطيرة كى أؤديها للملك فاروق ومصر . غير أن مهمتى الآن ليست خطيرة ، ولكنها صعبة مثل أى شىء كان يواجه بطل « جولز فيرن » . وبعد الحفل ، عاتبت السفير المصرى ، وهو لواء متقاعد ، بسبب هذا الخطأ الكبير . ورد السفير فى هدوء بأن حكومة بنما ليس لديها سوى موسيقى هذا السلام الوطنى السابق ، وأنه بدلا من عدم عزف أى سلام ، فقد فضّلوا عزف موسيقى الملك السابق . ثم أضاف وهو يبتسم : « إن القاهرة بعيدة عن مدينة بنما . ولا يعرفون بهذه الواقعة ، وربما تكون قد أعادت إلى سعادتك ذكريات الشباب » .

وقد أبلغنى الوفد المرافق لى بأن اللجنة المكلفة بإعداد البيان المشترك تواجه مشكلة كبيرة . فقد رفض البنميون الإشارة إلى الطلب المصرى المتعلق بالمشاركة فى القوة المتعددة الجنسيات فى سيناء . وذهبت إلى إللويكا . وقال إنه إذا ما أشير إلى الطلب المصرى ، فإنه يتعين على البيان أيضا أن يبيّن أن بنما قد رفضت ؛ وأنه تفاديا لمضايقتى ، فإنهم يفضلون الصمت . واعترضت على ذلك ، وقلت : « لماذا لا تعربون على الأقل عن تأييدكم لعملية السلام وللسياسة المصرية ؟ إن بلدينا كليهما ينتميان إلى حركة عدم الانحياز » .

وقال حينذاك : « إنه على وجه الدقة لأننا دولة من دول عدم الانحياز ، نرفض طلبا يؤكد فى المحصلة النهائية الوجود العسكرى الأمريكى على التراب المصرى . إن إضفاء طابع مشروع على إقامة قاعدة عسكرية أمريكية جديدة فى مصر ، سيكون متناقضا مع مبادىء عدم الانحياز » . وقد حاولت التخفيف من عوامل القلق التى انتابت صديقى البنمى . وقلت إنه بسبب كوننا دولة من دول عدم الانحياز فإننا نريد قوة متعددة الجنسيات ؛ وذلك لضمان ألا تكون هناك قوات أجنبية على تراب مصر . وأوضحت أن كولومبيا دولة من دول عدم الانحياز ولكنها لم تثر هذا الاعتراض . وبعد مناقشات مطولة ، توصلنا إلى حل وسط . فقد أعلن البيان المشترك « أن الوزيرين بحثا مسألة إنشاء قوات ومراقبين متعددى الجنسيات باعتبارها بديلا مؤقتا لقوة صيانة السلم التابعة للأمم المتحدة » . وكان البيان المشترك مطولا وطموحا ، حيث أعرب عن برنامج عمل قريب الشبه جدا من طموحات العالم الثالث ، وذلك من أجل أن يجمع معا جميع « تعساء الأرض » ، ولكن دون أن يكون له ارتباط بالواقع . وكان فشلى فى بنما ظاهرا ، ولايمكن إنكاره ، ويشكل مهانة .

وفى ٢٩ يوليو ، وصلت إلى مدينة جواتيمالا سيتى . وكان وزير الشئون الخارجية رافائيل إدواردو كاستيللو فالديز ، وهو أحد أعضاء جماعة المورمون الدينية ، قد طلب من قرينته ، وبناته ، وابنه أن يأتوا من مدينة سولت ليك من أجل استقبالى أنا وقرينتى . وكانت الحالة متوترة فى جواتيمالا بسبب الحرب الأهلية . وحالما انتهت زيارتى ، قال الوزير إنه سيعيد أسرته إلى الأمان فى مدينة سولت ليك . وفى صباح اليوم التالى ، استقبلنى جنرال فرناندو لوكاس جارثيا رئيس الجمهورية فى قلعة مجهزة بأثاث من طراز حديث ، وسجاد صينى ، وحرس واقف عند كل باب . وفى غرفة استقبال ضخمة ، ونصف خالية ، طلب من وزير خارجيته أن يترجم له رسالة الرئيس السادات .

وكرد وحيد له على طلب مصر ، قال الرئيس الجواتيمالى : « غدا يا سيدى الوزير ، سوف أصطحبك إلى جنوب البلد ، حيث تشاهد توزيع الأراضى على الفلاحين » . وفى

اليوم التالى عند الفجر ، اقلتنى طائرة إلى البرارى . وأخذتنى طائرة مروحية من المطار إلى قرية فى أعماق غابة حيث كان قد تم إعداد مسرح فوق رابية صغيرة . وكادت قدماى تنزلقان وأنا أتسلق التل ، غير أن الوزير كاستيللو فالديز أمسك بى . وسألت : « فلنفرض أن أحد هؤلاء الحراس المسلحين قد انزلقت قدمه وانطلقت الرصاصات من مدفعه » . فابتسم وقال : « سيكون هناك قتل جماعى . وسوف يلجأ الحراس الآخرون فورا إلى إطلاق النار ، اعتقادا منهم بأن هجوما قد وقع . إننا نعيش فى حالة من الخطر هنا ، كما تعرف » .

وكان المئات من الفلاحين قد تجمعوا حول المسرح . وألقيت كلمات طويلة عن إصلاح الأرض . وأثناء خطبته ، أعلن الرئيس لوكاس جارثيا أن هناك ضيف شرف حاضرا هذا الحفل . وقال : « إنه وزير خارجية » ـ ثم تردد وأضاف ـ ... إسرائيل ! » .

وفى حفل الغداء ، جاء جلوسي إلى جوار قائد القوات المسلحة ، لسبب لا أعرفه . وفى اليوم التالى ، اصطُحبت إلى إقليم « بيتن » فى « تيكال » من أجل مشاهدة معابد المايا . وكانت طائرة ضخمة موضوعة تحت تصرفى . وقامت طائرة أخرى بنقل الموظفين ، والطعام ، وفرقة ماريمبا . وعزفت الفرقة موسيقاها ونحن نتناول الغداء تحت ظلال هرم المايا العظيم . لقد كانت هذه هى البداية فقط . ففى صباح اليوم التالى ، اصطحبُنى الوزير إلى « انتيجوا » ، العاصمة القديمة . كانت هناك كنائس ومنازل قديمة لها رواقات خيالية تحوطها زهور بهيجة . ولم أر أبدا من قبل مكانا يتسم بهذه الجاذبية والجو الأثريين . وكما لو كانوا يحاولون أن يسايروا البيئة المحيطة بهم ، بدا الناس فى انتيجوا كما لو كانوا دائما يرقصون ، ويضحكون ، ويتعانقون . وعندما كنا نسير سمعنا صوت انفجار . وهمس الحرس بشىء ما إلى الوزير ، الذى اقترح مواصلة جولتنا بالسيارة ، ولكنى طلبت مواصلة الجولة سيرا على الأقدام . ولذا قال كاستيللو فالديز : « إذن ، فلنمش » . وقمنا بزيارة كنيسة أخرى تحت أعين حراسنا المليئة بالعتاب . ودوى انفجار ثان . وفى هذه المرة ، أصر الحراس على أن نستقل سيارة . وتناولنا الغداء وتسلينا بالرقص الشعبى . وأُطلقت بالونات ضخمة فى السماء للترحيب بنا فى انتيجوا . ورقصت مع راقصى الباليه الشعبى . ولم يكن أى من هذا يخدم الغرض من مهمتى ، التى لم يتحقق لها النجاح .

وفى طريق العودة ، سألنى كاستيللو فالديز عما اعتزم عمله فى المساء . فقلت إن قرينتى تفهم الأسبانية وسوف تشاهد التليفزيون . أما أنا فأننى أريد النوم . وقال مضيفى : « إنه فى هذه الحالة ، فإن قرينتك قد تكتشف من التليفزيون المعلومات التى أخفيتها عنك . إن الانفجارات التى سمعتها أثناء سيرنا كانت دوى قنابل معدة للانفجار فى طريقنا . وقد عثرنا عليها وأبطلنا مفعولها » .

وسألت : « هل كانت محاولة تستهدف حياتى أو حياتك ؟ » . وأجاب : « ما الذى يهم فى ذلك ؟ » . فقلت : « إذا كانت المحاولة موجهة ضدى ، فإن ذلك يثبت أن الإرهابيين الفلسطينيين لهم يد طويلة مرعبة . غير أنه إذا كانت المحاولة موجهة ضدك ، تكون المسألة أقل خطورة ، على الأقل بالنسبة لى » . وطمأننى الوزير كاستيللو فالديز الذى كان لا يزال مبتسما ، وقال : « لقد كنت أنا المقصود بالقنابل ، ولكنها كانت تستهدفك أيضا ، الزائر المحترم ، وذلك من أجل التحقير من شأن بلدى لعجزه عن حماية ضيوفه من كبار الشخصيات . لا تقلق ، إنهم لا يعرفون حتى اسمك أو جنسيتك ، إنهم لا يعرفون سوى أنك شخصية أجنبية مهمة » . وبعد مضى خمسة عشر عاما ، عندما عدت إلى جواتيمالا ، كأمين عام للأمم المتحدة ، جرت محاولة تفجير قنبلة أخرى تستهدف حياتى . وقد انفجرت القنبلة ، وأودت بحياة امرأة وجرحت الرجل الذى كان يحملها ، بالقرب من القصر الجمهورى ، حيث كنا ضيوفا فى حفل أقامته رئاسة الجمهورية . ومرة أخرى ، أُبلغت أن مفجّرى القنابل لم يكن يهمهم من أكون أنا ؛ وكل ما كان يهم هو أننى شخصية مهمة أجنبية سيؤدى موتها بصورة عنيفة إلى إحراج الحكومة .

وكانت فترة بقائى فى جواتيمالا هى أفضل عطلة أشهدها لسنوات طويلة ، ولكنها لم تحقق شيئا لمصر . وفى اليوم التالى ، فى تيجوشيجالبا ، لم يكن الجنرال بوليكاربو باز جارثيا رئيس جمهورية هندوراس ، مهتما بطلبى ، غير أنه أعرب عن إعجابه بالرئيس السادات باعتباره من أعظم رجالات هذا القرن ذوى البصيرة . وأثناء وجودى ، وصل وزير الخارجية الفرنسى كلود شيسون ، إلى العاصمة . وبعد حفل عشاء ، تلا فيه وزير خارجية هندوراس ، وهو كولونيل ، أشعارا لجارثيا لوركا ، اجتمعنا ـ كلود شيسون وأنا ـ فى منتصف الليل . وأبلغته بالغرض من وجودى فى أمريكا اللاتينية ، وطلبت من فرنسا أن تشترك فى القوة المتعددة الجنسيات الخاصة بسيناء . وقد اعترت شيسون الدهشة حقيقة عند سماعه ذلك ، غير أنه لم يعلّق بشىء . إن دبلوماسية الليل ، ولاسيما فى الأماكن النائية مثل تيجوشيجالبا ، تكون فى أغلب الأحيان مثمرة بدرجة أكبر من اللقاءات الرسمية التى تتم فى وضح النهار . غير أننى فى هذه المناسبة ، لم أحصل على شىء من شيسون سوى وعد بأن ينقل طلبى للرئيس ميتران .

وفى ٥ أغسطس ، فى مكسيكو سيتى ، وجدت أن صديقى القديم جورجى كاستانيدا وزير الخارجية ، كان يتابع بصورة حميمة الأحداث فى الشرق الأوسط ، غير أنه لن يكون باستطاعة المكسيك الاشتراك ، حتى بشكل رمزى ، فى القوة المتعددة الجنسيات . وهكذا واجهت فشلا آخر . غير أنه فى صبيحة عودتى إلى القاهرة فى ٩ أغسطس ، أُبلغت بأن

كولومبيا قد وافقت على أن تكون جزءا من القوة المتعددة الجنسيات . وشعرت بسعادة هائلة . وبعد أسابيع لاحقة ، أعلنت أوروجواى أنها هى أيضا ، سوف تشترك فى القوة المتعددة الجنسيات . لقد التزم الجنرال بوعده . ولم تكن رحلتى إلى أمريكا اللاتينية رحلة وداع دبيلوماسى ، كما كان زملائى المصريون يمزحون ، بل كانت بداية لخطوات عملية من أجل تحقيق السلام بين مصر وإسرائيل .

وبحلول شهر سبتمبر ١٩٨١ ، كانت إسرائيل راضية عن قوة متعددة الجنسيات تتكون من الولايات المتحدة ، وفيجى ، ودولتى أمريكا اللاتينية . بيد أن الأمريكيين، وعلى وجه الخصوص وزير الخارجية ألكسندر هيج ، أراد ، كما عبر عن ذلك ، « بلدانا حقيقية » ، ومن ثم ، فقد فاتح الأمريكيون بلدان الجماعة الأوروبية ، وبصفة مبدئية من خلال وزير الخارجية البريطانى لورد (بيتر) كارينجتون .

كان رد فعل كارينجتون الأوّلى هو أنه ينبغى لبريطانيا أن تظل بعيدا عن محاولة من هذا القبيل كيما تبقى حرة سياسيا بشكل يتيح لها ممارسة ضغط على إسرائيل فيما يتعلق بالانسحاب من الضفة الغربية وغزة . بيد أنه تحت الإلحاح الأمريكى المتواصل ، أبلغت أربع دول فى الجماعة الأوروبية ، هى بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا وهولندا ، مصر فى مطلع شهر نوفمبر ، باستعدادها المساهمة بجنودها فى القوات والمراقبين المتعددى الجنسيات . وقد ألحقت الدول الأربع « إيضاحات» بموافقتها ، تذكر بصفة خاصة أن القرار الذى اتخذته يستند إلى السياسة المبينة فى « إعلان فينيسيا » الصادر عن الجماعة الأوروبية فى يونيو ١٩٨٠ . ففى تلك الوثيقة ، بيَّن الأوروبيون وجهات نظرهم إزاء عملية السلام الخاصة بالشرق الأوسط . وكانت تدعو إلى إقرار حق تقرير المصير الفلسطينى والمشاركة الكاملة لمنظمة التحرير الفلسطينية فى المفاوضات .

ولم يكن ذلك ، بطبيعة الحال ، مقبولا لدى إسرائيل . ولا كان مقبولا بالنسبة لوزير الخارجية الأمريكى هيج . فعندما أبلغ كارينجتون ، هيج فى ٤ نوفمبر ١٩٨١ ، بموافقة الدول الأربع على الاشتراك فى القوة والمراقبين المتعددى الجنسيات ، ردت الولايات المتحدة بأن الشروط الملحقة غير مقبولة ، وذلك لأن الأوروبيين ، على ما يبدو ، كانوا يحاولون وضع « إعلان فينيسيا » فى مركز متفوق على اتفاقيات كامب ديفيد ، وتفادى أى اعتراف بمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل . كان هيج يشعر بأن الوثائق الأوروبية سوف تحدث رد فعل متفجّرا من جانب مناحم بيجن . وكان هيج نفسه مستثارا ، وطلب من الأوروبيين وقف محاولتهم . وأبلغ كارينجتون أنه لا يريد حتى أن ينقل إلى الإسرائيليين

« القبول » الأوروبى للقيام بدور فى القوات والمراقبين المتعددى الجنسيات . وشعر أشرف غربال السفير المصرى فى واشنطن بأن كارينجتون يتناول المسألة بكاملها « بلهوجة » .

ومع ذلك ، ففى ٢١ نوفمبر ١٩٨١ ، بعث كارينجتون برسالة إلى هيج يبين فيها أن الدول الأربع سوف تشترك فى القوات والمراقبين المتعددى الجنسيات ، وأدرج جميع الشروط التى كانت الولايات المتحدة قد رفضتها . وفى ٢٣ نوفمبر ، حددت الدول الأربع موقفها علنا . وكان رد فعل إسرائيل متسما بالفزع ، كما ذكروا ذلك رسميا ، تجاه الموقف الأوروبى ، وأشاروا إلى مجموعة متنوعة من النقاط الإضافية غير المقبولة فى الوثائق الأوروبية ، من قبيل الاستعداد الواضح للدول الأربع بأن تعمل فقط على تأمين انسحاب إسرائيل من سيناء ، وليس أن تعمل ، بوجودها ، على ضمان حرية الملاحة عبر مضايق تيران . وأثارت هذه العبارة فى أذهان الإسرائيليين ذكرى انسحاب قوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة من سيناء فى عام ١٩٦٧ ، وهو حادث كانت إسرائيل تستشهد به دائماً بعد ذلك كدليل على عدم إمكان التعويل على عمليات حفظ السلم .

ومثلما كان بيجن يشير إلىّ باسم « بيتر » ، فقد بدأ الآن يشير إلى كارينجتون باسم « بطرس » ، وذلك كطريقة للتنديد ببريطانيا لأنها تسعى إلى خدمة القضية العربية . ورفض بيجن رفضا قاطعا المقترحات الأوروبية ووصفها بأنها « سخيفة ، ومهينة ، ومخزية ، ومتعجرفة » . وقال إن الحق الإسرائيلى ليس وحده هو الذى يتعارض مع الموقف الأوروبى . وقال أبا إيبان ملاحظا إنه « مقابل المائة جندى (الذين أعلن البريطانيون عن استعدادهم لإرسالهم) ليس هناك ما يدعو إلى قول ألف كلمة . إن الأمر يحمل المظهرية إلى حد بعيد بالنسبة لبلد طُلب إليه أن يؤدى مهمة محدودة ومتواضعة » . كان إيبان يشعر بأنه لم يكن من الضرورى بدءا أن توجه الدعوة إلى الأوروبيين ؛ لأنهم من وجهة نظره ، قد انسلخوا عن عملية السلام الخاصة بالشرق الأوسط من عام ١٩٧٣ . وقال : « وحيث إنهم يعملون على إعاقة التنفيذ ، فانهم يهيلون العراقيل على الولايات المتحدة الأمريكية » .

وسارع الأمريكيون إلى محاولة الخلاص من هذه المصيبة الدبلوماسية . وصاغوا على عجل بيانا أمريكيا ـ إسرائيليا مشتركا يؤكد مجددا أن القوة والمراقبين المتعددى الجنسيات سوف تستند إلى إطار كامب ديفيد : « إن أساس المشاركة فى القوة والمراقبين المتعددى الجنسيات هو معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل التى نشأت أصلا فى اتفاق وبروتوكولات كامب ديفيد الموقعة بين مصر وإسرائيل ، والتى كانت الولايات المتحدة الأمريكية شاهدا عليها فى ٣ أغسطس ١٩٨١ ، واستنادا إلى رسالة موجهة من الرئيس كارتر إلى الرئيس السادات ، ورئيس الوزراء مناحم بيجن مؤرخة فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ ».

وقد أبلغ إسحق شامير وزير الخارجية الإسرائيلى هيج بأن إسرائيل تعتبر هذا البيان الإمريكى ـ الإسرائيلى المشترك وسيلة لجعل الاشتراك الأوروبى ممكنا . واقترحت إسرائيل أن يرسل هذا البيان إلى الدول الأربع وأن يطلب إليها إعطاء « تأكيدها » له . وتوقفت هذه المحاولة نتيجة لمحاولة مناحم بيجن المفاجئة وغير المشروعة تماما التى جرت فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٨١ ، من أجل ضم ، أو تطبيق القانون الإسرائيلى على أجزاء من هضبة الجولان التى يحتلها الجنود والمستوطنون الاسرائيليون . ويبدو أن هذا الإجراء ، الذى لا يمكن تفسيره بظاهره ، والذى أدين عالميا باعتباره إجراء باطلا وغير مقبول ، قد اتخذه بيجن لتهدئة الراديكاليين داخل ائتلافه ، وركز كل الانتباه إلى الخطوات الدولية التى يتعين اتخاذها للرد على قرار بيجن .

ولم تخرج القوات والمراقبون المتعددو الجنسيات إلى حيز الوجود مرة أخرى حتى ٤ يناير ١٩٨٢ ، عندما كتب كارينجتون إلى هيج ليؤكد أن الدول الأوروبية الأربع « ليست لديها النية لالتماس وضع أى تفسير بشأن الاتفاقات المختلفة التى أبرمتها مصر وإسرائيل ، ولا بشأن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ذاتها » .

غير أنه وقع بعد ذلك ، واحد من تلك التحريفات فى النص والتى كانت تقطع من حين لآخر المسلك السلس للدبلوماسية على مر القرون . ففى الرسالة التى بعث بها كارينجتون إلى هيج ، لم ترد إشارة إلى الرسالة الأوروبية والبيان العلنى المؤرخين فى ٢١ و ٢٣ نوفمبر ١٩٨١ ، واللذين حدد فيهما الأوروبيون موقفهم على أساس « إعلان فينيسيا » ، والذى كان أمرا بغيضا بالنسبة للإسرائيليين . غير أنه فى رسالة كارينجتون إلى بيجن ، ذُكرت هذه الوثائق ، وإن كان ذلك بالإشارة إلى تواريخها فقط (« كانت موافقتنا قد أعلنت فى بيان صادر فى ٢٣ نوفمبر ١٩٨١ ») .

وقد حمل ذلك بيجن على الاعتقاد بأن كارينجتون يحاول التغلب عليه بالدهاء ، فانفجر غاضبا مرة أخرى ، ومرة أخرى ترنَّحت المحاولة وأصبحت على شفا الانهيار . وسارعت الولايات المتحدة إلى العمل . وسعى هيج إلى إقناع الأوروبيين بأن يستبدلوا بالنص الذى كانوا قد أرسلوه إلى بيجن النص الذى كانوا قد أرسلوه إليه . وأعلن الأوروبيون أنه ليس بوسعهم سحب نص كان قد سُلم بالفعل ، غير أن هيج حصل منهم على بيان يقول إنهم « لن يربطوا » اشتراكهم « بأى شروط » .

وسافر هيج إلى إسرائيل فى محاولة لإقناع بيجن بالموافقة على الاشتراك الأوروبى فى القوات والمراقبين المتعددى الجنسيات . ونجح فى ذلك ، ووافق مجلس الوزراء

الإسرائيلى فى ٣١ يناير ١٩٨٢ ، على الاشتراك الأوروبى . وفى أواخر شهر مارس ، تم توزيع القوات والمراقبين المتعددى الجنسيات . وكانت الدول الممثلة هى استراليا ، كولومبيا ، فيجى ، فرنسا ، إيطاليا ، هولندا ، نيوزيلندا ، أوروجواى ، والولايات المتحدة الأمريكية . وكان القائد العسكرى لهذه القوات فى سيناء ، هو اللواء فردريك بول هانسن من النرويج ؛ وكان المدير العام المدنى الذى يتخذ مقره فى روما ، هو ليمون (راى) هنت من الولايات المتحدة الأمريكية . ولم تستبدل القوات والمراقبون المتعددو الجنسيات أبدا بقوات تابعة للأمم المتحدة . وفى رأيى ، إن هذه القوات كان لها قيمة نفسية أكثر من قيمة فعلية ، وأنها كانت مطلوبة فقط لمرحلة انتقالية . غير أننا لم نستطع التوصل إلى طريقة لإنهاء مهمتها . بيد أن المعارضة القوية تجاه هذه العملية وتجاه عملية كامب ديفيد بكاملها ، قد ظهرت مرة أخرى بشراسة ، عندما اغتال الإرهابيون اليساريون هنت فى روما . وجاءت رسالة هاتفية من شخص ما يزعم انه يتحدث بلسان « الحزب الشيوعى المقاتل » ، تقول : « لابد لنا أن نعلن مسئوليتنا عن محاولة اغتيال اللواء هنت ، الضامن لاتفاق كامب ديفيد » .

بدء أوقات الشدة

فى مطلع عام ١٩٨١ ، كانت حملة الانتخابات الإسرائيلية على أشدها . وفى مايو ، عقدت اجتماعا مطولا مع ديفيد لانداو رئيس تحرير « *جيروزاليم بوست* » ، الذى كان يعتقد أن بيجن سوف يفوز فى الانتخابات ، وذلك بسبب اقتناع السادات الواضح بأن بيجن وحده هو الذى يستطيع أن يحقق السلام لإسرائيل . وكنت أعتقد أن العكس هو الصحيح . فقد كان بيجن قد استغل انتهاء مجابهة إسرائيل مع مصر لكى يتحول بدرجة أشد عدوانية تجاه أعدائه فى الشمال . وقد وصلت الأمور إلى حد الأزمة فى شهر أبريل ، عندما حرَّكت سوريا قذائف سوفيتية طراز « سام » إلى موقع قريب من زحله . وشعر العالم العربى ، بصورة يمكن فهمها ، بأن إسرائيل قد خدعت مصر وجرتها إلى سلام منفصل بغية إطلاق حرية إسرائيل للقتال فى مكان آخر . وفى ٧ يونيو ١٩٨١ ، دمرت طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى مرفقا نوويا عراقيا فى اوزيراك . وبدا نشوب الحرب بين إسرائيل وسوريا أمرا محتملا جداً . ولم تبرز صحف القاهرة معارك إسرائيل مع الدول العربية الأخرى ، فقد كنا نخشى أن تؤدى هذه الأنباء إلى تقويض التأييد الجماهيرى المصرى لعملية السلام . فلا تزال إسرائيل تحتل سيناء . ومن ناحية أخرى ، كنت أسعى إلى مساندة حزب العمل فى إسرائيل . فالبنسبة لى ، كانوا هم صانعى السلام الحقيقيين .

وفى ٣٠ يونيو ، عند منتصف الليل ، تلقيت مكالمة هاتفية من صديقى « إسرائيل جات » فى تل أبيب . لقد فاز حزب العمل فى الانتخابات الإسرائيلية ! وخرج بيجن من الحكم ! ولم يكن بوسعى إخفاء سعادتي ، وهنأت إسرائيل جات . وقرأ عَلَىَّ رسالة موجهة من شيمون بيريز ، الذى سيصبح الآن رئيسا لوزراء إسرائيل . وكان بيريز يطلب منى أن أتصل بالسادات فوراً وأن أطلب إليه إصدار بيان لصالح فوز حزب العمل . واعترضت قائلا : « ولكن يا صديقى العزيز ، إننا بعد منتصف الليل » . وأضفت : « إننى لا أستطيع إيقاظ رئيس الجمهورية فى هذه الساعة » . ولكنه ألحَّ علىَّ : « نحن نعرف أن السادات يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، وأنت لديك خط ساخن إلى رئاسة الجمهورية . نرجو أن تفعل ذلك ! وسوف أعود إلى الاتصال بك بعد عشر دقائق لمعرفة ما الذى قرره الرئيس السادات » . وقبلت المهمة التى كلفنى بها ، واتصلت هاتفيا فى تردد بالسادات . وقلت للضابط النوبتجى إنه أمر عاجل جدا . وبعد لحظة ، كان السادات على الخط .

« يا بطرس ، ما هو الشىء المهم جدا بالنسبة لك الذى يجعلك تتصل بى هاتفيا فى منتصف الليل ؟ » . وقلت إنها رسالة مهمة من شيمون بيريز . لقد فاز حزب العمل فى الانتخابات ، ويريد رسالة تأييد . وساد الصمت . واستطعت أن اسمع السادات وهو يعبر عن دهشته بسلسلة من التنهدات والهمهمات : آه ، آه ، همَ ، همَ ؛ أوه أوه . ومرت دقيقة تقريبا . « سيدى الرئيس ، بماذا أجيب ؟ فسوف يتصلون مرة أخرى بعد عشر دقائق ! » .

وتوقف السادات عن النحنحة والهمهمة ، وقال بصوت حازم آمر : « اسمع يا بطرس ، أنت حاولت الاتصال بى هاتفيا ولكنك لم تستطع الاتصال ، وإن شاء الله ستحاول غدا مرة أخرى » .

وبقيت يقظا انتظر دون جدوى المكالمة الثانية من إسرائيل . فقد غيرت النتائج النهائية للانتخابات ما سبق اعلانه . لقد فاز بيجن . وفى صباح اليوم التالى ، حرصت على تفادى عين السادات . وبعد مضى بضعة أيام ، بحثنا نتائج الانتخابات الإسرائيلية ، غير أنه كان كريم النفس جدا بحيث إنه لم يذكرنى بالمكالمة الهاتفية الليلية . وبعد فترة طويلة من الوقت ، وأثناء حديث بشأن موضوع آخر ، نظر إلىّ وقال بابتسامة قصيرة : « لم يستطع أصدقاؤك الإسرائيليون الفوز فى الانتخابات ، اليس كذلك ؟ . وأبديت ملاحظة فى تهيب ، وقلت إن موقف الرئيس قد أسهم فى هزيمتهم . فرد قائلا : « يا بطرس ، إن موقف مصر هو الحياد التام . ونحن لا نتدخل أبدا فى شئون دولة أُخرى » .

وفى يوليو ١٩٨١ ، قصفت الطائرات النفاثة المقاتلة الإسرائيلية عن عمد أهدافا فلسطينية فى لبنان . وفى اليوم السابع عشر ، قصفت بيروت أثناء غارة أسفرت عن مقتل نحو ثلاثمائة شخص ، وأصابت ثلاثة أضعاف هذا العدد بجراح . وبالرغم من ذلك ، مضى السادات فى محاولته إنجاح عملية السلام . وفى ٣ أغسطس ، فى واشنطن ، وقعت مصر وإسرائيل الاتفاق الخاص بوضع القوات والمراقبين المتعددى الجنسيات فى سيناء . وفى مطلع شهر سبتمبر ، تم الاتفاق بين بيجن والرئيس ريجان فى واشنطن على مبدأ أمريكى - إسرائيلى جديد ، أطلق عليه اسم « التعاون الاستراتيجى » ، بما فى ذلك المناورات العسكرية المشتركة . وتعالى عواء المعارضة العربية لمصر لشعورها بالإحباط .

وفى نهاية شهر أغسطس ، استقبل الرئيس المصرى بيجن ، وشارون ، وفريق الليكود بكامله ، استقبال الظافرين ، فى الإسكندرية . ورحب بهم السادات بحرارة ، واستضافهم فى القصر السابق لولى عهد الملك فاروق ، الأمير محمد على ، وهو قطعة رائعة من الفن المعمارى العثمانى القريب العهد مشيّد فوق تل صغير يطل على البحر . وفى ٢٦ أغسطس ، توصلوا إلى اتفاق مع السادات على استئناف محادثات الحكم الذاتى .

وحينذاك كان السادات قد أصبح محل هجوم حاد لاهوادة فيه من جانب الأصوليين المسلمين . وكانت خطب الصلاة فى المساجد تندد به كل يوم جمعة . وكان السادات مندفعا فى التعامل مع المعارضة المصرية الداخلية ، وأصدر أوامره بإجراء حركة اعتقالات بين الإخوان المسلمين . وقرر قطع العلاقات تماما مع الاتحاد السوفيتى . وكنت أنا الوحيد ، فى اجتماع مجلس الوزراء المعقود يوم ١٥ سبتمبر ، الذى انتقد قرار السادات . وأوضحت أن الاتحاد السوفيتى والصين ، مع أنهما فى غمرة مجابهة أيديولوجية ، وحتى عسكرية ، كبيرة ، فإنهما يبقيان على علاقاتهما الدبلوماسية . فما هى الضرورة التى تدفع مصر إلى طرد المبعوث السوفيتى وَفقْد هذه القناة من قنوات الاتصال ؟ وقد دُهش زملائى من تجاسرى . ولم ينصت إلىّ أحد .

لم تَنْج أى مجموعة من سورة غضب السادات . فقد اعتكف البابا شنوده ، بطريرك الأقباط ، فى خلوته فى دير وادى النطرون ، وهو دير فى الصحراء . وأعلن السادات أنه يجب أن يبقى هناك محددة إقامته ، ومنعه من إدارة شئون الكنيسة القبطية . وعيّن السادات خمسة أساقفة لتولى شئون الكنيسة بدلا من البابا شنوده . ويبدو أن السادات ، بعد أن ضرب على أيدى الأصوليين الإسلاميين ، خلص إلى أنه ينبغى له أن يظهر الموقف المتشدد ذاته تجاه المسيحيين الأقباط .

وكنت أخشى أن يلجأ السادات إلى خلع شنوده ويستبدل به أسقفا من اختياره . إن تحديد الإقامة فى الصحراء يطرح صورة سيئة عن مصر فى الخارج ، غير أن النقطة الأساسية هى الحفاظ على وضع شنوده باعتباره الزعيم الروحى للأقباط .

وفى مواجهة هذه الأزمة القبطية ، وكنت أعمل من وراء الستار من خلال موسى صبرى ، ألححت على السادات أن يستقبل وفدا قبطيا ، بمن فيهم ابن عمى ميريت بطرس غالى ، ومجدى وهبه فى منزل فى قريته مسقط رأسه . وكان هناك غرضان فى ذهنى : حماية السادات من الرأى العالمى السلبى ، ولإيضاح أنه يجب ألا يتدخل فى شئون الكنيسة القبطية . وفى اجتماع القرية ، أمر السادات بإعداد طعام نباتى لمن كانوا صائمين من الأقباط . وقد بحثوا معه العلاقات بين الدولة والكنيسة ، وتم التخفيف إلى حد ما من التوترات ، بيد أن البطريرك لم يُخْلِ سبيله . وقد أوفدنى السادات برسالة إلى بابا الفاتيكان . وقد نقلت هذه الرسالة الموقف المصرى الرسمى القائل بأن شنوده قد توجَّه إلى الدير لأسباب تتعلق بالأمن وأن اعتكافه لا يُقلِّص من سلطته الروحية كرئيس للكنيسة القبطية . وقد استقبلنى الأب الروحى فى كاسل جاندونفو ، وقرأ الرسالة دون تعليق . ولم يكن مقتنعا برسالة السادات ولا بما أقوله .

عودة دكتور بورج

بالرغم من عدم مبالاة الرأى العام أو موقفه المعادى تجاه فكرة المفاوضات مع إسرائيل ، فإننا استأنفنا محادثات الحكم الذاتى فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨١ . ولقد شعرت بالإحباط جدا لدرجة أن فكرة استئناف المحادثات ذاتها كانت باعثة على الاكتئاب .

وقد وصل دكتور بورج لأول مرة إلى القاهرة ليس على متن طائرة خاصة للحكومة الإسرائيلية ، بل على رحلة مجدولة لشركة طيران « العال » الإسرائيلية . وكان برفقته نسيم وشارون ، ونائب جديد لوزير الخارجية ينحدر من أصل أمريكى ، يهودا بن مائير . كان بورج قد زاد وزنه ، وبدا مرهقا ونافد الصبر . وبدأنا على الفور فى مناقشة جدول الأعمال وسرعان ما وصلنا إلى طريق مسدود .

وفى اليوم التالى ، وصلت إلى فندق مينا هاوس فى ساعة مبكرة ، واستأنفت حديث الليلة السابقة فى غرفة بورج . واستمر الخلاف ذاته . وكنت أرى أن اتخاذ تدابير من أجل تغيير نوعية الحياة فى الأراضى المحتلة يعتبر أساسا مهما تستأنف عليه المفاوضات فى جو جديد . وكان بورج يرى أن هذا الموضوع خارج اختصاص المحادثات . وتناولنا جميعا الغداء فى شرفة فندق مينا هاوس . وجلست إلى جوار شارون ، وأثرت معه مسألة مصادرة

إسرائيل للأراضى الفلسطينية . وبين ملء الفم بالأرز والسمك ، قال : « إن هذا كذب » . وأطلعته على برقيات وكالة الأنباء الفرنسية الواردة صباح ذلك اليوم والتى تضمنت التفاصيل . وقال وهو يلتهم طعامه : « إن هذه كراسة دعاية فرنسية » . وأضاف أن « الفرنسيين معادون للسامية ، ويجب ألاَّ تصدقهم » . ولم يستطع بورج الذى كان يتابع هذا الحديث أن يتحمل هذه اللغة . وتدخل مستشهدا بعبارة قالها جوته : « إننى الروح التى تجحد دائماً » .

وبعد الظهر ، وبعد مفاوضات مضنية ، توصلنا إلى حل وسط . فبدلا من اعتماد جدول أعمال ، نقوم بإعداد بيان مشترك ، تُذكر فيه جميع الموضوعات بطريقة السرد . ومن ثم ، فإننا نقول إن شارون قد بَيَّن التدابير المتخذة من أجل إنشاء جو جديد من الثقة بين الفلسطينيين ، ونقول إن تدابير تتخذ من أجل تشجيع الفلسطينيين على الاشتراك فى عملية السلام وفقا لاتفاقات كامب ديفيد .

وفى المساء ، وأثناء تناول الشراب ، أجريت حديثا صحفيا مع صديقى القديم ديفيد لانداو . وأعتقد أنه قد عانى أكثر مما تحمّلت أنا من معاناة نتيجة لوجود الليكود فى هذه المفاوضات . وقد أنقضَّ علىّ صحفى إسرائيلى آخر بعد تناول العشاء ، وسأل : « هل حسبتم تكاليف هذه المفاوضات - من سفر ، وحفلات استقبال ، وحفلات عشاء وغداء ؟ » . فرددت عليه : « بالتأكيد أقل من تكاليف أى استعراض عسكرى أو صيانة دبابة » .

وكانت جلسة اليوم التالى مضنية . فقد نشب بيننا شجار حول نص البيان المشترك . وتدخل سام لويس السفير الأمريكى لدى إسرائيل ، بمهارة من أجل إنقاذ ماء وجه الجميع . وهمس كمال حسن على فى أذنى بحلول وسط . وقلَّد صوت السادات : « يا بطرس ، بطَّل تغيظ الإسرائيليين » . وقررنا تأجيل البيان المشترك إلى ما بعد القيام برحلة نيلية . كان النيل وقت الغسق جميلا بلا حدود . وكان لريف مصر الذى يشبه الرسم الزيتى الفرعونى على الجص ، القدرة على إشاعة الهدوء فى نفوسنا بينما كنا نبحر بالمركب فوق النهر إلى المعادى . غير أنه عندما رجعنا إلى فندق مينا هاوس دخلنا فى الشجار مرة أخرى ، وخرجنا بحل وسط أخرق من أجل تغطية فشلنا . وأحسست بالمرارة والإحباط . لقد كنت أفضل التفاوض مع بيريز ، رابين ، إيبان . ولكن ذلك لم يكن ممكنا .

نهاية الاستعراض

منذ أن اقتحمت القوات المصرية خط بارليف الإسرائيلى على جبهة سيناء ، كان يقام استعراض عسكرى كبير كل عام فى السادس من أكتوبر - وهو يوم الاحتفال بأروع أيام بطولتنا . ولقد كنت شديد الحساسية دائما إزاء مثل هذه الاستعراضات وكنت أدبر لسفرى إلى الخارج فى كل مناسبة من هذا القبيل . بيد أنه فى هذه السنة كنت فى القاهرة ، وتعرضت لضغط شديد من أجل الحضور . وقيل لى انه من غير المعتاد إلى حد كبير ألا يحضر وزير فى مثل هذه الظروف . غير أننى كنت متعبا وأردت تمضية عطلة نهاية الأسبوع فى الاسكندرية . وكانت المدينة خالية فى مثل هذا الوقت من السنة ، وكان الطقس لطيفا والبحر جميلا . وكنت قد تقابلت مع قرينتى فى الإسكندرية ، وكان الحنين إلى الماضى طاغيا . فسوف نقيم مع أصدقائنا من أفراد أسرة وهبة .

وأبلغت الفريق كمال حسن على بقرارى . وعاتبنى بطريقة تتسم بالمودة . قال : « إننى أدرك أنك مرهق ، غير أنك إن لم تحضر الاستعراض العسكرى ، فسوف يلاحظ الريس غيابك ، وتخاطر باستيائه منك . وقلد صوت السادات ، وهو يقول : « يا بطرس ، يا بطرس » . وضحكنا معا . وألح عَلَىَّ مرة أخرى : « حاول أن تكون فى الاستعراض . إن الرئيس يعلق أهمية كبيرة على وجود جميع الوزراء ، وسوف يُساء تفسير غيابك . إننى رجل عسكرى . وأؤكد لك أن لدينا حساسية إزاء مواقف المدنيين تجاهنا » .

ولم آخذ بنصيحة الفريق كمال . فقد كنت أريد بضعة أيام من الراحة . وسافرنا - « ليا » وأنا - إلى الإسكندرية بالسيارة . وحاولت التخفيف من ندمى ، وقالت : « لن يلحظ غيابك أحد من بين هذا الحشد من الشخصيات الكبيرة والدبلوماسيين الذين سيكونون مشغولين بمشاهدة الاستعراض » .

ولقد أسعدنا لقاء آل وهبه . وبعد العشاء ، دار حديث ممتع ، حيث واصلت حوارا كان قد بدأ منذ أربعين عاما مع مجدى وهبة ، عندما كنا طلابا فى كلية الحقوق . فقد طرح مجدى رأيا يقول إن « نظام الحكم يخسر بسرعة . وإن السادات فقد شعبيته وكل مصداقيته . إن الاعتقالات التعسفية للأصوليين ، والوفديين ، ومحمد حسنين هيكل ، قد جرت من منطلق الانتقام الشخصى للسادات أكثر من كونها لأسباب تتعلق بالدولة . إنك فى السلطة ؛ ولذلك فأنت معزول فى برج عاجى . لقد فقدت كل الاتصال مع الواقع السياسى . وقد تتداعى سياستك الخارجية إن لم تأخذ فى اعتبارك ما يحدث داخل هذا البلد » . وامتد حوارنا حتى ساعة متأخرة من الليل بالرغم من تدخل قرينتينا ، اللتين كانتا تصران على أنه لا ينبغى الحديث فى الشئون السياسية فى يوم العطلة .

وفى يومنا الثانى البهيج فى المنتزه ، كان الشاطىء خاليا . وكانت شمس الخريف تشيع الدفء فى أجسادنا بلطف ، وكان البحر هادئا . كان الجو شاعريا . وكان مجدى وهبه أحد المعجبين بالشاعر السكندرى قسطنطين كفافى . وكان لدىّ ، أنا الآخر ، بعض أحاسيس الشاعر . وقد بدا لى البحر كما لو كان يحتفظ فى عظمته بتاريخ الاسكندرية كله . وانتابنى إحساس بالاكتمال والرفاهة . وكنا ، ونحن فى رداء السباحة ، مستلقين على مقاعد طويلة ، نتناول طعام الغداء ، نتكلم بهدوء مثلما يتحدث الأصدقاء القدماء . وتوقفت سيدة ، متقدمة فى السن ، أمام مجموعتنا ، وتساءلت : « أنت الوزير بطرس غالى ، أليس كذلك ؟ » .

وأجبت : « نعم يا سيدتى أنا ، ما الذى استطيع أن أقدمه لك ؟ » .

وردت : « هل استمعت إلى راديو مونت كارلو ؟ لقد وقع حادث خطير صباح اليوم أثناء الاستعراض العسكرى ، الذى كان قد توقف » .

وقلت : « يا سيدتى ، لا تستمعى إلى الإذاعات الأجنبية ، إنها متحاملة » .

وتركتنا السيدة ، والتفتنا مرة أخرى ناحية البحر وصفو اليوم . ثم ظهرت السيدة من جديد ، وقالت : « إننى آسفة لإزعاجكم مرة أخرى يا سيدى الوزير ، ولكن إذاعة « البى . بى . سى . » قد أكدت لتوها أن حادثة خطيرة قد وقعت أثناء الاستعراض العسكرى » .

وفتحنا محطة الإذاعة المصرية ، التى أكدت أن الاستعراض العسكرى قد انتهى ، غير أنها لم تذكر أى شىء غير مألوف .

وعادت السيدة المسنّة للمرة الثالثة ، وكانت أشد إصراراً : « هذه المرة هى إذاعة « صوت أمريكا » ، التى تؤكد ما سمعته لتوى » .

وفجأة اظلمّ الجو ، وأصبحت مشحونا بالتشاؤم . وخطر ببالى بعض أشعار كفافى :

لماذا هذا القلق والاضطراب المباغت ؟
(كيف أصبحت وجوههم جادة .)
ولماذا تخلو الشوارع والميادين بسرعة ،
ويعود الجميع إلى منازلهم وهم غارقون فى الفكر ؟

وقررت العودة إلى المدينة . غير أن السائق والحراس كانوا غائبين ، حيث إننا كنا

نعتزم تمضية اليوم على الشاطىء . وقد نصحونى بعدم ركوب سيارة أجرة . ووجدنا صديقا ، أعادنا إلى مقر إقامة أسرة وهبة ، حيث كان ضباط الأمن ينتظرون عند الباب . قالوا إن وجودى مطلوب فى القاهرة ، ومن الأفضل ألاّ تعود بالسيارة ، بل تستقل قطار السادسة حيث حجزت لك مقصورة . وأضافوا : « إننا نعرف بالضبط ما حدث فى القاهرة ، محاولة انقلاب ؛ والحالة خطيرة » .

وفى محطة السكك الحديدية ، أحاط بى أربعة من الحراس ، اصطحبونا إلى المقصورة التى كانت محجوزة لنا . وأصبحت الأنباء أكثر دقة . لقد جرت محاولة لاغتيال الرئيس السادات ، الذى أصيب بإصابات خطيرة ، ونقل بالطائرة المروحية إلى المستشفى العسكرى فى المعادى . وتوقف القطار فى بنها ، وهى تقع على مسافة ساعة من القاهرة . واقترب منى أحد الحراس وأعلن وفاة السادات فى المستشفى . وبدلا من أن يتركنى بمفردى ، فقد أصر على البقاء إلى جانبى . ويبدو أنه كان يريد معرفة رد فعلى . وحاولت كبح دموعى ، غير أننى لم أستطع التغلب على عواطفى ، وانفجرت باكيا . وتراءى أمامى المرة تلو المرة ، كما لو كان فيلما قديما يعاد عرضه مرة بعد أخرى ، منظر السيدة المسنة التى تظهر على الشاطىء حاملة الأنباء . وتفتت صورتها إلى أن بدت كما لو كانت ثلاث ساحرات تحذرنى من وقوع مصيبة مقبلة فى مصر . وتزاحمت الصور والأشباح الواحدة بعد الأخرى فى رأسى . وتذكرت الوقت الذى أدينا فيه الصلاة فى المسجد الأقصى فى القدس عندما كنت خائفا من الاغتيال . والآن ، بعد مضى أربع سنوات ، حدث ما كنت أخشاه . لقد قتل السادات نفس النوع من المتعصبين الذين قتلوا جدى فى عام ١٩١٠ . ومثل النبى موسى ، لن يرى السادات الأرض الموعودة . ولن يشهد عودة سيناء ، الحلم الكبير الذى خاطر وضحى من أجله كثيرا جدا .

لقد أصبح الصرح بكامله الذى شيدناه بكل العناء مهددا بالانهيار . فهل سينسحب الإسرائيليون من سيناء بعد اختفاء السادات ؟ فبالنسبة للإسرائيليين ، لم يكن السادات هو مصر ؛ لقد كان شخصا منفصلا . ولقد أمضيت شهورا وشهورا شارحا أن السادات هو مصر . وكانوا يتساءلون : « لو أن السادات اختفى ، فهل ستواصل مصر سعيها من أجل السلام ؟ » . والآن ، سوف توضع التطمينات التى كنت قد قدمتها ، موضع الاختبار . هل ستتم خلافة السادات فى سلام ؟ وهل ستمضى إسرائيل فى انسحابها من سيناء ؟ لقد قتل السادات أشخاص يكرهون بحماس فكرة السلام مع إسرائيل .

وبالرغم من هذه المخاوف ، كنت أشعر بالقلق إزاء الأصداء الدولية لهذا الحادث

المروع بدرجة تفوق قلقى إزاء الأصداء الداخلية . ووجدت سيارتى تنتظر عند محطة السكك الحديدية فى القاهرة ، وتوجهت مباشرة إلى وزارة الخارجية ، حيث وجدت الفريق كمال حسن على . وتعانقنا فى صمت . ثم قال : « إنها خسارة لا تعوض ، لقد كانت مؤامرة عظيمة الخطر جدا » .

وكان سؤالى الأول هو : « هل تسلل الأصوليون إلى صفوف الجيش ؟ » .

ورد كمال بسرعة : « إن الجيش لن يُلوّثه أبدا الأصوليون ولا الشيوعيون . إن الجيش شديد الولاء لوطنه فى المحل الأول » . ثم تمهل فى حديثه ونظر إلـىّ ، وقال لقد أفلّت واستشهد بقول شعبى : وهذا « ببركة دعاء الوالدين » . وأضاف : « أنت محظوظ لأنك لم تحضر الاستعراض العسكرى ؛ لقد كان هناك عدد كبير من القتلى والجرحى فى مقصورة الرئاسة » . ثم قال بابتسامة تهكمية : « لقد كانت مؤامرة على المستوى الوطنى . لقد عثرنا على قائمة تضم أسماء الشخصيات التى كان مقررا اغتيالها . هل تعرف من كان فى أول القائمة ؟ إنه بطرس غالى . ومن هو الشخصية الثانية ؟ كمال حسن على » . وضحكت . « إنه تمييز ـ لماذا تكون أنت الشخصية الثانية ؟ » . وضحكنا بحسرة على سوء حظ بلدنا .

وعندما تهيأت للمغادرة ، عانقنى مرة أخرى وقال : « غدا نبدأ معركة جديدة ، معركة أصعب من المعارك التى خضناها معا من قبل » .

وبعد عودتى إلى المنزل ، تأملت منظر النيل ، الذى يتدفق دون مبالاة بالأحداث ، إنه النهر الإلّهى الذى كان يقدسه أجدادى ، والذى أتطلع إليه بكل الحب والاحترام من نافذتى عند الفجر ووقت الغروب كل يوم . إن صفحة من تاريخ مصر ، الذى يمتد آلاف الأعوام ، قد انطوت فى ذلك اليوم بوفاة السادات . وعاودتنى أسطورة سيسيفوس التى تستحوذ عَلـىّ منذ شبابى مرة أخرى . وسوف يتعين عَلـىّ أن أدحرج الصخرة إلى أعلا الجبل مرة أخرى ، وفى هذه المرة ، بدون السادات ، سيكون الطريق فيما وراء القدس ، شديد الانحدار . لكن مصر ، مثلما فعلت منذ فجر الزمان ، ستقدم قائدا جديدا للسلام .

الفهـرس

(ب)

(ح)

(خ)

(ش)

(ص)

(ض)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(م)

رقم الإيداع

١٩٩٧ / ٥٦٢١

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

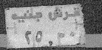
يعتمد هذا الكتاب على يوميات المؤلف الدكتور بطرس بطرس غالى الأمين العام السابق للأمم المتحدة ، والتى تزيد على ألف صفحة مودعة فى مؤسسة هوفر بجامعة ستانفورد ؛ حيث يمكن الاطلاع عليها بعد عشر سنوات . وهو أول تقرير مصرى كامل عن خبايا وأسرار ما جرى فى كامب ديفيد كتبه من قيل عنه إنه « المهندس الأكاديمي » لهذه الاتفاقيات . والكتاب كما يقول الرئيس الأمريكى الأسبق كارتر « وصف للمؤامرات والمناورات التى جرت وراء الستار » ، ويحكى كيف تصدى الوفد المصرى ، أو « عصابة » وزارة الخارجية كما أطلق عليهم الإسرائيليون ، لإحباط مخططات إسرائيل ، ويبين الخلافات العنيفة التى ثارت بين الرئيس أنور السادات ووفده ، وكذلك التناقضات بين الوفد الإسرائيلى وصراعاته الداخلية . وكان للمؤلف فى ذلك دور حاسم باعتباره وزير دولة للشؤون الخارجية وقائما بأعمال وزير الخارجية (٧٧ - ١٩٩١) .

والكتاب ملىء بالحكايات والطرائف التى تكشف عن شخصية وأسلوب عدد كبير من قادة العالم : تيتو وكاسترو وسنغور وعيدى أمين وسياد برى ومنجستو .

والدكتور بطرس بطرس غالى لا يكاد يحتاج إلى تعريف فقد نهض فى حياته بمسؤوليات وأعباء جسام أكسبته شهرة ومكانة مرموقة سواء فى المجال الأكاديمى ، أو فى العمل السياسى ، أو فى منصبه كأمين عام للأمم المتحدة (٩١ - ١٩٩٦) .

وإذا كانت السياسة قد استأثرت بجهد كبير من الدكتور غالى فى السنوات العشرين الأخيرة ، فقد كان أبرز معالم حياته هو العمل الأكاديمى أستاذا فى الجامعات المصرية والأجنبية ، ومؤلفا لعدد كبير من الكتب ، ومشاركا فى مجتمعات ومجامع علمية ودولية ، كما أنه رأس تحرير مجلتى « السياسة الدولية » و « الأهرام الاقتصادى » واختير عضوا بالبرلمان المصرى .

الناشر





مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام



التوزيع فى الداخل والخارج - وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب